علوم البلاغة في القرن العشرين

(البيان والبديع)

تأليف

عمر مصطفاي

مراجعة وتقديم

الدكتور عبد الرحمن أخذاري

obeikan.com

الإهداء

إلى الوالدين الكريمين.. إلى الغالية زوجتي، وإلى ولدي العزيز محمد سراج الدين.. إلى كافة أفراد أسرتي، وأخصّ بالذكر العزيز أبا بكر.. إلى روح أخي الغالي أحمد.. إلى كل أصدقائي.. إلى كل سكان مدينتي "عين وسارة"، وأخصّ بالذّكر الأستاذ القدير، والأديب الكبير الحاج بونيف.. إلى الصديق المَجيد والشاعر المُجيد: محمد جربوعة.. إلى الأخ العزيز محمد لمين حمودي، والأصدقاء: كمال ديبس، وعيسى لوقيل، وعزوز حرشاوي، ونوّار قاسمي.. إلى كل زملائي: أساتذة مفدي زكريا، وطاقمها الإداري، وأساتذة عبان رمضان.. أهدي ثمرة هذا العمل.

obeikan.com

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لا علم لنا إلا ما علّمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعْنا بما علمتنا، وزدنا علما. أمّا بعد: أضع بين أيدي قرائنا الأعزّاء، ومثقفينا الأجلّاء، وبخاصة عشاق البلاغة العربية ثمرةَ هذا المجهود.

هو كتاب يبلور رؤية جديدة لعلم البلاغة العربية، فهو يشكّل (تحديثا) عصريًا لدروس البيان والبديع، تمَّ فيه تجاوز شواهد الأدب القديم المناسِبة فقط لبيئة العصر آنذاك، والتركيز على النماذج الرفيعة، والشواهد البديعة لشعراء وبلغاء العصر الحديث، هذا بالإضافة إلى اعتمادي على طريقة تحليل يسيرة، تضاف إلى يُسر شواهد الكتاب وبلاغتها، وتلك صفتان من شأنهما كشف ملامح الجمال والسّحر في بلاغتنا العربية الحديثة والمعاصرة.

كما من شأنهما إصلاح ذات البَيْن بين أجيالنا المعاصرة وهذا العلم الذي ابتُلي بتَكرار شواهد ونماذج بلاغية قديمة، تتوفر على نصيب وافٍ من الغموض والتعقيد.

ورحم اللهُ أحمد أمين إذ قال: "إنّ الأدب القديم نتاج عصر قديم، وصورة من صوره، ونابع من بيئته، والطالب الحديث لا يستطيع أن يتذوق نتاج عصر مضى عليه ألف سنة أو تزيد، فإذا كلفناه قراءته ودراسته فقد كلفناه تجرع المُرّ، وهو لا يقبل عليه ولا يستسيغه ويتجرعه ليلقيه في ورقة الامتحان، ثم لا يبقى منه شيء إلا الذكرى السيئة، فأولى أن نعلّمه الأدب الحديث، ونُقرئه الكتب الحديثة، فهي التي يستسيغها، وهي التي يشعر بها، وهي التي تعبر عن بيئته وزمنه، أمّا الأدب القديم فيدرسه من يتخصصون بعدُ لدراسة الأدب العربي، واللغة العربية."

من أجل ذلك جاء كتابنا (علوم البلاغة في القرن العشرين) تتويجًا لرحلة طويلة استغرقتْ عَقْدًا كاملا من الزمن، قضيتُه في البحث والتنقيب داخل (مناجم) الأدب العربي الحديث والمعاصر، أملًا في أن أقدّم للقارئ العربيّ وجها آخرَ مختلفًا ومغايرًا لعلوم البلاغة العربية.

وفي الأخير أودُّ القول إنّي لست أدّعي العصمة من الخطأ، أو البراءة من الزلل، فلله وحده الكمال، وهو وليّ التوفيق.

المؤلف

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العليم الحكيم، يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، والصلاة والسلام على نبينا محمد، أتاه الله جوامع الكلم، وجعله هدى ورحمة لجميع الأمم، وبعد:

فقد أسعدني أخي عمر مصطفاي إذ طلب مني تقديما لكتابه هذا، والحق أنه فاجأني، فما كنت أحسب أنّ في المدينة رجلا يجشم نفسه عناء التأليف في زمن انغلق - أو كاد- بابه، وزهد في العلم طلابه..

وقد ظننت الرجل ألّف في النحو كعادته، إذ طالما كنا في شلةٍ أيام الطلب، نتدارس مسائله وأبوابه، نجتمع متنافسين، يشحذ كلٌّ منّا جوابه، ويؤلّب أحزابه، ونفترق متوادّين، نلوك مرارة الخطإ، ونلتذّ حلاوة الصواب..

لكنّ عمر فتن بالبلاغة، وهمّ بها، وهمت به، فهامَ في أودية الشعر، يقتنص أوابده، وارتقى منابر النثر، يقتطف فرائده، ونضّد من هذه وتلك جواهر، يخطب بها فاتنته، ويقدمها مهرًا لها، فجاء كتابه (علوم البلاغة في القرن العشرين) تتويجا لجهد عشر سنوات من البحث والتنسيق، ومن الدرس والتدقيق، ومن الصبر والمثابرة.

ولقد أريد لهذا الكتاب أن يكون نبراسا للطلاب، يقتبسون منه علم البلاغة، فمهّد القاعدة تمهيدا، ونضّد الشواهد تنضيدا، ولا بأس أن أسجل هنا ملاحظتين:

الأولى كثرة الشواهد، وقد علمت أنّ الكاتب أراد أن يجعل من كتابه بنكا يستمدّ منه القرّاء بدائع الأدب، وأحسبه نال مراده، إلا أنّ هذا الأمر قد يُخرج الكتاب عن الغاية التي من أجلها ألّف، وقد نصحت له أن يقتصد في الشواهد ما وسعه ذلك، فإنْ فعل- ولا أحسبه إلّا فاعلا- فأرجو أن ينال الحُسنيين.

والثانية الاكتفاء بشواهد الأدب الحديث، دون العودة إلى الأدب القديم، وأرى أن لا بأس في هذا، ما دام الشاهد بليغا فصيحا، وفي هذا تبيين لبلاغة العصر الحديث، ثم إنّ في كتب البلاغة الأخرى وهي كثيرة غناء أيّ غناء..

هذا وأرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب الطلّاب، ويمتع به القرّاء، وأن يكتب له القبول.. فجزى الله خيرا مؤلفه وناشره.. والسلام عليكم.

25 ديسمبر 2016

الدكتور عبد الرحمن أخذاري
جامعة الجزائر

obeikan.com

obeikan.com

علم البيان

التَّشْـبِيه

تعريف التشبيه في اللغة: "مَعْنَى التَّشْبِيهِ فِي اللُّغَةِ: التَّمْثِيل، تَقُولُ: شَبَّهْتُهُ إِيَّاهُ وشَبَّهْتُهُ بِهِ تَشْبِيهًا: مَثَّلْتُه"[1].

فاللغة كما رأيت لا تفرق بين التشبيه والتمثيل.

التَّشْبِيه في الاصطلاح: قَدْ يُقِيمُ البَلِيغُ مُمَاثَلَةً، هِيَ في الحقيقةِ تَصْوِيرٌ مِنْ جِهَةِ المعنى، يَقُومُ عَلَى مُقَارَنَةِ شَيْءٍ بِآخَر، كَمُقَارَنَةِ الحِكَمِ بِالدُّرَرِ فِي قَوْلِ مَعْرُوفٍ الرُّصَافِيّ:

لَهْفِي عَلَى حِكَمٍ مَا زِلْتُ أَنْثُرُهَا ... دُرًّا ثَمِينًا وَمَا فِي القَوْمِ مُلْتَقِطُ

أو مُقَارَنَةِ الصَّهَايِنَةِ بِالغُبَارِ المُرّ، وبِالحَشَرَاتِ فِي قَوْلِ مَحْمُود دَرْوِيش:

أَيُّهَا المَارُّونَ بَيْنَ الكَلِمَاتِ العَابِرَه

كالغُبَار المُرّ، مُرُّوا أَيْنَمَا شِئْتُم، ولكنْ

لا تَمُرُّوا بيننا كالحَشَرَاتِ الطَّائِرَه.

أَوْ مُقَارَنَةِ الأَدِيبِ بِالنَّسِيمِ فِي قَوْلِ البَشِيرِ الإِبْرَاهِيمِيّ: "إِنَّ الأَدِيبَ كالنَّسِيم، يَحْمِلُ العَبِيرَ أَيْنَمَا سَار".

وقد وردت للتشبيه عدة تعريفات، تختلف في وضوحها ودقتها وشمولها:

1- عَرَّفَهُ الخَطِيبُ القَزْوِينِي بِقَوْلِه: "التَّشْبِيهُ هُوَ الدَّلَالَةُ على مُشَارَكَةِ أَمْرٍ لآخَرَ فِي معْنَى".[2]

2- وعَرَّفُهُ العَسْكَرِيُّ بِقَوْلِه: "التَّشْبِيهُ بَيَانُ أَنَّ شَيْئًا، أَوْ عِدَّةَ أَشْيَاء، قَدْ شَارَكَتْ غَيْرَهَا في صِفَةٍ، أَوْ أَكْثَر، بِأَدَاةٍ مَلْفُوظَةٍ"، مِثْل الكَاف فِي قَوْلِ مَعْرُوفٍ الرُّصَافِيّ:

وإِنِّي لأَهْوَى الحَقَّ كَالنَّجْمِ سَاطِعًا ... وكَالرِّيحِ هَبَّابًا وكَالشَّمْسِ ظَاهِرَا

أو مُقَدَّرة، كَتَشْبِيهِ الأَلْحَاظِ بالمَخَالِبِ فِي قَوْلِ إِيلِيَا أَبِي مَاضِي:

قَدْ كَلَمَتْ قَلْبِي ولَمْ تَرْفُقْ بِهِ ... واللَّحْظُ لَوْ دَرَتِ المَلِيحَةُ مِخْلَبُ

3- "وعند الجرجاني: أن يثبت لهذا معنى من معاني ذاك، أو حكما من أحكامه، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد.

4- وهو عند ابن الأثير: أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به.

5- وعند السّكاكي: وصف الشيء بمشاركته المشبه به في أمر.

6- وعند الرّماني: هو العقد على أن أحد الشيئين يسدّ مسدّ الآخر في حال.

7- وعند التنوخي: هو اشتراك الشيئين في صفة، أو أكثر.

8- وعند ابن رشيق: صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة، أو جهات كثيرة.

وقد عثرتُ على تعريف للتشبيه في بعض كتب اللغة، هو عندي أخف وأعذب وأكمل من هذه التشبيهات المأثورة، وهو: شبهتُ الشيءَ بالشيء: أقمتُه مقامَه بصفةٍ جامعةٍ بينهما."[3]

أركانُ التَّشْبِيهِ وطَرَفَاه:

---

[1] فن التشبيه علي الجندي الجزء الأول ص 29.
[2] الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ص 188.
[3] فن التشبيه علي الجندي الجزء الأول ص 30 + 33.

- **المُشَبَّه:** وهو المَوْضُوعُ المَقْصُودُ بالوَصْف، مثل (الفَنّ) في قول توفيق الحكيم: "إنَّ الفَنَّ صَخْرَةٌ صَلْبَة، عَلَى الفَنَّانِ أنْ يُفَجِّرَ مِنْهَا المَاءَ الزُّلَال، ولَيْسَ الفَنُّ نَهْرًا جَارِيًا يَغْرِفُ مِنْهُ كُلُّ عَابِرِ سَبِيل."

- **المُشَبَّهُ بِه:** وهو الشَّيْءُ الذي يَجْعَلُهُ الأديبُ نَمُوذَجًا، أو مِثَالًا لِلْمُقَارَنَة، وتكونُ فيه الصِّفَةُ أقْوَى، وأوْضَح، وأقْرَبَ إلى تجْرِبَةِ السَّامِع، أو القَارِئ وإدْرَاكِه، مثل (اللَّيْث) في قول الشاعر الجزائري حَمُّود رَمَضَان:

لا يَغُـــــرَّنَّكُمْ سُـــــكُوتُ زَمَـــــانٍ فَهُـــوَ لَيْـــثٌ وإنْ عَلَيْـــهِ ابْتِسَـــامُ

ويَعْتَبِرُ عُلَمَاءُ البلاغةِ المُشَبَّهَ، والمُشَبَّهَ بِهِ ركنَيْن، وطَرَفَيْن في فَنِّ التَّشْبِيه.

- **وَجْهُ الشَّبَه:** وهو الصِّفَةُ التي تُسْتَخْلَصُ مِنْ المُقَارَنَاتِ بَيْنَ المُشَبَّه، والمُشَبَّهِ بِه. أو "هُوَ المَعْنَى المُشْتَرَكُ بَيْنَ الطَّرَفَيْن، الجَامِعُ لَهُمَا فِي قَصْدِ المُتَكَلِّم"[1].

ولنطرق المثال الآتي، ونستخلص تلك الصفات أو الأوصاف:

- قال نزار قباني في بعض نقديّاته، مستعرضا المقارنة بين القصيدة الكلاسيكية، والقصيدة الحديثة:

"إنَّ القَصِيدَةَ التَّقْلِيدِيَّةَ كَمَا وَرِثْنَاهَا بِأغْرَاضِهَا المَعْرُوفَة، وأبْيَاتِهَا المُلْتَصِقَةِ بِبَعْضِهَا الْتِصَاقًا صَنْعِيًّا كَقِطَعِ الفُسَيْفِسَاء، هِيَ إلَى الزُّخْرُفِ والنَّقْشِ أقْرَبُ مِنْهَا إلَى العَمَلِ الأدَبِيِّ المُتَمَاسِكِ المُلْتَحِمِ كَقِطْعَةِ النَّسِيج، كَمَا أنَّ أُسْلُوبَ بِنَائِهَا يُشَابِهُ بِنَاءَ القِلاعِ فِي القُرُونِ الوُسْطَى: مَرْمَر، ورُخَام، وشُمُوخُ أعْمِدَة، أمَّا القَصِيدَةُ الحَدِيثَةُ فَهِيَ أشْبَهُ بِدِيكُورِ حُجْرَةٍ صَغِيرَة، وُزِّعَتْ مَقَاعِدُهَا ولَوْحَاتُهَا وأَوَانِيهَا بِشَكْلٍ رُبَّمَا لا يُوحِي بالثَّرَاءِ الفَاحِش، ولَكِنَّهُ يُوحِي بِالدِّفْءِ والإلْفَة. فَالقَصِيدَةُ التَّقْلِيدِيَّةُ مَجْمُوعَةُ أحْجَارٍ مُلَوَّنَة، مَرْمِيَّةٍ عَلَى بِسَاط، تَسْتَطِيعُ أنْ تُزَحْزِحَ أيَّ حَجَرٍ مِنْهَا إلَى أيَّةِ جِهَةٍ تُرِيد، ومَعَ ذَلِكَ تَبْقَى الأحْجَارُ أحْجَارًا والقَصِيدَةُ قَصِيدَة، البَيْتُ فِي القَصِيدَةِ الحَدِيثَةِ لَيْسَ عَالَمًا قَائِمًا بِذَاتِهِ كَمَا فِي القَصِيدَةِ التَّقْلِيدِيَّة، إنَّهُ خَلِيَّةٌ حَيَّة، تَعِيشُ بَيْنَ مَجْمُوعَةِ خَلَايَا فِي كَيَانٍ عُضْوِيٍّ وَاحِد، لِذَلِكَ كَانَ حَذْفُ بَيْتٍ فِيهَا مَعْنَاهُ تَعْطِيلُ خَلِيَّةٍ عَنْ أدَاءِ وَظِيفَتِهَا، وإنَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ تَنْمُو نُمُوًّا دَاخِلِيًّا مُتَدَرِّجًا، حَتَّى تَصِلَ إلَى نُقْطَةِ التَّجَمُّعِ الأخِيرَة، كَمَا تَصُبُّ الرَّوَافِدُ الصَّغِيرَةُ فِي النَّهْرِ الكَبِير، وكَمَا تَأْخُذُ النَّغَمَاتُ بِأَذْرُعِ بَعْضِهَا، لِتُشَكِّلَ السِّمْفُونِيَّةَ الأجْمَل".

لعلك لاحظتَ أن نزار قباني شبّه القصيدة العمودية القديمة، وطريقة تشكيل أبياتها بقطع الفسيفساء، لكنْ ما الصفة التي تجمع بين المشبه، والمشبه به؟ إنها الزخرفة، والنقش، فمثلما تزيّنُ قطع الفسيفساء بالأحجار الملونة، ومختلف فنون التزيين، فكذلك كان الشعراء القدامى يزّينون قصائدهم بألوان البيان، وفنون البديع، إذن فوجه الشبه كما علمت هو الزخرف، والصنعة، ثمّ شبه القصيدة التقليدية بقلاع القرون الوسطى، فما الصفة الجامعة بينهما؟ لا شك أنها الهندسة، و(الدّيكور)، فهو يشبه هندسة القصيدة العمودية بالهندسة العمرانية للقلاع، التي كانت سائدة في القرون الوسطى، فتاريخ تلك القرون قد كشف أنّ القلعة يومئذ كانت ترصّع بالرخام، والمرمر، والزجاج الملوّن، قائمة أساسا على التقابل، والتناظر. وما الرخام، وما المرمر، وما الألوان، سوى فنون البيان، وأجناس البديع في القصيدة الكلاسيكية، أما القصيدة الحديثة، فيشبهها نزار

[1] فن التشبيه علي الجندي الجزء الأول ص 114.

قباني بديكور غرفةٍ قليلةِ الأثاث، بسيطةِ المتاع، ولكنّ في بساطتها شيئًا غير يسير من الدفء، والمتعة، فهي قصيدةٌ يندر فيها – غالبا – البيان، ويفقر فيها البديع، ولكنّ ذلك الفقر، وتلك النّدرة يوحيان بمعان بسيطة، تلك البساطة هي جوهر جمالها.

ثم بعد ذلك ينتقل إلى الحديث عمّا يسمّى في النقد الحديث بالوحدة العضوية، فيشبه القصيدة التقليدية بمجموعة من الأحجار الملوّنة، المرمية على البساط، بلغة علم النفس نقول: كأنّ تلك الأحجارَ تمثل الصورة البارزة، والبساطَ يمثل الخلفية، ومثلما كان جمال الأحجار في صورتها، وشكلها، كان جمال القصيدة الكلاسيكية في الصورة، والشكل، فوجه الشبه هو الشكل، أو الصورة، ضف إلى ذلك عاملا آخر، وهو إمكانية التغيير، والتبديل في القصيدة، فمثلما يستطيع أي شخص عالمٍ بالفن أنْ يغيّر من مواضع تلك الأحجار، يستطيع أيُّ عارف بالشعر أن يغير من شكل الأبيات، تقديما وتأخيرا، وحتى حذفا، اللهم بيتا واحدا، هو غُرّة القصيدة الكلاسية، وهو ما يُعرف كلاسيكيّا ببيت القصيد.

بينما يشبه القصيدة الحديثة بالكائن الحيّ، هذا الكائن المبنيّ أساسا من الأنسجة، والخلايا، ومثلما لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن نُدخل أيَّ تغيير، أو تبديل على الخلية بالحذف، أو التعديل، لأن ذلك يشوّهها، فكذلك لا يمكن أن نعبث بنظام القصيدة الحديثة، وبناء أبياتها، فليس البيت الواحد فيها كيانا مستقلّا بذاته، إنه خلية حية، تعيش وتنمو ضمن مجموعة خلايا، تشكّل كيانا عضويّا واحدا، فالبيت الواحد ليس إلّا علّة للبيت الذي بعده، ومعلولا للبيت الذي قبله.

وأخيرًا يشبه الكاتبُ تلك الخلايا (الأبيات)، التي تعمل متكاملة داخل جسد القصيدة بالأنهار الصغيرة، التي تصبّ في النهاية في النهر الكبير (القصيدة)، ويشبه تلك الأبيات بالنغمات (النوتات)، التي تشكلّ اللحن النهائي لأغنية القصيدة، فليس البيت إلّا "نوتة"، تضاف إلى سلّم أنغام السمفونية، أي التأليف الموسيقي المتكامل (القصيدة). ووجه الشبه بين أبيات القصيدة الحديثة، والأنهار الصغيرة إنما هو الديناميّة، والحركيّة، والتكامل، فمثلما الأنهار الصغيرة لها مصبّها الأم، فكذلك الأبيات تصبّ في قالب واحد، هو قالب القصيدة، أمّا وجه الشبه بين الأبيات الشعرية، والنغمات الموسيقية، فهو الاتّساق، والانسجام، فمثلما لا قيمة للأنغام الموسيقية إلا في تواصلها، وصورتها الكليّة، فكذلك لا قيمة للبيت الواحد خارج إطار القصيدة.

ونحاول أن نستعرض الآن بعض النماذج الأدبية، ونكتشف سريعا وجه الشبه في كلّ منها:

- قال ميخائيل نعيمة: "مِنَ التَّشَابِيهِ المَأْلُوفَةِ تَشْبِيهُنَا الشَّيءَ بالرِّيشَةِ إِذَا هُوَ بَالَغَ فِي خِفَّةِ الوَزْن، ثُمَّ تَشْبِيهُنَا مَا لَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الاسْتِقْرَارِ بِرِيشَةٍ فِي مَهَبِّ الرِّيح، وإِنِّي لأَسْتَعِينُ بالتَّشْبِيهِ الأَخِيرِ لأَنْقُلَ إلى أَذْهَانِكُمْ صُورَةَ العَالَمِ كَمَا يَتَرَاءَى فِي هَذِهِ الأَيَّام، فَهُوَ فِي نَظَرِي كالرِّيشَةِ فِي مَهَبِّ الزَّعَازِعِ الهُوج، الَّتِي تَجْتَاحُهُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ وصَوْب".

فالكاتب كما ترى يشبه العالم في أيّامه بالريشة في مهب الريح، فمثلما الريشة لا تصمد، ولا تستقر، وهي تحت رحمة الرياح، فكذلك العالم مضطرب تحت رحمة الحروب، ووجه الشبه بين الريشة، والعالَم هو عدم الاستقرار، وعدم الثبات، أي الاضطراب، والثوران.

- قال محمود غُنيم بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر:

أتَـــوْا كَالأَسْـــدِ إقْـــدَامًا وفَـــرُّوا وهُـــمْ مِثْـــلُ النَّعَامَـــةِ فِـــي الفِـــرَارِ

فالشاعر يشبه جيوش العدوان قبل الحرب بالأسود، ووجه الشبه: الشجاعة والإقدام، ثم يشبههم بالنعامة ووجه الشبه: الخوف والفرار.

- قال أحمد شوقي:

كَالرُّسْـــلِ عَزْمًـــا والمَلَائِـــكِ رَحْمَـــةً والأَسْـــدِ بَأسًـــا والغُيُـــوثِ نَـــوَالَا

فشوقي يشبه ممدوحيه بالرُّسُل، ووجه الشبه العزم، ويشبههم بالملائكة، ووجه الشبه الرّحمة، ويشبههم بالأسود، ووجه الشبه الشجاعة والبأس، ويشبههم بالغيث ووجه الشبه النّوال والعطاء.

- قال الشاعر الجزائري محمد جربوعة:

مَـــا ضَـــرَّ صَـــاحِبَةَ الخِمَـــارِ الأَسْـــوَدِ لَـــوْ أنَّهَـــا وَضَـــعَتْ يَـــدًا فَـــوْقَ اليَـــدِ

كَـــالمُونَلِيزَا .. ثُـــمَّ أرْخَـــتْ جَفْنَهَـــا وتَبَسَّـــمَتْ فـــي صَـــمْتِهَا لِـــ (مُحَمَّـــدِ)؟

الشاعر كما ترى يشبه مَن يتغزل بها بالمُونليزا (الجيُوكندا)، التي برع في رسمها فنان إيطاليا (ليوناردو دافنشي)، ووجهُ الشبه كما هو مشهور في الصورة حركةُ اليد، ومظهرُ العين (النظرة)، والابتسامةُ السّاحرة.

- قال إيليا أبو ماضي:

زَمَـــانٌ كَقَلْـــبِ الطِّفْـــلِ صَـــافٍ، وكَـــالمُنَى لَذِيـــذٌ، ولَكِـــنْ كَـــانَ كَـــالحُلْمِ فَانِيَـــا

فالشاعر كما رأيت قد شبه الزمان بقلب الطفل، ووجه الشبه الصفاء، وشبهه بالمنى، ووجه الشبه اللذة، وشبهه بالحلم، ووجه الشبه الفناء.

- وقال أبو ماضي واصفا شلالا:

فِيـــهِ مِـــنَ السَّـــيْفِ الصَّـــقِيلِ بَرِيقُـــهُ ولَـــهُ ضَـــجِيجُ الجَحْفَـــلِ الجَـــرَّارِ

فالشاعر قد شبه الشلال بالسيف الصقيل، ووجه الشبه البريق، ثم شبهه بالجيش الجرّار، ووجه الشبه الضجيج.

- قال مصطفى صادق الرافعي متغزلا:

حَنَانَـكِ يَـا أُخْـتَ العَصَـافِيـرِ خِـفَّـةً ويَـا ضَـرَّةَ الطَّـاوُوسِ فِي التّيـهِ والعُجْـبِ

لعلّك أدركت أنّ الرافعي يشبه المحبوبة بالعصفورة في صفة الخفّة، والرّقة، ثم يشبهها بالطاووس في صفة الخيلاء، والعُجب.

- وقال مصطفى صادق الرافعي في المديح:

فـــي حِلْـــمِ عُثْمَـــانٍ وهَيْبَـــةِ حَيْـــدَرِ وعَـــدْلِ أبِـــي حَفْـــصٍ وعَـــزْمِ أبِـــي بَكْـــرِ

فالشاعر قد شبّه ممدوحه بعثمانَ بنِ عفّان، ووجه الشبه هو الحِلمُ، ثم شبّهه بعليّ بنِ أبي طالب، ووجه الشبه هو الهيبة، ثم شبّهه بعمرَ بنِ الخطاب، ووجه الشبه هو العدل، وأخيرا شبهه بأبي بكر الصديق، ووجه الشبه هو العزم. رضي الله عنهم أجمعين.

- قال المنفلوطي في مناجاته للقمر: "أيُّهَا القَمَرُ المُنِيرُ إنَّ بَيْنِي وبَيْنَكَ شَبَهًا: أنْتَ وَحِيدٌ في سَمَائِكَ، وأنَا وَحِيدٌ في أرْضِي".

فالكاتب كما رأيت قد شبه نفسه بالقمر، ليس في الحُسن طبعا، ولكن في صفة الوَحدانية، والتفرّد، الاغتراب.

- ويرى علماء البيان أنّ وجه الشبه يكون أظْهَرَ وأشْهَرَ في المشبّه به عنه في المشبّه، مثل صفة التَّجمّع والتّدفّق في قولِ علي الجارِم في المديح:

مُجْتَمِعِـــينَ كَـــأنَّهُمْ سِـــرْبُ قَطَـــا مُتَـــدَفِّقِينَ كَـــأنَّهُمْ أنْهَـــارُ

لعلَّكَ أدركتَ أنّ صفة التَّجمُّع والاحتشاد أبْرز وأظْهر في المشبّه به (سِرْب القَطَا) منها في المشبّه (قَوْم الشَّاعِر)، وكذلك صِفة التَّدفّق، فهي بلا شكّ أوْضَحُ في النَّهر منها في قوم الشّاعر.

ويقولُ البلاغيّون إنّ وجه الشّبه هو المعنى الذي يشترك فيه طرفا التّشبيه تَحْقِيقًا، أو تَخَيُّلا، ونشرحُ ذلك فنقول: التّحقيقُ مأخوذ من الحقيقة، كقولنا: "كَانَ العَرْبِي بن مهَيْدِي كَالأسَدِ في الشَّجَاعَة"، فالشّجاعة هي وجه الشّبه، أو الصّفة الجامعة بين المشبّه والمشبّه به، وهي على حَقِيقَتِهَا كانت موجودة في المشبّه به، وإنّما يقع الفرق بين شهيدنا والأَسد من جهة قوّة الشّجاعة وضعفها، أو زيادتها ونقصانها.

والمرادُ بالتَّخَيُّلِ أنَّهُ لا يمكن وَاقِعًا، أوْ حَقِيقَةً وجود وجه الشّبه في المشبّه به إلَّا على سبيلِ التَّخَيُّل، مثل قول الأديب الكبير محمد المويلحي: "دَخَلْنَا رَوْضَةً تَجْرِي الأَنْهَارُ مِنْ بَيْنِهَا، كَأنَّهَا الجَنَّةُ بِعَيْنِهَا." فالكاتب لم يشبه الروضة بالجنة إلّا بعد تخيُّل المشبه به، أي أنه تخيل الجنة، ثم شبه بها الروضة.

ومثل قول المنفلوطي: "الغَدُ شَبَحٌ مُبْهَم، يَتَرَاءَى للنَّاظِرِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيد، فَرُبَّمَا كَانَ مَلَكًا رَحِيمًا، ورُبَّمَا كَانَ شَيْطَانًا رَجِيمًا." نقول إن الكاتب في هذا التشبيه قد تخيّل الشّبح، كما تخيّل المَلَكَ، والشّيطان.

وإليك مثالا طريفا عن حالة التخّيل، قال نزار قباني في بعض نثريّاته: "إنَّ القَصِيدَةَ طَائِرٌ أُسْطُورِيٌّ يَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِهِ التَّارِيخَ والحَيَاةَ والكُرَةَ الأرْضِيَّةَ ويَطِير، يَظَلُّ الصَّيَّادُونَ يَرْمُونَ شِبَاكَهُمْ، ويَبْقَى الشِّعْرُ – هَذَا الوَحْشُ الجَمِيلُ – يَقْفِزُ عَلَى الشَّجَر، وعَلَى القَمَر، ويَمُدُّ لِسَانَهُ لِجَمِيعِ صَيَّادِيه". نقول إنّ هذا الطائر الخرافيّ لا وجود له في الحقيقة، إلا في خيال الأديب.

- **أدَاةُ التَّشْبِيه:** وهي الكَلِمَةُ التي تَدُلُّ على مَعْنَى التَّشْبِيه: (حَرْفًا، أوْ اسْمًا، أوْ فِعْلاً)، وأداة التّشبيه، ووجه الشّبه رُكْنَانِ في التّشبيه، لا طَرَفَانِ فيه، والفرق بين الرُّكْنِ والطَّرَفِ أَنّ الأَخير لا يمكن أنْ يُقام تشبيه من دُونه، أمّا الرُّكْنُ فيمكن قيام أَيِّ تشبيه من دون وجوده، بلْ إنّ حذفهُ أَبلغ من وجوده.

- **أدَوَاتُ التَّشْبِيه:** أدواتُ التَّشْبِيهِ حَرْفَان، ومجموعةُ أسْمَاء، ومجموعةُ أفْعَال، كُلُّها تُفِيدُ قُرْبَ المُشَبَّهِ من المُشَبَّهِ به في صِفَتِه:

- **الكاف:** وهي الأصل في التّشبيه، ومنها قولُ الشّاعر في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم:

سَـــنَا وَجْهِـــهِ كالبَـــدْرِ نَـــوَّرَ أفْقَـــهُ ... نَـــرَى نَعْلِـــهِ كالمِسْـــكِ، بَـــلْ هُـــوَ فَوْقَـــهُ

- **كأنّ:** مثل قول أحمد شوقي في وصف إحدى المعارك:

كَـــأَنَّ الـــوَغَى نَـــارٌ، كَـــأَنَّ جُنُودَهَـــا ... مَجُـــوسٌ إِذَا مَـــا يَمَّمُـــوا النَّـــارَ قَرَّبُـــوا[1]

كَـــأَنَّ الـــوَغَى نَـــارٌ، كَـــأَنَّ الـــرَّدَى قِـــرًى ... كَـــأَنَّ وَرَاءَ النَّـــارِ حَـــاتِمَ يَـــأْدِبُ

كَـــأَنَّ الـــوَغَى نَـــارٌ، كَـــأَنَّ بَنِـــي الـــوَغَى ... فَـــرَاشٌ لَـــهُ فِـــي مَلْمَـــسِ النَّـــارِ مَـــأْرَبُ

ومثل قول حافظ إبراهيم في النّفاق:

كَـــمْ مِـــنْ صَـــدِيقٍ لِـــي يُحَاسِـــنُنِي ... وكَـــأَنَّ تَحْـــتَ ثِيَابِـــهِ أَفْعَـــى

يَسْـــعَى فَيُخْفِـــي لِـــينُ مَلْمَسِـــهِ ... عَنِّـــي مَسَـــارِبَ حَيَّـــةٍ تَسْـــعَى

- **مِثْل:** مثل قول محمد العيد آل خليفة:

فَـــإِذَا العَـــيْشُ حَالِـــكٌ مِثْـــلَ لَيْـــلٍ ... وإِذَا الرَّبْـــعُ مُـــوحِشٌ مِثْـــلَ سِـــجْنِ

ومثل قول محمود غُنيم:

أَسَـــاوِرُ الغِيـــدِ مِـــنْ مَـــاسٍ، ولَسْـــتُ أَرَى ... مِثْـــلَ اليَـــرَاعِ سِـــوَارًا فِـــي يَـــدِ الرَّجُـــلِ

- **يُشْبِهُ:** كقول محمود غنيم:

فَمَـــا الشَّـــعُوبُ بِـــلَا فَـــنٍّ ولَا أَدَبٍ ... إِلّا دُمًـــى تُشْـــبِهُ الأَحْجَـــارَ والخَشَـــبَا

- **أشْبه:** كقول محمد العيد آل خليفة:

الجَهْـــلُ أَشْـــبَهُ بِـــالغُرَابِ فَمَـــا لَـــهُ ... مِـــنْ مَنْـــزِلٍ غَيْـــرِ الخَـــرَابِ البَلْقَـــعِ

- **شَابَهَ:** كقول مفدي زكريا:

وكَـــمْ شَـــابَهَ النِّيـــلُ نَهْـــرَ دِمَـــا ... نَـــا، تَمُـــورُ بِـــهِ المُهَـــجُ الفَـــائِرَهْ

- **شِبْه:** كقول خليل مطران:

وتُبْـــدِي لَنَـــا الأَغْصَـــانُ شِـــبْهَ تَحِيَّـــةٍ ... وتَسْـــتَقْبِلُ الأَرْوَاحُ أَوْجُهَنَـــا لَثْمَـــا

- **ضَارَعَ:** كقول مفدي زكريا:

[1] قَرَّبُوا: قَدَّمُوا القُرْبَان.

وكَـــمْ ضَـــارَعَتْ فِـــي الفِـــدَا كلِيُوبَـــــ ـــــتْرَا جَمِـــيلَاتِ ثَوْرَتِنَـــا الهَـــادِرَهْ

- **يَحْكِي:** كقولِ إيليا أبي ماضي:

كَالغُصْـــنِ قَامَتُهَـــا إذَا الغُصْـــنُ انْثَنَـــى وجَبِينُهَـــا يَحْكِـــي الصَّـــبَاحَ إذَا انْجَلَـــى

- **يُحَاكِي:** كقول محمود غُنيم في وصف شعر صديقه:

بُحُـــورٌ مِـــنَ الشِّـــعْرِ فِـــي عُمْقِهَـــا ورَحْـــبِ مَـــدَاهَا تُحَـــاكِي البُحُـــورَا

- **يضاهي:** كقول مفدي زكريا مخاطبا شهر نوفمبر المجيد:

وذَكَّرْتَنَـــا فِـــي الجَزَائِـــرِ بَـــدْرًا فَقُمْنَـــا نُضَـــاهِي صَـــحَابَةَ بَـــدْرِ

أَقْسَامُ التَّشْبِيهِ بِاعْتِبَارِ الأَدَاة: ينقسمُ التَّشْبِيهُ باعْتِبَار الأداةِ إلى:

1 المرسل: وهُوَ مَا ذُكِرَتْ فِيهِ الأَدَاة، كقول محمد العيد آل خليفة:

ومَـــا النَّـــاسُ إلّا كَـــالنُّقُودِ فَـــزِنْهُمُ بِنِيَّـــاتِهِمْ إنْ كُنْـــتَ للنَّـــاسِ نَاقِـــدَا

2- المُؤَكَّد: وهو ما حُذِفَتْ مِنْهُ الأدَاة، ومعنى "مُؤَكَّد" مَأْخُوذٌ مِنَ التَّأْكِيد، وهو ادِّعَاءُ مُطَابَقَةِ المُشَبَّهِ للمُشَبَّهِ بِهِ، وهو أبْلَغُ مِنَ التَّشْبِيهِ المُرْسَل، وأَوْجَز، كقول الشاعر سليم عنحوري:

الشِّـعْـــرُ دُرٌّ والـخَـيَـــالُ بُـحُـــورُ والفِـكْـــرُ فُلْـــكٌ فِـــي العُبَـــابِ يَمُـــورُ

ومثله قول الشاعر محمد جربوعة:

قَلْبِـــي اعْـــذِرِينِي لَـــيْسَ سَـــاعَةَ حَـــائِطٍ بِيَـــدِي أضْـــبِطُهَا.. فَـــلَا تَتَـــأَخَّرُ

الشاعر يصف حالته النفسية المضطربة بين حبّه لمحبوبته، وحبّه الأعظم لمحمد صلى الله عليه وسلم، فهو لا يستطيع التحكم بقلبه وضبطه على حبها فقط، فلذلك شبهَ دَقَّاتِ قلبه بدقّات الساعة، وذكرَ المشبه والمشبه به، وحذف أداة التشبيه، ووجهُ الشبه: الانضباط.

أَقْسَامُ التَّشْبِيهِ بِاعْتِبَارِ وَجْهِ الشَّبَه:

1- المُفَصَّل: وهو ما ذُكر فيه وجهُ الشبه، كقول توفيق الحكيم: "فالشَّاعِرُ مِثْلُ القَمَر، لا يُعْطِينَا الحَيَاةَ فِي أشِعَّتِهَا المُحْرِقَة، ووَهَجِهَا الذي يُعْمِي البَصَر، ولكِنَّهُ يَتَلَقَّى بَعْضَ أشِعَّتِهَا، ويُصَفِّيهَا مِنْ خِلالِ نَفْسِه، ويَعْرِضُهَا عَلَيْنَا بَعْدَ ذَلِكَ ضَوْءًا جَمِيلًا مُهَذَّبًا، تَرْتَاحُ لَهُ العَيْن، ويَسْبَحُ فِيهِ الذِّهْن، ويَأْنَسُ لَهُ القَلْب".

ومنه في الشعر قول معروف الرصافي في الغزل:

شَـــابَهَتْ عَطْفَـــةَ الغُصُـــونِ انْثِنَـــاءً وحَكَـــتْ خَطْـــرَةَ النَّسِـــيمِ هُبُوبَـــا

2- المُجْمَل: وهو مَا حُذِفَ مِنْهُ وَجْهُ الشَّبَه، ومنه قول ميخائيل نُعيمة: "المَأْلُوفُ يَقْبِضُ عَلَى قُلُوبِ النَّاسِ وأفْكَارِهِمْ قَبْضَةَ الأَخْطُبُوط".

ومنه قول علي الجارم:

ومَـــا أنْـــتَ فِـــي الأَمْـــلَاكِ إلّا قَصِـــيدَةٌ تَفَاعِيلُهَـــا البِـــرُّ الَّـــذِي أنْـــتَ فَاعِلُـــهْ

صُوَرُ التَّشْبِيه: للتَّشْبِيهِ أَرْبَعُ صُوَرٍ هي:

الصُّورَةُ الأُولى: الطَّرَفَانِ، والرُّكْنَان، كَقَوْلِنَا: "مُحَمَّدٌ كالغَيْثِ في الكَرَم".

الصُّورَةُ الثَّانِيَة: الطَّرَفَانِ، ورُكْنٌ وَاحِدٌ هُوَ الأَدَاة، كَقَوْلِنَا: "مُحَمَّدٌ كَالغَيْث".

الصُّورَةُ الثَّالِثَة: الطَّرَفَانِ ورُكْنٌ وَاحِدٌ هُوَ وَجْهُ الشَّبَه، كَقَوْلِنَا: "مُحَمَّدٌ غَيْثٌ في الكَرَم".

الصُّورَةُ الرَّابِعَة: الطَّرَفَانِ فَقَط، كَقَوْلِنَا: "مُحَمَّدٌ غَيْثٌ".

مَرَاتِبُ التَّشْبِيه: للتَّشْبِيهِ ثَلَاثُ مَرَاتِب:

المَرْتَبَةُ الدُّنْيَا: وهيَ الصُّورَةُ الأُولى مِنْ صُوَرِ التَّشْبِيه.

المَرْتَبَةُ الوُسْطَى: وهيَ الصُّورَتَان الثَّانِيَةُ، والثَّالِثَة.

المَرْتَبَةُ العُلْيَا: وهي الصُّورَةُ الرَّابِعَة، وتُسَمَّى التَّشْبِيهَ البَلِيغ، أيْ ادِّعَاءُ الاتِّحَادِ بَيْنَ المُشَبَّهِ، والمُشَبَّهِ بِه.

أيْ أَنَّ المُشَبَّهَ يَكُونُ هُوَ نَفْسُهُ المُشَبَّهَ بِه، قال معروف الرصافي في وصف بلدة (الشاغور):

جَــرَى مَــاؤُهُ العَــذْبُ الــزُّلَالُ مُحَاكِيًــا ... بِــهِ المَــاسَ صَــفْوًا، أوْ هُــوَ المَــاسُ نَفْسُــهُ

والتَّشْبِيهُ البَلِيغُ هُوَ مِنْ مَرَاتِبِ التَّشْبِيهِ أَرْفَعُهَا، ومِنْ أَنْوَاعِهِ أَبْلَغُهَا. كقول نزار قباني:

كُــلُّ شِــعْرٍ مُعَاصِــرٍ لَــيْسَ فِيــهِ ... غَضَــبُ العَصْــرِ نَمْلَــةٌ عَرْجَــاءُ

- أو كقول أحمد شوقي واصفا الدنيا:

ومَــا أنْــتِ إلّا جِيفَــةٌ طَــالَ حَوْلَهَــا ... قِيَــامُ ضِــبَاعٍ أوْ قُعُــودُ ذِئَــابِ

- أو كقوله:

نَظَــرَ الفِــرَاقُ إلَيْكُمَــا فَطَوَاكُمَــا ... إنَّ الفِــرَاقَ جَهَــنَّمُ الأقْــدَارِ

- وكقول الشاعر الفلسطيني سميح القاسم:

جَعَلُــوا جُرْحِــي دَوَاةً ولِــذَا ... فَأنَــا أكْتُــبُ شِــعْرِي بِشَــظِيَّة

- وكقول إيليا أبي ماضي:

إنَّ الحَيَــاةَ قَصِــيدَةٌ أعْمَارُنَــا ... أبْيَاتُهَــا، والمَــوْتُ فِيهَــا القَافِيَــهْ

- وكقول الشاعر القروي متأثّرا بأحوال بلاده لبنان:

أرَى تُفّــاحَ هَــذَا العِيــدِ جَمْــرًا ... ولَــوْ قَطَفُــوهُ مِــنْ جَنَّــاتِ عَــدْنِ

- ومن روائعه النثرية قول نزار قباني في أمسيته الشعرية بالجزائر: "أفْرُكُ خَاتَمَ الشِّعْرِ فِي إصْبَعِي، فَتَخْرُجُ لِي الجَزَائِرُ حُورِيَّةً خُرَافِيَّةَ الشَّكْل، والشِّعْرُ هُوَ آخِرُ خَيْطِ حَنَانٍ يَرْبِطُ الإنْسَانَ العَرَبِيَّ بالإنْسَانِ العَرَبِيّ، الشِّعْرُ هُوَ سَيْفِي ومِفْتَاحِي الّذِي أفْتَحُ بِهِ المَنَاطِقَ السِّرِيَّةَ فِي النَّفْسِ العَرَبِيَّة، هُوَ القُنْبُلَةُ المَوْقُوتَةُ الّتِي أضَعُهَا تَحْتَ خَيْمَةِ أهْلِ الكَهْف، فَتَنْفَجِرُ بِهِمْ، وهُمْ يَتَسَلَّوْنَ بِمَضْغِ لَحْمِ الوَطَن".

والتشبيهات البليغة التي صوّرها الشاعر هي على التوالي:

- "خَاتَمُ الشِّعْر": تشبيهٌ بليغٌ على طريقة إضافة المشبه به إلى المشبه، وسيأتي تفصيله بعد حين.
- "الجزائرُ حوريةٌ خُرافية الشَّكل": تشبيهٌ بليغٌ، ذُكر فيه الطَّرفان، وحُذف منه الرُّكنان.
- "الشِّعْرُ خيطُ حنان": تشبيهٌ بليغٌ، ذُكر فيه الطَّرفان، وحُذف منه الرُّكنان.
- "الشِّعْرُ سيفٌ، والشِّعْرُ مفتاح": تشبيهان بليغان، ذُكر فيه الطَّرفان، وحُذف منه الرُّكنان.
- "الشِّعْرُ قنبلةٌ موقوتة". تشبيهٌ بليغٌ، ذُكر فيه الطَّرفان، وحُذف منه الرُّكنان.
- ومن جواهره قول البشير الإبراهيمي في الشباب: "أَتَمَثَّلُهُ مُقَدِّمًا لِدِينِهِ قَبْلَ وَطَنِه، ولِوَطَنِهِ قَبْلَ شَخْصِه، يَرَى الدِّينَ جَوْهَرًا، والوَطَنَ صَدَفًا، وهُو غَوَّاصٌ عَلَيْهِمَا".
- ومِنَ التَّشْبِيهِ البَلِيغِ أنْ يكونَ المُشَبَّهُ بِهِ حَالًا مِنَ المُشَبَّه، ومثاله قول خليل مطران في وصف فتاة شعرُها أسودُ مخلوطٌ بصهب:

إنْ عَقَدَتْـــــهُ اسْـــــتَقَامَ تَاجًـــــا أَوْ أَرْسَـــــلَتْهُ اسْـــــتَطَالَ ذَيْـــــلَا
يَضْـــــحَكُ نَـــــوْرًا يَعْـــــبِسُ ظِـــــلًّا يَطْغَـــــى عُبَابًـــــا يَهْمُـــــرُ سَـــــيْلَا

ومنه قول محمد بلقاسم خمّار على لسان الجزائر:

هَتَـــفَ الخَلْـــقُ لِـــي وصَـــاحُوا رُعُـــودًا حِـــينَ أَرْسَـــلْتُ لِلْجِبَـــالِ أُســـودَا

الشاهد البلاغي: (وصَاحُوا رُعُودًا).

ومثاله أيضا قول معروف الرّصافي:

بَسَـــمَتْ كَوْكَبًـــا ومَـــرَّتْ نَسِـــيمًا وشَـــدَتْ بُلْـــبُلًا وفَاهَـــتْ خَطِيبَـــا

ومنه قول علي الجارم في الفخر:

نُسُـــورٌ إذَا طَـــارُوا لِيَـــوْمٍ كَرِيهَـــةٍ وإنْ بَطَشُـــوا يَـــوْمَ الـــوَغَى بَطَشُـــوا أَسْـــدَا

الشاهد البلاغي: (بَطَشُوا أُسْدَا).

- ومِنَ التَّشْبِيهِ البَلِيغِ أيْضًا المَصْدَرُ المُبَيِّنُ لِنَوْعِ الفِعْلِ بِطَرِيقَةِ الإضَافَة، كقول معروف الرصافي:

إنِّـــي لَأَرْجُـــو أَنْ أَرَاكُـــمْ لِلْـــعُـــلَا مُـتَـهَـيِّـجِـيـــنَ تَـهَـيُّـــجَ البُـــرْكَـــانِ
وأَوَدُّ لَـــوْ تَـمْـشُـــونَ مِـشْـيَـــةَ وَاحِـــدٍ مُـتَـكَـاتِـفِـيـــنَ تَـكَـاتُـــفَ الإِخْـــوَانِ

أو كقول الشاعر الفلسطيني تميم البرغوثي في أطفال الحجارة:

ودَارَ مِقْـــلَاعُ الطِّفْـــلِ فِـــي يَـــدِهِ دَوْرَةَ صُـــوفِيٍّ مَسَّـــهُ وَلَـــعُ

ومنه قول خليل مطران:

يُسَـــرُّ سُـــرُورَ الطِّفْـــلِ بِـــالأُمِّ إنْ دَنَـــتْ ويَبْكِـــي إذَا بَانَـــتْ كَطِفْـــلٍ تَيَتَّمَـــا

وقوله أيضا في رثاء أمين فكري:

وَقَفْـــتُ عَلَـــى القَبْـــرِ الَّـــذِي أَنْـــتَ نَازِلُـــهْ وُقُـــوفَ جَبَـــانٍ بَادِيَـــاتٍ مَقَاتِلُـــهْ

- ومِنَ التَّشْبِيهِ البَلِيغِ إضَافَةُ المُشَبَّهِ بِهِ إلى المُشَبَّهِ، ومن نماذجه البليغة قول عائض القرني في الوصف:" الجَمَالُ فِي الرَّوْضِ الجَذَّاب، بِجَمَالِهِ الخَلَّاب، طُيُورٌ تُلْقِي قَصَائِدَ الحَنَان، عَلَى مَنَابِرِ الأغْصَان، وحَمَامٌ يُنْشِدُ إلْيَاذَةَ الفِرَاق، عَلَى أطْرَافِ الأوْرَاق." حيث شبه الأديبُ الحنان بالقصائد، وأضاف المشبه به إلى المشبه، فقال: قصائد الحنان، ثم شبه الأغصان بالمنابر، وأضاف المشبه به إلى المشبه، فقال: منابر الأغصان، وأخيرا شبه الفراق بالإلياذة، وأضاف المشبه به إلى المشبه، فقال: إلياذة الفراق.

ومن أجمل وأرق شواهد هذا النوع من التشبيه البليغ قول محمود سامي البارودي في الوصف:

فَلَـــمْ أزَلْ بِرُقَـــى الأشْـــعَارِ أعْطِفُهَـــا ورُقْيَـــةُ الشِّـــعْرِ تُجْـــرِي المَـــاءَ فِـــي الحَجَـــرِ

حَتَّـــى اشْرَأَبَّـــتْ عُقَـــابُ الفَجْـــرِ وانْطَلَقَتْ حَمَـــائِمُ الشُّهْـــبِ مِـــنْ أُحْبُـــولَةِ السَّحَـــرِ

فالشاعر شبه الشعر بالرّقية، وأضاف المشبه به إلى المشبه، وشبه الفجر بالعقاب، وأضاف المشبه به إلى المشبه، وشبه الشّهب بالحمائم على طريقة إضافة المشبه به إلى المشبه، وفعل مثل ذلك في تشبيه السَّحَر بالأحبولة.

ومن بدائعه قول أبي القاسم الشابي مخاطبا المستبدَّ الظالم:

وسِـــــرْتَ تُشَـــــوِّهُ سِـــــحْرَ الوُجُـــــودِ وتَبْـــــذُرُ شَـــــوْكَ الأسَـــــى فِـــــي رُبُـــــاهْ

ومنه قول معروف الرصافي في قصيدة "حبّ لبنان":

فَمَـــنْ لَـــمْ يَـــزُرْهُ وهُـــوَ رَبُّ اسْـــتِطَاعَةٍ تَحَـــتَّمَ فِـــي سِـــجْنِ الحَمَاقَـــةِ حَبْسُـــهُ

وقوله أيضا:

ومَـــا أنَـــا فِـــي وَادِي الخَيَـــالِ بِهَـــائِمٍ وإنْ كُنْـــتُ مَعْـــدُودًا مِـــنَ الشَّـــعَرَاءِ

ومن النماذج الممتازة لهذا التشبيه البليغ قول الشاعر المهجريّ نعمة الله الحاج:

ومَـــا المَـــالُ هَمِّـــي فِـــي الحَيَـــاةِ وإنَّمَـــا أُطَـــارِدُ خَيْـــلَ المَجْـــدِ فِيمَـــا أُطَـــارِدُ

ومنه قول نزار قباني:

مَزِّقِـــي يَـــا دِمَشْـــقُ خَارِطَـــةَ الـــذُّلِّ وقُـــولِي لِلـــدَّهْرِ كُـــنْ فَيَكُـــونُ

التدريب الأول: حدِّدْ أدَاةَ التَّشْبِيهِ فيما يأتي:

قال الشاعر الجزائري محمد جربوعة في "معلّقة حيزيّة":

مغرورةٌ وغرورُها لا يُعقلُ

ولها جَمالٌ مستبدٌّ يَقتلُ

وعيونُها بدويةٌ، تبًّا لها

وتصيرُ أحلى حينما تتكحّلُ

والشَّعرُ شلّالٌ تدلّى خلفَها

كالنّهرِ فحميٌّ طويلٌ أَلْيَلُ
ليلا يحرّرُ ، كي يغطّيَ جسمَها
وإذا الصباح أتَى ، يُشدُّ ويُجدلُ
والصوتُ همسيٌّ، رقيقٌ، ناعمٌ
والثّوب مطْروزُ الجوانب، مِخملُ
أسنانُها مفلوجةٌ منْ ربّها
سبحانهُ، والشَّعر نهرٌ أكْحلُ
"حيزيةٌ ".. رقّ اسمُها فترقرقتْ
في كلِّ ثغْر كالنَّدى إذ يهطلُ
فكأنّه في النّطقِ قطعةُ سكّرٍ
أحلى الأسامي للنساءِ الأسهلُ
أثوابُها كالياسمين أنيقةٌ
الرِّيحُ فلّ، والرسومُ قرنفل
تحمرُّ من خجل..وتصبحُ وردةً
عينِي على مَن بالتورّدِ يَخجلُ
والقدّ ممشوقٌ كمغزلِ صوفها
أحلى القدودِ الخيزرانُ، المغزلُ
والوجهُ منبسط يريّحُ ، مقمِرٌ
والثَّغرُ فتّانُ المخارجِ بلبلُ
وخلاخل بالرنّ تضبط لحنها
لتسير بالإيقاع تلك الأرجلُ
مثل الحديقة، لا أبالغ، مثلها
والفرق أنّ ورودها ، لا تذبلُ
والخدّ (...)لا.. جاوزتُ حدّي هكذا
ونسيتُ نفسي، آسف، لا أكملُ
بصراحةٍ هي مستحيلٌ مدهشٌ
في صورةٍ بشرية يتجوّلُ
وتقوم من بعد الجلوس كأنما
هي باقةٌ منثورة تتشكلُ

obeikan.com

هي نسمة للصيف، تفرض نفسها
تجتاح قلبك ..دون إذْنٍ تدخلُ
وتسيل فيك كقطرة من زئبقٍ
وتروح تحفر مَسْلكا.. تتغلغلُ
بالحمد تغمض عينها ممتنةً
وتبوسُ ظاهرَ كفّها وتقبّلُ
وتقول: "شكرًا يا جلالةَ مُبدِعي
شكرًا لأنّي في النساء الأجملُ.

- قال نزار قباني:

شُعَرَاءَ الأَرْضِ المُحْتَلَّه
يَا مَنْ نَبَرَاتُ حَنَاجِرِكُمْ
تُشْبِهُ حَشْرَجَةَ المَشْنُوقِين.
يَا مَنْ أَلْوَانُ مَحَابِرِكُمْ
تَبْدُو كَرِقَابِ المَذْبُوحِينْ
يَا أَجْمَلَ طَيْرٍ يَأْتِينَا مِنْ لَيْلِ الأَسرْ
يَا حُزْنًا شَفَّافَ العَيْنَيْن
نَقِيًّا مِثْلَ صَلَاةِ الفَجرْ.

- وقال نزار قباني:

لِمَـــنِ الأَحْمَـــرُ القَـــانِي فِـــي سَـــيْنَاءَ يُحَـــــاكِي شَـــــقَائِقَ النُّعْمَـــــانِ؟

- قال علي الجارم حينما (تَعَسَّرَ) عليه تَشْبِيهُ النَّبِيِّ صلوات ربي، وسلامه عليه:

كَـــأَنّ، ومَـــا تُغْنِـــي كَـــأَنَّ؟ فَخَلِّهَـــا فَـــإِنَّ مِـــنَ التَّشْـــبِيهِ مَـــا يَتَصَـــعَّبُ

- قال محمود غُنيم:

إِنَّ اليَرَاعَـــةَ فِـــي أَنَامِـــلِ طَالِـــبٍ كَالسَّـــيْفِ فِـــي كَـــفِّ المُـــدَرَّعِ أَبْتَـــرَا
والطَّـــرْسَ فِـــي يُمْنَـــاهُ أَبْـــيَضَ نَاصِـــعًا مِثْـــلُ اللِّـــوَاءِ عَلَـــى الكَتِيبَـــةِ أَحْمَـــرَا

- قال خليل مطران في الغزل:

سَـــتَرَتْ بِأَخْضَـــرَ سُنْدُسِـــيٍّ جِيـــدَهَا فَحَكَـــى المُحَيَّـــا وَرْدَةً فِـــي كِمِّهَـــا

- قال إيليا أبو ماضي مخاطبا جامع المال:

حَتَّـــامَ، يَـــا صَـــاحِ تُخْفِيـــهِ وتَطْمُـــرُهُ؟ كَأَنَّمَـــا هُـــوَ سَـــوْءَاتٌ تُوَارِيهَـــا

انْظُـــرْ إِلَـــى المَـــاءِ إِنَّ البَـــذْلَ شِـــيمَتُهُ ... يَـــأْتِي الحُقُـــولَ فَيَرْوِيهَـــا ويُحْيِيهَـــا
فَمَـــا تَعَكَّـــرَ إِلَّا وهـــو مُنْحَـــبِسٌ ... والـــنَّفْسُ كَالمَـــاءِ تَحْكِيـــهِ ويَحْكِيهَـــا
أَرْسَـــلْتُ قَـــوْلِي تَمْثِـــيلًا وتَشْـــبِيهَا ... لَعَـــلَّ فِـــي القَـــوْلِ تَـــذْكِيرًا وتَنْبِيهَـــا

- وقال في وصف معركة بحرية:

سُـــفُنٌ هِـــيَ الأَطْـــوَادُ لَـــوْلَا سَـــيْرُهَا ... أَعَهِـــدْتُمْ جَـــبَلًا مَشَـــى أَوْ سَـــارَا؟
مِثْـــلُ الكَوَاكِـــبِ فِـــي النِّظَـــامِ وإِنَّهَـــا ... لَكَمَـــا الكَوَاكِـــبُ تَبْعَـــثُ الأَنْـــوَارَا
هِـــيَ كَالمَـــدَائِنِ غَيْـــرَ أَنَّ نَزِيلَهَـــا ... أَبَـــدًا بِهَـــا يَتَوَقَّـــعُ الأَخْطَـــارَا

- وقال في رثاء أحد أصدقائه:

لُبْنَـــانُ، هَـــذَا مِـــنْ رِيَاضِـــكَ زَهْـــرَةٌ ... ذَهَبَـــتْ كَـــأَنْ فِـــي الأَرْضِ لَـــمْ تَتَضَـــوَّعِ
قُـــلْ لِلْبَنَفْسَـــجِ فِـــي سُـــفُوحِكَ والرُّبَـــى ... وَلِّـــى شَـــبِيهُكَ فِـــي الوَدَاعَـــةِ فَاخْشَـــعِ

- قال معروف الرصافي في وصف مشهد حريق:

أَثَـــارَتِ النَّـــارُ فِـــي أَطْرَافِهَـــا رَهَجًـــا ... مِـــنَ الـــدُّخَانِ كَـــأَنَّ النَّـــارَ أَبْطَـــالُ
حَتَّـــى حَكَـــتْ مَعْرَكًـــا خَـــرَّتْ بِسَـــاحَتِهِ ... صَـــرْعَى، بُيُـــوتٌ وأَمْـــوَالٌ وآمَـــالُ

- قال الشاعر القروي مستعطفا مَن يهوى، وواصفا هواه:

هُـــوَ شَـــمْعَةٌ أَذْكَـــى هَـــوَاكِ لَهِيبَهَـــا ... إِنْ لَـــمْ تُـــدَارِيهَا بِقُرْبِـــكِ تَنْطَفِـــي

- قالَ مصطفى صَادِق الرَّافِعِي: "اجْتَمَعَ لَيْلَةَ الأَضْحَى خَرُوفَانِ في دَارِنَا، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَبْشٌ أَقْرَن، يَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهِ شَجَرَةَ السِّنِين، وقَدِ انْتَهَى سَمْنُهُ حَتَّى ضَاقَ جِلْدُهُ بِلَحْمِه، فإِذَا مَشَى تَبَخْتَرَ تَبَخْتُرَ الغَانِيَةِ في حُلَّتِهَا، وهو مِنْ اجْتِمَاعِ قُوَّتِهِ وجَبَرُوتِهِ أَشْبَهُ بالقَلْعَة، ويَعْلُوهَا مِنْ هَامَتِهِ كالبُرْجِ الحَرْبِيِّ مَدْفَعَانِ بَارِزَان، وتَرَاهُ أَبَدًا مُصَعِّرًا خَدًّا كَأَنَّهُ أَمِيرٌ مِنَ الأُمَرَاء، أَوْ بَطَلٌ مِنَ الأَبْطَال.".

- قال نزار قباني: "إِنَّ مَعَارِكَنَا الأَدَبِيَّةَ شَبِيهَةٌ بِمَعَارِكِ الدَّجَاجِ والدِّيَكَة: رِيشٌ نَافِش، ومَخَالِبُ تُغْرَزُ فِي الأَعْنَاق، ومَنَاقِيرُ اسْتَبْدَلَتِ الغِنَاءَ بِالعَضِّ وفَقْءِ العُيُون".

- وقال: "نَحْنُ مُحَاصَرُونَ بالشِّعْر، ومُرْغَمُونَ عَلَى كِتَابَةِ القَصَائِد، كَمَا أَرْضُ مِصْرَ تَحْبَلُ بِقُطْنِهَا، وأَرْضُ الشَّامِ بِقَمْحِهَا، وأَرْضُ العِرَاقِ بِتُمُورِها".

التدريب الثاني: حدِّدْ نَوْعَ التَّشْبِيهِ باعْتِبَارِ الأَدَاةِ فيمَا يأتي:

- قال الناقد عبد المالك مُرتاض في محمد البشير الإبراهيمي: "نُدْرِكُ عَبْقَرِيَّة هَذَا الرَّجُلِ مِنْ طَبِيعَةِ كَرَائِمِ اللُّغَةِ المُنْتَقَاة، ومِنْ سِحْرِ النَّسْجِ الأُسْلُوبِيِّ الْمُسْتَمِيزِ بِرِفْعَةِ اللُّغَة، وجَمَالِ الإِيقَاع، وتَقَابُلِ الجُمَلِ مُتَسَلْسِلَةً مُنْسَابَةً كَالمَاءِ الزُّلال، الصَّادِرِ مِنْ اليَنْبُوعِ الثَّرْثَار، وقَدْ كَانَ يَنْشُرُ كِتَابَاتِهِ فِي جَرِيدَةِ البَصَائِر، وهِيَ مَعْرِضُ العَرَبِيَّةِ الرَّاقِيَةِ فِي الأَلْفَاظِ والمَعَانِي والأَسَالِيب، وهِيَ السُّوقُ الَّتِي تُجْلَبُ إِلَيْهَا كَرَائِمُ اللُّغة، وهِيَ مَجْلَى

الفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ فِي نَمَطِهِمَا العَالِي. والإبْرَاهِيمِيُّ – ودَعُونِي أقُولُ أمِيرَ البَيَان- أوَّلُ مَنْ أَطْلَقَ صِفَةَ الكَرَائِمِ عَلَى الأَلْفَاظِ العَرَبِيَّةِ الرَّاقِيَة، فَشَبَّهَهَا بِبَنَاتِ الأكَارِمِ والأَكَابِرِ مِنَ النِّسَاء".

- قال محمد البشير الإبراهيمي: "سَارَتِ الأمَمُ في مَنَاهِجِ العُمْرَانِ عُنُقًا فَسِيحًا، ونَحْنُ في نَوْمَةِ أصْحَابِ الكَهْفِ والرَّقِيم".

- قال أحمد أمين: "ليستْ نَظَرَاتُ الإنْسَانِ إلَى الحَيَاةِ قَوَالِبَ مِنَ الآجُر، كُلُّ قَالَبٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِه، مَحْدُودٌ بِحُدُودِه، إنَّمَا هِيَ شَبِيهَةٌ بِسَائِلٍ لَطِيفٍ إذا لَوَّنْتَ نُقْطَةً مِنْهُ بِلَوْن، شَعَّ اللَّوْنُ فِي سَائِرِ السَّائِل".

- قال نزار قبّاني: "الجُمْهُورُ طِفْلٌ طَيِّب، كَثِيرُ البَرَاءَة، ولْيَعْلَمْ هَؤُلاءِ المَنْفِيُّونَ عَنْ جَنَّةِ النَّاسِ أنَّ الجُمْهُورَ بوْصَلَةٌ بِمُنْتَهَى الذَّكَاءِ والحَسَاسِيَّة، تَعْرِفُ أيْنَ أرْضُ المَطَر، وأيْنَ أَرْضُ السَّرَاب".

- قال ميخائيل نُعيمة: "العِتَابُ صَابُونُ القَلْب".

- قال حكيم: "كَلامُ النَّاسِ مِثْلُ الصُّخُور، إمَّا أنْ تَحْمِلَهَا عَلَى ظَهْرِكَ فَيَنْكَسِر، أوْ تَبْنِيَ بِهَا بُرْجًا تَحْتَ أقْدَامِك، فَتَعْلُو وتَنْتَصِر".

- قال أحد الأدباء: "لا خَيْرَ فِي الأقْلامِ إنْ أَضْحَتْ حُلِّياً كالأسَاوِر."

- قال نزار قباني في أطفال الحجارة:

يا تَلامِيذَ غَزَّة: عَلِّمُونَا بَعْضَ مَا عِنْدَكُم

فَإنَّا نَسِينَا

عَلِّمُونَا بأنْ نَكُونَ رِجَالا

فَلَدَيْنَا الرِّجَالُ صَارُوا عَجِينا

عَلِّمُونَا كَيْفَ الحِجَارَةُ

تَغْدُو بَيْنَ أيْدِي الأطْفَالِ مَاسًا ثَمِينا

كَيْفَ تَغْدُو دَرَّاجَةُ الطِّفْلِ لُعْبا

وشَرِيطُ الحَرِيرِ يَغْدُو كَمِينا

كَيْفَ مَصَّاصَةُ الحَلِيبِ

إذَا مَا حَاصَرُوهَا تَحَوَّلَتْ سِكِّينا.

- قال الشاعر القروي:

أَبْكِـــي وأَضْـــحَكُ لِلْعَـــذَابِ كَمُرْضِـــعٍ شَـــدَّ الوَلِيـــدُ بِشَـــعْرِهَا المُسْتَرْسِـــلِ

- قال أبو القاسم الشابي:

لا يُطْفِـــئُ اللّهَـــبَ المُـــؤجَّجَ فِـــي دَمِـــي مَـــوْجُ الأَسَـــى وعَوَاصِـــفُ الأرْزَاءِ

- وقال الشابي:

إنِّـــي أنَـــا النَّـــايُ الّـــذِي لَا تَنْتَهِـــي أنْغَامُـــهُ، مَـــا دَامَ فِـــي الأحْيَـــاءِ
وأنَـــا الخِضَـــمُّ الرَّحْـــبُ لَـــيْسَ تَزِيـــدُهُ إلَّا حَيَـــاةً سَـــطْوَةُ الأنْـــوَاءِ

- قال محمود غنيم في حفل تكريم الأديب توفيق الحكيم:

إنَّ المَوَاهِـبَ مِثْـلُ الطِّيـبِ لَـوْ حُبِسَـتْ فِـي قُمْقُـمٍ لَرَأيْنَـا رِيحَهَـا غَلَبَـا

- وقال محمود غنيم مفتخرا بقومه في الحرب:

ويَـرَوْنَ جَـوْفَ الرَّمْـلِ أجْمَـلَ فُنْـدُقٍ ورَوَائِـحَ البَـارُودِ تَـنْفَحُ عَنْبَـرَا

- قال علي الجارم:

خُلُـقٌ كَـأمْوَاهِ السَّـحَابِ مُطَهَّـرٌ وسَـرِيرَةٌ كَلآلِـئِ الأصْـدَافِ

- قال مصطفى صادق الرافعي:

لِـي حَبِيـبٌ كَأنَّـهُ الـ ـمَاسُ بَـيْنَ المَعَـادِنِ
أسْـطَعُ النّـاسِ نَجْمَـةً فِـي سَـمَاءِ المَحَاسِـنِ

- قال الشاعر الجزائري الشيخ أحمد سحنون في قصيدة "ابنتاي":

تَبَوَّأتُمَـا مُهْجَتِـي يَـا ابْنَتَيَّـا ولازَمَ طَيْفُكُمَـا مُقْلَتَيَّـا
أرَى البَيْـتَ رَوْضًـا بِشَخْصَـيْكُمَا وإنْ غِبْتُمَـا كَـانَ سِـجْنًا عَلَيَّـا
مَتَـى عُـدْتُ لِلْبَيْـتِ أقْبَلْتُمَـا قَطَـاتَيْن خَفّـاقَتَيْنِ إلَيَّـا

- قال أحمد شوقي في رثاء بطل ليبيا عمر المختار:

يـا أيُّهـا السَّـيْفُ المُجَـرَّدُ بـالفَلا يَكْسُـو السُّـيُوفَ علـى الزَّمَـانِ مَضَـاءَ
تِلْـكَ الصَّـحَارِي غِمْـدُ كُـلِّ مُهَنَّـدٍ أبْلَـى فأحْسَـنَ فِـي العَـدُوِّ بَـلاءَ

- وله في وصف شمس الصيف:

فَحَكَـتْ أشِـعَّتُهَا حِرَابًـا أشْـرَعَتْ بِيضًـا، فَمَـا بِحَدِيـدِهَا أصْـدَاء

- قال عمر أبو ريشة:

تَقْضِـي البُطُولَـةُ أنْ نَمُـدَّ جُسُـومَنَا جِسْـرًا، فقُـلْ لِرِفَاقِنَـا أنْ يعْبُـرُوا

التدريب الثالث: حدّد وجه الشبه فيما يأتي:

- نصح ميخائيل نعيمة الكُتّابَ الشَّبابَ، فقال: "لا بُدَّ لَكُمْ مِنْ مَعِدَةٍ أدَبَيَّةٍ تَهْضِمُ مَا تَلْتَقِطُونَهُ هُنَا وهُنَاك، فَتَحَوِّلُهُ غِذاءً طَيِّبًا لَكُمْ، ولِلَّذِينَ يَقْرَأُونَ مَا تَكْتُبُون، وإلّا كُنْتُمْ كَالإسْفَنْجَة، إذَا غَمَسْتُمُوهَا فِي سَائِلٍ مِنَ السَّوَائِل، ثُمَّ عَصَرْتُمُوها رَدّتْ إلَيْكُمْ مَا امْتَصَّتْهُ عَيْنًا بِعَيْن، ودُونَ زِيَادَةٍ أوْ نُقْصَان، وكُنْتُمْ إذْ ذَاكَ أصْدَاءً فَارِغَة، لا أصْوَاتًا حَيَّة. أمَّا العَارُ الأكْبَرُ فَهُوَ تَقْلِيدُكُم الأعْمَى لِلْغَيْر، أوْ سَرِقَةُ بِضَاعَةِ الغَيْر، وسَارِقُ أدَبِ الأحْيَاءِ والأمْوَاتِ كَمَنْ

يَأْكُلُ لَحْمَ أَخِيهِ نَيْئًا، أَوْ كَمَنْ يَنْهَشُ جِيفَةً فِي قَبْر، وأَمَّا الغُرُورُ فَاقْتَلِعُوا جُذُورَهُ مِنْ صُدُورِكُمْ، فَهُوَ أَشَدُّ فَتْكًا بِكُمْ مِنَ السُّوسِ بالخَشَب".

- قال محمد المويلحي: "انْتَهَى بِنَا طُولُ المَسِير، إِلَى بَيْتِ ذَلِكَ الأَمِير، وكَأَنَّهُ مَيْدَانٌ فِي اتِّسَاعِه، وحِصْنٌ فِي ارْتِفَاعِه، فَخَطَوْنَا فِي بَحْبُوحَةِ المَيْدَان، فَرَأَيْنَا فِي وَسَطِهِ شَجَرَةً كَثِيفَةَ الأَغْصَان، حَنَى قَوَامَهَا تَقَادُمُ الأَزْمَان، كَأَنَّهَا الثَّكْلَى حَلَّتْ شَعْرَهَا فِي مَأْتَمِ الأَحْزَان، وفِي ظِلِّهَا فَرَسٌ يَجِنُّ مِنَ النَّشَاط والمَرَاح، وبِجَانِبِهِ كَبْشُ ضَأْنٍ للنِّطَاح، وحَوْلَهُمَا دِيَكَةُ نِزَالٍ وضِرَاب، مَنَاقِيرُهَا مَسْنُونَةٌ كَالحِرَاب."

- قال نزار قباني: "إنَّ اللُّغَةَ مِثْلُ فَصِيلَةِ الدَّم، ولا يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يُغَيِّرَ فَصِيلَةَ دَمِهِ كُلَّ يَوْم، ثُمَّ إنَّ اللُّغَةَ شَجَرَةٌ تُورِقُ وتُزْهِرُ وتُثْمِرُ كَكُلِّ الأَشْجَار، وكَمَا الشَّجَرَةُ قَابِلَةٌ للتَّلْقِيح، وتَغْيِير شَكْلِ أَوْرَاقِهَا وأَغْصَانِهَا ونَكْهَةِ ثَمَرِها، فإنَّ اللُّغَةَ أَيْضًا قَابِلَةٌ للتَّلْقِيحِ والتَّقْلِيم، بِحَيْثُ تَكْتَسِبُ أَشْكَالًا جَدِيدَةً وإِيقَاعًا جَدِيدًا".

- وكتب عن بعض النُّقاد: "النَّاقِدُ رَجُلُ شُرْطَة، يُطَارِدُ الكَاتِبَ دَاخِلَ كُتُبِه، وبَعْضُ النُّقَادِ عِنْدَنَا مِثْلُ الشَّاحِنَاتِ الكَبِيرَةِ تُفْرِغُ بَضَائِعَهَا فِي مُنْتَصِفِ الشَّارِع، حَتَّى يَتَعَرْقَلَ سَيْرُ القَصَائِد، وتُكْسَرَ أَعْنَاقُ الشُّعَرَاء".

- قال المنفلوطي واصفًا أدب عصر المماليك: "أَصْبَحَ الشِّعْرُ عَلَى عَهْدِ ابْنِ الفَارِضِ والصَّفَدِي والسِّرَاجِ الوَرَّاقِ، وأَمْثَالِهِمْ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِتِلْكَ الآنِيَةِ الصِّينِيَّةِ الَّتِي يَضَعُهَا المُتْرَفُونَ فِي زَوَايَا مَجَالِسِهِمْ، وعَلَى أَطْرَافِ مَوَائِدِهِم، ظَهْرًا زَاهِيًا، وبَطْنًا خَاوِيًا، لا تُشْفِي غَلَّةً، ولا تُسْمِنُ، ولا تُغْنِي مِنْ جُوع".

- وقال المنفلوطي أيضا: "جَزَى اللهُ الإِيمَانَ عَنَّا خَيْرًا، فَهُوَ النَّجْمُ الخَافِق، الَّذِي يَلْمَعُ فِي سَمَاءِ اللَّيْلَةِ المُظْلِمَة، فَيُنِيرُ أَرْجَاءَهَا، وهُوَ الدَّوْحَةُ الفَيْنَانَة، الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا المُسَافِرُ مِنْ حَرُورِ الصَّحْرَاء وسُمُومِهَا، فَيَجِدُ فِي ظِلَالِهَا رَاحَتَهُ وسُكُونَه، وهُوَ الجُرْعَةُ البَارِدَةُ الَّتِي يَظْفَرُ بِهَا الظَّامِئ، فَيُطْفِئُ بِهَا لَوْعَتَه، وهُوَ المَطْرَةُ الشَّامِلَةُ الَّتِي تَنْزِلُ بالأَرْضِ القَاحِلَة، فَتَهْتَزُّ تُرْبَتُهَا، وتَبْعَثُ فِي صَمِيمِهَا القُوَّةَ والحَيَاة".

- قال الإبراهيمي في الاستعمار: "الاسْتِعْمَارُ كالشَّيْطَان، مَلْعُونٌ بِكُلِّ لِسَان، مَمْجُوجٌ اسْمُهُ في كُلِّ سَمْع، مَمْقُوتٌ في كُلِّ نَفْس، مُسْتَنْكَرٌ مِنْ كُلِّ عَقْل".

- قال توفيق الحكيم: "التَّفْكِيرُ فِي أَبْسَطِ صُورَةٍ مِثْلُ طَعَامٍ تُجَهِّزُهُ بِنَفْسِك، بِأَنْ تَفْحَصَ مَوَادَه، وتُنَقِّيَهَا، وتُحَلِّلَهَا، وتُنَسِّقَهَا، وتُنْضِجَها، وهُوَ عَلَى نَقِيضِ الطَّعَامِ المُعَلَّبِ والمَحْفُوظ، لِذَلِكَ عِنْدَمَا تنْعَدِمُ فِي فَرْدٍ أَوْ شَعْبٍ قُدْرَةُ التَّفْكِير، فَإِنَّهُ يَتَقَبَّلُ الأَفْكَارَ الجَاهِزَةَ الَّتِي يُقَدِّمُهَا لَهُ الغَيْرُ دُونَ تَفْكِيرٍ أَوْ تَحْلِيل، وتِلْكَ مَرْتَبَةٌ بُدَائِيَّةٌ فِي الإِنْسَان، تَكَادُ تَقْتَرِبُ بِهِ مِنَ الحَيَوَانِ الَّذِي يَلْتَهِمُ الطَّعَامَ الَّذِي يُقَدَّمُ لَه، أَوْ يُصَادِفُهُ دُونَ أَنْ يَنْظُرَ فِيه".

- قال الشاعر الجزائري محمد جربوعة في وصف الحُسن:

حُسْـــنٌ طَبِيعِـــيُّ الخُطُـــوطِ مُشَـــاغِبٌ ... ومُـــدَلِّلٌ مِثْـــلَ الشَّـــقِيقِ الأَصْـــغَرِ

قَلِـــقٌ كَبَـــارُودِ البَنَـــادِقِ... قَاتِـــلٌ ... مُتَلَاعِـــبٌ كَـــالزِّئْبَقِ المُتَفَجِّـــرِ

- وقال نزار قباني:

مَا دَخَلَ اليَهُودُ في حُدُودِنَا

وإنَّمَا تَسَرَّبُوا كالنَّمْلِ مِنْ عُيُونِنَا.

التدريب الرابع: حدّد صورة كل تشبيه، ومرتبته ممّا يأتي:

- قال المنفلوطي: "مَرَرْتُ صَبَاحَ اليَوْمِ أَمَامَ المِرْآة، فَلَمَحْتُ في رَأْسِي شَعْرَةً بَيْضَاء، تَلْمَعُ في تلك اللَّمَّة السَّوداء، لَمَعَانَ شَرَارَةِ البَرْقِ في اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاء. رَأَيْتُ الشَّعْرَةَ البَيْضَاءَ في مَفْرَقِي، فارْتَعْتُ لِمَرْآهَا، كأَنَّما خُيِّلَ إليَّ أَنَّها سيْفٌ جَرَّدَهُ القَضَاءُ على رَأْسِي، أو عَلَمٌ أبْيَض، يَحْمِلُهُ رَسُولٌ جَاءَ مِنْ عَالَمِ الغَيْب، يُنْذِرُنِي باقْتِرَابِ الأجَل، أوْ خَيْطٌ منْ خُيُوطِ الكَفَنِ الذي تَنْسُجُهُ يدُ الدَّهْر، وتُعِدُّهُ لِبَاسًا لِجُثَّتي. أيَّتُها الشَّعْرَةُ البيضاءُ ما لِي أرَاكِ تَهْمِسِينَ في آذَانِ أخَوَاتِكِ السُّود، اللَّوَاتِي بِجَانِبِك، تُحَاوِلِينَ إغْرَاءَهُنَّ بالتَّشَبُّهِ بِك، والتَّرَدِّي بِرِدَائِك، وكأنِّي بِكِ سَائِحٌ أبْيَض، يَنْزِلُ بِأُمَّةِ الزِّنْجِ مُسْتَكْشِفًا، فَيُصْبِحُ مُسْتَعْمِرًا".

- قال ميخائيل نعيمة: "إذَا شِئْنَا أنْ نَرْفَعَ آدَابَنَا مِنَ المُسْتَنْقَعَاتِ الَّتِي تَتَمَرَّغُ فِيهَا فَعَلَيْنَا أنْ نَسْعَى لِوَضْعِ أُسُسٍ مَتِينَةٍ لَه، وذَلِكَ بِتَرْبِيَةِ أذْوَاقِنَا، حَتَّى إذَا نَهَضْنَا كَانَتْ نَهْضَتُنَا نَهْضَةَ جَبَّارٍ أفَاقَ مِنْ نَوْمٍ طَوِيل، لا نَهْضَةَ عَاجِزٍ فَتَحَ عَيْنَيْهِ لِيَرَى المَوْتَ أمَامَه".

- قال البشير الإبراهيمي: "الجَزَائِرُ العَرَبِيَّةُ المُسْلِمَةُ الصَّابِرَةُ هي غُصْنٌ فَيْنَانُ مِنْ دَوْحَةِ الإسْلام، وفَرْعٌ رَيَّانُ مِنْ شَجَرَةِ العُرُوبَة، وزَهْرَةٌ فَوَّاحَةٌ مِنْ رِيَاضِ الشَّرْق، تَغَرَّبَتْ هَذِهِ الزَّهْرَةُ كَمَا تَغَرَّبَتْ قَبْلَهَا نَخْلَةُ عَبْدِ الرَّحْمَانِ الدَّاخِل".

- قال نزار قبّاني: "إنَّ الشَّاعرَ العَرَبِيَّ القَدِيمَ هو صَيَّادُ مُصَادَفَاتٍ مِنَ الطِّرَازِ الأوَّل، فهو يَنْتَقِلُ مِنْ وَصْفِ سَيْفِهِ إلى ثَغْرِ حَبِيبَتِه، ويَقْفِزُ مِنْ سَرْجِ حِصَانِهِ إلى حِضْنِ الخَلِيفَةِ بِخِفَّةِ بَهْلَوَان".

- وقال نزار قباني في أطفال الحجارة:

يَرْمِي حَجَرًا
أوْ حَجَرَيْن
يَقْطَعُ أفْعَى إسرائيل إلَى نِصْفَيْن
يَمْضَغُ لَحْمَ الدَّبَّابَات
ويَأْتِينَا مِنْ غَيْرِ يَدَيْن
تَسْأَلُ عَنْهُ الصُّحُفُ الكُبْرى
أيُّ نَبِيٍّ هَذَا القَادِم مِنْ كَنْعَان؟
أيُّ صَبِيّ
هذا الخَارِج مِنْ رَحِمِ الأحْزَان؟
أيُّ نَبَاتٍ أسْطُوريّ
هذا الطَّالِع مِنْ بَيْنِ الجُدْرَان؟
أيّ نُهُورٍ منْ يَاقُوت

فَاضَتْ مِنْ وَرَقِ القُرْآن؟
مَنْ هو هذا الوَلَدُ الطَّالِعُ
مثلَ الخُوخِ الأحْمَر
مِنْ شَجَر النِّسْيَانْ؟

- وقال نزار:

مِـــنْ أَيْـــنَ أَدْخُـــلُ القَصِـــيدَةَ يَـــا تُـــرَى ... وحَـــدَائِقُ الشِّـــعْرِ الجَمِيـــلِ خَـــرَابُ؟
نَـــارُ الكِتَابَـــةِ أَحْـرَقَـــتْ أَعْمَـــارَنَا ... فَحَيَـــاتُنَـــا الكِبْـــرِيـــتُ والأَحْطَـــابُ

- قال محمود غنيم في قصيدة (راتبي):

ولِـــي رَاتِـــبٌ كَالمَـــاءِ تَحْوِيـــهِ رَاحَتِـــي ... فَيُفْلِـــتُ مِـــنْ بَـــيْنِ الأَصَـــابِعِ هَارِبَـــا

- قال محمود غنيم:

إِذَا مَـــا عِشْـــتَ فِـــي جِيـــلٍ جَدِيـــدٍ ... فَإِنَّـــكَ فِيـــهِ أَشْـــبَهُ بِـــاليَتِيمِ

- قال أمين نخلة في مدح بشارة الخوري:

عَمْـــرَكَ اللهُ : هَـــلْ رَأَيْـــتَ كَبَيْـــتِ ... الشِّـــعْرِ كَهْفًـــا يَـــأْوِي إِلَيْـــهِ الضَّـــمِيرُ؟

- قال علي الجارم:

أَسْـــعَدُوا شَـــعْبَهُمْ فَكَـــانُوا سَـــحَابًا ... وحَمَـــوْا عَرْشَـــهُمْ فَكَـــانُوا أُسُـــودَا
واسْتَحَثُّـــوا الخُطَـــا فَكَـــانُـــوا بُـــرُوقًـــا ... وعَـــلَا صَوْتُهُـــمْ فَكَانُـــوا رُعُـــودَا

- قال نسيب عريضة:

كُـــنْ مِثْـــلَ شَـــمْسٍ مَنَحَـــتْ نُورَهَـــا ... لِكُـــلِّ مَخْلُـــوقٍ ولا تُشْـــكَر

- قال إلياس فرحات في سلاطين العرب الذين ضيّعوا البلاد:

مُلُـــوكٌ ظَنَنَّـــاهُمْ صُـــقُورًا وعِنْـــدَمَا ... غُزِينَـــا رَأَيْنَـــا صَـــاحِبَ التَّـــاجِ هُدْهُـــدَا

- وقال إلياس فرحات:

فَـــرَّ عُصْـــفُورُ شَـــبَابِي مِـــنْ يَـــدَيَّا ... تَارِكًـــا فِـــي مُهْجَتِـــي جَمْـــرًا ذَكِيَّـــا

- قال إيليا أبو ماضي:

فَكَـــانَ كَالكَوْكَـــبِ يَمْشِـــي عَلَـــى ... ضِـــيَائِهِ الرَّكْـــبُ وذِئْـــبُ الفَـــلَاةْ
وكَـــانَ كَالغَيْـــثِ إِذَا مَـــا هَمَـــى ... أَصَـــابَ فِـــي الأَرْضِ الحَصَـــى والنَّبَـــاتْ

تَقْسِيمُ التَّشْبِيهِ إلى مَلْفُوفٍ ومَفْرُوقٍ وتَسْوِيَةٍ وجَمْع

1/ التَّشْبِيهُ المَلْفُوف: وهُوَ مَا أُوتِيَ فِيهِ بِالمُشَبَّهَاتِ أوَّلا عَلَى طَرِيقَةِ العَطْف، أوْ غَيْرِه، ثُمَّ بِالمُشَبَّهَاتِ بِهَا كَذَلِك[1]، وهُوَ مِنْ أَبْلَغِ أنْوَاعِ التَّشْبِيهِ الأرْبَعَة، "ويسمُّون هذا النوع (ملفوفا) لأنَّ المتكلمَ لفّ المشبهات معا، والأشياء المشبه بها كذلك."[2] ومن أجمل ما قرأت لهذا النوع من التشبيه ما أنشده علي الجارم في مدح الملك فاروق:

كَـــــأنَّ أيَّامَـــــهُ والبِـــــرُّ يَغْمُرُهَـــــا صَـــحَائِفُ الطُّهْـــرِ فِـــي أيْمَـــانِ أبْـــرَارِ

فالشاعر شبّه أيّامَ المَلِك بالصُّحُفِ المُطَهَّرَة، وشبّه البِرّ فيها بأيْمَانِ الأبرار يوم القيامة، ومما يلاحظ على هذا التشبيه أن الشاعر أتى بالمشبهين أوّلًا (أيام الملك، والبرّ)، ثم أتى بالمشبهين بهما (الصّحائف، وأيمان الأبرار).

- قال مصطفى صادق الرافعي في تشبيه ليله، والنجوم التي تضيء ظلماته، بنعش الموت الذي تحفُّه الزهور من كل الجهات:

فَاللَّيْـــلُ عِنْـــدِي والنُّجُـــومُ تَزِينُـــهُ كَـــالنَّعْشِ تَجْعَلُـــهُ الزُّهُـــورُ مُزَخْرَفَـــا

فالشاعرُ كما ترى قد شبّه ليلَه بالنعش، وشبه نجومَ ليله بالزهور التي تحفُّ الضريح أو النعش، لكنه فضّل أن يأتي بالمشبهين على حِدا (الليل والنجوم) على طريقة العطف، ثم يأتي بالمشبهين بهما (النعش والزهور).

- قال محمود سامي البارودي:

مَـــرَّتْ عَلَيْنَـــا تَهَـــادَى فِـــي صَوَاحِبِهَـــا كَالبَـــدْرِ فِـــي هَـــالَةٍ حَفَّـــتْ بِهِ الشُّهُـــبُ

كَـــأَنَّ غُرَّتَهَـــا مِـــنْ تَحْـــتِ طُرَّتِهَـــا فَجْـــرٌ بِجَانِحَـــةِ الظَّلْمَـــاءِ مُنْتَقِـــبُ

فالبارودي في البيت الأول يشبه من يتغزل بها بالبدر، ويشبه رفيقاتها بالشهب، غير أنه أتى بالمشبهين أولا، ثم بالمشبهين بهما، وكذلك فعل في البيت الثاني، حيث شبه غُرَّتَها (وجهها) بالفجر، وشعرَها بالليلة الظّلماء.

- قال معروف الرصافي يصف كرة القدم وجمْع اللاعبين:

فَتَخَالُهَـــــا وتَخَالُـــــهُ كَفَرِيسَـــــةٍ سَـــقَطَتْ فَزَمْجَـــرَ دُونَهَـــا الضِّـــرْغَامُ

فالشاعر شبه كرة القدم بالفريسة، وشبه جمع اللاعبين بالضرغام، غير أنه أتى بالمشبهين أوّلا من خلال الضميرين، ثم بالمشبهين بهما.

- وقال الرصافي في وصف روضة:

حَيْـــثُ الغُصُـــونُ مَـــعَ النَّسِـــيمِ مَوَائِـــلٌ فَكَـــــأَنَّهُنَّ مَعَـــــاطِفٌ وخُصُـــــورُ

[1] المفصل في علوم البلاغة العربية الدكتور عيسى علي العاكوب ص 366

[2] البلاغة فنونها وأفنانها الدكتور فضل حسن عباس ص 52

حيث ذكر المشبهين أولا (الغصون والنسيم)، ثم المشبهين بهما (المعاطف والخصور).

إلى أن قال:

وكَـــأَنَّ مُحْمَـــرَّ الشَّـــقِيقِ وحَوْلَـــهُ فِـــي الـــرَّوْضِ زَهْـــرُ اليَاسَـــمِينِ يَمُـــورُ

شَـــمْعٌ تَوَقَّـــدَ فِـــي زُجَـــاجٍ أَحْمَـــرٍ فَغَـــدَا حَوَالَيْـــهِ الفَـــرَاشُ يَـــدُورُ

مشبّها شقائقَ النعمان بالشمع المتّقد، وزهرَ الياسمين بالفَراش على نهج التشبيه الملفوف.

- وقال الله درُّهُ يصف جبلا من جبال لبنان:

وتَـــرَى النُّجُـــومَ عَلَـــى ذُرَاهُ كَـــأَنَّهَـــا مِـــنْ فَـــوْقِـــهِ دُرَرٌ عَلَـــى تِيجَـــانِ

حيث شبه النجوم بالدرر، وشبه الجبال بالتّيجان، والملاحَظ أنّ الشاعر أتى بالمشبهين على حِدَا (النجوم، والجبال)، ثم المشبهين بهما (الدّرر، والتيجان).

- ومن التشبيه الملفوف قول إيليا أبي ماضي:

كَـــأَنَّ الفَضَـــاءَ وفِيـــهِ الطُّيُـــورُ بُحُـــوٌر بِهَـــا سُـــفُنٌ سَـــابِحَاتْ

فالشاعر شبه الفضاء بالبحور، وشبه الطيور بالسفن السابحات، حيث أتى بالمشبهين أوّلا على طريقة العطف، ثم بالمشبهين بهما.

2/ التَّشْبِيهُ المَفْرُوق: وهُوَ أنْ يَجْمَعَ الأدِيبُ كُلَّ مُشَبَّهٍ مَعَ مَا شبَّهَهُ بِه، أيْ أنَّهُ يَأْتِي بِمُشَبَّهٍ، ومُشَبَّهٍ بِه، ثُمَّ بِآخَرَ وآخَر، وهَكَذَا[1]. "وسمُّوا هذا مفروقا لأنَّ المتكلمَ فرّق بين التشبيهات، فجاء كلٌّ مستقلا عن صاحبه."[2]

- قال ميخائيل نعيمة: "يَوْمَ نَادَى مُنَادِي الحَرْب، نَادَتِ البَشَرِيَّةُ بِالهَزِيمَة، فَالعَدْلُ مِدْفَعٌ ثَرْثَار، والرَّأْفَةُ طَيَّارَةٌ تَزْرَعُ البَوَار، والحَقُّ دَبَّابَةٌ تَقْذِفُ النَّار، والحُبُّ سَيْفٌ فِي يَدِ البَغْضَاء، والصِّدْقُ عِلْكٌ فِي فَمِ الرِّيَاء، والمُرُوءَةُ نَعْلٌ لِلْخَسَاسَة، والطُّهْرُ خُلْخَالٌ لِلرَّجَاسَة، والحُرِيَّةُ طُعْمٌ لِلْغَوْغَاء، والإِيمَانُ مَطِيَّةٌ لِأَحَطِّ الرَّغَائِبِ والأَهْوَاء."

فالكاتب كما لاحظت قد جمع كل مشبه مع ما شبهه به، فالعدل مشبه، والمدفع مشبه به، والرأفة مشبه، والطيارة مشبه به، والحق مشبه، والدبابة مشبه به، والحب مشبه، والسيف مشبه به... وهكذا دواليك.

- قال معروف الرصافي واصفا حبه للبنان:

إِذَا كَـــانَ لُبْنَـــانُ كَلَيْلَـــى مَحَاسِـــنًا فَـــلَا تَعْجَبُـــوا مِـــنْ أَنَّنِـــي اليَـــوْمَ قَيْسُـــهُ

فالشاعر شبه لبنان بليلى، وشبه نفسه بقيس، لكنه هذه المرة فضّل التشبيه المفروق، وفصل بين التشبيهين: حيث أتى بالمشبه الأول: (لبنان) رفقة المشبه به الأول (ليلى)، ثم جاء دور المشبه الثاني (الشاعر) ليمثّل (قيسُ) دورَ المشبه به الثاني.

- وقال الرصافي في وصف الحرب:

والأُفْـــقُ مُحْمَـــرَّةٌ جَوَانِبُـــهُ كَأَنَّمَـــا الجَـــوُّ مِلْـــؤهُ لَهَـــبُ

[1] المفصل في علوم البلاغة العربية ص 367
[2] البلاغة فنونها وأفنانها ص 52

والمَـــوْتُ كَـــالكَبْشِ فِـــي جَوَانِبِـــهِ يَرْعَـــى نُفُوسًـــا كَأَنَّهَـــا عُشُـــبُ

فالشاعر قد جمع كلّ مشبه مع ما شبهه به، بحيث شبه الموتَ بالكبش، والأنفسَ بالعشب على طريقة التشبيه المفروق.

- قال محمود غنيم في حفل أقيم تكريما للدكتور طه حسين:

كَـــأَنَّ مِـــدَادَهُ شَـــهْدٌ مُصَـــفّى كَـــأَنَّ سُـــطُورَهُ بَسَـــمَاتُ غِيـــدِ

- قال محمد العيد آل خليفة:

هَـــذِهِ الأَرْضُ لِلْقَـــوِيِّ سِـــمَاطَ لَـــيْسَ فِيهَـــا غَيْـــرُ الضَّـــعِيفِ طَعَـــامُ

لعلك لاحظت أن الشاعر شبه الأرض بالسماط، وشبه الضعيف فيها بالطعام، لكن كيف قدّم الشاعر هذا التشبيه؟ إنه قد فصل بين كل تشبيه، حيث أتى بالمشبه الأول (الأرض) في صحبة المشبه به الأول (السّماط)، ثم أتى بالمشبه الثاني (الضعيف)، مصحوبا بالمشبه به الثاني (طعام).

- قال رشيد أيوب شاعر المهجر:

وبَـــدَتْ طَلَائِـــعُ مُقْلَتَيْـــكَ فَأَثْخَنَـــتْ بِسُـــيُوفِهَا أَهْـــلَ الغَـــرَامِ جِرَاحَـــا

فَكَأَنَّمَـــا العُشَّـــاقُ آلُ أُمَيَّـــة وكَـــأَنَّ طَرْفَـــكَ أَصْـــبَحَ السَّـــفّاحَا

فالشاعر قد فَصَلَ بين كلّ تشبيه، بمعنى أنه أتى بالمشبه الأول (العُشاق)، ومعه المشبه به (آل أميّة)، ثم أتى بالمشبه الثاني (الطّرف)، مصحوبا بالمشبه به (السفاح أبو العباس).

- قال أحمد شوقي:

ولَـــمْ أَرَ كَالأَحْـــدَاثِ سَـــهْمًا إِذَا جَـــرَتْ ولَا كَاللَّيَـــالِي رَامِيًـــا يُبْعِـــدُ المَرْمَـــى

فالشاعر قد جمع كلّ مشبه مع ما شبهه به، حيث جمع بين الأحداث والسهم، ثم جمع بين الليالي والرّامي، والأول منهما مشبه، والثاني مشبه به.

ومثله قول شوقي أيضا:

والمَـــالُ – مُـــذْ كَـــانَ – تِمْثَـــالٌ يُطَـــافُ بِـــهِ والنَّـــاسُ – مُـــذْ خُلِقُـــوا – عُبَّـــادُ تِمْثَـــالِ

فالشاعر قد جمع كلّ مشبه مع ما شبهه به، حيث جمع بين المال والتمثال، ثم جمع بين الناس وعبّاد التمثال، الأول منهما مشبه، والثاني مشبه به.

ومن التشبيه المفروق قول حافظ إبراهيم:

وأَنْشَـــأْتُ فِـــي صَـــدْرِي لِحُسْـــنِكَ دَوْلَـــةً لَهَـــا الحُـــبُّ جُنْـــدٌ والـــوَلَاءُ سَـــفِيرُ

فُـــؤَادِي لَهَـــا عَـــرْشٌ وأَنْـــتَ مَلِيكُـــهُ ودُونَـــكَ مِـــنْ تِلْـــكَ الضُّـــلُوعِ سُـــتُورُ

ومنه كذلك قول حافظ في المديح:

صَوَالِجُـــهُ سُمْـــرُ القَـــنَـــا، وكُـــرَاتُـــه رُؤُوسُ الأَعَـــادِي، والحُصُـــونُ مَلَاعِبُـــه

3/ تَشْبِيهُ التَّسْوِيَة: وهُوَ أنْ يَتَعَدَّدَ المُشَبَّه، ويَبْقَى المُشَبَّهُ بِهِ وَاحِدًا.[1] "ويسمى هذا النوع التسوية لأنّ المتكلم سوّى بين المشبهات بحيث جعل لها مشبها به واحدا."[2]

كقول الشاعر الجزائري رمضان حمّود:

إنَّمَـــا قَلْبِـــي ورُوحِـــي وفَمِـــي آلَـــةٌ تَسْـــعَى لِرَفْـــعِ الضَّـــرَرِ

فالشاعر عدد المشبه (القلب والرّوح والفم)، لكن المشبه به واحد (آلة).

وكقول أحمد شوقي في وصف الحبيب المصطفى:

سَـــنَاؤُهُ وسَـــنَاهُ الشّـــمْسُ طَالِعَـــةً فَـــالجِرْمُ فِـــي فَلَـــكٍ والضَّـــوْءُ فِـــي عَلَـــمِ

فالشاعر قد عدد المشبه (سناؤه: رِفعته)، و(سناه: نوره)، بينما كان المشبه به واحدا (الشمس).

وكقول أحمد شوقي كذلك:

إنَّمَـــا السِّـــحْرُ والبَلَاغَـــةُ والحِكْـــ ـــمَةُ بَيْـــتٌ، كِلاهُمَـــا مِصْـــرَاعَه

وكقوله أيضا:

المَجْـــدُ والشَّـــرَفُ الرَّفِيـــعُ صَـــحِيفَةٌ جُعِلَـــتْ لَهَـــا الأَخْـــلَاقُ كَـــالعُنْوَانِ

قال معروف الرصافي في الرثاء:

والـــدَّمْعُ والشِّـــعْرُ مِمَّـــنْ قَـــدْ بَكَـــى بِهِمَـــا كِلَاهُمَـــا حَكَيَـــا فِـــي يَوْمِـــهِ الـــدُّرَرَا

وكقول محمد العيد آل خليفة عن بلاده الجزائر:

فَكُـــلُّ لَيَالِيهَـــا وأيَّامِهَـــا لَنَـــا وَلَائِـــمُ لَـــمْ تَبْـــرَحْ تَلِيهَـــا وَلَائِـــمُ

وكقول الشاعر:

العُمْـــرُ والإنْسَـــانُ والـــدُّنْيَا هُـــم كالظِّـــلِّ فِـــي الإقْبَـــالِ والإدْبَـــارِ

ومنه قول الشاعر:

فَمَـــا المَـــالُ والعَيْـــشُ إلّا كَطَيْـــفِ خَيَـــالٍ سَـــرَى طَـــارِقًا فِـــي مَنَـــامِ

ومن أمثلته في النثر قول البشير الإبراهيمي: "يَمُرُّ الزَّمَنُ، ويَبْقَى اللِّسَانُ العَرَبِيُّ، والبَيَانُ العَرَبِيُّ، والشِّعْرُ العَرَبِيُّ رُسُلًا صَادِقِين".

وقول المنفلوطي: "وما الآرَاءُ السَّامِيَةُ والأفْكَارُ النَّاضِجَةُ التي رَفَعَتْ شَأْنَ المَدَنِيَّةِ الحَدِيثَة إلَّا أبْخِرَةُ الأدْمِغَةِ بِنِيرَانِ الهُمُوم".

4/ تَشْبِيهُ الجَمْع: وهُوَ عَكْسُ تَشْبِيهِ التَّسْوِيَة، وذَلِكَ حِينَ يَتَعَدَّدُ المُشَبَّهُ بِه، ويَبْقَى المُشَبَّهُ وَاحِدًا[3]. "ويسمى هذا النوع من التشبيه (الجمع) لأن المتكلم جمع مشبهات بها متعددة لمشبه واحد."[4]

---

[1] المفصل في علوم البلاغة العربية ص 367
[2] البلاغة فنونها وأفنانها. فضل حسن عباس ص 51.
[3] المفصل في علوم البلاغة العربية ص 368
[4] البلاغة فنونها وأفنانها ص 50.

كقول الشاعر الجزائري محمد جربوعة في الغزل:

عَيْنَـــاكِ مَحْبَرَتَـــا شَـــيْخٍ بِصَـــوْمَعَةٍ أوْ وَمْضَـــتَانِ عَلَـــى خَيْطَـــيْنِ مِـــنْ مَطَـــرِ

لعلك أدركت من غير مشقة أنّ المشبه به متعدد: المحبرتان، والومضتان، والمشبه واحد: العينان.

أو كقول خليل مطران:

إذَا مَـــا تَرَدَّيْـــتِ البَيَـــاضَ لِتَنْجَلِـــي فَكَالشَّـــمْسِ يَجْلُوهَـــا الصَّـــبَاحُ لِتَسْـــطَعَا

وإنْ تُـــؤثِرِي سُـــودَ المَطَـــارِفِ مَلْبَسًـــا فَكَالبَـــدْرِ يَخْتَـــارُ اللَّيَـــالِيَ مَطْلَعَـــا

المشبه واحد: المحبوبة، أما المشبه به فمتعدد: الشمس حين ترتدي هذه المحبوبة البياض، والبدر حين ترتدي السواد.

أو كقول حافظ إبراهيم:

خُلُـــقٌ كَضَـــوْءِ البَـــدْرِ أوْ كَـــالرَّوْضِ أوْ كَـــالزَّهْرِ، أوْ كَـــالخَمْرِ، أوْ كَالمَـــاءِ

أو كقوله:

الأمُّ مَدْرَسَـــــــةٌ إذَا أعْـــــــدَدْتَهَا أعْـــدَدْتَ شَـــعْبًا طَيِّـــبَ الأعْـــرَاقِ

الأمُّ رَوْضٌ إنْ تَعَهَّـــــــدَهُ الحَيَـــــــا بِـــــالرَّيِّ أوْرَقَ أيَّمَـــــا إيـــــرَاقِ

أو كقول مفدي زكريا في قصيدة "الذبيح الصاعد":

قَـــامَ يَخْتَـــالُ كَالمَسِـــيحِ وَئِيـــدَا يَتَهَـــادَى نَشْـــوَانَ، يتْلُـــو النَّشِـــيدَا

بَاسِـــمَ الثَّغْـــرِ كَالمَلائِـــكِ أوْ كالطَّـــ ـــفْلِ يَسْـــتَقْبِلُ الصَّـــبَاحَ الجَدِيـــدَا

حَالِمًـــا كَـــالكَلِيمِ كَلَّمَـــهُ المَجْـــ ـــدُ فَشَـــدَّ الحِبَـــالَ يَبْغِـــي الصُّـــعُودَا

وتَسَـــامَى كَـــالرُّوحِ فِـــي لَيْلَـــةِ القَـــدْ رِ سَـــلامًا يَشِـــعُّ فِـــي الكَـــوْنِ عِيـــدَا

أو كقول نزار قباني:

وأنَـــا كَالطِّفْلَـــةِ فِـــي يَـــدِهِ كَالرِّيشَـــةِ تَحْمِلُهَـــا النَّسَـــمَاتْ

أو كقوله:

وأَنْتَظِرُ الصَّوْتَ..

صَوْتَكَ يَهْمِي عَلَيَّ

كَصَوْتِ نَبِيٍّ

كَصَوْتِ ارْتِطَامِ النُّجُومِ

كَصَوْتِ سُقُوطِ الحُلَيِّ

ومنه في النثر قول مصطفى لطفي المنفلوطي: "إنَّ صَدِيقَكَ هُوَ حَقْلُكَ الَّذِي تَزْرَعُهُ بِالمَحَبَّة، وتَحْصُدُهُ بِالشُّكْر، هُوَ مَائِدَتُكَ ومَوْقِدُك، لأنَّكَ تَأْتِي إلَيْهِ جَائِعًا، وتَسْعَى وَرَاءَهُ مُسْتَدْفِئًا".

ومنه قول مي زيادة في "دَمْعَةٌ عَلَى المُغَرِّدِ الصَّامِتْ": "مَاتَ الصَّغِيرُ المُغَرِّد، مَاتَ صَغِيرُ حُشَاشَتِي، شُعَاعٌ ذَهَبِيٌّ أَطَلَّ حِينًا، واخْتَفَى فِي كَبِدِ الآفَاق، ابْتِسَامَةُ لُطْفٍ أَشْرَقَتْ، ومَا لَبِثَتْ أَنْ تَوَارَتْ فِي أَخْفِيَةِ الظَّلَام، وَرْدَةُ أَثِيرٍ تَنَفَّسَتْ، فَعَطَّرَتْ وأسْكَرَتْ، ثُمَّ ذَبُلَتْ، نَغْمَةُ حُبٍّ تَمَوَّجَتْ سَاعَةً، ثُمَّ تَلَاشَتْ فِي هَاوِيَةِ السَّكِينَة، هَذِهِ قِيثَارَتِي، فَقَدَتْ أَحَدَ أَوْتَارِهَا، فَنَاحَتْ بَلَابِلُ أَنْغَامِهَا، فَمَا أَتْعَسَ القُلُوبَ الشَّدِيدَةَ التَّأَثُّر! ومَا أَمَرَّ الجُرْحَ الصَّغِيرَ الَّذِي يَفْتَحُ جِرَاحَاتٍ كَبِيرَة!".

تدريب: حدّد نوع كل تشبيه ممّا يأتي:

- قال جبران خليل جبران معلّقا على الشاعر الجيّد، والشاعر المقلّد: "أَمَّا المُقَلِّدُ فَمُقَلِّدٌ حَتَّى فِي حُبِّهِ وغَزَلِهِ وتَشْبِيهِه، فَإِنْ ذَكَرَ وَجْهَ حَبِيبَتِهِ وعُنُقَهَا، قَالَ: بَدْرٌ، وغَزَال، وإِنْ خَطَرَ عَلَى بَالِهِ شَعْرُهَا، وقَدُّهَا، ولَحْظُهَا قَالَ: لَيْلٌ، وغُصْنُ بَانٍ، وسِهَام، وإِنْ شَاءَ أَنْ يَأْتِيَ بِمُعْجِزَةٍ بَيَانِيَّةٍ قَالَ: حَبِيبَتِي تَسْتَمْطِرُ لُؤْلُؤَ الدَّمْعِ مِنْ نَرْجِسِ العُيُون، لِتَسْقِيَ وَرْدَ الخُدُود، وتَعُضُّ عَلَى عُنَّابِ أَنَامِلِهَا بِبَرَدِ أَسْنَانِهَا."

- قال الكاتب محمد المويلحي يصف مأدبة عشاء: "وقَامَ الأَمِيرُ يَمْشِي أَمَامَ الصُّفُوفِ فِي خُيَلَائِه، مِشْيَةَ القَائِدِ يَوْمَ بَلَائِه، وفَتَحَ البَاب، ولَا فَتْحَ سَعْدٍ لِلْقَادِسِيَّة، والمُعْتَصِمِ لِعَمُّورِيَّة، ومُحَمَّدٍ لِلْقُسْطَنْطِينِيَّة، ودَخَلَتْ فِي إِثْرِهِ صُفُوفُ الجُمُوع، وهُمْ فِي سُكُونٍ وخُشُوع، دُخُولَ التُّقَاةِ لِلصَّلَاة، والعُفَاةِ لِلصِّلَات، ثُمَّ مَا لَبِثُوا أَنْ هَجَمُوا عَلَى المَائِدَةِ هُجُومَ الفَوَارِسِ البَوَاسِل، عَلَى الحُصُونِ والمَعَاقِل، لَا بَلْ هُجُومَ الأُسُودِ الضَّارِيَة، عَلَى الأَشْلَاءِ الدَّامِيَة، والذِّئَابِ الخَاوِيَة، عَلَى الشِّيَاهِ الرَّاعِيَة، واشْتَدَّ الزِّحَام، وزَلَّتِ الأَقْدَام، وضَلَّتِ المَذَاهِب، واصْطَكَّتِ المَنَاكِب، وشَخَصَتِ الأَحْدَاق، وامْتَدَّتِ الأَعْنَاق، وتَحَرَّكَتِ الأَشْدَاق، وتَقَارَعَتِ الأَطْبَاق، وتَصَاوَلَتِ الأَيْدِي بِالمُدَى، كَالظُّبَى فِي الوَغَى، والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاق، واشْتَدَّ الهَوْلُ وضَاقَ الخِنَاق، ثُمَّ انْجَلَتِ المَعْمَعَةُ عَنْ شُهَدَاءِ التَّخَم، وأُسَرَاءِ البَشَم، وقَتْلَى الطَّعَام، وصَرْعَى المُدَام."

- قال نزار قباني: "كانَتْ قَصَائِدُنَا فَصِيلَةً مِنَ الدَّوَاجِن، تَرْقُدُ كُلَّ عَامٍ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا على بُيُوضِهَا، ثُمَّ تَكْتَشِفُ أَنَّ بَيْضَهَا فَارِغ، وحَمْلَهَا كَاذِب، الشِّعْرُ بَعْدَ حُزَيْرَانَ يَكُونُ قِطْعَةَ سِلَاحٍ أَوْ لا يَكُون، يَكُونُ بُنْدُقِيَّة، لُغْمًا أَوْ لا يَكُون، لمْ تَعُدِ القَصَائِدُ العَرَبِيَّةُ الحَدِيثَةُ حَمَامًا زَاجِلًا يَحُطُّ على كَتِفِ أَمِيرِ المُؤْمِنِين، ويَنْقُرُ الحَبَّ مِنْ رَاحَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِين، صَارَتِ القَصَائِدُ فَوْجًا مِنَ الذِّئَابِ الجَائِعَةِ لا يَرُدُّها شَيْء، صَحِيحٌ لَيْسَ مِنْ وَظِيفَةِ الشِّعْرِ أَنْ يَتَحَوَّلَ إلى ذِئْب، ولكنْ حِينَ يَدْخُلُ رُمْحُ إِسْرَائِيلَ إلى هذا المَدَى مِنْ كِبْرِيَائِنَا، وحِينَ يُسَافِرُ في أَنْسِجَتِنَا وأَعْصَابِنَا، ولا أَحَدَ يَسْأَلُهُ إلى أَيْن؟ يُصْبِحُ الشِّعْرُ هَجْمَةً انْتِحَارِيَّةً تُدَمِّرُ الأَرْضَ والسَّمَاءَ جَمِيعا".

- قال الشاعر القروي يصف الشَّعْرَةَ البَيْضَاء:

كَـــأَنَّ الشَّـــعُورَ السُّـــودَ أَعْصُـــرُ ظُلْمَـــةٍ ... بَـــدَا بَيْنَهَـــا عَصْـــرٌ أَغَـــرُّ مَجِيـــدُ

كَـــأَنَّ سَـــوَادَ الفَـــوْدِ حَيْـــرَةُ جَاهِـــلٍ ... تَصَـــدَّى لَهَـــا رَأيٌ أَجَـــلُّ سَـــدِيدُ

تَجَلَّـــتْ عَلَـــى عَـــرْشِ الشَّـــبَابِ كَسَـــيِّدٍ ... حَوَالَيْـــهِ مِـــنْ سُـــودِ الشَّـــعُورِ عَبِيـــدُ

- قال نزار قباني:

سَـــكَنَ الحُـــزْنُ كَالعَصَـــافِيرِ قَلْبِـــي فَالأَسَـــى خَمْـــرَةٌ وقَلْبِـــي الإنَـــاءُ

- قال محمود سامي البارودي:

كَـأَنَّ اهْتِـزَازَ القُـرْطِ فِـي صَـفْحِ جِيـدِهَا سَـنَا كَوْكَـبٍ فِـي مَطْلَـعِ الفَجْـرِ لَائِـحُ

- وقال البارودي:

كَـــالوَرْدِ خَـــدًّا والبَنَفْسَـــجِ طُـــرَّةً والغُصْـــنِ خَـــدًّا والغَزَالَـــةِ مَلْفَتَـــا

- قال أبو القاسم الشابي:

عَذْبَـــةٌ أنْـــتِ كَالطّفُولَـــةِ كَـــالأحْلام كَـــاللّحْنِ، كَالصَّـــبَاحِ الجَدِيـــد

كَالسَّـــمَاءِ الضَّـــحُوكِ، كَاللّيْلَـــةِ القَمْـــرَاء كَـــالوَرْدِ، كَابْتِسَـــامِ الوَلِيـــد

- قال الشاعر محمد جربوعة:

وأَفْهَـــمُ كَيْـــفَ تُحْرِجُهَـــا الصَّـــبَايَا كَسُـــنْبُلَةٍ تُحَاصِـــرُهَا الحُقُـــولُ

- قال أحمد شوقي في الوصف:

ولَقَـــدْ تَمُـــرُّ عَلَـــى الغَـــدِيرِ تَخَالُـــهُ والنَّبْـــتَ مِـــرْآةً زَهَـــتْ بِإطَـــارِ

حُلْـــوَ التَّسَلْسُـــلِ مَوْجُـــهُ وخَرِيـــرُهُ كَأَنَامِـــلٍ مَـــرَّتْ عَلَـــى أَوْتَـــارِ

- وقال شوقي مادحا ومفتخرا:

وكَأَنَّـــهُ فِـــي الفَـــتْحِ عَمُّورِيَّـــةٌ وكَـــأَنَّنِي فِيـــهِ أَبُـــو تَمَّـــامِ

- وقال شوقي:

ظَمِئْـــتُ ومِثْلِـــي بِـــرَيٍّ أَحَـــقُّ كَـــأَنِّي حُسَـــيْنٌ ودَهْـــرِي يَزِيـــدُ

- قال معروف الرصافي في وصف روضة:

مَثَلَـــتْ بِهَـــا الأغْصَـــانُ وهْـــيَ مَنَـــابِرٌ وتَلَـــتْ بِهَـــا الخُطَبَـــاءُ وهْـــيَ طُيُـــورُ

- وقال في وصف أحد جبال لبنان:

كَـــأَنَّ جِبَـــالَ المَـــتْنِ حَدْبَـــةُ عَابِـــدٍ هَـــوَى سَـــاجِدًا شُـــكْرًا وبَيْـــرُوتَ رَأْسُـــهُ

- وقال أيضا:

أرَى العِلْـــمَ كَـــالمِرْآة يَصْـــدَأُ وَجْهُـــهُ ولَـــيْسَ سِـــوَى حُسْـــنِ الخَلائِـــقِ مِـــنْ جَـــالِ

- وقال معروف في قصيدة "اليتيم في العيد":

فَكَـــانَ ابْتِسَـــامُ القَـــوْمِ كَـــالثّلْجِ قَارِسًـــا لَـــدَى حَسَـــرَاتٍ مِنْـــهُ كَـــالجَمْرِ تَلْـــذَعُ

- قال الأخطل الصغير (بشارة الخوري) في الغزل:

فَكَـــأنّ القُلُـــوبَ بَعْـــضُ عَبِيـــدٍ وكَـــأنَّ النُّفُـــوسَ بَعْـــضُ إمَـــاءِ

- قال مصطفى صادق الرافعي:

تَقُــولُ إنّــي مُشْــرِكٌ فِــي الهَــوَى يَــا هِنْــدُ هَــلْ يَهْــوَى الفُــؤَادُ اثْنَتَــيْنِ
الحُــبُّ طِفْــلٌ أنْــتِ أمٌّ لَــهُ والطِّفْــلُ لا يُولَــدُ مِــنْ مَــرْأتَيْنِ

- وقال وأجاد:

كَــأنَّ فُــؤَادِي مِنْبَــرٌ أحْــدَقَتْ بِــهِ ظُنُــونِي وهَــذَا الحُــبُّ فِيــهِ خَطِيــبُ
وأبْكِــي بِعَــيْنٍ لَــيْسَ تُمْسِــكُ عَبْــرَة كَــأنَّ عُيُــونَ العَاشِــقِينَ ثُقُــوبُ
ورَثّ فُــؤادِي فَهُــوَ لا يَحْمِــلُ الهــوى كَــأنَّ دَبِيــبَ الشَّــوْقِ فِيــهِ وُثُــوبُ

- وللرافعي أيضا في وصف القمر والنجوم:

كَــأنّي أرَى بَــيْنَ الكَوَاكِــبِ نِسْــوَةَ الـــ ـــعَزِيزِ وهَــذَا البَــدْرُ فِــيهِنَّ يُوسُــفُ
كَــأنَّ النُّجُــومَ الغُــرَّ سُــبْحَةُ زَاهِــدٍ مُعَلّقــةٌ فِــي الأفْــقِ والبَــدْرُ مُصْــحَفُ

- قال خليل مطران:

يَــا سَــادَةً كَــالنَّجُومِ الغُــرِّ مَنْزِلَــةً وسَــيِّدَاتٍ كَعِقْــدِ الــدُّرِّ مَنْظُومَــا

- وقال مطران يصف مواقف سعد زغلول في العدل:

بَيَانُــهُ فِيــهِ كَــاليَنْبُوعِ مُنْفَجِــرٌ ورَأيُــهُ فِيــهِ كَالبُنْيَــانِ مُــدَّعِمُ

- قال عادل الغضبان يصفُ حلب:

تَمَثَّلَــتْ لِــيَ سُــلْطَانًا وقَلْعَتُهَــا تَاجًــا يَتِيــهُ بِــهِ عِــزًّا وسُــلْطَانَا
تَحْكِــي حَــدَائِقُهَا حَفّــتْ مَنَازِلَهَــا بَحْــرًا سَــحِيقَ المــدَى بِالسُّــفْنِ مَلْآنَــا

- قال إيليا أبو ماضي:

وَقَفَــتْ تُحِــيطُ بِهَــا الزَّهُــورُ كَأنَّهَــا قَمَــرٌ تُحِــيطُ بِــهِ الكَوَاكِــبُ فِــي الفَضَــا
ومَشَــتْ تَحِــفُّ بِهَــا الغُصُــونُ كَأَنَّــهَا مَلِــكٌ تَحِــفُّ بِــهِ الجُنُــودُ إذَا مَشَــى

- وقال إيليا أبو ماضي:

حَامَــتْ عَلَــى رُوحِــي الشَّــكُوكُ كَأَنَّهَــا وكَــأنَّهُنَّ فَرِيسَــةٌ وصُــقُورُ

- قال إلياس فرحات:

ومَــا العُمْــرُ إلّا دَمْعَــةٌ وابْتِسَــامَةٌ ومَــا زَادَ عَــنْ هَــذِي وتِلْــكَ فُضُــولُ

التشبيهُ التَّمْثِيلِيّ وغَيْرُ التَّمْثِيلِيّ

التَّشْبِيهُ غَيْرُ التَّمْثِيلِيّ: هُوَ مَا كَانَ فِيهِ وَجْهُ الشَّبَهِ وَاحِدًا مُفْرَدًا، أيْ صِفَةً وَاحِدَة[1]، مثل قول الشاعر الجزائري صالح خرفي:

أَنَــا قَــيْسٌ فِــي عِشْــقِيَ الحُسْــنَ لَكِــنْ أَنْــتِ لَــيْلَايَ فِــي الهَــوَى يَــا جَزَائِــرْ

التَّشْبِيهُ التَّمْثِيلِيّ: ويَكُونُ فِيهِ وَجْهُ الشَّبَهِ مُتَعَدِّدًا، مُرَكَّبًا مِنْ جُمْلَةٍ مِنَ الصِّفَات، يَصْعُبُ فَصْلُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْض، ولا يَتِمُّ التَّشْبِيهُ إلاّ بِهَا مُجْتَمِعَة، وهَذَا التَّعَدُّدُ يُكَوِّنُ لَنَا صُورَةً، أوْ هَيْئَةً مَا. وبعبارة مفصلّة نقول: هُوَ "مَا كَانَ وَجْهُهُ مُنْتَزَعًا مِنْ مُتَعَدِّد: أَمْرَيْنِ أوْ أَكْثَر، بِأَنْ يَكُونَ لِكُلٍّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ كَيْفِيَّةٌ حَاصِلَةٌ مِنْ مَجْمُوعِ شَيْئَيْن، أوْ أَشْيَاءَ قَدْ تَضَامَّتْ وتَلَاءَمَتْ، حَتَّى صَارَتْ شَيْئًا وَاحِدًا، فَيَعْمَدُ الشَّاعِرُ إِلَى أَجْزَاءِ الطَّرَفِ المُشَبَّه، فَيُشَبِّهُهَا مَعَ الهَيْئَةِ الحَاصِلَةِ مِنْ تَرْكِيبِهَا بِالطَّرَفِ الآخَر، وهَكَذَا."[2]

ومن روائع التشبيه التمثيلي قول الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة في مدح الشفيع:

تَتَقَاصَــــرُ الأَمْثَــــالُ دُونَ مَقَامِــــهِ فَمَقَامُــــهُ فَــــوْقَ السُّــــهَا والفَرْقَــــدِ

كَتَقَاصُــــرِ المِشْــــكَاةِ فِــــي تَمْثِيلِهَــــا للنَّــــور، والفَــــانِي نَقِــــيضُ السَّــــرْمَدِي

فمحمدٌ صلى الله عليه وسلم علمٌ يرفرف في الجوزاء، وسماءٌ ما طاولتْها سماء، أنّى له مثيل أو شبيه، ومن رَامَ أنْ يجد له في الأعلام مثيلا، فذلك كمن يشبّه الخالدَ بالبائد، أو كمن يقارن في وضح الصباح نورَ الشمس بضوء مصباح، فذِكْره خالد، خلود الشمس في النور، وغيرُهُ فانٍ فناءَ الزيت في القنديل. تصوير تشبيهي تتلاحم وتتظافر فيه أوجه الشبه: (الرِّفعة، والعظمة، والنُّور، والخلود) في وحدة عضوية يتعذّر فصل بعضها عن بعض.

ومن بدائع التشبيه التمثيلي قول خليل مطران:

أَضَــاءَ رَجَــاءٌ فِــي دُجَــى الــرَّأيِ كَــاذِبٌ فَــأَوْحَى إِلَــى قَلْبِــي السُّــرُورَ فَأَنْشَــدَا

كَمَــا غُــشَّ بِالمِصْــبَاحِ قُمْــرِيُّ حُجْــرَةٍ تَوَهَّمَــهُ ضَــوْءَ الصَّــبَاحِ فَغَــرَّدَا

الشاعر كما تلاحظ لم يشبه شيئا بشيء، بل شبه صُورةً بصورة، أو هيئة بهيئة، أو مشهدًا بمشهد، فهو قد شبه حالهُ، وقد فَتَنَهُ رسولُ رجاءٍ دَجَّال، أوحى إلى قلبه السّرور، فنشر البهجة، وبعث الانشراح إلى قلبه، فشدا وترنَّم، نقول شبه هذه الحال بحال قُمْريّ منزلٍ توهَّمَ ضوءَ المصباح نُورَ صَبَاح، فترنّمَ والليلُ مُدْلَهِمٌّ.

مشهد القُمْرِيِّ هذا يُشْبِهُ مشهد دِيَكَةِ باريس التي حدّث عنها محمد المويلحي حين وصف أحياءها في الليل: "والقَوْمُ فِي ازْدِحَامٍ واقْتِحَام، واصْطِدَامٍ والْتِحَام، مُتَدَفِّقِينَ فِي سَيْرِهِمْ تَدَفُّقَ السَّيْل، تَحْتَ أضْوَاءٍ مَحَتْ آيَةَ اللَّيْل، يُخْشَى فِيهَا عَلَى الأبْصَارِ أنْ تَعْشُوَ مِنْ شِدَّةِ الأنْوَار، ورُبَّمَا انْخَدَعَتْ بِهَا الدِّيَكَة، فَأَخَذَتْ فِي الصِّيَاح، إِيذَانًا بِانْبِلَاجِ الصَّبَاح."

[1] علوم البلاغة الدكتور محمد أحمد قاسم والدكتور محي الدين ديب ص 170

[2] فن التشبيه علي الجندي الجزء الثاني ص 11.

ومن نماذج التشبيه التمثيلي البليغة قول خليل مطران في رثاء أمين فكري باشا:

هَـــوَى بَـــيْنَ أَيْـــدِينَا وقَـــدْ وَدَّتِ المُنَـــى ... لَـــوْ أَنَّ لِفَضْـــلٍ سَـــاعِدًا فَهْـــوَ نَاشِـــلْهْ

كَمَـــا سَـــقَطَتْ فِـــي البَحْـــرِ دُرَّةُ بَاخِـــلٍ ... أَحَـــاقَ بِـــهِ لُـــجٌّ مِـــنَ اليَـــأسِ شَـــامِلْهْ

فَـــرَاحَ يُعِيـــدُ الطّـــرْفَ لَا هُـــوَ صَـــابِرٌ ... ولَا هُـــوَ يَـــدْرِي أَيَّ أَمْـــرٍ يُحَاوِلْـــهْ

يُقَطِّـــرُ فَـــوْقَ الأَرْضِ سَـــائِلَ دَمْعِـــهِ ... ولَا يُـــدْرِكُ الشَّـــيْءَ الّـــذِي هُـــوَ سَـــائِلْهْ

مشهدان متقابلان يعجّان بالحركة والأحداث: فهنا مشهد الشاعر وقومِه، وقد شيَّعُوا رجُلا عظيما، وضيَّعُوا فاضلا كريما، ذهبتْ نفوسُهم عليه حسرات، وفاضت العيون بالعَبرات، فالقلوب قد بلغت الحناجر، وجفت الدموع في المحاجر، واليأس قد استبدّ، والحزن قد اشتدّ، أنزلوا الشهد في الثَّرى، وعادوا إلى منازلهم والحزنُ قاتلُهم، وفي المقابل هناك مشهد بخيلِ قومٍ، خسر دُرَّتَهُ الثمينة في الماء، وانقطع في قلبه حبل الرجاء، وقد نال منه الجزع أيّ نيل، فسال دمعُه أيّ سيل، وعاد إلى داره والألمُ يعصر قلبه. فكأنك أمام لوحة فنيّة أبدع في رسمها أمهر الفنانين، والفرقُ أنك في اللوحة المرسومة تأخذ المشهد كلَّه بمجامع عينيك، وفي هذه كانت الأحداث متوالية، والمشاهد متتالية.

ومن فرائد التشبيه التمثيلي قول أحمد شوقي في تشبيه الإنسان بالدّهر:

هُـوَ الدَّهْـــرُ مِيـــلادٌ، فَشُـــغْـــلُ، فَمَأْتَـــمٌ ... فَذِكْـــرٌ، كَمَـــا أَبْقَـــى الصَّـــدَى ذَاهِبَ الصَّـــوْتِ

شبّه شوقي الإنسانَ بالصّوت، وشبّه ذِكْره بعد موته بالصّدى، (والصّدى هو ما يَرِدُ على المصوِّت شبيهًا بصوته)، ومما يلاحظ على هذا التشبيه أنّ وجه الشبه فيه مركب، لا مفرد، فبين المشبه (الإنسان)، والمشبه به (الصوت) أوجه شبه متعددة، ومرتبطة بعضها ببعض أشدّ الارتباط، مثلها كمثل البنيان المرصوص يشدّ بعضها بعضا، فالإنسان حين يقطع في حياته سلسلة من الأطوار، والمراحل: من الميلاد، إلى حياة العمل، إلى الممات، إلى الذِّكْر، هذا الإنسان إنما يشبه في حياته "حياة" الصوت بدءًا من مرحلة الموجات الصوتية المتتالية والمتعاقبة، إلى مرحلة الصدى المتتابعة هي الأخرى.

ومن نماذج التشبيه التمثيلي قول أحمد أمين: "إنَّ الأدِيبَ عِنْدَنَا مَثَلُهُ كَمَثَلِ المُحَاضِرِ فِي الرَّادْيُو، يَتَكَلَّمُ وَحْدَه، ولا يَشْعُرُ بِمَا يَجْرِي وَرَاءَ حُجْرَتِه، ولا يَسْمَعُ تَصْفِيقًا ولا يُحِسُّ ضِيقا، ولَيْسَ أَمَامَهُ عُيُونٌ يَقْرَأُ فِي نَظَرَاتِهَا عَلَامَاتِ اسْتِحْسَانٍ أوِ اسْتِهْجَان، فَهُوَ فِي طَرِيقِهِ مَعَ غَيْرِ مُرْشِد، ومِنْ غَيْرِ مُشَجِّع، وبِذَلِكَ ضَعُفَ الإنْتَاجُ الأَدَبِيّ."

تشبيه تمثيلي، بل دعنا نقول: شبكة تشبيه تمثيلية، ظفرتها أنامل الكاتب بإتقان: شاهد كيف شبه أحمد أمين الأديبَ العربيَّ بالمحاضِر في إذاعة الراديو، يتكلم وحده، ولا يعي بما يجري خلف حجرة التسجيل، وكذلك الأديب، معزولٌ ومنفيّ عن أبناء جنسه، لا ينْظم قصيدته سوى لطِرْسِه، ولا يروي قصته إلا لنفسه، والمحاضرُ لا يسمع تصفيق المعجبين، ولا ضيق المتذمرين، وكذلك حال الأديب، الجمهورُ أبعد ما يكون عن أدبه، والجمهورُ كما تعلم بوصلة الأديب الحسّاسة التي يعرف من خلالها الأديبُ موضع رجليه، وليس أمام

المحاضر في الراديو عيونُ تُقرأ في نظراتها علائمُ الاستحسان، أو قرائن الاستهجان، والحال نفسها عند الأديب العربيّ، يكتب أدبه فلا ينهض قادحٌ مُعْترض يفضَح معايب أدبه، ولا مادح مُوَالٍ يُبيِّن محاسنه، والنقد كما تعلم مرآة الأدب، التي من خلالها يعرف الأديبُ ملامحَ وجه أدبِه، ومكان أنفه، وشكل فمه، ولون عينيه. لعلك أدركت أنّ الكاتب في العرض الممتع جعل من أوجه الشبه وحدة كلية ليست قابلة للانقسام أو التجزئة.

ومن شواهد التشبيه التمثيلي قول نزار قباني: "الوَطَنُ العَرَبِيُّ يَنْتَظِرُ الشِّعْرَ كَمَا تَنْتَظِرُ الحُلْوَةُ عَلَى النَّافِذَةِ فَارِسَ الأحْلام، يَأْتِي عَلَى صَهْوَةِ جَوَادِهِ، حَامِلا لَهَا قَوارِيرَ العِطْر، وأطْوَاقَ اليَاسَمِينِ، ومَكَاتِيبَ الغَرَام".

لوحتان متقابلتان، تضم كل واحدة منهما ألوانا كثيفة وزاهية ومتناسقة من أوجه الشبه، فالكاتب قد شبَّهَ الوطنَ العربيَّ في حال ظَمَئِه، وشوقه للشعر الممتاز، وطُول السنوات، بلْ قل القرون العجاف، منتظرًا من نافذةِ القدرِ أمراء البيان، وفرسان اللسان، مُمْتَطِينَ أقلامهم، حاملين قلائدَ القصائد، التي يفوح منها عبق الفن، نقول: شبّه هذا الوطن بالحسناء في شوقها، وسُهدها، وليلها الطويل، منتظرة فارس أحلامها، معتليًا صهوةَ فرسِه البيضاء، حاملا معه أطواقَ الياسمين، ورسائلَ الغرام. صورةٌ تشبيهية، بل نسيج تشبيهي، تظافرت فيه أكثر من صفة جامعة بين المشبه، والمشبه به.

ومنه قول نزار قبّاني أيضا: "التَّجْدِيدُ لَيْسَ انْقِلَابًا عَسْكَرِيًّا، فالشِّعْرُ نَهْرٌ عَظِيم، ولَيْسَ في العَالَمِ نَهْرٌ لَهُ مَصَبّ، ولَيْسَ لَهُ مَنْبَع".

فالكاتب قد شبّه الشِّعر بالنهر، ومثلما كان النهر العظيم يتدفق من قديم الزمان، إلى نهاية الأكوان، من الأزل، إلى الأبد، ويتّصل مصبُّه بمنبعه وأصله، فنهرُ الشعرِ لا يمكن أن ننكر أصوله، ومنابعه، مهما قطع في مسيرة التجديد أشواطا، فالشعر لا يكمن أن نطهّره، أو نصفيَّه، أو ننتقم من شعراء عصوره البائدة، مثلما ينتقم الانقلابيون ممّن انقلبوا عليهم، وهكذا يظهر جليّا أنّ وجه الشبه بين الشعرِ والنهرِ ليس صفة واحدة، بل مركّبا من مجموعة من العناصر المتداخلة تداخلا عضويا، والتي يتعذّر فصلها عن بعضها البعض.

- وغير بعيد عن هذا المعنى قول توفيق الحكيم حين شبه الحياة بالنهر: " الحَيَاةُ مِثْلُ نَهْرٍ لا نَعْرِفُ مِنْهُ المَنْبَعَ ولا المَصَبّ، البَعْضُ يَكْتَفِي مِنْهُ بِاللَّعِبِ عِنْدَ الشَّطّ، والبَعْضُ يَسْبَحُ بِالقُرْبِ مِنْ شَطِّ النَّهْر، والبَعْضُ يَفْعَلُ كُلَّ ذَلِك، ولا يَكْفِيه، بَلْ يُحَاوِلُ أنْ يَصْعَدَ فِي مَنَابِعِهِ بَاحِثًا مُرْتَادًا."

- ومن التشبيه التمثيلي الذي وفق فيه توفيق الحكيم أيّما توفيق قوله: "الدُّنْيَا حَلَقَات، كُلُّ جِيلٍ يَجِبُ أنْ يَمُدَّ يَدَهُ إلَى الجِيلِ الَّذِي يَلِيه، إذَا تَمَّ ذَلِكَ فِي أُمَّةٍ فَقَدْ صَحَّ كَيَانُهَا، واسْتَقَام، شَأْنُ الجِسْمِ السَّلِيم، بِسِلْسِلَتِهِ الفَقَرِيَّةِ المُتَمَاسِكَة، وإذَا لَمْ يَتِمَّ ذَلِكَ فَنَحْنُ أَمَامَ كَائِنٍ سَقِيم، انْفَصَلَتْ حَلَقَاتُ وُجُودِه، وانْفَصَمَ عَمُودُ ظَهْرِه، ولَمْ يَعُدْ يَصْلُحُ لِلْبَقَاء".

فالكاتب قد شبه كيان الأمة المتماسكة بالجسد السليم، لكن وجه الشبه ليس مفردا، بل صورة مركبة، تشكل نسيجا تشبيهيا، فمثلما أن الجسم السليم يقوم، ويستقيم بسلسلته الفقرية المتماسكة، فكذلك الأمة يصحّ كيانها بتماسك، واتصال أجيالها، فكلُّ جيل بالنسبة للأمة هو بمثابة الفقرة الواحدة في سلسلة العمود الفقري للجسم،

فإنْ حدث انفصال بين الأجيال نكون أمام أمة منفصلة الحلقات، منهارة الأركان، مهددة بالزوال، كالجسم المهدد بالفناء حين يكون منكسر الظهر، بسبب شللٍ في عموده الفقري.

- ومن تشبيهاته التمثيلية قوله: "يَجِبُ أنْ يَكُونَ الالْتِزَامُ جُزْءًا مِنْ كَيَانِ الأدِيبِ أو الفَنَّان، ويَجِبُ أنْ يَلْتَزِمَ وهُوَ لا يَشْعُرُ بِأَنَّهُ مُلْتَزِم، مِثْلُهُ مِثْلُ حَمَامٍ زَاجِل، يَنْقُلُ رِسَالَةً وهُوَ حُرٌّ طَائِر، لا يَشْعُرُ بِقَيْدٍ فِي سَاقِه، ولا بِغُلٍّ فِي جَنَاحِه، فَإذَا شَعَرَ الفَنَّانُ لَحْظَةً وَاحِدَةً أنَّهُ يُؤَدِّي بِفَنِّهِ ضَرِيبَةً عَلَيْهِ أنْ يُؤَدِّيَهَا وُجُوبًا، فَإنّ الَّذِي سَيُنْتِجُهُ لَنْ يَكُونَ فَنًّا."

فالكاتب قد شبه الأديبَ بالحمام الزاجل، ووجه الشبه كما رأيت صورة منتزعة من متعدد، فهو يشبهه به حين يكون ناقلا لرسالته، حرًّا غير شاعر بقيود في ساقيه، وكذلك الأديب الملتزم، التزامُه في حريته، ينقل رسالته بكل حرية، بعيدا عن أية ضغط أي إكراه أو إجبار.

وأنشد حافظ إبراهيم واحدًا من خيرة نماذج التشبيه التمثيلي حين قال مخاطبا إمبراطور ألمانيا:

أكْثَـــرْتَ مِـــنْ ذِكْـــرِ الإلَـــهِ تَوَرُّعًـــا ... وزَعَمْـــتَ أنّـــكَ مُرْسَـــلٌ وأمِـــينُ

وكَـــذَلِكَ القَصَّـــابُ يَـــذْكُرُ رَبَّـــهُ ... والنَّصْـــلُ فِـــي عُنُـــقِ الـــذَّبِيحِ دَفِـــينُ

فالشاعر قد شبه إمبراطور ألمانيا حين يلهج لسانه بذكر الله، متورعا، زاعما أنه رسول أمين، بالجزّار حين يذْكر الله بلسانه، وسكينُه يعمل في عنق الذبيحة. فوجه الشبه كما تلاحظ صورة كلية، مركبة من صفات كُثر.

ومن تشبيهات حافظ التمثيلية التي لامست عتبات الإبداع قوله مادحًا:

يَبْـــذُلُ المَعْـــرُوفَ فِـــي السِّـــرِّ كَمَـــا ... يَرْقُـــبُ العَاشِـــقُ إغْفَـــاءَ الرَّقِيـــبِ

ومن التشبيه التمثيلي قول مصطفى صادق الرافعي:

أرَى الإنْسَـــانَ يَطْغَـــى حِـــينَ يَغْنَـــى ... ومَـــا أوْلَـــى الهُبُـــوطَ مِـــنَ الصُّـــعُودِ

كَمَـــا تَعْمَـــى البَهَـــائِمُ حِـــينَ تَرْعَـــى ... عَـــنِ الشَّـــوْكِ الكَثِيـــرِ لِأجْـــلِ عُـــودِ

فالرافعي قد شبّه الإنسانَ حين يغنى، ويبطَر، ويطغى، ويتجبّر، ويغفل عمّا يجرّه من طغيان وفساد بالبهائم التي ترعى الأعشاب، ولكنها تعمى عن الشوك الكثير من أجل قليل من العشب، فوجه الشبه هنا صورة مركبة مأخوذة أو منتزعة من عدة أشياء لا قيمة لها إلا باجتماعها.

ومن التشبيه التمثيلي أيضا قول الشاعر القروي مفاخرا بالنساء العربيّات في الحرب:

ونِسَـــاؤهُمْ، لَـــوْ تَشْـــهَدُونَ نِسَـــاءَهُمْ ... فِـــي الحَـــرْبِ حَامِلَـــةً عَلَـــى الشَّـــجْعَانِ

كَالمَـــاءِ أعْـــذَبُ مَـــا يَكُـــونُ، وإنَّـــهُ ... لَأشَـــدُّ مَـــا يَسْـــطُو عَلَـــى النِّيـــرَانِ

لقد شبه الشاعر حرائر العرب – على لطف جنسهنّ – حين يُظهرن الشجاعة في النزال، والبسالة في القتال، يصرعن الأبطال، ويقهرن الرجال، بصورة الماء العذب الزلال، الذي يروي العطشان ويقهر النيران،

ولاحظ كيف أنّ وجه الشبه ليس مفردا، بل مشهدًا مكونا من عدة لقطات متصلة يصعب فصلها عن بعضها البعض.

ومنه قوله أيضا في الهجاء:

تَـــرَاهُ صَـــحِيحَ الـــوُدِّ وهُـــوَ سَـــقِيمُهُ كَمَـــا تُكْسِـــبُ الحُمَّـــى الخُـــدُودَ تَـــوَرُّدَا

حيث شبه القرويُّ مهجوّه حين ينافق، ويغالط، ويخون المودة والصداقة بالحمّى، يكون ظاهرها جمالا، وباطنها سقاما، كسراب يحسبه الظمآن للوفاءِ ماءً، فوجه الشبه كما ترى ليس مفردا، بل صورة مأخوذة من عديدِ صفات.

وقريب من هذا المعنى قوله في الغزل:

يَـــزْدَادُ تَوْرِيـــدُ خَـــدَّيْهَا إِذَا لُحِظَـــتْ كَمَـــا تَزيـــدُ زُهُـــورُ الأَرْضِ بِـــالمَطَرِ

حيث شبه خدَّ المحبوب بالزَّهر في حالات مختلفة: فخدُّه زهرةٌ نضرةٌ في بستان، وجهُها يزيد تورُّدًا، وشذى، وفتنة، ونضارة، كلّما سقطتْ عليها أشعةُ العيون، مثلما الغيث إذا وقع على بستان الزهور يزيدها كمالا، وجمالا، وبهاءً، وكثرة.

ومنه قولُ محمد البشير الإبراهيمي: "إنّ الأُخُوَّةِ مُنْذُ فَقَدْنَاهَا لَمْ نَجِدْ أَنْفُسَنَا، وكَأَنَّنَا حَبَّاتٌ انْقَطَعَ سِلْكُهَا فَانْتَثَرَتْ، فَأَصْبَحَتْ كُلُّ حَبَّةٍ مِنْهَا في كَفِّ لاَقِط."

فأمير البيان بعبقريته الخيالية يشبه الإخوان بحبّات اللؤلؤ، ويشبه الأخوّة بالسلك الذي يجمع تلك الحبّات، لتُشكّل عقدا فريدا في جماله، وحال الإخوة في افتراق كلمتهم، وتنافر ودّهم، وتبدُّدِ شملهم، أمام أعين عدّوهم، كحالِ عقد اللؤلؤ حين ينقطع سلكه، ويتناثر لؤلؤه، فتتعدى عليه الأيادي بالجمع، فتغدو كلُّ حبّة في كفّ طامع، أو جيب جامِع.

ومن جميل ما جادت به أقلام الكُتّاب في هذا النوع من التشبيه قول ميخائيل نُعيمة: "كِبَارُ النُّفُوسِ كالنَّحْل، وصِغَارُ النُّفُوسِ كالذُّبَاب، فبَيْنَمَا تَعِيشُ النّحْلَةُ مَعَ الأَزْهَار، تَعِيشُ الذُّبَابَةُ مَعَ الأَقْذَار، ثُمّ تَعُودُ النّحْلَةُ، فَتُقَدِّمُ جَنَاهَا إلى النَّاسِ شَهْدًا شَهِيّا، أمَّا الذُّبَابَةُ فلا تَنْقُلُ إلى النَّاسِ غَيْرَ سُمُومٍ قَاتِلَة".

لاحظ كيف شبه الكاتبُ كبارَ النفوس بالنحل، يعيش مع الأزهار، والرياحين، يمتصّ الرّحيق، فيَخْرُجُ من بطونها شرابٌ فيه شفاء للناس، ثم انظر كيف شبه صغار النفوس بالذباب الذي يعيش في الأقذار، وينقل الأخطار، ولعلّك أدركت أنّ وجه الشبه ليس مفردا، بل صورة مركبة من عدة أشياء.

ومن التشبيه التمثيلي الذي أبدع فيه المنفلوطي قوله: "إنَّ المَدَنِيَّةَ الحَدِيثَةَ مَا دَخَلتْ أُورُبَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ زَحْزَحَتِ المَسِيحِيَّةَ مِنْهَا، لِتَحْتَلَّ مَحَلَّهَا، كَالمَاءِ الَّذِي لَا يَدْخُلُ الكَأْسَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَطْرُدَ مِنْهُ الهَوَاء، لِأَنَّهُ لَا يَتَّسِعُ لَهُمَا."

وأروع منه قوله: "فَإِذَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَتَصَوَّرَ مِرْآةً تَكْذِبُ فِي تَمْثِيلِ الصُّورَةِ المَاثِلَةِ أَمَامَهَا، اسْتَطَعْنَا أَنْ نَتَصَوَّرَ بَيَانًا يَخْتَلِفُ فِي وَصْفِهِ عَنْ وَصْفِ نَفْسِ صَاحِبِه."

وللمنفلوطي في الأخلاق: "مَثَلُ المُتَعَلِّمِ غَيْرِ المُتَأَدِّب، كَمَثَلِ شَجَرَةٍ عَارِيَة، لا تُورِقُ ولا تُثْمِر، قَدِ انْتَصَبَتْ للنَّاسِ فِي مُلْتَقَى الطُّرُق، تَعْتَرِضُ الرَّائِح، وتَصُدُّ سَبِيلَ الغَادِي، فَلَا النَّاسُ بِظِلِّهَا يَسْتَظِلُّون، وَلَا هُمْ مِنْ شَرِّهَا نَاجُون."

بلاغة التشبيه التمثيلي:

التشبيه التّمثيلي أبلغ من غيره، لما فيه من التّفصيل الذي يحتاج إلى إمعان الفكر، وتدقيق النظر، وهو أعظم أثرا في المعاني، يرفع قدرها، ويضاعف قواها في تحريك النّفوس لها.

والتشبيه التمثيلي أبلغ أنواع التشبيه، لما فيه من تجسيد وتشخيص للأمور المعنوية، لأن المحسوس أيسر فهما، وأسهل إدراكا من المعقول، وبما أنّ النفس في الأصل كانت صفحة بيضاء، خالية من المعارف كما يدّعي فلاسفة المذهب الحسيّ، وبما أنّ كل معارفها التي اكتسبتها إنما تسربت إليها عن طريق نوافذ الحواس قبل إعمال العقل، "فليس هذا التأثير الذي ينفح به التمثيل، والذي يعمل عمل السحر في كياننا، فيهزّه من الأعماق، قد جاء اعتباطا، أو هو ممّا يقع فلتات، بل له علل وأسباب متينة الصلة بالنفوس الإنسانية، فإذا استأذن عليها فتحتْ له أبوابها على مصاريعها، وتلقّته بالقبول والبشاشة والارتياح، كما تتلقى شيئا سارًّا مبهجا، يلذّها موقعه، ويخفّ عليها محمله، فالنفس إذا عرضنا عليها المعاني العقلية في صورة ما يدرك بالحس، ويفهم بالطبع لم نفاجئها بشيء غريب تزهد فيه، وتنبو عنه، بل نكون قد عرضنا عليها شيئا يمتّ لها بألفة قديمة، ومودة سابقة، لا تنكر قرابته، فتهشّ له، وتبشّ به، وتفتح له أحضانها كما يلتقي حبيبان بعد طول الفراق."[1]

ويقول العلّامة بديع الزمان النّورسي: "إن في التشبيه التّمثيلي سرًّا لطيفا، وحكمة عالية، إذ به يصير الوهم مغلوبًا للعقل، والخيال مجبورًا للانقياد للفكر، وبه يتحول الغائب حاضرًا، والمعقول محسوسًا، والمعنى مجسّمًا، وبه يُجعل المتفرّق مجموعا، والمختلط ممتزجا، والمختلف متّحدا والمنقطع متّصلا".[2]

التدريب الأول: ميّز التشبيه التمثيلي من غيره فيما يأتي:

- قال ميخائيل نعيمة: "إنَّ مَثَلَ الَّذِينَ يُهَنْدِسُونَ عَالَمَ الإِنْسَانِ فِي مَعْزَلٍ عَنْ سَائِرِ العَوَالِم، هُوَ مَثَلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الفِئْرَان، اسْتَوْطَنَتْ مَخْزَنًا مِنْ مَخَازِنِ سَفِينَةٍ فِي بَحْر، ثُمَّ رَاحَتْ تَتَسَابَقُ وتَتَقَاتَلُ وتَتَنَاهَشُ عَلَى مَا فِي المَخْزَنِ مِنْ مَأْكَلٍ ومَشْرَب، وإِذَا أَعْيَاهَا القِتَال، رَاحَتْ تَعْقِدُ المُؤْتَمَرَاتِ لاقْتِسَامِ مَا فِي المَخْزَن، ولِتَقْرِيرِ الاتِّجَاهِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَتَّخِذَهُ السَّفِينَة، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَحْسِبَ أَقَلَّ حِسَابٍ لِرُكَّابِ السَّفِينَة، وحَاجَاتِهِمْ إِلَى مَا فِي مَخَازِنِهَا، ولَا لِرُبَّانِ السَّفِينَة، ويَدِهِ الَّتِي عَلَى الدَّفَّة، ومَشِيئَتِهِ الَّتِي مِنْ خَلْفِ يَدِه."

- قال محمد المويلحي في وصف قصور السلاطين: "حَوَّلْنَا النَّظَرَ إِلَى أَعَالِي الشُّرَف، وجَوَانِبِ الغُرَف، فَرَأَيْنَا مِنْ بَيْنِهَا مَقَاصِيرَ عَلَيْهَا رَقَائِقُ السَّتَائِر، تَشِفُّ عَنْ لَوَامِعِ اللآلِئِ والجَوَاهِر، فِي نُحُورِ الحُور، مِنْ مَكْنُونَاتِ

[1] فن التشبيه علي الجندي الجزء الثاني ص 22. 23.
[2] جماليات التشبيه التمثيلي في القرآن الكريم عبد الرحمان بن الطاهر بوزنون.

القُصور، ورَبَّاتِ الخُدُور، يَكْشِفْنَ عَنِ الطُّرَر، تُضِيءُ بِالغُرَر، ضَوْءَ اللَّيْلِ تَحْتَ القَمَر، ويَتَرَاءَيْنَ تَرَائِيَ الكَوَاكِبِ والنُّجُوم، مِنْ خِلَالِ السُّحُبِ والغُيُوم."

- قال المنفلوطي: "إنَّ الأمَّةَ الشَّرْقِيَّةَ فِي مَوْفِقٍ مِنْ أَحْرَجِ مَوَاقِفِها، ومَسْلَكٍ مِنْ أَضَلِّ مَسَالِكِها، وإنَّ حَوَادِثَ الدَّهْرِ وعَادِيَاتِ الأيَّامِ قَدْ مَلَكَتْ عَلَيْهَا سَبِيلَهَا، والْتَفَّتْ حَوْلَهَا الْتِفَافَ الحَيَّةِ بِالعُنُق، وأَحَاطَتْ بِهَا إحَاطَةَ القَيْدِ بِاليَدِ والرِّجْل، فَمَثَلُهَا كَمَثَلِ رَجُلٍ أَحَاطَتِ النَّارُ بَيْنَهُ مِنْ كُلِّ جَانِب، وعَلِقَتْ بِسُقُوفِهِ وجُدْرَانِه، ونَوَافِذِهِ وأَبْوَابِه، فَمَا هُوَ بِنَاجٍ، إنْ أَرَادَ نَجَاءً، ولا بِبَاقٍ إنْ أَرَادَ بَقَاءَ. بَلْ مَثَلُهَا كَمَثَلِ آخَرَ ضَلَّ بِهِ سَبِيلُه، واشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ مَسَالِكُهُ فِي لَيْلَةٍ دَاجِيَةٍ مُدْلَهِمَّة، قَدْ غَابَتْ كَوَاكِبُها، واسْتَسَرَّتْ نُجُومُها، فَوَقَفَ وَقْفَةَ الحَائِرِ المُضْطَرِب، يَسْمَعُ العُوَاءَ والزَّئِير، والضَّجِيجَ والصَّفِير، فَلَا يَعْلَمُ أَيَزْدَادُ ضَلَالًا، أمْ يُحْجِمُ فَلَا يَجِدُ مَجَالا، أمْ يَقِفُ فَيُصْبِحُ فَرِيسَةَ المُفْتَرِس، ولُقْمَةَ المُزْدَرْد؟".

- قال محمد البشير الإبراهيمي: "قَضِيَّةُ القَوْمِيَّةِ العَرَبِيَّةِ لَيْسَتْ مَيْدَانَ سِلَاحٍ أوْ حَرْب، وإنَّمَا هِيَ مَيْدَانُ عَقْلٍ وفِكْر، والأدِيبُ فِي مَيْدَانِ الفِكْرِ كَالقَائِدِ بَيْنَ يَدَيْ المَعْرَكَة، يُوَجِّهُهَا بِخِبْرَتِهِ، ويُدِيرُهَا بِحِكْمَتِه، ويَقُودُهَا بِمَوَاهِبِهِ ومَعْرِفَتِهِ إلَى النَّصْرِ المُبِين".

- قال أحمد أمين: "إنَّ مَثَلَنَا نَحْنُ الغَيُورِينَ عَلَى الأَدَبِ مَثَلُ الطَّبِيبِ الَّذِي يَرَى المَرِيضَ العَزِيزَ عَلَيْه، فَلَا يَمْنَعُهُ حُبُّهُ وإشْفَاقُهُ مِنْ تَشْخِيصِ المَرَضِ كَمَا يَدْعُو إلَيْهِ العِلْمُ ويَدْعُو إلَيْهِ الحَقّ، ويَذْكُرُ فِي صَرَاحَةٍ خَطَرَ المَرَض، وإنْ كَانَتْ نَفْسُهُ تَذُوبُ حَسَرَات، ويَصِفُ العِلَاجَ وقَلْبُهُ يَبْتَهِلُ إلَى اللهِ بِالنَّجَاح، ومَثَلُ بَعْضِ الكُتَّابِ مَثَلُ العَجَائِز، يَدْخُلْنَ عَلَى المَرِيض، فَلَا هَمَّ لَهُنَّ إلَّا أَنْ يَكْذِبْنَ ويَقُلْنَ لَهُ: مَا أَحْسَنَ وَجْهَك، ومَا أَجْوَدَ صِحَّتَك، ومَا أَبْيَنَ العَافِيَةَ عَلَيْك، ونَحْوَ هَذَا مِنْ مَعْسُولِ الكَلَامِ الَّذِي لَا يُفِيد، وقَدْ يَحْمِلُ المَرِيضَ عَلَى الاسْتِنَامَةِ لِقَوْلِهِنّ، وعَدَمِ الأَخْذِ بِوَسَائِلِ الاسْتِشْفَاءِ الصَّحِيح.".

- وقال أحمد أمين: "إنَّ الصِّعَابَ فِي الحَيَاةِ أُمُورٌ نِسْبِيَّة، فَكُلُّ شَيْءٍ صَعْبٌ جِدًّا عِنْدَ النَّفْسِ الصَّغِيرَة، ولَا صُعُوبَةَ عَظِيمَةً عِنْدَ النَّفْسِ العَظِيمَة، فَبَيْنَمَا النَّفْسُ العَظِيمَةُ تَزْدَادُ عَظَمَةً بِمُغَالَبَةِ الصِّعَاب، إذَا بِالنُّفُوسِ الهَزِيلَةِ تَزْدَادُ سَقَمًا بِالفِرَارِ مِنْهَا، وإنَّمَا الصِّعَابُ كَالكَلْبِ العَقُور، إذَا رَآكَ خِفْتَ مِنْه وعَدَوْت، نَبَحَكَ وَعَدَا وَرَاءَك، وإذَا رَآكَ تَهْزَأُ بِه، ولَا تُعِيرُهُ اهْتِمَامًا، وتَبْرُقُ لَهُ عَيْنُك، أَفْسَحَ الطَّرِيقَ لَك، وانْكَمَشَ فِي جِلْدِهِ مِنْك."

- قال توفيق الحكيم: "الإبْدَاعُ شَيْءٌ حَيٌّ مُتَحَرِّكٌ في الزَّمَانِ والمَكَان، إنَّهُ كالشَّجَرَة، يَمْتَدُّ ويَتَطَوَّرُ في مُخْتَلَفِ الفُصُول، يُبَدِّلُ ويُغَيِّرُ في أوْرَاقِه، وفي مَظَاهِرِ إينَاعِهِ وإثْمَارِه، مَاضِيهِ مُتَّصِلٌ بِحَاضِرِه، وحَاضِرُهُ مُرْتَبِطٌ بِحَبْلِ مُسْتَقْبَلِه".

- قال نزار قباني: "إنَّ دِمَشْقَ تَتَكَمَّشُ بِي كَمَا يَتَكَمَّش الرَّضِيعُ بِثَدْيِ أُمِّه، إنَّها تَسْكُنُنِي كَمَا يَسْكُنُ الجَمَالُ وَجْهَ امْرَأَةٍ حَسْنَاء، مَزْرُوعَةٌ بِي دِمَشْقُ كَمَا الحَلَقُ الإسْبَانِيُّ مَزْرُوعٌ في آذَانِ الإسْبَانيَّات، مُسْتَوْطِنَةٌ في صَوْتِي، وفي حِبْرِي، وفي دَفَاتِرِي، كَمَا يَسْتَوْطِنُ السُّكَّرُ في شَرَابِينِ العُنْقُود".

- قال جبران خليل جبران: "أَبْحَرَتِ السَّفِينَةُ وأَنَا عَلَى ظَهْرِهَا أَشْبَهُ شَيْءٍ بِعُصْفُورٍ بَيْنَ مَخَالِبِ بَاشِقٍ يَسْبَحُ مُحَلِّقًا فِي الخَلَاءِ."

التدريب الثاني: ميّز من بين النماذج الآتية التشبيه التمثيلي من غيره، واشرح وجه الشبه:

- قال خليل مطران في وصف شعر أحمد شوقي:

مَـــا زَالَ خَلّاقًـــا لِكُـــلِّ خَرِيـــدَةٍ ... تُصْـــبِي الحَلِـــيمَ بِرَوْعَـــةٍ وبَهَـــاءِ[1]

كَـــالبَحْرِ يُهْـــدِي كُـــلَّ يَـــوْمٍ دُرَّةً ... أَزْهَـــى سَـــنًى مِـــنْ أُخْتِهَـــا الحَسْـــنَاءِ

- وقال مطران في رثاء الأديب نجيب الحدّاد:

نَظْـــمٌ تَزِيـــدُ بِـــهِ الحَقِيقَـــةَ رَوْنَقًـــا ... وتُعِيـــدُ مُبْتَـــذَلَ الأُمُـــورِ غَرِيبَـــا

كَالشَّـــمْسِ يَسْـــطَعُ نُورُهَـــا فِـــي حَمْـــأَةٍ ... فَيُحِيـــلُ قَـــاتِمَ لَوْنِهَـــا تَـــذْهِيبَا[2]

- قال معروف الرصافي عن حال الأمة العربية:

ومَـــا نَحْـــنُ إلّا اللّيْـــثُ شُـــدَّتْ قُيُـــودُهُ ... وأُلْقِـــيَ حَيًّـــا شِـــبْلُهُ فِـــي فَـــمِ الـــذِّئْبِ

يَـــرَى الشِّـــبْلَ مَـــأْكُولًا فَيَـــزْأَرُ مُوثَقًـــا ... ويَضْـــرِبُ كَفّيْـــهِ عَلَـــى الأَرْضِ لِلْوَثْـــبِ

فَـــلَا يَسْـــتَطِيعُ الوَثْـــبَ إلّا تَمَطِّيًـــا ... وزَأْرًا وإنْشَـــابَ المَخَالِـــبِ بِـــالتُّرْبِ

- وقال معروف الرصافي في وصف (قصر البحر) في بيروت:

كَـــأَنَّ المَـــوْجَ فِـــي الـــدَّأْمَا رِجَـــالٌ ... وهَـــذَا القَصْـــرَ بَيْـــنَهُمُ خَطِيـــبُ[3]

تُخَـــاطِبُهُمْ مَبَانِيـــهِ فَيَعْلُـــو ... مِـــنَ الأَمْـــوَاجِ تَصْـــفِيقٌ رَحِيـــبُ

- قال محمد العيد آل خليفة في وصف حال الأمة:

حَيَـــارَى كَقُطْعَـــانٍ جَفَتْهَـــا رُعَاتُهَـــا ... فَـــأَغْرَتْ بِهَـــا خَصْـــمَيْنِ ذِئْبًـــا وثَعْلَبَـــا

- قال علي الجارم:

دَنَـــا كَالشَّـــمْسِ حِـــينَ دَنَـــتْ شُـــعَاعًا ... وحَلّـــقَ مِثْلَهَـــا فِـــي الأُفْـــقِ بُعْـــدَا

- قال مصطفى صادق الرافعي:

إنْ ضِـــقْتَ بِالعُسْـــرِ فَـــلَا تَبْتَـــئِسْ ... فَرُبَّمَـــا دَلَّ عَلَـــى ضِـــدِّهِ

كَـــالبَرْقِ يَحْكِـــي فِـــي سَـــنَاهُ اللّظَـــى ... وقَـــدْ يَكُـــونُ الغَيْـــثُ مِـــنْ بَعْـــدِهِ

- وقال في الغزل:

فَمَـــا زَالَ يَهْـــدِي نَـــاظِرِي نُـــورُ وَجْهِهَـــا ... كَمَـــا نَظَـــرَ المَـــلّاحُ فِـــي نَجْمَـــةِ القُطْـــبِ

- قال إيليا أبو ماضي في رثاء أبيه:

---

[1] الخريدة: اللؤلؤة.
[2] حمأة: الماء الممتزج بالطين.
[3] الدأماء: البحر.

شَخِصْـــتُ بِرُوحِـــي حَـــائِرًا مُتَطَلِّعًـــا إِلَـــى مَـــا وَرَاءَ البَحْـــرِ أَذْنُـــو وأَسْـــتَذْنِي
كَـــذَاتِ جَنَـــاحٍ أَدْرَكَ السَّـــيْلُ عُشَّـــهَا فَطَـــارَتْ عَلَـــى رَوْعٍ تَحُـــومُ عَلَـــى الـــوَكْنِ

- وقال أيضا:

مَشَـــاهِدُ لَاحَـــتْ لِـــي فَهَـــزَّتْ فَرَائِصِـــي كَمَـــا ذُعِـــرَ المَلْسُـــوعُ رَاءَ الأَفَاعِيَـــا

- وله أيضا في وصف فتى مُحِبّ:

شَـــكَا فَحَـــرَّكَ بِالشَّـــكْوَى عَوَاطِفَهَـــا كَمَـــا تُحَـــرِّكُ كَـــفُّ العَـــازِفِ الـــوَتَرَا

- وقال رفيقُ دَرْبِهِ إلياس فرحات في وصف حياته بالمهجر:

يَمْشِـــي الأسَـــى فِـــي دَاخِلِـــي مُـــتَغَلْغِلا بَـــيْنَ العُـــرُوقِ كَمِبْضَـــعِ الجَـــرَّاح

- وقال أنيسُ وحشتِهِ شفيق المعلوف في أمّه، وقد تركها وحيدةً كسيرة بعد هجرته إلى أمريكا:

فَمَـــا نَضَـــبَتْ لِعَيْنَيْهَـــا دُمُـــوعٌ كَـــأَنَّ لِعَيْنَيْهَـــا فِـــي البَحْـــرِ عِرْقَـــا

- قال الشاعر الجزائري أبو القاسم خمار:

فِـــي فِلَسْـــطِينَ.. عَزِيمَـــةٌ مَكْبُوتَـــةٌ كَاللَّيْـــثِ تَـــزْأَرُ دَاخِـــلَ الأَغْـــوَارِ
والمَغْـــرِبُ العَرَبِـــيُّ مُنْـــدَلِعٌ كَمَـــا يَتَفَجَّـــرُ البُرْكَـــانُ بَعْـــدَ حِصَـــارِ

- قال أحمد شوقي مادحا:

اللهُ سَـــخَّرَ لِلْكِنَانَـــةِ خَازِنًـــا أَخَـــذَ الأَمَـــانَ لَهَـــا مِـــنَ الأَعْـــوَامِ
وكَـــأَنَّ عَهْـــدَكَ عَهْـــدُ يُوسُـــفَ: كُلُّـــهُ ظِـــلٌّ وسُـــنْبُلَةٌ وقَطْـــرُ غَمَـــامِ
وكَـــأَنَّ مَـــالَ المُـــودِعِيـــنَ وزَرْعَهُـــمْ فِـــي رَاحَتَيْـــكَ وَدَائِـــعُ الأَيْتَـــامِ

- وقال شوقي:

مِـــنْ كُـــلِّ مِئْذَنَـــةٍ سَـــمِعْتَ مَحَبَّـــةً وبِكُـــلِّ نَـــاقُوسٍ لَقِيـــتَ دُعَـــاءَ
يَتَأَلَّفَـــانِ عَلَـــى الهُتَـــافِ كَمَـــا انْبَـــرَى وَتَـــرٌ يُسَـــايِرُ فِـــي البَنَـــانِ غِنَـــاءَ

- قال حافظ إبراهيم:

أَنَـــا كَـــالمَنْجَمِ تِبْـــرٌ وثَـــرًى فَـــاطْرَحُوا تُرْبِـــي وصُـــونُوا ذَهَبِـــي

- قال الشاعر القروي:

والمَـــوْتُ مَـــا عَـــفَّ عَـــنْ عَبْـــدٍ ولَا مَلِـــكٍ كَـــالنَّهْرِ يَجْتَـــرِفُ الأَقْـــذَارَ والـــذَّهَبَا

التَّشْبِيهُ الضِّمْنِيّ

تَعْرِيفُ التَّشْبِيهِ الضِّمْنِيّ: "هُوَ تَشْبِيهٌ لا يُوضَعُ فِيهِ المُشَبَّهُ والمُشَبَّهُ بِهِ فِي صُورَةٍ مِنْ الصُّوَرِ المَعْرُوفَة، بَلْ يُلْمَحُ المُشَبَّهُ والمُشَبَّهُ بِه، ويُفْهَمَانِ مِنَ المَعْنَى"[1]، فإذَا أوْرَدَ الأدِيبُ المُشَبَّهَ في صُورَةٍ، أوْ حُكْمٍ قَدْ يُنْكِرُهُ المُتَلَقِّي أو المُسْتَمِع، احْتَاجَ في إمْكَانِ هَذَا الحُكْمِ وقَبُولِهِ إلى قِيَاسِهِ بِنَظِيرٍ لَهُ مَنْطِقِيٍّ (مُسَلَّمٍ بِه، وبَدِيهِيّ)، وذلك بالتَّلْمِيح، لا بالتَّصْرِيح، أيْ أنَّ الأدِيبَ عِنْدَ لُجُوئِهِ إلى هَذَا النَّوع مِنَ التَّشْبِيهِ فَكَأنَّهُ يُرِيدُ إقَامَةَ حُجَّةٍ أوْ دَلِيلٍ أو بُرْهَانٍ عَلَى الحُكْمِ المُرَادِ إسْنَادُهُ إلَى المُشَبَّه، وذَلِكَ البُرْهَانُ يَكُونُ مِنَ المُسَلَّمَات، أو البَدِيهِيَّات التي لا جِدَالَ فِيهَا. "ومَهْمَا يَكُنْ فَالتَّشْبِيهُ الضِّمْنِيّ لَا يَرِدُ عَلَى صُوَرِ التَّشْبِيهَاتِ المَعْرُوفَةِ غَالِبًا، بَلْ يُلْحَظُ فِي تَضَاعِيفِ الكَلَام، وفِيهِ يَقَعُ المُشَبَّهُ بِهِ دَائِمًا دَلِيلًا عَلَى إمْكَانِ المُشَبَّه."[2]

اقرأ معي قول الشاعر محمود غُنيم في شأن المرأة:

فَـــلَا تَقُـــلْ هِـــذِهِ أنْثَـــى وإنْ ضَـــعُفَتْ أَمَـــا يُـــدَبِّرُ مُلْـــكَ النَّحْـــلِ أنْثَـــاهُ؟

لقد أصدر الشاعر حُكْمًا توقّع إنكارَه من طرف المستمع، وهذا الحُكم هو حِكمةُ المرأة في بناء المجتمع وتدبير شؤونه، ولمّا عرف الشاعرُ أنّ حُكمه بحاجة إلى دليل وبرهان هداهُ خيالُه إلى الدليل (ملكة النحل)، فهي أنثى، ولكنّ كفاءتها لا نظير لها في تدبير مملكتها. إذن فالتشبيه الضمني لا يعدو أن يكون قضية أوردها الشاعرُ، يظهر بُطلانها بادئ النظر، فيأتي التشبيه برهانا على صدقها، وجوازًا لوقوعها.

واستمع إليه حين يقول في قصيدة "معجزة السَّدّ العالي":

حَجَـــرُ السَّـــدِّ زِينَـــةُ الـــوَطَنِ المَحْـــ ـــــبُوبِ، والـــدُّرُّ حِلْيَـــةُ الغَانِيَـــات

كيف تكون الأحجار زينة الوطن؟ ألا يحمل هذا الحُكم قسطا من الغرابة؟ لكن، أما ترى أنّ الدُّرَّ - وهو معدود في الأحجار- زينةُ الحسناء؟ نقول إن الشاعر شبه أحجار السَّدِّ العالي بالدّرر، وشبه مصر بالغانية، لكنه لم يذكر ذلك صراحة وعلنا، بل فضل واختار التشبيه الضمني، ولعله أصاب الاختيار.

واسمع إلى قوله أيضا في حادثة العدوان الثلاثي على مصر:

هُمُـــو حَسِـــبُوا مِصْـــرَ صَـــيْدًا سَـــمِينًا وقَـــدْ تَقْـــنِصُ الأسْـــدُ صَـــيَّادَهَا

لعلك أدركت من غير كدٍّ أنّ الشاعر في هذا الموقف يشبه أبطال مصر بالأسود، ويشبه دول العدوان بصياد مندفع مغرور، لم يحسب للأسود حسابا، فكان من الخاطئين. ومن الملاحظ أنّ الشاعر في هذه المرة أيضا يختار التشبيه الضمني لما يمتاز به هذا الأخير من إمتاع وإقناع.

وفي المعنى نفسه أنشد حافظ إبراهيم:

فَـــاليَوْمَ قَـــرِّي يَـــا كِنَانَـــةُ واهْـــدَئِي حَـــرَمُ الكِنَانَـــةِ لَـــمْ يَكُـــنْ بِمُبَـــاحِ

[1] معجم البلاغة العربية الدكتور بدوي طبانة ص 358.
[2] فن التشبيه علي الجندي الجزء الأول ص 219.

مَـــنْ ذَا يُغِيـــرُ عَلَـــى الأَسُـــودِ بِغَابِهَـــا أَوْ مَـــنْ يَعُـــومُ بِمَسْـــبَحِ التِّمْسَـــاحِ؟

شبه الشاعرُ شعبَه بالأسُود تارة، وبالتمساح تارة أخرى، لكن، هل سمعتَه يذكُر ذلك صراحة؟ لا، بل نلاحظ أنّ حافظًا فضّل التشبيهَ المكسوف على التشبيه المكشوف، ليترك للعقل حسنة اكتشافه، نقول إذن إن البيت الثاني ليس سوى دليل وتعليل قوّى به الشاعر حُكمه الذي أصدره في البيت الأول.

ولك أن تقرأ معي قول شوقي في رثاء إسماعيل أباظة:

هَيَاكِـــلُ تَغْنَـــى والبَيَـــانُ مُخَلَّـــدٌ أَلَا إِنَّ عِتْـــقَ الخَمْـــرِ يُنْسِـــي الأَوَانِيَـــا

فأمير الشعراء يدخل حَرَمَ الإبداع كعادته، ويشبه لك جسدَ مرثيّتِهِ الفانِي بالآنية التي تُقدَّم فيها الخمر، بينما يشبه بيانَه الخالد بالخمر المعتّقة، التي تُنسي عند أهل الخمر شكلَ الأكواب والأواني التي تُسكب فيها، ولكن الشاعر كما لاحظت لم يوظف التشبيه بنمطيته الكلاسيكية، بل فضّل أنْ يسلك مسلكا آخر، هو مسلك التعليل عن طريق القياس، ليقدم قياسه كدليل يثبت به ما ادّعاه في صدر البيت.

ومن بديع التشبيه الضمني قول معروف الرصافي في شأن محبوبته:

فَكَانَـــتْ لَهَـــا سُـــودُ الجَلَابِيـــبِ حِلْيَـــةً وَلَا عَجَـــبٌ أَنَّ الـــدُّجَى مِـــنْ حِلَـــى البَـــدْرِ

معروفٌ أن السَّوَادَ لونُ الحِداد، أمّا أن يكون حِلية وزينة فذلك حُكمٌ عند أهل الذوق غريب، نقول إن الرصافي بهذا الحكم قد فتح باب الجدل على مصراعيه، لكن لا عجب – يقول الرصافي – فالليل الدّاجي حِلية البدر المنير، الحاصلُ أن الشاعر شبه وجه الحسناء بالبدر، وشبه لباسها الأسود بالدُّجى، ولكن بالتلميح لا بالتصريح، وما قصة البدر والليل سوى قياسٍ لحكمٍ توقَّعَ الشاعرُ إنكارَه.

ومن التشبيه الضمني قول علي الجارم بمناسبة انتخاب الدكتور علي إبراهيم نقيبا للأطبّاء:

قَـــالُوا: عَلِـــيٌّ غَـــدَا نَقِيبَـــا قُلْـــتُ: مَتَـــى لَـــمْ يَكُـــنْ نَقِيبَـــا؟

المِسْـــكُ مِسْـــكٌ فَـــإِنْ تُبَـــالِغْ فِـــي وَصْـــفِهِ لَـــمْ تَـــزِدْهُ طِيبَـــا

شبه الشاعرُ ممدوحه بالمسك، رغم أنّ ظاهر العبارة ليس فيه ما يدلّ على التشبيه، نقول إنّ الشاعر قد أوحى بذلك إيحاءً ملحوظا، غير ملفوظ، فلم يعمد إلى أركان التشبيه المعروفة، بل آثر التشبيه الضمنيّ، لِما له من تأثير في النفس والعقل، فعجُزُ البيت الأول قد ينكره السامع، لذا كان لزامًا على الشاعر أن يعلل حكمه ويقوّيه، فقاسَهُ بأمر مُسلّم به وبديهيّ، ولا نزاع فيه، وهو حقيقة المسك.

ومنه قول الجارم أيضا:

خُوضُـــوا الصِّـــعَابَ ولا تَمَلُّـــوا إِنَّمَـــا نَيْـــلُ المُنَـــى بِالصَّـــبْرِ والإِلْحَـــاحِ

قَـــدْ يُنْجِـــدُ اللُّـــجُّ الغَرِيـــقَ بِقَذْفِـــهِ حَيًّـــا فَيَلْقَـــى المَـــوْتَ فِـــي الضَّحْضَـــاحِ

يقول: إنّ على الإنسان أنْ يركب كلَّ صعب، ولا يرهبَ أي خطب، وقد احتاج شاعرنا إلى تعليل موقفه، فقاسه بالغريق الذي قد يسعفه تلاطم الأمواج حين تقذفه حيّا إلى شاطئ النجاة، بينما قد يلقى حتفه في الماء اليسير القليل.

واستمع إلى بيتين من أجمل ما خطّته أقلام على قراطيس أنشدهما البارودي في مدح الخديوي عباس:

لا غَـــرْوَ أَنْ جَمَـــعَ المَحَـــامِـدَ يَافِعًـــا وسَمَـــــا بِهِمَّتِـــــهِ عَلَـــى نُظُـــرَائِـــهِ

كيف يمكن لصبيٍّ أن يجمع الفضائل والمحامد قاطبة، ويسمو على أتْرابه وأقرانه؟ ألا يجدُ حكمٌ مُمَاثِلٌ عشراتِ الأسباب لإنكاره؟ أليس ذلك بعسيرٍ على مَن كان في مقتبل العمر؟ لكنّ هذا الحكمَ المجرّد ليس كلّ ما في جعبة الشاعر، إنه يريد الآن أن يعلل لك حُكمه كي تقرّ عينك، ويأتيك ببرهان يزيل كل الشُّبهات التي علقت في نفسك، فيقول لك بكلّ إيجاز وإعجاز:

فَالعَيْـــنُ وَهْـــيَ صَغِيـــرَةٌ فِي حَجْمِـهَا تَسَـــعُ الفَضَـــاءَ بِأَرْضِـــهِ وسَمَـــائِـــهِ

ألمْ ترَ – يقول البارودي – أنّ العين على صغر حجمها قادرة على احتواء الفضاء، بما فيه من أرض وسماء؟ إذن فتشبيه البارودي للممدوح وهو غلام حَدَثُ السنّ بالعين لم يكن تشبيها صريحا، بل ضمنيا فُهم من سياق الكلام.

ومن نماذج التشبيه الضمني قول محمود سامي البارودي في قصيدة قصيرة بعث بها إلى شكيب أرسلان:

فَهَاكَهَـــا تُحْفَـــةً مِنِّـــي وإِنْ صَـــغُرَتْ فَالـــدُّرُّ وهْـــوَ صَـــغِيرٌ حَلْـــيُ أَجْيَـــادِ

البارودي يعتقد جازمًا أنه أتْحَفَ صديقهُ بقصيدة عظيمة، حَلَبَ فيها دَرَّ اللّسان، وجَلَبَ فيها دُرَّ البيان، ومن أجل أنْ يثبت أنّ قلة أبياتها وحجمَها لا يعيبانها لجأ إلى دليل لا يجادل فيه أكثرُ الناس، وهو أن الدُّرَّةَ – على صغر حجمها – هي أجمل ما تتحلى به الأجياد، فالنتيجة أنّ الشاعر شبه قصيدته بالدرة الصغيرة الثمينة، فكان تشبيها جميلا، زاده إخفاؤه وانتقابه حُسنًا كما يزيد الحسناءَ حُسْنًا نقابُ.

ومن التشبيه الضمني قول البارودي ردّا على الذين اتهموه بتقليد ومحاكاة الشعراء العباسيين:

تَكَلّمْـــتُ كَالمَاضِـــينَ قَبْلِـــي بِمَـــا جَـــرَتْ بِـــــهِ عَـــــادَةُ الإِنْسَـــــانِ أَنْ يَتَكَلّمَـــــا

فَـــــلَا يَعْتَمِـــــدْنِي بِالإِسَـــــاءَةِ غَافِـــلٌ فَـــــلَا بُـــدَّ لابْـــنِ الأَيْـــكِ أَنْ يَتَرَنَّمَـــا

أراد البارودي أن يبرهن أنه مطبوع على قول الشعر، وأن الشعر مركوز في نفسه، فشبه نفسه بالبلبل في عجز البيت الثاني تشبيها خفيّا، وكما البلبلُ مفطورٌ ومجبُولٌ على التّرنم، فهو مثله، كلاهما مطبوع على الغناء، لكنك إنْ أمعنت النظر تجدِ المشبه به ليس مرتبطا بالمشبه ارتباطا لفظيا، فالشاعر قد آثر الارتباط المعنوي عن الرابط اللفظي، وهذا هو سرُّ التشبيه الضمني.

ومن تشبيهاته الضمنية التي زانت ديوانه قوله في الحكمة:

فَـــلَا تَثِـــقْ بِـــوِدَادٍ قَبْـــلَ مَعْرِفَـــةٍ فَالكُحْـــلُ أَشْبَـــهُ فِـــي العَيْنَيْـــنِ بِالكَحَـــلِ

وانْهَـضْ إِلَـى صَـهَوَاتِ المَجْـدِ مُعْتَلِيًـا فَالبَـازُ لَـمْ يَـأوِ إِلّا عَـالِيَ القُلَـلِ

وقوله أيضا:

فَإِنْ يَكُـنْ سَـاءَهُـمْ فَضْلِـي فَـلَا عَجَـبٌ فَالشَّمْـسُ وَهِـيَ ضِيَـاءٌ آفَـةُ المُقَـلِ

وقوله لله درّه:

فَالنَّـاسُ أَشْبَـاهٌ وشَتَّـى بَيْنَهُـمْ تَدْنُـو الجُسُـومُ وتَبْعُـدُ الأَخْـلَاقُ

فَاعْـرِفْهُـمْ واحْـذَرْ تَشَـابَهَ أَمْرِهِـمْ لَا تَسْتَـوِي الأَغْـلَالُ والأَطْـوَاقُ

ومن أجمل شواهد التشبيه الضمني قول الشاعر القرويّ:

اغْضِـبْ صَـدِيقَكَ تَسْـتَطْلِعْ سَـرِيرَتُه للسِّـرِّ نافِـذَتَان: السُّـكْرُ والغَضَـبُ

حُكمك أيها الشاعر الحكيم يحتاج إلى دليل... هنا يردُّ علينا القروي:

مَـا صَـرَّحَ الحَـوْضُ عمَّـا فِـي قَرَارَتِـهِ مِـنْ رَاسِـبِ الطِّـينِ إِلَّا وَهْـوَ مُضْـطَرِبُ

أليس مثالُ الحوض المضطرب الذي يكشف اضطرابُه عن رواسب الطين دليلا طبيعيّا قوَّى به الشاعر حكمه؟ وكأنّي بالشاعر يقول لنا: من أنكر حكمي عليه أولا أن ينكر دليلي إن استطاع، إنه تشبيه ضمني ساقه الشاعر مَسَاق حُجّةٍ أثبتَ بها ما أراد إثباته.

وللقرويّ أيضا في أصالة العربيّ:

لا تُنْكُرُوهَـا فالـدَّمُ العَرَبِـيُّ قَـدْ جَلّـتْ أَصَـالَتُهُ عَـنِ النُّكْـرَانِ

إِنَّ البُـزَاةَ وإِنْ تَنَـاثَـرَ رِيشُـهَـا لَـمْ تُحْصَ فِـي الحَشَـرَاتِ والدِّيـدَانِ

فالشاعر قد شبه الإنسان العربيّ بالبازي دون الاعتماد على أركان التشبيه المألوفة، فلقد عرض في البيت الأول فكرةً كَثُرَ في عصرنا من أنكرها، وهي أصالة الدّم العربي، ثم أتى بعدها في البيت الثاني بأمر يعرفه جميع النّاس، ويسلّمون به دون جدال، وهو أنّ البازيّ يبقى بازيّا وإنْ تناثر ريشه، (مبدأ عقليّ لا ينكره عاقل يسمّيه أهل المنطق بمبدأ الهُويّة)، فكأنّي بالشاعر يقول لمخاطبيه: إن أنكرتم عليّ ما أقول، فإنّي آتيكم بمثيل لا يجادل فيه إلّا من أوتي من الفطنة قليلا. حقّا إن التشبيه الضمني يجمع بين حرارة الإمتاع، ووضوح الإقناع.

ومن روائعه قول نزار قباني:

إنَّ اغْتِصَابَ الأرضِ لا يُخِيفُنَا

فالرِّيشُ قدْ يَسْقُطُ منْ أجْنِحَةِ النُّسُورْ

والعَطَشُ الطَّوِيلُ لا يُخِيفُنَا

فالمَاءُ يَبْقَى دَائِمًا في بَاطِنِ الصُّخُورْ

الشاعر يشبه في السطرين الأول والثاني الشعب العربي بالنسور، ثم يشبهه بالصخور في السطرين الثالث والرابع، غير أنه في السطرين الأول والثالث قد عرض حُكمين ليس من السهل الاقتناع بهما، فهما في نظر البعض محضُ ادّعاء، لذلك نجد الشاعر قد أتى بالبيّنة على ما ادّعى، فقدّم المشبه به في السطرين الثاني

والرابع كحجة، أو برهان لما عرض له من أحكام، ولا شك أنك لاحظت في كلّ مرة أنّ المشبه به ليس مرتبطا بالمشبه ارتباطا لفظيا، وبالتالي يكون هذان التشبيهان ضمنيين، لا صريحين.

وله في القصيدة نفسها:

وإنَّ أمْرِيكَا عَلَى بَأسِهَا

لَنْ تَمْنَعَ الطُّيُورَ مِنْ أَنْ تَطِيرْ

قَدْ تَقْتُلُ الكَبِيرَ بَارُودَةٌ

صَغِيرَةٌ فِي يَدِ طِفْلٍ صَغِيرْ.

ولنزار قباني أيضا:

وكَيْـــفَ أَهْـــرُبُ مِنْـــهُ إنَّـــهُ قَـــدَرِي؟ هَـــلْ يمْلِـــكُ النَّهْـــرُ تَغْيِيـــرًا لِمَجْـــرَاهُ؟

بقليل من التأمل تجد أن الشاعر يرى نفسه مسيّرا في هواه لا مخيّرا، فهو محكوم عليه بهذا الهوى كما النهر محكوم عليه بالجريان، ولكن الشاعر أخفى هذا التشبيه، وتحجّج بحجة النهر، لأنها حجة بديهية، ومسلّمة طبيعية لا نزاع فيها.

ومن التشبيه الضمني قول مصطفى صادق الرّافعي في الغزل:

تَرَقْـــرَقَ حُسْـــنُهَا فِيهَـــا فَمَالَـــتْ وفِـــي الطّـــاوُوس طَبْـــعُ الاخْتِيَـــال

لقد شبه الرافعي من يتغزل بها بالطاووس، ووجه الشبه الكِبر والاختيال، لكنه لم يذكر ذلك مباشرة على سنة التشبيه المعتادة، فكأنه يقول: إذا كان الاختيال من طباع الطاووس، لا أحد ينكره، أو يجادل فيه، فلماذا أنكره عليها؟

ومن التشبيه الضمني في النثر قول السيد أحمد الهاشمي في رسالة شوقٍ بعث بها إلى صديقه: "كِتَابِي لَدَيْك، يَصِفُ شَوْقِي إِلَيْك، فَمُذْ فَارَقْتَنِي فَرَّقْتَ بَيْنَ أُنْسِي ونَفْسِي، بَلْ بَيْنَ رُوحِي وجِسْمِي، ولا تَعْجَبْ إِذَا كُنْتُ أَغْدُو وأَرُوح، فالطَّيْرُ يَمْشِي مِنَ الأَلَمِ وهُوَ مَذْبُوح."[1].

الكاتب قد شبه نفسه – وهي على ما هي عليه من شوق وحنين - بالطير المذبوح، ليس في ذلك شك، لكنه سلك في تشبيهه مسلكا وعرًا غير المسلك المعروف، فهو قد حكم حكما قد ينكره عليه المتلقي، فلم يكن أمامه إلا الإتيان بالبرهان، فكان مثال الطير المذبوح برهانا ودليلا على ذلك الحكم.

ومنه في النثر قول مصطفى صادق الرافعي: "الشَّبَابُ هو القُوَّةُ، فالشَّمْسُ لا تَمْلَأُ النَّهَارَ في آخِرِهِ كَمَا تَمْلَأُهُ في أَوَّلِه".

فالكاتب يقارن بين حالين (الشباب والشمس) الحالة الثانية منهما لا جدال فيها، فالشمس في بداية النهار تملأ الأرض نورا، وكذلك الشباب هو بداية العمر الحقيقي، وهو المرحلة الأكثر نشاطا وفعالية، والتشبيه كما

[1] جواهر الأدب السيد أحمد الهاشمي ج1. ص 56.

ترى خفيّ، وضمنيّ، لم يأتِ على نسق التشبيه المعهود، مِنْ ذكر المشبه بإزاء المشبه به. إنّ الشاعر يريد إقامة حكم، فألحقه، وقاسه بظاهرة طبيعية لا جدال فيها، على سبيل البرهان، والحجة.

ومن أمثلته النثرية البديعة قول أحمد أمين: "سَبَبُ قُصُورِ الشِّعْرِ الجَاهِلِيّ فِي بَابِ الوَصْفِ أَنَّ الطَّبِيعَةَ فِي هَذِهِ البِيئَةِ طَبِيعَةٌ قَاسِيَة، لَا رَحِيمَة، وطَبِيعَةٌ فَقِيرَة، لا غَنِيَّة: حَرٌّ مُهْلِك، وبَرْدٌ قَارِس، وصَحْرَاءُ مُجْدِبَة، وأَرْضٌ شَحِيحَة، وجِبَالٌ جَرْدَاء، وأَرْضٌ صَمَّاء، ورِمَالٌ لَا يَسْتَقِرُّ فِيهَا مَاء، فَكَيْفَ تُوحِي هَذِهِ الطَّبِيعَةُ بِالتَّغَنِّي بِالجَمَال؟ إنَّ الطَّائِرَ إِذَا لَمْ يَجِدِ الغُصُونَ النَّاضِرَة، والأَزْهَارَ اليَانِعَة، لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَعِيش، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُغَنِّي."

بلاغة التشبيه الضمني:

التشبيه الضمني نوعٌ من التفنّن في أساليب التعبير، والنّزوع إلى الابتكار والتجديد، وإقامة البرهان على الحكم المُراد إسناده إلى المشبه، فيلجأ الأديب إلى أسلوب يُوحِي بالتشبيه، من غير أن يصرّح به في صورة من صُوَرِهِ المعروفة، رغبةً منه في إخفاء معالم التشبيه، لأنّ التشبيه كلما خفي ودقّ كان أبلغ وألصق بالنفس، ذلك لأنه يشبع عندها حُبَّ التطلُّع إلى الجديد، وشغفها به. وتكمن جماليته في إمكان الحكم المسند إلى المشبه، وكأنه بذلك في مقام البرهان العقلي، والقدرة على ربط العلاقات، والجمع بين أشياء أبعد ما تكون عن التقارب والتآلف، حيث تتعانق المعاني الذهنية، والحالات الشعورية في نظم بديع، فيكون لذلك أثر بالغ في فنيّة التعبير وجماله. وبعبارة وجيزة نقول: إن التشبيه الضمني يجمع بين حرارة الإمتاع، ووضوح الإقناع.

تدريب: حدّد التشبيه الضمنيّ، واشرحه فيما يأتي:

- قال نزار قباني:

حَبْـــلُ الفَجِيعَـــةِ مُلْتَـــفٌّ عَلَـــى عُنُقِـــي ... مَـــنْ ذَا يُعَاتِـــبُ مَشْـــنُوقًا إِذَا اضْـــطَرَبَا؟

- وقال نزار قباني:

وإذا قَسَـــوْتُ علـــى العُرُوبَـــة مَـــرّةً ... فَلَقَـــدْ تَضِـــيقُ بِكُحْلِهَـــا الأهْـــدَابُ

- ولنزار أيضا:

قَـــدَرٌ عَلَيْنَـــا أَنْ نَكُـــونَ مَعًـــا ... يَـــا حُلْـــوَتِي، رَغْـــمَ الّـــذِي كَانَـــا

إِنَّ الحَدِيقَـــةَ لَا خَيَـــارَ لَهَـــا ... إِنْ أَطْلَعَـــتْ وَرَقًـــا وأَغْصَـــانَا

- قال خليل مطران:

زَجَـــرْتُ فُـــؤادِي أَنْ يَبُـــوحَ بِحُزْنِـــهِ ... فَبَاحَـــتْ بِـــهِ عَيْنِـــي ولَـــمْ يَنْفَـــعِ الزَّجْـــرُ

ومَـا زَجْـرُكَ الكَـأسَ الدِّهَـاقَ بِخَمْـرِهَا ... إِذَا هِـيَ سَـالَتْ عَـنْ جَوَانِبِـهَا الخَمْـرُ؟

- قال شاعر الجزائر محمد جربوعة متغزلا:

والحُسْـــنُ فِـــي صَـــنْعَاءَ يُخْفِـــي نَفْسَـــهُ ... لَكِنَّـــهُ يُـــرْدِي ولَـــوْ لَـــمْ يَظْهَـــرِ

مَـــثَلًا...عُطُـــورُ السَّـــيِّدَاتِ خَفِيفَـــةٌ ... لَكِنَّهَـــا إنْ أَنْـــذَرَتْ لَـــمْ تَعْـــذُرِ

- قال محمود غنيم فيمن يرُومون تشويه صورة الشعر:

لَـــنْ يَبْلُـــغَ القَـــوْمُ مِـــنْ تَشْـــوِيهِهِ غَرَضًـــا ... صَـــلَابَةُ الصَّـــخْرِ تُعْيِـــي قَرْنَـــيْ الوَعِـــلِ[1]

- وقال غنيم في "مضيفة الطائرة":

قَـــالَ جَـــارِي: أَتِلْـــكَ فِـــي الجَـــوِّ تَقْضِـــي ... عُمْرَهَـــا بَـــيْنَ جَيْئَـــةٍ وذَهَـــابِ؟

قُلْـــتُ: هَـــلْ تَحْسِـــبُ العَصَـــافِيرُ يَوْمًـــا ... لِرُكُـــوبِ الهَـــوَاءِ أَيَّ حِسَـــابِ؟

قَـــدْ بَلَغْنَـــا عَـــدْنًا، وتِلْـــكَ لَعَمْـــرِي ... هِـــيَ إحْـــدَى الكَوَاعِـــبِ الأَتْـــرَابِ

- قال معروف الرصافي:

أَتَطْمَـــعُ هَـــذِي النَّـــاسُ أَنْ تَبْلُـــغَ المُنَـــى ... ولَـــمْ تُـــورِ فِـــي يَـــوْمِ الصِّـــدَامِ زُنُودَهَـــا؟

فَهَـــلْ لَمَعَـــتْ فِـــي الجَـــوِّ شُـــعْلَةُ بَـــارِقٍ ... ومَـــا ارْتَجَسَـــتْ بَـــيْنَ الغُيُـــومِ رُعُودُهَـــا؟

- وقال مخاطبا الغرب:

لا تَسْـــتَهِينُوا بِنَـــا مِـــنْ ضَـــعْفِ قُوَّتِنَـــا ... فَكَـــمْ ذُبَابَـــةِ غَـــابٍ أَزْعَجَـــتْ نَمِـــرَا

- وقال معروف الرصافي مخاطبا العرب:

كَيْـــفَ النَّجَـــاحُ وأَنْـــتُمْ لا اتِّفَـــاقَ لَكُـــمْ ... والعُـــودُ لَـــيْسَ لَـــهُ صَـــوْتٌ بِـــلَا وَتَـــرِ

- وقال الرصافي في الحكمة:

لا تُهْمِلُـــوا الضَّـــرَرَ اليَسِـــيرَ فَإِنَّـــهُ ... إنْ دَامَ ضَـــاقَتْ دُونَـــهُ الفَلَـــوَاتُ

فالنَّـــارُ تَلْهَـــبُ مِـــنْ سُـــقُوطِ شَـــرَارَةٍ ... والمَـــاءُ تَجْمَـــعُ سَـــيْلَهُ القَطَـــرَاتُ

- قال محمد العيد آل خليفة:

حُـــثَّ الخُطَـــى لِلْعِـــزِّ واسْـــلُكْ نَهْجَـــهُ ... ولَـــوْ أَنَّ نَهْـــجَ العِـــزِّ كَـــانَ جَحِيمَـــا

لَـــوْ خَـــافَ مُوسَـــى أَنْ يَحُـــلَّ بِـــهِ رَدًى ... فِـــي الطُّـــورِ لَـــمْ يَـــكُ لِلإِلَـــهِ كَلِيمَـــا

- قال محمود سامي البارودي معتذرا:

فَـــإِنْ تَكُـــنْ هَفْـــوَةٌ أَوْ زَلَّـــةٌ عَرَضَـــتْ ... فَالسَّـــهْمُ يَصْـــدِفُ أَحْيَانًـــا عَـــنِ الغَـــرَضِ

- قال أحمد شوقي في الغزل:

هَـــامَ الفُـــؤَادُ بِشَـــادِنٍ ... أَلِـــفَ الـــدَّلَالَ عَلَـــى المَـــدَى

أَبْكِـــي فَيَضْـــحَكُ ثَغْـــرُهُ ... والكِـــمُّ يَفْتَحُـــهُ النَّـــدَى[2]

- وقال شوقي:

---

[1] الوعل: تيس الجبل.
[2] الكِمّ: كأس الزهرة.

عَسَـــى تَكُـــفُّ دُمُـــوعٌ فِيـــكَ هَامِيَـــةٌ لا تَطْلُـــعُ الشّـــمْسُ والأنْـــدَاءُ فِـــي آنِ

- وقال في رثاء عبد الله البستاني:

يَـــا صَـــاحِبَ "البُسْـــتَانِ" نَـــمْ آمِنًـــا فَـــإِنَّ فِـــي المَـــوْتِ زَوَالَ الشَّـــكَاةْ
مَـــا غَـــابَ مَـــاءٌ غَـــابَ تَحْـــتَ الثَّـــرَى فَـــأَطْلَعَ النَّبْـــتَ وأَحْيَـــا المَـــوَاتْ

- قال الشيخ أحمد سحنون في رثاء عبد الحميد بن باديس:

لَـــمْ يَبْـــقَ طَعْـــمٌ لِعَـــيْشٍ بَعْـــدَ مَصْـــرَعِهِ إنَّ الحَيَـــاةَ بِـــلا "بَـــادِيسَ" لَـــمْ تَطِـــبِ
مَـــا حَـــالُ جِسْـــمٍ إذَا مَـــا الـــرَّأسُ فَارَقَـــهُ لا خَيْـــرَ بَعْـــدَ ذَهَـــابِ الـــرَّأسِ فِـــي الـــذَّنَبِ

- قال مصطفى صادق الرافعي:

بَلَـــى إنّ طَـــرْقَ الحُـــبِّ أوْعَـــرُ مَسْـــلَكًا ولَكِنَّنِـــــي بِالحُـــــبّ أدْرَى وأعْلَـــــمُ
ومَـــاذا يَضُـــرُّ الطّيـــرَ فِـــي الجَـــوِّ أنْ يَـــرَى وُعُـــورَةَ هَـــذِي الأَرْضِ وهـــو يُحَـــوِّمُ؟

- وله أيضا:

فمِـــنْ أيـــنَ مَـــا يَمَّمْـــتُ ألْقَـــاهُ جَـــانِبِي ومِـــنْ أيْـــنَ مَـــا أرْتَـــدُّ ألْقَـــاهُ جَـــاذِبِي
ومـــا يَصْنَـــعُ الغَضْـــبُ المُهَنَّـــدُ إنْ هَـــوَى عَلَـــى المَـــاءِ مَهْمَـــا كَانَ مَاضِي المَضَـــارِبِ؟

- قال إيليا أبو ماضي:

يَمِينًـــــا سَـــــأَحْمِلُ فِـــــي أَضْـــــلُعِي هَـــــوَاكُمُ مَـــــا بَقِيَـــــتْ أَضْـــــلُعِي
وأَشْـــــكُرُكُمْ بِلِسَـــــانِ النَّسَـــــائِمِ والـــــرَّوْضِ والجَـــــدْوَلِ المُثْـــــرَعِ
فَـــــلَا عُـــــذْرَ للطّيْـــــرِ إمَّـــــا رَأى جَمَـــــالَ الرَّبِيـــــعِ ولَـــــمْ يَسْـــــجَعِ

- ولإيليا أبي ماضي كذلك:

ولَسْـــتُ أَعْجَـــبُ أنْ لَـــمْ تَشْـــتِكِ أَلَمًـــا إنَّ الجَمَـــادَاتِ لا تَشْـــكُو مِـــنَ الأَلَـــمِ

- قال الشاعر القروي:

خُـــذِ العِلْـــمَ يَـــا ابْنِـــي مِـــنْ حَكِـــيمٍ وجَاهِـــلٍ فَقَـــدْ يَسْـــتَفِيدُ الفَيْلَسُـــوفُ مِـــنَ الغِـــرِّ
وإنَّ نَفِـــيسَ الـــدُّرِّ مَـــا ضَـــاعَ قَـــدْرُهُ إذَا كَـــانَ فِـــي كَفّـــيْ وَضِـــيعٍ بِـــلَا قَـــدْرِ

- قال إبراهيم ناجي في الرثاء مضمّنا:

إنَّـــا افْتَقَـــدْنَاكَ والأفْهَـــامُ حَـــائِرَةٌ والبَـــدْرُ فِـــي اللّيْلَـــةِ اللّـــيْلَاءِ يُفْتَقَـــدُ

- قال حافظ إبراهيم في شعراء لبنان الذين انتشروا وانتثروا في بلاد أمريكا:

مَـــا عَـــابَهُمْ أَنَّهُـــمْ فِـــي الأرْضِ قَـــدْ نُثِـــرُوا فَالشَّـــهْبُ مَنْثُـــورَةٌ مُـــذْ كَانَـــتِ الشَّـــهُبُ

التشبيهُ المقلوب وتشبيهُ التّفضيل

تعريف التشبيه المقلوب: هُنَاكَ قَوْلٌ مَأْثُورٌ فِي التَّشْبِيهِ مَفَادُهُ أَنَّ وَجْهَ الشَّبَهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَظْهَرَ، وأَشْهرَ في المُشَبَّهِ بِهِ مِنْهُ في المُشَبَّه، وذَلِكَ كَيْ تَصِحَّ مُقَارَنَةُ المُشَبَّهِ بالمُشَبَّهِ بِه، لَكِنّ بَعْضَ الشُّعَرَاءِ والكُتَّابِ انْقَلَبُوا عَلَى سِيَاسَةِ التَّشْبِيه، وعَكَسُوا هَذِهِ المُعَادَلَة عَلَى وَجْهِ المُبَالَغَة، إِيهَامًا بأَنَّ المُشَبَّهَ أَقْوَى، وأَكْمَلُ فِي وَجْهِ الشَّبَهِ مِنَ المُشَبَّهِ بِه، أيْ أَنَّهُمْ قَلَبُوا التَّشْبِيه، وخَرَجُوا عَنِ المَأْلُوف، فَجَعَلُوا المُشَبَّهَ مُشَبَّهًا بِه، والمُشَبَّهَ بِهِ مُشَبَّهًا، وأَطْلَقَ عُلَمَاءُ البَيَانِ عَلَى هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّشْبِيهِ التَّشْبِيهَ المَقْلُوب.

اسمع إلى الكاتب محمد المويلحي، وهو يشير إلى هذا المعنى حين تعذَّرَ عليه وصف برج (إيفل) بفرنسا: "أَنَّى لِخَيَالِ الشَّاعِرِ أَنْ يَعْلُوَ فِي وَصْفِهِ عُلُوَّه، ويَسْمُوَ سُمُوَّه؟ لَا جَرَمَ أَنَّهُ يَضِيقُ عَلَيْهِ نِطَاقُ الوَصْف، فَيَلْجَأُ إِلَى تَشْبِيهِ الأَكْبَرِ بِالأَصْغَر، والأَعْظَمِ بِالأَحْقَر، كَمَا شَبَّهُوا شَمْسَ النَّهَار، بِكَأْسِ العُقَار."

وقدْ أدْرَكَ الشُّعَرَاءُ والكُتّابُ مَا فِي التَّشْبِيهِ المَقْلُوبِ مِنْ تَصْوِيرٍ لِخَلَجَاتِ النَّفْس، فَبَادَرُوا إِلَى اسْتِخْدَامِه، ولأنَّ الأدِيبَ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّشْبِيهِ يَجْعَلُ الأصْلَ فَرْعًا، والفَرْعَ أصْلاً، "سَمَّاه ابْنُ جِنِيّ "غَلَبَة الفُرُوعِ عَلَى الأُصُول"، وقال: "لا تجد شيئا من ذلك إلا والغرض منه المبالغة."[1]، وإليك طائفة من نماذجه البليغة:

- قال الشاعر اللبناني يوسف غَصُّوب في قصيدة (أوراق الخريف):

نَثَــرَ الخَرِيــفُ عَلَــى الثَّــرَى أَوْرَاقَــهُ ... فَتَنَــــاثَرَتْ كَتَنَــــاثُرِ العَبَــــرَاتِ

يَثْــــرُكْنَ أَغْصَــــانًا أَلِفْــــنَ عِنَاقَهَــــا ... ويَقْعُــــدْنَ بَــــيْنَ يَــــدَيَّ مُضْــــطَرِبَاتِ

يَلْهُــــو الهَــــوَاءُ بِبَعْضِــــهِنَّ هُنَيْهَــــةً ... ويَعُــــودُ يَجْمَعُهُــــنَّ بَعْــــدَ شَــــتَاتِ

فَكَــــأَنَّهُنَّ إِذَا خَفَقْــــنَ جَــــوَانِحِي ... وحَفِــــيفُهُنَّ كَأَنَّــــهُ زَفَرَاتِــــي

درج على ألسنتنا تشبيهُ الدموع المتساقطة من العيون بأوراق الخريف المتناثرة من الأشجار، فكنّا نقول دوما: "دموعُه متناثرةٌ كأوراق الخريف"، ذلك لأنّ وجه الشبه أكْملُ وأظْهرُ في المشبه به، لا المشبه، لكنّ الشاعرَ في هذه المرثيّة الذاتيّة ينعي حياته القصيرة الموشكة على الفناء، فيشبه الأوراق الذابلة والمتهاوية عن أغصانٍ ألفتْ عناقها بدموعه المنحدرة من عينيه، فالملاحظ أنّ الشاعر قد قلب التشبيه بغرض المبالغة في وصف حزنه على حياته، ثم يعود الشاعر في البيت الأخير، ويشبه خفقان الأوراق في الهواء بخفقان فؤاده، قالبا التشبيه كذلك، وأخيرًا يشبه بالطريقة نفسها صوتَ الأوراقِ وحفيفَها بزفراته الحَرَّى، وأنفاسه الأخيرة.

- قال الشاعر اللبناني إلياس عبد الله طعمة:

فَالبَــــدْرُ فِــــي الأَغْصَــــانِ طَلْعَتُهَــــا إِذَا ... أَرْخَــــتْ عَلَيْهَــــا مِــــنْ ضَــــفَائِرِ شَــــعْرِهَا

تصويرٌ بارعٌ ذلك الذي يشبّه لك وجه الحسناء حين ترخي ضفائر شعرها بقمرٍ من خلال الأغصان بادٍ، ولكنّ الأبرع من ذلك حين يغامر الشاعر فيقلب تلك اللوحة الفنية، ليفاجئ القارئ بصورة نادرة، مشحونة

[1] علوم البلاغة الدكتور محمد أحمد قاسم الدكتور محي الدين ديب ص 178.

بالكمال والجمال، وغرض الشاعر من هذا الصنيع إنما هو إيهام السَّامع بأن وجود وجه الشبه (الجمال) أقوى وأكمل في المشبه (قمر الشاعر) من وجوده في المشبه به (قمر السماء).

- قال إيليا أبو ماضي واصفا فيلسوفهُ المجنّح (البلبل):

فَكَأَنَّمَـــا الأزْهَـــارُ سِـــرْبُ كَوَاعِـــبٍ وكَأَنَّمَـــا هُـــوَ شَـــاعِرٌ يَتَغَـــزَّلُ

لقد عودنا الشعراء على تشبيه الفتيات بالأزهار، وتشبيه الشعراء بالبلابل، هذا هو المألوف، لكن إيليا أبَا ماضي أبَى إلا أنْ يهيم في وادٍ آخر، ويسْبح ضد تيار التشبيه، فصيّر بتشبيهه الأصلَ فرعًا، والفرعَ أصلًا، فقلب معادلة التشبيه، حين جعل الأزهار التي كانت طيلة قرون مضت مشبها به، جعلها اليوم مشبها، وجعل الكواعب مشبها به، مدّعيا أن وجه الشبه صفةٌ أكثر كمالا في المشبه، لا المشبه به. وكذلك فعل في تشبيه البلبل بالشاعر.

- قال علي الجارم مهنّئا الملك فاروق بالعيد:

كَـــأَنَّ ضِـــيَاءَ الصُّـــبْحِ والكَـــوْنُ مُشْـــرِقٌ سَـــنَا طَلْعَـــةِ الفَـــارُوقِ لاحَـــتْ رَكَائِبُـــهْ

عزم الجارمُ أن يكيل المدح للملك، فادّعَى أنَّ وجْههَ، وطَلْعَتَهُ أشْهر، وأتمُّ، وأكْمَلُ ضياءً، وإشراقًا من طلعة الصُّبح، فكأنه يزعم أنّ الصبح لا يشبه ممدوحه كفاية، أو كأنه يستكْثر على الصُّبح أن يرقى إلى رتبة المشبه به، نقول إنّ الشاعر قد تجاهل أنّ الصّبح هو المثل الأعلى للإشراق، فعمد إلى ما حقّه أن يكون مشبها، فجعله مشبهًا به، وإلى ما حقّه أن يكون مشبها به، فجعله مشبها، وهدف الشاعر واضح كضياء الصبح، وهو المبالغة في المدح.

- وقال الجارم متغزلا:

إنْ يَسْطَـعِ الصُّبْـحُ قُلْنَا: الصُّبْـحُ أَشْبَهَهَـــا أوْ يَسْطَـــعِ المِسْـــكُ قُلْنَا: المِسْـــكُ حَاكَاهَـــا

- قال محمود سامي البارودي في الغزل:

فَفِـــي الغُصْـــنِ مِنْهَـــا إنْ تَثَنَّـــتْ مَشَـــابِهٌ وفِـــي البَـــدْرِ مِنْهَـــا إنْ تَجَلّـــتْ مَلَامِـــحُ

لقد عوّدنا الشاعر العربي في سوق الغزل أن يشبه المليحة بالبدر، ويشبه قامتها الهيفاء بالغصن، لكن البارودي يعرض علينا بضاعة مختلفة، فيجعل البدرَ والغصنَ هما الشبيهان محوّلا الأصل فرعا، والفرع أصلا... بضاعةٌ جيّدة ليس سوى سُيولة الإعجاب نقودها.

- وقال البارودي:

كُلّمَـــا شِـــمْتُ بَارِقًـــا خِلْـــتُ ثَغْـــرًا بَاسِـــمًا مِـــنْ خِـــلَالِ تِلْـــكَ الخِيَـــامِ

حيث شبه الشاعر السُّحبَ التي تحمل البرق بالثغر، وشبه البرقَ بالأسنان عند الابتسام، فماذا فعل البارودي؟ لقد عكس المعادلة، وتجاهل حكمة التشبيه، فبدل أن يشبه الأسنان بالبرق فعل العكس، زاعمًا أن بياض الأسنان أشدُّ بريقا من لمعان البرق.

- قال معروف الرصافي:

وَلَيْـــلٍ كَـــأَنَّ البَـــدْرَ فِيـــهِ مَلِيحَـــةٌ أَغَازِلُهَـــا والنَّيِّـــرَاتِ رَقِيـــبُ

لعلك مدركٌ أن وجه الشبه (الحسن) أقوى وأظهر في البدر منه في الحسناء، فالشعراء يشبهون الشيء بما هو أقوى، وأوضح في وجه الشبه، ليكتسب منه قوة ووضوحا، لكن بعد أنْ ظل التشبيه زمنا غير قصير واقفا على رجليه، يطلع الرصافي، ويجعل التشبيه واقفا على رأسه، فليست المليحة في منطق عشقه شبيهة بالبدر، بل العكس هو الصحيح، لأنه رأى بعينه التي في قلبه أن وجه الشبه (الحُسن) أكْمَل، وأتمُّ في المحبوب منه في البدر.

- قال مصطفى صادق الرافعي في مدح الخديوي:

جَـرَى النِّيـلُ فِيـهَـا حَاكِيًـا نَيْـلَ كَفِّـهِ وهَلْ فِي الوَرَى مَـنْ يَعْدِلُ البَحْـرَ بِالنَّهْـرِ؟

وها هو ذا مصطفى صادق الرافعي يرفع من توتّر التشبيه، فيأتي في صدر البيت بتشبيه مقلوب، ويأتي في عجزه بتشبيه ضمنيّ مؤكِّدًا به لدعواه، فيجعل تشبيهه للخديوي فَتْحَيْن في فَتْح، وما يهمنا في هذا المقام هو التشبيه المقلوب، فالشاعر قد ركِب مركب سابقَيْه، وشنَّ غارةً على التشبيه المألوف، رافعا لواء المبالغة في المدح عاليا، وبَدَلَ أن يشبّه بَذْلَ ممدوحه بنهر النيل على عادة الشعراء، ها أنت ذا تراه يشبه نهر النيل بالممدوح، فهيهات في نظره أن يرقى النهر إلى رتبة البحر.

إنه منطق يفرض عليك أن تسلّم أنّ ما كان دائما مشبها به أصبح الآن مشبها، والعكس، أليس هذا ما يروّج له، ويبشّر به الرافعي نفسه في قوله:

وقَـــالُوا حَكَيْـــتَ الظَّبْـــيَ جِيـــدًا ولَفْتَـــةً وأَشْـبَهْتَ غُصْـنَ البَـانِ فـي هَيَـفِ البَـانِ

وأَقْسِـــمُ مَـــا الغِـــزْلانُ فِـــي لَفَتَاتِهَـــا ولا هَيَـــفُ الأَغْصَـــانِ إلّا الشَّـــبِيهَانِ

بلاغة التشبيه المقلوب:

للتشبيه المقلوب سحر، ووقع على القلوب، وهو مظهر من مظاهر التفنن في التعبير، تظهر فيه قدرة الأديب على الإبداع، والتغيير، "وحين أنشد خالد الكاتب قوله:

عَشِـــيَّةَ حَيَّـــانِي بِـــوَرْدٍ كَأَنَّـــهُ خُـــدُودٌ أَضِـــيفَتْ بَعْضُـــهُنَّ إِلَـــى بَعْـــضِ

استخفَّ إبراهيمَ بنَ المهدي الطربُ، فزحف في مقعده، حتى صار في ثلثي فراشه، ثم هتف: يا فتى، شبهوا الخدود بالورود، وأنت شبهت الورد بالخدود!"[1]

"والشرط في استعماله ألا يرِد إلّا فيما جرى عليه العرف، وذلك حتى تظهر بوضوح صورة القلب والانعكاس، على هذا الأساس يحسن التشبيه المقلوب، ويقبل، أما إذا ورد في غير المعهود المألوف، فإنه يكون معيبا، لأن المبالغة فيه تصيبه بالغموض، وتؤدي إلى التداخل بين طرفيه، فلا يُعرف أيّهما المشبه، وأيهما المشبه به."[2]

[1] فن التشبيه علي الجندي الجزء 1 ص 307 308.
[2] علم البيان عبد العزيز عتيق ص 101.

ويُعدُّ التشبيه المقلوب ضربا من التجديد، لكسر نمطية التشبيه، و"الرَّتابةِ في التشابيه المبتذلة، التي مجّها الذوق، وملّها السمع، فجاء التشبيه المقلوب ليقضي على الرتابة، ويحدث ضربا جديدا من العلاقات القائمة بين طرفي التشبيه."[1]

وليس كل التشبيه المقلوب في الحسن سواء، بل يتفاوت في البلاغة تفاوتا كبيرا، بما يراعى فيه من دقة وعمق، وبما يحمله من أشياء طريفة مخترعة، فقد جرى العرف مثلا على تشبيه الأسنان بالبرق، ولكن لا يكفي قلب التشبيه فتقول: برق كالأسنان، حتى تكون أتيتَ بشيء بديع يعتدّ به في البلاغة، غير أنك تستطيع أن تخلب القارئ، وتثير إعجابه، وتلهب شعوره، وتقنعه أنك جلوت عليه صورة فاتنة إذا أنت جئته بمثل قول محمود سامي البارودي:

وأَقُـــولُ إنَّ البَـــرْقَ يَحْكِـــي بِثْـــرَهُ لَـــوْ كَـــانَ بَـــرْقُ المُـــزْنِ غَيْـــرَ خَلُـــوبِ[2]

أو قوله:

كُلَّمَـــا شِـــمْتُ بَارِقًـــا خِلْـــتُ ثَغْـــرًا بَاسِـــمًا مِـــنْ خِـــلَالِ تِلْـــكَ الخِيَـــامِ

حيث شبه البارودي السُّحبَ التي تحمل البرق بالثغر، وشبه البرقَ بالأسنان عند الابتسام. يا لها من صورةٍ متّسقة مؤتلفة، تلهيك عن مزيّة القلب نفسه، فلا تكاد تحس بقلب التشبيه، بل تصرفك إليها مباشرة، لتستمتع بما حوته من سمات الجمال والإبداع. "وليس التشبيه المقلوب بشيء إذا لم يقع موقعه اللائق به حتى كأنه متعيّن فيه، وكأنّ المقام ينادي عليه".[3]

وزبدة القول: إن التشبيه المقلوب يكون أبلغ إذا رُشّح بأحد أنواع التشبيهات الأخرى، كالتشبيه الضمني، وبأحد المحسنات البديعية، كالجناس في قول مصطفى صادق الرافعي في مدح الخديوي:

جَـــرَى النِّيـــلُ فِيـــهَـــا حَاكِيًـــا نَيْـــلَ كَفِّـــهِ وهَلْ فِـي الـوَرَى مَـنْ يَعْـدِلُ البَحْـرَ بِالنَّهْـرِ؟

تشبيه التفضيل:

قال نزار قباني: "هَلْ تَعْرِفُونَ مَعْنَى أنْ يَسْكُنَ الإنْسَانُ فِي قَارُورَةِ عِطْر؟ بَيْتُنَا قَارُورَةُ عِطْر، إنَّنِي لا أُحَاوِلُ رِشْوَتَكُمْ بِتَشْبِيهٍ بَلِيغ، ولَكِنْ ثِقُوا أنِّي بِهَذَا التَّشْبِيهِ لا أظْلِمُ قَارُورَةَ العِطْر، وإنَّمَا أظْلِمُ دَارَنَا". بهذه المقولة ينخرط نزار قباني في حزب الشعراء الذين يعدلون عن التشبيه، ويدّعون أنّ المشبه أفضل من المشبه به، وذاك هو معنى تشبيه التفضيل، "وقد عرّف علماء البيان هذا الفن، فقالوا: وتكونُ هذه الصنعة بأنْ يشّبه الشاعرُ شيئا بشيء آخر، ثم يعود فَيَعْدِلُ عن التشبيه، ويفضّل المشبه على المشبه به."[4]

وأفضل ما أستشهد به لهذا النوع من التشبيه قول خليل مطران:

أَغَـــرُّ المُحَيَّـــا كَالصَّـــبَاحِ نَقِيُّـــهُ لَـــهُ قَامَـــةٌ كَـــالرُّمْحِ أوْ هِـــيَ أَعْـــدَلُ

---

[1] علوم البلاغة مرجع سابق ص 178.
[2] خلوب: خادع.
[3] فن التشبيه ص ج1 ص 322.
[4] المعجم المفصل في علوم البلاغة ص 328.

فالشاعر في الشطر الثاني شبه قامةَ المتغزل بها بالرّمح، لكنه حين قال (أوْ هِيَ أعْدَلُ) نستنتج أنه قد عَدَلَ عن تشبيهه، وفضّل المشبه على المشبه به.

ومن نماذجه قول علي الجارم:

لَمَحَـــاتٌ كَأَنَّهَـــا خَـــاطِفُ البَـــرْ قِ، وأيْـــنَ البُـــرُوقُ مِـــنْ لَمَحَاتِـــهِ؟

فالشاعر ظنّ لأوّل وهلة أنّ نظرات الممدوح الخاطفة تشبه البرق الخاطف، لكنه بعد النظر والتدقيق، والإمعان والتحقيق تبيّن له أنه قد تسرّعَ في الحُكم، فعاد، وصحّح حُكمه من خلال قوله: (وأين البروق من لمحاته؟).

ومن أمثلته النثرية قول محمد المويلحي في وصف منازل باريس: "والبُيُوتُ عَلَى حَافَّتَيْ الشَّارِعِ تُشَارِفُ جَوَّ السَّحَاب، وتُحَاوِلُ أَنْ تَعْلَقَ مِنَ السَّمَاءِ بِأسْبَاب، فَارِعَةً بَاسِقَة، مُتَلَاصِقَةً مُتَنَاسِقَة، كَأَنَّهَا فِي انْتِسَاقِهَا سُطُورُ الخَطّ، والأزْهَارُ عَلَى جُدْرَانِهَا شَكْلٌ ونُقَط، كَأَنَّهَا، بَلْ أَيْنَ مِنْهَا مَا بَنَاهُ لِفِرْعَوْنَ هَامَان، وشَادَهُ جِنُّ سُلَيْمَانَ لِسُلَيْمَان، ورَفَعَةُ سِنِمَّارُ لِلنُّعْمَان، لا بَلْ أَيْنَ البَحْرُ العُبَاب، مِنْ لَامِعِ السَّرَاب؟ وأجْرَامُ الكَوَاكِب، مِنْ بُيُوتِ العَنَاكِب؟"

ومن تشبيه التفضيل قول شوقي في رثاء الكاتب الكبير، والواصف القدير محمد المويلحي:

هُـــوَ فِيـــهِ بَـــدِيعُ كُـــلِّ زَمَـــانٍ مَـــا بَـــدِيعُ الزَّمَـــانِ؟ مَـــا أَسْـــجَاعُه؟

فشوقي أراد أن يشبه المويلحي ببديع الزماني الهمذاني، صاحبِ المقامات، وإمامِ السجع، لكنه عَدَلَ عن هذا التشبيه، وفضّل في عجز البيت مرثيّه عن طريق الاستفهام.

واسمع إلى قول مصطفى صادق الرافعي:

طَلَبُـــوا لَهَـــا شَـــبَهًا يُضِـــيءُ ضِـــيَاءَهَا لِهَـــوَى النَّـــوَاظِرِ أوْ يُـــدِلُّ دَلالَهَـــا
أمَّـــا السَّـــمَا فَجَلَـــتْ عَلَـــيْهِمْ بَـــدْرَهَا والأرْضُ قَـــدْ عَرَضَـــتْ لِـــذَاكَ غَزَالَهَـــا
لَكِنَّهَـــا نَظَـــرَتْ فَأخْجَلَـــتِ الظِّبَـــا وتَلَفَّتَـــتْ لِلْبَـــدْرِ فَاسْـــتَحْيَا لَهَـــا
هُـــمْ يطْلُبُـــونَ مِثَالَهَـــا فلْيَرْقُبُـــوا مِرْآتَهَـــا يَجِـــدُوا هُنَـــاكَ مِثَالَهَـــا
لَمَّـــا عَجَزْنَـــا أنْ نُفَضِّـــلَ وَصْـــفَهَا جَمَعَـــتْ لَنَـــا مِرْآتُهَـــا إجْمَالَهَـــا

في عقيدة الشاعر إيمانٌ بأنّ محبوبته امرأةٌ عصيّة عن التشبيه والمقارنة، ولتسمع أيها القارئ الكريم إلى روايته: ها هي ذي السّماء ترشّح بدرها، والأرض تعرِض غزالها، لكن هيهات أن يتربعّ على عرش الجمال سواها، فمن أين للبدر جمالها، وأنّى يكون للغزالة دلالها، ومن يطلب نظيرها، فليس في شيء غير صورة المرآة نظيرها.

واسمع إلى قول الرافعي أيضا:

فَـــلا أقُـــولُ شَـــعْرُهَا لَيْـــلٌ وحَـــا شَـــاهُ فَتَحْـــتَ اللّيْـــلِ صُـــبْحٌ أشْـــيَبُ

ولا أقُـــولُ وَجْهُهَـــا شَـــمْسٌ ومِثْـــلُ الشّـــمْسِ عِنْـــدِي فَحْمَـــةٌ تَلَهَّـــبُ
ولا أقُـــولُ خَـــدُّهَا نَـــارٌ فَـــإنَّ كُـــلَّ نَـــارٍ تَنْطفِـــي وتَرْطُـــبُ
ولا أقُـــولُ قَـــدُّهَا غُصْـــنٌ فَـــإنَّ الغُصْـــنَ كَيْفَمَـــا يَكُـــونُ حَطَـــبُ
تَبَـــارَكَ اللهُ الّـــذِي صَـــوَّرهَا عَجِيبَـــةً يَحَـــارُ فِيهَـــا العَجَـــبُ

فالشاعر يحسب أنّ شعرَ المحبوب أشدُّ سوادًا من ظلمة الليل الحالك، ووجهَها أشدُّ إشراقًا من قرص الشمس المتوهج، وخدَّها أشدُّ لفحًا من لهيب النار المتأجج، وقدَّها أجملُ قوامًا من غصن البان الرشيق، ليست هذه محضَ افتراءات، فالشاعر لا يتأخر أبدا في تعليل أحكامه، ليبين أنّ المحبوبة جديرة بهذا التفضيل.

قال علي الجارم في مدح الملك فاروق:

صِفِ السُّحْبَ أيْنَ السُّحْبُ مِنْ فَيْضِ جُـودِهِ؟ إذا وَكَـفَـتْ لِلْبَـائِسِيـنَ سَحَـائِبُـهْ
تَـمَنَّتْ زُهُـورُ الـرَّوْضِ لَوْ أَنَّ طِيبَـهَـا لَـهُ نَـفْحَـةُ الذِّكْـرِ الَّـذِي هُـوَ كَـاسِبُـهْ

معلوم أنّ تشبيه التفضيل والتشبيه المقلوب أكثر مَنْ يمتطيه شعراءُ المديح، وليس لذلك غرض سوى الإفراط في المدح، وإيهام السامع أنّ وجه الشبه صفةٌ أكثرُ بُروزا في المشبه، لا المشبه به، لذلك تراهم يترفعون عن المشبه به، ويفضّلون عليه المشبه لحاجة في قلوبهم، فالشاعر في هذين البيتين (لا يريد أن يظلم ممدوحه) بتشبيهه بالسحب والزهور، فتراه ينفي عن طريق الاستفهام أن تكون السحب أكرم من يد الممدوح، فهي التي علّمت ابنة السماء معنى السخاء، ثمّ يدّعي أنّ نفحة ذكره تشتهيها، بل تخجل منها زهور الروض، ورياحين الأرض.

واسمع إلى الشاعر وهو يقطع بسيفِ تشبيهِ التفضيلِ قول كلّ خطيب:

مَـــا عَنْتَـــرُ لَمَّـــا يَجُـــولُ مُحَارِبًـــا؟ مَـــا حَـــاتَمُ لَمَّـــا يَجُـــودُ ويَحْلِـــمُ؟
إنْ قُلْـــتَ لَيْـــثٌ فَهُـــوَ أعْظَـــمُ سَـــطْوَةً أوْ قُلْـــتَ غَيْـــثٌ فَهُـــوَ مِنْـــهُ أكْـــرَمُ

فما عنترة في صولاته وجولاته، ولا حاتم في قصص كرمه، ونوادر جوده، ولا الليث في رهبته وهيبته، ولا الغيث في صَوْبه وسخائه، بأفضل من الممدوح شجاعة، وعطاءً، وبأسًا، وندًى.

ومسك ختام هذا النوع من التشبيه قول الشاعر:

ولَـــيْسَ لِلْـــوَرْدِ فِـــي التَّشْـــبِيهِ رُتْبَتُـــهُ وإنَّمَـــا ذَاكَ مِـــنْ مَعْنَـــاهُ تَقْرِيـــبُ

وأحسبك الآن عرفت على نحو لا يحتاج إلى مزيد إيضاح أنّ تشبيه التفضيل هو مفاضلة بين المشبه والمشبه به في عرف التشبيه، ثم تأكيد تفضيل المشبه على المشبه به، وهذا ما يُزَكّيه قول الشاعر:

طَلَـــعَ الهِـــلَالُ ويُمْـــنُ وَجْهِـــكَ لِلْـــوَرَى يَتَفَاضَـــلَانِ وأَنْـــتَ أَنْـــتَ الأَفْضَـــلُ

تدريب: تعرّف على التشبيه المقلوب، وتشبيه التفضيل فيما يأتي:

- قال محمد المويلحي في وصف روضة: "هُنَاكَ تَسْتَبِيكَ أَلْوَانُ الأَزَاهِر، بِمَا يُزْرِي بِلَمَعَانِ الجَوَاهِر، فَمَا اليَاقُوتُ عِنْدَهَا والزَّبَرْجَد؟ ومَا الفَيْرُوزُ والزُّمُرُّد؟ ومَا العَقِيقُ والجُمَان؟ ومَا الدُّرُّ والمَرْجَان؟ وكَيْفَ يُقَاسُ الحَجَرُ بِالشَّجَر؟ وتَسْتَوِي الحَصْبَاءُ اليَابِسَةُ بِأَكْمَامِ الأَغْصَانِ المَائِسَة؟ وكَيْفَ يُقَدَّمُ الجَامِدُ الثَّابِتُ عَلَى النَّامِي النَّابِت؟ وأَيْنَ الحَرَكَةُ مِنَ السُّكُون؟ والمَنْشُورُ مِنَ المَدْفُون؟ وأَيْنَ المَنْثُورُ عَلَى ظَهْرِ الرَّوْضَةِ الزَّهْرَاء، مِنَ المَلْحُودِ فِي بَطْنِ الغَبْرَاء؟".

- قال خليل مطران:

شَـــاكٍ إِلَى البَحْـــرِ اضْطِـــرَابَ خَوَاطِـــرِي ... فَيُجِيبُنِـــــي بِرِيَـــاحِـــــهِ الهَـــوْجَـــــاءِ

ثَـــاوٍ عَلَـــى صَـــخْرٍ أَصَـــمَّ وَلَيْـــتَ لِـــي ... قَلْبًـــا كَهَـــذِي الصَّـــخْرَةِ الصَّـــمَّاءِ

يَنْتَابُهَـــا مَـــوْجٌ كَمَـــوْجِ مَكَـــارِهِي ... ويَفُتُّهَـــا كَالسُّـــقْمِ فِـــي أَعْضَـــائِي

والبَحْـــرُ خَفَّـــاقُ الجَوَانِـــبِ ضَـــائِقٌ ... كَمَـــدًا كَصَـــدْرِي سَـــاعَةَ الإِمْسَـــاءِ

- وقال خليل مطران متغزلا بفتاة تدعى زُمُرُّدَة:

شَـــبَّهْتِ نَفْسَـــكِ بِـــالزُّمُرُّدِ فَـــازْدَهِي ... بَـــيْنَ الحُلِـــيِّ بِأَنَّـــهُ حَاكَـــاكِ

فِيـــهِ مَخَايِـــلُ مِـــنْ سَـــنَاكِ بَعِيـــدَةٌ ... فَـــإِذَا دَنَـــوْتِ فَمَـــنْ لَـــهُ بِسَـــنَاكِ؟

- وقال خليل مطران في وصف قصائده:

أَلْفَاظُهَـــا كَالـــدُّرِّ أَوْ دُونَهَـــا ... مَوَاقِـــعُ الـــدُّرِّ إِذَا سُلْسِـــلَا

- قال شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا:

وكَـــمْ شَـــابَهَ النِّيـــلُ نَهْـــرَ دِمَـــا ... نَـــا، تَمُـــورُ بِـــهِ المُهَـــجُ الفَـــائِرَهْ

- قال بشارة الخوري:

وأَشْـــرَقَ البَـــدْرُ يَهْـــوِي نَحْـــوَ مَغْرِبِـــهِ ... حَتَّـــى أَتَـــى الضِّـــفَّةَ الأُخْـــرَى وحَاذَاهَـــا

وقَـــدْ تَحَـــدَّبَ فَـــوْقَ البَحْـــرِ يَفْحَصُـــهُ ... كَغَـــادَةٍ وهْـــيَ تَلْهُـــو ضَـــاعَ قُرْطَاهَـــا

- قال محمود سامي البارودي:

وأَقُـــولُ إِنَّ البَـــرْقَ يَحْكِـــي بِشْـــرَهُ ... لَـــوْ كَـــانَ بَـــرْقُ المُـــزْنِ غَيْـــرَ خَلُـــوبِ[1]

- وقال سامي البارودي يصف أيام الربيع:

كَـــأَنَّ النَّـــدَى فَـــوْقَ الشَّـــقِيقِ مَـــدَامِعٌ ... تَجُـــولُ بِخَـــدٍّ أَوْ جُمَـــانٌ عَلَـــى تِبْـــرِ

- وقال سامي أيضا في وصف الربيع:

هُـــوَ فَصْـــلٌ تَخْتَـــالُ فِيـــهِ غُصُـــونُ الـــ ... ـــرَّوْضِ فِـــي حِلْيَـــةٍ مِـــنَ الأَزْهَـــارِ

مَائِسَـــاتٍ مِثْـــلَ العَـــذَارَى عَلَيْهِـــ ... ـــنَّ ثِيَـــابٌ دُرِّيَّـــةُ الأَزْرَارِ

[1] خلوب: خادع.

- قال الشاعر اللبناني إلياس عبد الله طعمة متغزلا:

أصْـــبُو إلَـــى لَيْـــلِ الوِصَـــالِ، ونَوْمُنَـــا ... مِثْـــلَ السَّـــعَادَةِ والوَفَـــاءِ قَلِيـــلُ
ونُجُومُـــهُ فِـــي مُقْلَتَيْـــكِ ضِـــيَاؤُهَا ... والقَلْـــبُ عِنْـــدَكِ مُهْتَـــدٍ وضَـــلِيلُ
وهِلَالُـــهُ الهَـــاوِي كَخِصْـــرِكِ نَاحِـــلٌ ... وصَـــبَاحُهُ مِثْـــلَ الحَيَـــاةِ جَمِيـــلُ

- قال حافظ إبراهيم في بعض إخوانيّاته:

أحِـــنٌّ لَهُـــمْ ودُونَهُـــمُ فَـــلَاةٌ ... كَـــأَنَّ فَسِـــيحَهَا صَـــدْرُ الحَلِـــيمِ
كَـــأَنَّ أَدِيمَهَـــا أَحْشَـــاءُ صَـــبٍّ ... قَـــدِ الْتَهَبَـــتْ مِـــنَ الوَجْـــدِ الأَلِـــيمِ

- ولحافظ إبراهيم في وصف قصور لبنان:

قُصُـــورٌ كَـــأَنَّ بُـــرُوجَ السَّـــمَاءِ ... خُـــدُورُ الغَـــوَانِي بِأَدْوَارِهَـــا

- قال مصطفى صادق الرافعي متغزلا:

يَـــدَّعِي البَـــانُ قَـــدَّهُ وتَثَنِّيـــ ... ـــهِ ومَـــا البَـــانُ والقُـــدُودُ سَـــوَاء
ويَـــرَى الـــوَرْدُ أَنَّـــهُ مِثْـــلُ خَدَّيْـــ ... ـــهِ وتَـــأْبَى خُـــدُودُهُ الحَمْـــرَاء

- وقال الرافعي:

وأَرَى النَّـــدَى فِـــي الـــوَرْدِ مُنْحَـــدِرًا ... كَالـــدَّمْعِ فَـــوْقَ خُـــدُودِهَا يَجْـــرِي

- قال معروف الرصافي:

أمَّـــا النَّسِـــيمُ فَقَـــدْ جَـــرَى مُتَعَطِّـــرًا ... وحَكَـــى بِطِيـــبِ هُبُوبِـــهِ الآمَـــالَا

- قال نزار قباني:

أنَـــا جُـــرْحٌ يَمْشِـــي عَلَـــى قَدَمَيْـــهِ ... وخُيُـــولِي قَـــدْ هَـــدَّهَا الإعْيَـــاءُ
فَجِـــرَاحُ الحُسَـــيْنِ بَعْـــضُ جِرَاحِـــي ... وبِصَـــدْرِي مِـــنَ الأَسَـــى كَـــرْبَلَاءُ

- قال أحمد شوقي:

ولُقِّـــبَ بِالبَـــدْرِ مِـــنْ حُسْـــنِهِ ... ومَـــا البَـــدْرُ؟ مَـــا قَـــدْرُهُ؟ وابْـــنُ مَـــنْ؟

- وقال شوقي في مدح الحبيب المصطفى:

البَـــدْرُ دُونَـــكَ فِـــي حُسْـــنٍ وفِـــي شَـــرَفٍ ... والبَحْـــرُ دُونَـــكَ فِـــي خَيْـــرٍ وفِـــي كَـــرَمِ

- قال ناصيف اليازجي:

إذَا قُلْـــتُ السَّـــحَابُ كَرَاحَتَيْـــهِ ... فَقَـــدْ شَـــبَّهتُ بِالشَّـــمْسِ الهِـــلالا

- قال مصطفى الغلاييني:

والبَـــدْرُ فِـــي خَلَـــلِ الغَمَـــامِ كَأَنَّـــهُ ... حَسْـــنَاءُ تَسْـــتُرُ وَجْهَهَـــا بِشُـــفُوفِ

- قال الشاعر يصف غزالةً، ويشبّهها بمحبوبته:

فَعَيْنَـــاكِ عَيْنَاهَـــا وجِيـــدُكِ جِيـــدُهَا ولَكِـــنْ عَظْـــمُ السَّـــاقِ مِنْـــكِ دَقِيـــقُ

- قال علي الدرويش:

وشَـــابَهَهُ البَـــدْرُ المُنِيـــرُ مَحَاسِـــنًا كَمَـــا أشْـــبَهَ البلّـــوْرُ فـــي الظّـــاهِرِ المَاسَـــا

- قال شاعر مدّاح:

يَكَـــادُ يَحْكِيـــكَ صَـــوْبُ الغَيْـــثِ مُنْسَـــكِبًا لَـــوْ كَـــانَ طَلْـــقَ المُحَيَّـــا يُمْطِـــرُ الـــذّهَبَا

والبَـدْرُ لَـوْ لَـمْ يَغِـبْ والشَّمْـسُ لَـوْ نَطَقَتْ والأُسْـدُ لَـوْ لَـمْ تُصَـدْ والبَحْـرُ لَـوْ عَـذُبَا

- قال الشاعر في الغزل:

يـــا ظَبْيَـــةَ البَـــانِ يـــا غُصْـــنَ النَّقـــا النَّضِـــر أسْـــتَغْفِرُ اللهَ، بـــلْ يـــا طَلْعَـــةَ القَمَـــرِ

مِـنْ أيْـنَ للغُصـنِ مَـا بالقـدِّ مـنْ هَيَـفٍ؟ مِـنْ أيْـنَ للظّبـي مَـا بـاللّحْظِ مِـنْ حَـوَر؟

- قال صفيّ الدين في الغزل:

تَغَزَّلْـــتُ فِيهَـــا بِـــالغَزَالِ فَأعْرَضَـــتْ وقالَـــتْ: لَعَمْـــرِي هَـــذِهِ غَايَـــةُ الـــذَّمِّ

وصَـدَّتْ وقَـدْ شَبَّهْـتُ بِالبَـدْرِ وَجْهَهـا نِفَـارًا وقـالَـتْ: صِـرْتَ تَطْمَـعُ فِي شَتْمِـي

- قال أحد الشعراء:

رَأَتْنِـــي وقَـــدْ شَـــبَّهْتُ بِـــالوَرْدِ خَـــدَّهَا فَتَاهَـــتْ وقَالَـــتْ قَـــاسَ خَـــدِّيَ بِـــالوَرْدِ

كَمَـــا قَـــالَ إنَّ الأقْحُـــوَانَ كَمَبْسِـــمِي وأنَّ قَضِـــيبَ البَـــانِ يُشْـــبِهُهُ قَـــدِّي

إذَا كَـــانَ هَـــذَا فِـــي البَسَـــاتِينِ عِنْـــدَهُ فَقُولُـــوا لَـــهُ لِـــمْ جَـــاءَ يَطْلُبُـــهُ عِنْـــدِي؟

obeikan.com

التشبيه الدّائري (الاسْتِطْرَادي)

تعريفه: هُوَ تَشْبِيهٌ يَبْدَأُ غَالِبًا بـ "مَا"، ويَنْتَهِي عَلَى الأغْلَبِ بـ "البَاء" الدَّاخِلَةِ عَلَى اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ التَّفْضِيل، وقَدْ يَنْتَهِي بِاسْمِ التَّفْضِيلِ مُجَرَّدًا مِنَ البَاء، ونَادِرًا مَا يَنْتَهِي بِغَيْرِ اسْمِ التَّفْضِيل. وبَيْنَ فَاتِحَةِ هَذَا التَّشْبِيهِ وخَاتِمَتِهِ يَكُونُ المُشَبَّهُ بِهِ مُطَوَّلاً، حَيْثُ يَطْرُقُ فِيهِ الأدِيبُ غَيْرَ مَعْنًى، ويَرْسُمُ غَيْرَ صُورَة، إِلَى أَنْ يَسْتَدِيرَ الأدِيبُ فَنِّيًّا، فَيُفَضِّلُ المُشَبَّهَ عَلَى المُشَبَّهِ بِه، رَغْمَ كُلِّ الاسْتِطْرَادِ والاسْتِرْسَالِ والوَصْفِ العَظِيمِ الَّذِي وَصَفَ بِهِ المُشَبَّهَ بِه. إِذَنْ فَالتَّشْبِيهُ الاسْتِطْرَادِي تَفْصِيلٌ ثُمَّ تَفْضِيل، "وتَكْمُنُ قِيمَةُ التَّشْبِيهِ الدَّائِرِي فِي طُولِ نَفَسِه، واتِّسَاعِ عِبَارَاتِه، حَيْثُ يَتْرُكُ الشَّاعِرُ المُشَبَّه، لِيَسْتَرْسِلَ، ويَسْتَطْرِدَ فِي تَفْصِيلِ أَجْزَاءِ المُشَبَّهِ بِه، والإحَاطَةِ بِمَنَاحِي الجَمَالِ، والعَظَمَةِ فِيه، لِيَكُونَ فِي تَفْضِيلِ المُشَبَّهِ فِي الأخِيرِ إِغْرَاقٌ فِي التَّعْظِيم والمُفَاضَلَة"[1].

- اقرأ معي إلى قول حافظ إبراهيم:

فَمَـــا مُطَوَّقَـــةٌ قَـــدْ نَالَهَـــا شَـــرَكٌ ... عِنْـــدَ الغُـــرُوبِ إِلَيْـــهِ سَـــاقَهَا القَـــدَرُ

بَاتَـــت تُجَاهِـــدُ هَمًّـــا وهـــيَ آيِسَـــةٌ ... مِـــنَ النَّجَـــاةِ وجُـــنْحُ اللَّيْـــلِ مُعْتَكِـــرُ

وبَـــاتَ زُغْلُولُهَـــا فِـــي وَكْرِهَـــا فَزِعًـــا ... مُرَوَّعًـــا لِرُجُـــوعِ الأُمِّ يَنْتَظِـــرُ

يُحَفِّـــزُ الخَـــوْفُ أَحْشَـــاهُ وتُزْعِجُـــهُ ... إِذا سَـــرَتْ نَسْـــمَةٌ أَوْ وَسْـــوَسَ الشَّـــجَرُ

مِنِّـــي بِأَســـوَأَ حَـــالاً حِـــينَ قَـــاطَعَنِي ... هَـــذَا الصَّـــدِيقُ فَهَـــلاَّ كَـــانَ يَـــدَّكِرُ

أراد حافظ أن يصف حزنه الجليل، يوم خاصمه الخليل، فلم يجد أفضل من الحمامة تقوم مقام المشبه به، فقام بتجنيد كل طاقاته الشعريّة، وفتح كلّ نوافذ الخيال لديه، وبدأ في حياكة قصة حمامةٍ تقع في شباك صيّادٍ ساعة الغروب، وهي تحاول جاهدةً النجاةَ والهروب، وشيئا فشيئا يبدأ اليأس يتسرّب إليها، والليل قد طفق يسدل ستاره على الغابة، فتتعاظم مصيبتها إذْ تذكر أنها خلّفت وراءها في الوكر فرخا لا قوة له، ينتظر في العشّ أوبة أمه، تحمل معها الحَبَّ والحُبّ، ولكنّ الأم لا تأتي، فيقع الفرخ فريسة الخوف والهلع على مصير أمه، ومصيره، ويستيقن في النهاية من دنوّ أجله، ويأس عمله. كلُّ هذا الحزن، وتلك المأساة لم تكن شيئا مذكورا حين تقارن بحزن الشاعر لمّا جفاه صديقه، وأعرض عنه رفيقه.

نقول: لقد استطرد الشاعر، وبالغ في وصف المشبه به، فقط من أجل أن يدُور فنّيا، ويجعل المشبه أعظم في صفة الحزن من المشبه به في حال اكتمال حزنه، وقد استعمل حافظُ الواسطة الفنيّة (فما – بأسوأ).

- واقرأ معي قول صادق الرافعي (دون الابتداء بالنفي):

يَـــا ظُلْمَـــةَ المَـــوْجِ يَطْغَـــى البَحْـــرُ مُنْتَفِضًـــا ... بِهَـــا كَـــأَنْ جَبَـــلٌ فِـــي البَحْـــرِ يُقتلَـــعُ

تُظَـــنُّ زَلْزَلَـــةٌ فِـــي المَـــاءِ قَـــدْ جَلَسَـــتْ ... أَوْ لا، فَزَوْبَعَـــةٌ فِـــي المَـــاءِ تَضْـــطَجِعُ

تَقَلْقَلَـــتْ، فَاسْـــتَطَارَتْ، فَانْثَنَـــتْ، فَهَـــوَتْ ... فَأَطْبَقَـــتْ، فَارْتَمَـــتْ، كَالرُّعْـــبِ تَنْـــدَفِعُ

[1] علوم البلاغة مرجع سابق ص 180.

عَلَـــى غَرِيـــقٍ بِحَبْـــلِ المَـــاءِ مُعْتَصِـــمٍ ... والحَبْـــلُ فِـــي لَمَسَـــاتِ الكَـــفِّ يَنْقَطِـــعُ
لَـــــهُ بَقِيَّـــــةُ رُوحٍ فِـــــي أَصَـــــابِعِهِ ... يُنَـــازِعُ المَـــوْتَ فِيهَـــا وهْـــيَ تُنْتَـــزَعُ
بَـــيْنَ الحَيَـــاةِ وبَـــيْنَ المَـــوْتِ مُـــرْتَكِسٌ ... يَقِينُـــــهُ البَحْـــــرُ أطْـــــوَارًا ويَبْتَلِـــــعُ
أذَاكَ أَعْظَـــمُ هَـــؤلاءِ فِـــي فَجِيعَتِـــهِ ... أمِ المُحِبُّـــونَ فِـــي أحْبَـــابِهِمْ فُجِعُـــوا؟

أراد الرافعي أن يصوّر أَلَمَ المحبِّين يوم البَيْن، فأبحر في عالم خياله، لدرجة استنفاد مخزونه الخياليّ، فاختار قصة هذا الغريق:

في هذا اليوم ينتفض البحرُ ويثور، وتتحرك أمواجه وتَمُور، فكأنه النفخ في الصُّور، أو كأنّ ماردًا أسطوريّا طلع من الأعماق، فخيّم السّحابُ الأسودُ في الآفاق، ويزمجرُ البحر، سالًّا سيف النَّحر، وتقوم للبحر قيامتُه، ويُزلزَل زلزالُه، وتُدكُّ جبالُه، فكأنّ قذيفة في أحشائه استقرّت، وبعد حين انفجرت، فيتطاير الماء ويندفع، زارعًا الرعب والهلع، وهذا المسكين تحت رحمة الأمواج، وسطوة العَجَاج، فيكشر الموت عن أنيابِه، قاطعًا بها حبل الرجاء وأسبابِه، فيمسي المسكين بين مدّ الحياة، وجزر المماة، يصارع الحِمام وهو يصرعُه، والبحر تارة يقيئه وطورًا يبلعُه.

هنا يستوقفك الشاعر ويسألك: هل تخيّلت معي هذا الكرب العظيم؟ وهذا الموت الأليم؟ إنّ كلّ هذه الواقعة، ليست أكثر فاجعة، من ألَمِ المحبّين يوم جَزعوا، وفي أحبابهم فُجعوا.

- واتلُ معي قول الرافعي ثانية:

تَـــاللهِ مَـــا الـــوَرْدَةُ قـــدْ أصْـــبَحَتْ ... تَرْشُـــفُ مِـــنْ رِيـــقِ السَّـــمَاءِ النَّـــدِي
واخْتَبَـــأتْ مَـــا بَـــيْنَ أوْرَاقِهَـــا ... رِيـــحٌ كَـــنَفْحِ الـــزَّمَنِ الأرْغَـــدِ
ومَـــا العُيُـــونُ النَّجْـــلُ قـــدْ كُحِّلَـــتْ ... مِـــنْ إثْمِـــدِ الحُسْـــنِ بِـــلا مِـــرْوَدِ
وانْبَعَثَـــتْ مَـــا بَـــيْنَ أجْفَانِهَـــا ... أسْـــرَارُ حَـــدِّ الصَّـــارِمِ المُغْمَـــدِ
ولا شِـــفَاهُ الغِيـــدِ قـــدْ أطْبَقَـــتْ ... عَلَـــى ابْتِسَـــامٍ كَـــانَ عَـــنْ مَوْعِـــدِ
واحْتَـــبَسَ الوَجْـــدُ بِهَـــا قُبْلَـــةً ... لَـــوْلا الحَيَـــا قـــدْ نَالَهَـــا المُجْتَـــدِي
مَـــا كُـــلُّ ذَا مُشْـــبِهُ قَلْبِـــي، ومَـــا ... أظْهَـــرَ مَـــا فِـــي القَلْـــبِ مِـــنْ مَقْصِـــدِ!

في هذه المرة أراد الشاعر أن يعظّم من شأن المشبه به قبل أن ينعطف عنه دائريا، ويفضل المشبه، لكنه اختار أن يكثّر من أعداد المشبه به، فوضع حفنة من المشبهات بها في كفة، ووضع المشبه في الأخير في الكفة الرّاجحة في ميزان التفضيل.

- واقرأ معي قول معروف الرصافي:

ومَـــا أدْمَـــاءُ تَرْتَـــعُ حَـــوْلَ رَوْضٍ ... ويَرْتَـــعُ خَلْفَهَـــا رَشَـــأ رَبِيـــبُ[1]

[1] الأدماء: الظبية شديدة البياض. الرشأ: ولد الظبية. ربيب: ملازم لها.

فَمَـــا لَفَتَـــتْ إِلَيْـــهِ الجِيـــدَ حتَّـــى تَخَطَّفَـــــهُ بِآزِمَتَيْـــــهِ ذِيـــــبُ[1]
فَرَاحَـــتْ مِـــنْ تَحَرُّقِهَـــا عَلَيْـــهِ بِـــدَاءٍ مَـــا لَهَـــا فِيـــهِ طَبِيـــبُ
تشُـــمُّ الأرْضَ تَطْلُـــبُ مِنْـــهُ رِيحًـــا وتَنْحَـــبُ، والبُغَـــامُ هُـــوَ النَّحِيـــبُ
بـــأجْزَعَ مِـــنْ فُـــؤَادِي يَـــوْمَ قَـــالُوا بِـــرَغْمِ مِنْـــكَ فَارَقَـــكَ الحَبِيـــبُ

أوْرَى معروف الرصافي زناد قريحته، وبدأ في وصف حالة غزالة تكابد حزنا لا يحسدها عليه أحد، الغزالة ترعى في الروض، وبجانبها وحيدُها، آمِنَيْن، مطمئنّيْن، وذات غفلة منها، إذا بالذئب بجانبه، والرَّدى حشو مخالبه، فيتخطف الصغيرَ وبه يكتفي، ويضرب في الأرض ويختفي، فتروح الأم تحثُّ السَّيْرَ تشتمُّ الأرض بحثًا عنه، وتَبْغَمُ بصوتها الرخيم، ولكنها تعود - يا حسرةً - بقلبٍ كليم، على فراق الولد الوحيد، والأنيس الفريد. أخيرًا يترجّل الشاعرُ من طوافه، ويرسي شراع التشبيه عند شاطئِ تعظيمِ حالِ المشبه، رغم عظمة حال المشبه به.

تدريب: دُلَّ على التشبيه الاستطرادي، واشرحه مبيّنا الواسطة الفنية:

- قال مصطفى لطفي المنفلوطي: "مَا عَذَّبَ اللهُ عِبَادَهُ بِنَازِلَةِ القَضَاء، وصَاعِقَةِ العَذَاب، وطَاغِيَةِ الطُّوفَان، والزِّلْزَالِ الأَكْبَر، والمَوْتِ الأحْمَر، والخَوْفِ مِنَ الجُوع، والنَّقْصِ فِي الأمْوَالِ والأَنْفُسِ والثَّمَرَات، بِمِثْلِ مَا عَذَّبَهُمْ بِالأَمَلِ البَاطِل، ومَا لَيْلَةٌ، ضَرِيرٌ نَجْمُهَا، حَالِكٌ ظَلَامُهَا، يَبِيتُ مِنْهَا صَاحِبُهَا عَلَى مِثْلِ قَلْبِ الظَّبْي خِيفَةً، فَوْقَ أَرْض، تَحُومُ عُقْبَانُهَا، وتَزْأَرُ سِبَاعُهَا، وتَعْوِي ذِئَابُها، وتَحْتَ سَمَاءٍ تَتَهَاوَى نُجُومُهَا، وتَتَوَالَى رُجُومُها، وتَتَرَاكَمُ غُيُومُها، بِأَسْوَأَ فِي نَفْسِهِ أَثَرًا مِنْ رَجَاءٍ كَاذِب، يَتَرَدَّدُ بَيْنَ جَنْبَيْه."

- وللمنفلوطي أيضا: "ليْسَ جَمَاعَةُ المُتَسَوِّلِينَ الذين يَضْرِبُونَ في الأرْضِ وَرَاءَ لُقْمَة، أوْ خِرْقَة، يَتَّقُونَ بِهَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاء، ولَيْسَ البُؤَسَاءُ الَّذِين يَحْرِقُونَ فَحْمَةَ اللَّيْل، بُكَاءً ونَحِيبًا على صِغَارٍ، كَفِرَاخِ القَطَا، يَتَلَوَّوْنَ في مَضَاجِعِهِمْ مِنَ الجُوعِ، مِثْلَ الأفَاعِي المُضْطَرِبَة، فَوْقَ الرِّمَالِ المُلْتَهِبَة، وتَحْتَ الشَّمْسِ المُحْرِقَة، أَسْوَأَ حَالًا، ولَا أنْكَدَ عَيْشًا، ولَا أعْظَمَ شَقَاءً، مِنَ هَؤُلَاءِ الفُقَرَاء، الَّذِين يُسَمِّيهِم النَّاسُ أغْنِيَاء".

- قال معروف الرصافي مخاطبا أبناء وطنه:

ومَـــا ثَلَّـــةٌ[2] قَـــدْ أهْمَلَتْهَـــا رُعَاتُهَـــا بِمَأسَـــدَةٍ جَاعَـــتْ لِعَشْـــرٍ أسُـــودُهَا
فَبَاتَـــتْ ولا رَاعٍ يُحَـــامِي مَرَاحَهَـــا فَـــرَائِسَ بَـــيْنَ الضَّـــارِيَاتِ تُبِيـــدُهَا
بِأَضْـــيَعَ مِـــنْكُمْ حَيْـــثُ لا ذُو شَـــهَامَةٍ يَـــذُبُّ الرَّزَايَـــا عَـــنْكُمُ ويَـــذُودُهَا

- قال إبراهيم طوقان في الغزل:

مَـــا رَوْنَـــقُ الفَجْـــرِ والظَّلْمَـــاءُ عَاكِفَـــةٌ إِذَا تَـــنَفَّسَ نُـــورًا فِـــي حَنَايَاهَـــا

[1] الآزمتان: النابان.
[2] ثَلَّةٌ: بفتح الثاء قطيع كبير من الأغنام.

فَهَبَّتِ الطَّيْرُ تَدْعُو الطَّيْرَ مُرْسِلَةً ... مِنَ الأَغَارِيدِ أَحْلاهَا وأَشْجَاهَا
ولا الوُرُودُ كَأَمْثَالِ الخُدُودِ وقَدْ ... تَفَتَّحَتْ فِي الرِّيَاضِ الفِيحِ تَغْشَاهَا
كَلاّ ولا قَطَرَاتُ الطَلِّ كَامِنَةً ... فِي الأَقْحُوَانِ وأُمُّ الشَّهْدِ تَرْعَاهَا
يَوْمًا بِأَجْمَلَ مِنْ مَيٍّ إذا ابتَسَمَتْ ... تَحْتَ النِّقَابِ ولاحَتْ لِي ثَنَايَاهَا

- قال إيليا أبي ماضي:

مَا طَائِرٌ كَانَ فِي بَيْدَاءَ مُوحِشَةٍ ... فَسَاقَهُ قَدَرٌ نَحْوَ البَسَاتِينِ
فَبَاتَ تُسْعِدُهُ فِيهَا بَلَابِلُهَا ... حِينًا، ويُسْعِدُهَا بَعْضَ الأَحَايِينِ
مِنِّي بِأَسْعَدَ حَظّا مُذْ نَزَلْتُ بِكُمْ ... يَا مَعْشَرَ السَّادَةِ الغُرِّ المَيَامِينِ

- وقال أبو ماضي أيضا:

فَمَا دَيْمَةٌ صَبَّتْ عَلَى الصَّخْرِ مَاءَهَا ... فَمَا أَنْبَتَتْ زَهْرًا ولَا أَطْلَعَتْ بَقْلَا
بِأَضْيَعَ مِنْ بُرْدِ الشَّبَابِ عَلَى امْرِئٍ ... إذَا اسْتَطْعَمَتْهُ النَّفْسُ أَطْعَمَهَا العَذْلَا

- قال حافظ إبراهيم:

مَا البَابِلِيَّةُ فِي صَفَاءِ مِزَاجِهَا ... والشَّرْبُ بَيْنَ تَنَافُسٍ وسِبَاقِ
والشَّمْسُ تَبْدُو فِي الكُؤوسِ وتَخْتَفِي ... والبَدْرُ يُشْرِقُ مِنْ جَبِينِ السَّاقِي
بِأَلَذّ مِنْ خُلُقٍ كَرِيمٍ ظَاهِرٍ ... قَدْ مَازَجَتْهُ سَلَامَةُ الأَذْوَاقِ

- وقال حافظ في الأديب والشاعر الفرنسي فكتور هوغو:

مَا ثُغُورُ الزَّهْرِ فِي أَكْمَامِهَا ... ضَاحِكَاتٍ مِنْ بُكَاءِ السُّحُبِ
نَظَمَ الوَسْمِيُّ فِيهَا لُؤْلُؤًا ... كَثَنَايَا الغِيدِ أَوْ كَالحَبَبِ
عِنْدَ مَنْ يَقْضِي بِأَبْهَى مَنْظَرًا ... مِنْ مَعَانِيهِ الَّتِي تَلْعَبُ بِي

- قال الشاعر:

ومَا حَائِمَاتٌ تَمَّ فِي الصَّيْفِ ظَمؤُهَا ... فَجَاءَتْ ولِلرَّمْضَاءِ غَلْيُ المَرَاجِلِ
فَلَمّا رَأَيْنَ المَاءَ عَذْبًا وأَقْبَلَتْ ... عَلَيْهِ رَأَيْنَ المَوْتَ دُونَ المَنَاهِلِ
فَعَادَتْ وَلَمْ تَنْقَعْ غَلِيلاً وقَدْ طَوَتْ ... حَشَاهَا عَلَى سُمِّ الأَفَاعِي القَوَاتِلِ
بِأَكْثَرَ مِنْ شَوْقِي إِلَيكَ ولَوْعَتِي ... عَلَيكَ وإِنْ لَمْ أَحْظَ مِنْكَ بِطَائِلِ

بَلَاغَةُ التَّشْبِيه

يمثّلُ التشبيه الرّكن الأساسيّ في صناعة الشعر العربي عبر العصور، "وإذا كان علم البيان جوهر البلاغة العربية وميدان الإبداع في تصوير الجمال بمختلف أشكاله ووجوهه، فإن التشبيه هو الجسر الوطيد والبنيان المشيد لذلك الميدان، من دوه ينحسر الأداء التصويري الجميل، لا بل تتعثر مسيرة الأدب نحو مشارف المتعة الفنية"[1].

وقد اتفق علماء البلاغة على شرف قدره، وفخامة أمره، فهو يلبس المعاني جمالا، ويزيدها كمالا، وهو ميدان فسيح، تتبارى فيه قرائح البلغاء والشعراء، والتشبيه يدلّ على خصب الخيال، وسُمُوِّهِ، وسعته، وعُمقه، كما يُظْهِرُ كذلك مدى القدرة على تمثيل المعاني، والتعبير عنها في صُور خلاّبة رائعة.

يقول الجرجاني: "إذا جاء التشبيه في أعقاب المعاني كَسَاهَا أبّهةً، فأكسبها منقبةً، ورَفَعَ مِنْ أقدارها، وشبَّ مِنْ نارها، وضاعفَ مِنْ قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوبَ إليها، واستثار لها مِنْ أقاصي الأفئدة صبابة وكُلْفا، وقسَرَ الطِّباع على أنْ تعطيها محبة وشغفا، فإنْ كان مدحا كان أبْهى وأفْخم، وأنْبل في النفوس وأعْظم، وأجْلب للفرح، وأغْلب على الممتدح، وإنْ كان ذمًّا كان مسُّه أوْجع، وميسِمُهُ ألْذع، ووقعُهُ أشدّ، وحدُّهُ أحدّ، وإنْ كان حجاجا كان برهانُه أنْور، وسلطانُه أقْهر، وبيانُه أبْهر، وإنْ كان افتخارا كان شأنه أبْعد، وشرفُه أجدّ، ولسانُه ألدّ، وإنْ كان اعتذارا كان إلى القبول أقْرب، وللقلوب أخْلب، وإنْ كان وعظا كان أشْفى للصدر، وأدْعى إلى الفكر، وأبْلغ في التنبيه والزّجر، وأجدْر بأنْ يُبرئ العليل، ويشفي الغليل"[2].

ولو لم يكن التشبيه سقف البلاغة، ومنتهى البيان الفني لما تفنن الشعراء في صُوَره وألوانه، وتنافس ذوُو المواهب في طرق تناوله، والإتيان فيه بكل غريب، وبديع وطريف. "وللتشبيه الغريب في النفس وقع شاج يتغلغل إلى قرارتها، ويهز أعماق أوتارها، ويلمس مكان الطرب والاستحسان منها، لأنه هبط عليها من أفق عال، لا تستطيع أن ترتفع إليه بقوتها الذاتية، وأطل عليها من نافذة سحرية لم تكن تترقب أن تطالعه منها."[3]

وإننا لَنرى من البلغاء مَنْ لا يقف عند حدِّ إجادته، وإنما يتجاوز ذلك إلى الإتيان بأكثر من تشبيهٍ في البيت الواحد.

---

[1] الدكتور ياسين الأيوبي في شرح ديوان الرافعي ص 34.
[2] أسرار البلاغة للجرجاني ص 93.
[3] فن التشبيه علي الجندي الجزء الثاني ص 160.

الاسْتِعَارَةُ التَّصْرِيحِيَّةُ والاسْتِعَارَةُ المَكْنِيَّة

الاستعارة لغة: هي السُّلْفَة، أيْ طَلَبُ الشَّيء وأخْذُه، مَعَ رَدِّهِ مُسْتَقْبَلا، قال إيليا أبو ماضي في هذا المعنى:

سَـــــرَقَ التُّفَّـــــاحُ مِـــــنْ وَجْنَتِهَـــــا واسْـــــتَعَارَ الظَّبْـــــيُ مِنْهَـــــا الحَـــــوَرَا

"وإذا كَانَتِ الاسْتِعَارَةُ بَيْنَ النَّاسِ لا تَكُونُ إلّا بَيْنَ فِئَةٍ يَعْرِفُ بَعْضُهَا بَعْضا، فليس لِلْمُسْتَعِيرِ أنْ يَسْتَعِيرَ إلّا مِمَّنْ لَهُ بِهِ صِلَةٌ تَجْمَعُهُمَا، أو عَلاقَةٌ تَرْبِطُهُمَا"[1].

وقريب من معنى الاستعارة في اللغة ما أشار إليه نزار قباني بقوله: "لأوَّلِ مَرَّةٍ نَعْرِفُ مَعْنَى التَّعَايُشِ الفَنِّي إذَا جَازَ لِي أنْ أسْتَعِيرَ هذا التَّعْبِيرَ مِنْ قَامُوسِ السِّيَاسَة".

الاستعارة اصطلاحا: هِيَ نَقْلُ اللَّفْظِ مِنْ مَعْنَاهُ الَّذِي عُرِفَ بِه، ووُضِعَ لَهُ إلى مَعْنَى آخَرَ لَمْ يُعْرَفْ بِهِ مِنْ قَبْل، لِعَلاقَةِ المُشَابَهَة، فلو قلنا مثلا: "تَنَافَسَ فُرْسَانُ القُرْآنِ عَلَى جَائِزَةٍ كُبْرَى وَضَعَتْهَا الدَّوْلَة"، فمعنى هذا أننا نقلنا لفظ الفرسان من معناه الذي عُرف به، ووضع له، أي المعنى الذي وضعته العرب لكلمة "فارس" (الفروسية فوق ظهور الجياد)، إلى معنى آخر لم يُعرف به من قبل، وذلك لوجود علاقة مشابهة بينهما. فكأنك قلت: "حَفَظَةُ القرآن فُرسان".

فالاستعارة إذن ليست إلا تشبيها، ولكنه تشبيهٌ مضمرٌ في النفس، تشبيهٌ نحذف أحد طرفيه (المشبه أو المشبه به)، وندّعي أنّ أحد الطّرفين هو عينُ الآخر.

أركان الاستعارة: لا بدّ لكلّ استعارة من أن تشتمل على أركان ثلاثة:

1- المُسْتَعَار.

2- المُسْتَعَارُ لَه.

3- المُسْتَعَارُ مِنْه.

فلو قلتَ مثلا: "أحْيَتْ بَرَاعِمُ المَدْرَسَةِ حَفْلَةَ يَوْمِ العِلْم"، كان المستعار في المثال: (بَرَاعِم)، والمستعار له: (التلاميذ)، والمستعار منه: المعنى الموضوع في الأصل لكلمة البُرْعُوم: (الزّهر قبل أن يتفتّح).

أقسام الاستعارة:

1- الاستعارة التصريحية:

وهي ما صُرّح فيها بلفظ المشبه به (المُسْتَعَار منه)، وحُذف المشبه (المستعار له)، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، ولتوضيح ذلك نذكر المثال الآتي: "شَاهَدْتُ النَّجْمَ فِي المَلْعَبِ يُسَدِّدُ قَذِيفَةً سَكَنَتْ عَرِينَ الأسَد". في المثال وردت أربعُ استعارات تصريحية: النَّجم، والقذيفة، والعرينُ، والأسد، وكلّها تشبيهاتٌ بليغة مقدّرة كما يأتي: اللاعبُ نجمٌ، والرّكلةُ قذيفةٌ، والمرمى عرينٌ، والحارسُ أسد، وفي كلٍّ من الاستعارات كنّا نحذف المشبه، ونترك القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي وهي (الملعب).

[1] علم البيان عبد العزيز عتيق ص 167.

وإليك باقة من الاستعارات التصريحية قطفتُها لك من رياض شعراء عصرنا الحديث:

- قال خليل مطران:

يَـــا زَائِـــرَ الحَسْـــنَاءِ فِـــي عِيـــدِهَا إِنْ تُهْـــدِ فَـــانْظُرْ مَـــا الّـــذِي تُهْـــدِي

أَخْطَـــــأَكَ الحَـــــزْمُ وأَخْطَأَتَـــــهُ. أَيُحْمَـــلُ الـــوَرْدُ إِلَـــى الـــوَرْدِ؟

استعارة حسناء، بل زهرة عَطِرَة، لا تعثر على مثلها إلا في روضة مطران، انظر إليه كيف يشبه المرأةَ الحسناءَ بالوردة، متناسيا التشبيه، ومدَّعيًا المطابقة بين المشبه (المرأة)، والمشبه به (الوردة)، بحذف المشبه، والتصريح بالمشبه به، وهذا هو مبعث تسميتها بالاستعارة التصريحية.

- قال محمود غُنيم في وصف عَرَقِ الفلّاح:

شَـــاهَدْتُ لُؤلُـــؤةً كَـــالبَرْقِ تَـــأْتَلِقُ عَلَـــى جَبِـــينِ أَمِيـــرٍ سَـــارَ مُخْتَـــالّا

تأمَّلْ كيف شبّه عندليبُ مصر في هذه التغريدة قطرةَ العرق على جبين الفلاح باللؤلؤة، حيث صرح بالمشبه به (اللؤلؤة)، وحذف المشبه، والقرينة (جبين)، كما شبه الفلاحَ البسيط بالأمير، وصرّح بالمشبه به، وحذف المشبه.

- وقال محمود غُنيم في مدح الملك فاروق تحية له عند توليه العرش:

النِّيـــلُ يَحْمِـــلُ سِـــبْطَ إِسْـــمَاعِيلَ أَرَأَيْـــتَ نِـــيلًا جَـــاءَ يَحْمِـــلُ نِـــيلا؟

وردت لفظة (نِيلًا) في عجز البيت مرتين: الأولى وردت بمعناها الحقيقي، والثانية ليست سوى مجاز، شبه فيه الشاعر ممدوحه بنهر النيل، وصرح بالمشبه به، وحذف المشبه، ادّعاءً منه بأنّ المشبه به هو عين المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية.

- قال مفدي زكريا في وصف عملية إعدام الشهيد أحمد زبانة بالمقصلة:

رَافِـــلًا فِـــي خَلَاخِـــلَ زَغْـــرَدَتْ تَمْـــ ـــــلَأُ مِـــنْ لَحْنِهَـــا الفَضَـــاءَ البَعِيـــدَا

حيث شبه الشاعرُ قيودَ الشهيد الشُّجاع بالخلاخل، وبما أنّ الشاعر قد صرَّحَ بالمشبه به (الخلاخل)، وحذف المشبه (القُيود)، فإنّ الاستعارة بهذا الوضع تكون تصريحية.

- قال معروف الرصافي:

تَبَسَّـــمُ حِينًـــا ثُـــمَّ تَجْهَـــشُ بِالبُكَـــا فَمِـــنْ لُؤلُـــؤٍ تُبْـــدِي ومِـــنْ لُؤلُـــؤٍ تَـــذْرِي

الشاعر وصف حالة حسناءَ مفجوعةٍ في الحرب، فشبه أسنانها باللؤلؤ، وصرّح بالمشبه به، وحذف المشبه، والقرينة (تبسّم)، ثم شبه دموعها كذلك باللؤلؤ، وصرّح بالمشبه به، وحذف المشبه، والقرينة (البكاء).

- قال محمود سامي البارودي في شأن من يتغزل بها:

وتَبْسِـــمُ عَـــنْ جُمَـــانٍ فِـــي عَقِيـــقٍ يُقَـــالُ لَـــهُ بِحُكْـــمِ الـــذَّوْقِ ثَغْـــرُ

حيث شبه الأسنان بالجمان: اللؤلؤ، وصرح بالمشبه به، وحذف المشبه، كما شبه الشفتين بالعقيق: الحجر الكريم الأحمر غالبا، وصرح بالمشبه به كذلك وحذف المشبه.

- وقال محمود سامي البارودي:

عَاتَبْتُـــــهُ لَا لِأَمْـــــرٍ فِيـــــهِ مَعْتَبَـــــةٌ عَلَيْـــــهِ لَكِـــــنْ لِأَرْعَـــــى وَرْدَةَ الخَجَـــــلِ

فَأَلْبَسَـــــتْ يَاسَـــــمِينَ الخَـــــدِّ خَجْلَتُـــــهُ وَرْدًا جَنِيًّـــــا جَنَـــــاهُ رَائِـــــدُ المُقَـــــلِ

الشاعر شبه حُمرة الخجل بالوردة في البيت الأول، حيث حذف المشبه، وصرح بالمشبه به، ثم شبه بياض الخدّ في البيت الثاني بالياسمين، وحذف المشبه كذلك، وصرح بالمشبه به، كما شبه نفسه بالرائد حين قال: (جناه رائد المقل)، والرائد هو الذي يسعى في طلب المراعي والمياه لقومه، حاذفا المشبه، ومصرحا بالمشبه به.

- قال أحمد شوقي في رثاء طيّارَين عثمانيين سقطت بهما الطائرة في مصر، فماتا:

انْظُـــرْ إِلَـــى الأَقْمَـــارِ كَيْـــفَ تَـــزُولُ وإِلَـــى وُجُـــوهِ السَّـــعْدِ كَيْـــفَ تَحُـــولُ

وإِلَـــى الجِبَـــالِ الشُـــمِّ كَيْـــفَ يُمِيلُهَـــا عَـــادِي الـــرَّدَى بِإِشَـــارَةٍ فَتَمِيـــلُ

وإِلَـــى الرِّيَـــاحِ تَخِـــرُّ دُونَ قَرَارِهَـــا صَـــرْعَى عَلَـــيْهِنَّ التَّـــرَابُ مَهِيـــلُ

وإِلَـــى النَّسُـــورِ تَقَاصَـــرَتْ أَعْمَارُهَـــا والعَهْـــدُ فِـــي عُمْـــرِ النَّسُـــورِ يَطُـــولُ

فشوقي يشبه الطيّارَين بحزمة من التشبيهات: بالأقمار، والجبال، والرّياح، والنّسور، وفي كل تشبيه كانت عادةُ الشاعر حذفَ المشبه، والتصريحَ بالمشبه به. ولعمري إنّ وفود الشعراء في العصر الحديث حين بايعوا أميرهم فقد بايعوه تحت مِثل هذه الشجرة التي يثمر الغصنُ منها بدل الثمرة الواحدة العديد من الثمار.

- وأبلغُ منه وأوْجز قول شوقي:

وبَعْضُ المَنَـايَـا تُنْـزِلُ الشَّـهْـدَ فِـي الثَّـرَى ويَـحْـطُـطْـنَ فِـي الثُّـرْبِ الجِبَـالَ الـرَّوَاسِيَا

حيث شبه الكرامَ الذين أصابتهم سهامُ المنايا بالشّهد تارة، وبالجبال تارة أخرى، وفي كلا التشبيهين صرّح الشاعرُ بالمشبه به، وحذف المشبه.

- قال علي الجارم في قصيدة "ذكرى الغرب":

أَلْقَـــوْا خُـــدُودَ العَـــذَارَى فِـــي حَـــدَائِقِهَا ولَقّبُوهَـــــا بِأُثْمَـــــارٍ وأَزْهَـــــارِ

فالشّاعر بعد رحلته إلى بلاد الغرب، والتنزّه في حدائقها، يشبّه وُرُودَها وثمارها بخدود العذارى، ويصرّح بالمشبه به ويحذف المشبه كما رأيت، والقرينة (حدائقها). ثم ألا تراه يدّعي في الشطر الثاني أنّ ما رآه ليس مجرّد أثمار وأزهار؟ فكأنّي بالشاعر لا يدّعي فقط أنّ المشبه هو عين المشبه به كما شرحنا ذلك في التعريف، بل يزيد على ذلك بهدف المبالغة والغلوّ.

وهذا ما يؤكده قوله مفتخرا بإحدى قصائده:

نَظَمْنَـــا لُؤْلُـــؤَ الفِـــرْدَوْسِ فِيهَـــا وسَـــــمَّيْنَاهُ تَضْـــــلِيلًا كَلَامَـــــا

(الاستعارة التصريحيّة في قوله: لُؤْلُؤ الفردوس).

- قال حافظ إبراهيم مهنّئا الخديوي بقدومه من الحج:

أَقُـــولُ وقَـــدْ شَـــاهَدْتُ رَكْبَـــكَ مُشْـــرِقًا وقَـــدْ يَمَّـــمَ البَيْـــتَ العَتِيـــقَ المُحَرَّمَـــا:

مَشَـــتْ كَعْبَـــةُ الـــدُّنْيَا إلـــى كَعْبَـــةِ الهُـــدَى يَفِـــيضُ جـــلالُ المُلـــكِ والـــدّينِ مِنْهُمَـــا

وفي الـرَّكْـبِ شَمْسٌ أَنْجَبَتْ أَنْجَـبَ الـوَرَى فَتَـــى الشَّـــرْقِ مَـوْلَانَـا الأَمِـيـرَ الـمُـعَظَّمَا

فلَـــمْ أرَ أَفْقًـــا قَبْـــلَ رَكْبِـــكَ أَطْلَعَـــتْ جَوَانِبُـــهُ بَـــدْرًا وشَمْسًـــا وأَنْجُمَـــا

قافلةٌ من الاستعارات التصريحية أوردها الشاعرُ في الأبيات الثلاثة الأخيرة، وهي كالآتي:

شبّه ممدوحَه بالكعبة في البيت الثاني، وشبه زوجةَ الممدوح بالشمس في البيت الثالث، وفي البيت الأخير شبه ركْبَ الملك بالأفق، وشبّه الملكَ بالبدر، والزوجة بالشمس، والأميرَ بالنّجم. وفي كلّ مرةٍ كان الشاعرُ يصرّحُ بالمشبه به، ويحذف المشبه.

- ومن الاستعارات التصريحية الجيدة قول حافظ إبراهيم في رثاء فقيد العلم محمد عاطف بركات:

لَـــمْ تَكُـــنْ مِصْـــرُ بِـــالعَقِيمِ ولَكِـــنْ قَـــدْ رَمَاهَـــا أَعْـــدَاؤُهَا بِالحَيَـــالِ

أَفْسِـــحُوا لِلْجِيَـــادِ فِيهَـــا مَجَـــالًا قَـــدْ أَضَـــرَّ الجِيَـــادَ ضِـــيقُ المَجَـــالِ

الشاهد في الاستعارة التصريحية في البيت الثاني.

- ومن الاستعارات التصريحية في النثر قول عبد العزيز البشري في ذكرى وفاة أحمد شوقي: "في مِثْلِ هَذَا اليَوْمِ مِنْ عَامَيْنِ مَضَيَا أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَنَّ البُلْبُلَ قَدْ سَكَتَ بَعْدَ طُولِ سَجْعِهِ وتَغْرِيدِه، وأَنَّ الزَّهْرَ قَدْ ذَبُلَ بَعْدَ إِشْرَاقِهِ وتَوْرِيدِه، وأَنَّ النَّجْمَ قَدْ هَوَى فَلَمْ يَعُدْ يَتَأَلَّق، وأَنَّ الغَدِيرَ قَدْ غَاص، وهَيْهَاتَ لَهُ بَعْدَ الآنَ أَنْ يَتَرَقْرَق".

لقد زيّن الكاتبُ كلامَه بأربع استعارات تصريحيّة، وإليك تفصيلُها:

- "البُلْبُل قَدْ سَكَتَ بَعْدَ طُولِ سَجْعِهِ وتَغْرِيدِه": حيث شبه الكاتبُ أحمدَ شوقي بالبلبل، وصرّح بالمشبه به، وحذف المشبه، (ترشيح الاستعارة التصريحية في قوله: سجعه وتغريده، سنعرض له بعد هذا الدرس).

- "الزَّهْر قَدْ ذَبُلَ بَعْدَ إِشْرَاقِهِ وتَوْرِيدِه": حيث شبّه فقيدَ الشّعر بالزَّهْر، وصرّح بالمشبه به، وحذف المشبه.

- "النَّجْم قَدْ هَوَى فَلَمْ يَعُدْ يَتَأَلَّق": حيث شبّهه بالنجم، وصرّح بالمشبه به، وحذف المشبه.

- "الغَدِير قَدْ غَاص، وهَيْهَاتَ لَهُ بَعْدَ الآنَ أَنْ يَتَرَقْرَق": شبّهه بالغدير، وصرّح بالمشبه به.

- وفي قصة بديعة كتبتْ مَيْ زيادة عن بكاء الطفل: "سَمِعْتُ الطِّفْلَ يَبْكِي، ورَأَيْتُ الجُمَانَ يَنْحَدِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ عَلَى وَجْنَتَيْهِ الوَرْدِيَّتَيْن، فَكَانَتْ تِلْكَ اللآلِئُ الذَّائِبَةُ جَمَرَاتِ نَارٍ تَكْوِينِي".

فلو أمعنت نظرك لوجدتَ أنَّ الكاتبة شّبهتْ دموعَ الطفل بالجُمَان تارة، وباللآلئ تارة أخرى، والقرينة:(عينيه) و(وجنتيه)، فالكاتبة قد صرَّحت بالمشبه به، فالاستعارة إذن تصريحية.

2- الاستعارة المكنية:

وهي التي حُذف منها المشبه به (المُستعار منه)، ورُمِزَ إليه بما يدلُّ عليه من صِفاته، ولا بدَّ فيها من ذِكْرِ المشبه، وتسمى أيضا "الاستعارة بالكناية، لأن المشبه به يحذف، ويكنى عنه بلازم من لوازمه."[1]

- قال خليل مطران في المديح:

حَتَّـــى الهُمُـــومُ سَـــمَتْ إلَيْـــكَ بِوُدِّهَـــا مَـــنْ كَـــانَ يَحْسَـــبُ لِلْهُمُـــومِ قُلُوبَـــا؟

تأمّلْ كيف تفنّن الشاعر، وزعم أنّ للهموم قلوبًا تحبّ بها، ولم تكن الهمومُ تُعرف بالوداد من قبلُ حتى جاء الشاعر وسَمَا بجوهرها، وخلق لها عواطف كعواطف الإنسان. نقول إن الشاعر شبه الهموم بالإنسان المحبّ، ولكنه لم يصرح بالمشبه به، بل حذفه، وترك القرينة الدّالة عليه، وهي (وُدُّهَا).

- قال علي الجارم مادحًا:

مَلِـــكٌ تَغَـــارُ النَّيِّـــرَاتُ إذا بَـــدَا أسَـــمِعْتَ أنَّ النَّيِّـــرَاتِ تَغَـــارُ؟

وَدَّتْ لَـــوْ اشْـــتَمَلَتْ بِفَضْـــلِ رِدَائِـــهِ هَيْهَـــاتَ ثَـــوْبُ المَجْـــدِ لَـــيْسَ يُعَـــارُ

الكواكبُ لا تَغار، وثوبُ المجد لا يُعار، ولكنّ الذي يُعارُ هو الألفاظ، كما أسلفنا في تعريف الاستعارة، فالشاعر قد شبّه الكواكب بالإنسان، وحذف المشبه به (المستعار منه)، ورَمز إليه بشيء من لوازمه أيْ بصفةٍ من صفاته، وهي (تغار)، وبما أنّ المشبه به مكنُون (محذوف) فاستعارة الشاعر مكنيّة.

- وقال علي الجارم في المديح:

مِـــنْ حُسْـــنِهِ اخْـــتَلَسَ الأصِـــيلُ جَمَالَـــهُ وبِبِشْـــــرِهِ تَتَبَسَّـــــمُ الأسْـــــحَارُ

سَـــفَرَتْ بِـــهِ البُشْـــرَى فَطَـــاحَ قِنَاعُهَـــا عَمْـــدًا وطَـــارَ مَـــعَ الهَـــوَاءِ خِمَـــارُ

استعارةٌ تُشرق بالبيان، شبه فيها الشاعرُ الأصيلَ - وهو الوقت ما بين العصر وغروب الشمس - باللّصّ المحترف، حاذفا المشبه به، ورامزًا إليه بشيء من لوازمه (اختلس)، كما شبه السَّحَر - وهو ذلك الوقت الذي قبيل الصبح - بإنسانٍ سعيد يتبسَّم ضاحكًا مستبشرًا ببشاشة الملك، حاذفا كذلك المشبه به، ومشيرا إليه بلازم من لوازمه (تتبسّم)، ثم انظر إليه كيف أبحرَ بعيدًا بخياله ليُرسيَ شراع الاستعارة عند تشبيه البُشرى بالمرأة الحسناء التي سقط عنها قناعها حياءً من جمال الممدوح، ليطيرَ مع الرّيح حسنُها وخِمارُها!

- ولله دَرُّهُ حين يقول:

تَمَنَّـــتْ نُجُـــومُ الأفْـــقِ رَوْعَـــةَ زَهْـــوِهِ وسَـــــالَ لِشَـــــمْسٍ أبْصَـــــرَتْهُ لُعَـــــابُ

انظر إلى الشاعر كيف شبه النجومَ بإنسان يعيش الأماني، وحذف المشبه به، وأبقى على شيء من لوازمه (تمَنّتْ)، وشبّه الشمسَ بإنسان اشتهى شيئا ما، وحذف المشبه به، تاركا شيئا من خواصه (لُعَاب) على سبيل الاستعارة المكنية.

[1] علم البيان بسيوني عبد الفتاح فيود ص 187.

ملحوظة: يمكن اعتبار الاستعارة التي زيّنت الشطر الثاني تصريحية، وشرحها كالآتي: شبه الشاعرُ أشعةَ الشمس باللُّعاب، وصرح بالمشبه به، وحذف المشبه.

- قال محمود سامي البارودي في وصف قلمه:

غَـــرِدٌ إِذَا مَـــا جَـــالَ فَـــوْقَ صَـــحِيفَةٍ سَـــجَدَتْ لِحُسْـــنِ صَـــرِيرِهِ الأَوْتَـــارُ

فالشاعر قد شبّه القلمَ بالبلبل، ولم يصرح بالمشبه به، وإنما حذفه، ورمز إليه بلازم من لوازمه (غَرِدٌ) على سبيل الاستعارة المكنية، ثم شبّه الأوتار بزُمرة من العُبّاد يركعون ويسجدون، وحذف المشبه به، وترك قرينة تدلّ عليه، وهي (سَجَدَتْ) على سبيل الاستعارة المكنية.

- قال حافظ إبراهيم في سعد زغلول حين عودته إلى القاهرة:

هَـــذَا زَعِـــيمُ النِّيـــلِ حَـــلَّ عَرِينَـــهُ بَعْـــدَ الغِيَـــابِ فَيَـــا وُفُـــودُ تَـــدَفّقِي

فالشاعر قد شبه الزعيم بالأسد، وحذف المشبه به، وأبقى على صفة من صفاته، وهي (عرينه)، ثم شبه الوفود بالسّيل، وحذف كذلك المشبه به، وأبقى على قرينته، وهي (تدفقي) على سبيل الاستعارة المكنية.

- وقال حافظ إبراهيم:

وكَـــذَا طُهَـــاةُ الـــرَّأيِ تَتْرُكُـــهُ لِلـــدَّهْرِ يُنْضِـــجُهُ عَلَـــى مَهَـــلِ

فالشاعر كما هو واضح شبه الرأي بالطعام، وحذف المشبه به، وأبقى على صفة تدل عليه، وهي (طُهاة) على سبيل الاستعارة المكنية.

- قال الشاعر محمود غنيم:

لا كَـــانَ مُخْتَـــرِعُ الرَّصَـــاصِ فَإِنَّـــهُ بَـــاعَ المَنُـــونَ رَخِيصَـــةَ الأَسْـــعَارِ

لاحظ كيف شبه الشاعر المنونَ (الموت) بالسلعة التي تباع وتشترى، وحذف المشبه به كما ترى، وأبقى على خاصية من خصائصه، وهي (باع) على سبيل الاستعارة المكنية. أما قوله: (رخيصة الأسعار) فهو ترشيح للاستعارة، ستتعرف عليه في الدرس اللاحق.

- وقال محمود غنيم في وصف الربيع:

تَبَسَّـــمَ البَحْـــرُ مِـــنْ بَعْـــدِ العُبُـــوسِ، فَهَـــلْ لِلْبَحْـــرِ أَيْضًـــا مَسَـــرَّاتٌ وأَحْـــزَانُ؟

ليس للبحر مسرّاتٌ ولا أحزان، والتبسُّمُ والعبوسُ صفتان للإنسان، فالشاعر شبه البحر بالكائن البشريّ، وحذف المشبه به، وأبقى القرينة (تبسّم).

- وقال محمد العيد آل خليفة:

وَقَفْـــتُ عَلَـــى بَحْـــرِ الجَزَائِـــرِ لَيْلَـــةً ونَاجَيْتُـــهُ لَـــوْ كَـــانَ يَسْـــمَعُنِي البَحْـــرُ

فَقُلْـــتُ لَـــهُ: يَـــا بَحْـــرُ مَـــا لَـــكَ هَائِجًـــا عَلَـــى البَـــرِّ مُغْتَاظًـــا ولَـــمْ يُـــذْنِبِ البَـــرُّ؟

البحرُ لا يسمعك يا شاعرنا الكبير، ولكنك تناجيه كما يناجي مهمومٌ أنيسا يبثه شكواه، أو جليسا يشكوه أساه، وبما أنّ المشبه به (الأنيس) أو (الجليس) كان مكنُونا في البيت الأول كانت الاستعارة مكنيّة، وفي البيت الثاني شبه الشاعرُ البحرَ بالإنسان أيضا، وعَزَلَ المشبه به، وعَفَا على صفة من صفاته (مغتاظا)، كما شبّه البَرَّ كذلك بالإنسان، وحذف المشبهَ به هو الآخر، وثَبَتَ صفة يتّصفُ بها (يُذْنب) على سبيل الاستعارة المكنية.

- قال مفدي زكرياء بصوت قادم من أعالي الروح:

إلَامَ تَظَـــــلُّ تَلْسَـــــعُنَا الجِـــــرَاح؟ وفِـــــيمَ تَبِيـــــتُ تَنْهَشُـــــنَا الرِّمَـــــاح؟

لقد شبَّهَ الشاعرُ الجراحَ بالعقارب، وحَذفَ المشبه به، وأبْقَى على صفةٍ تدلُّ عليه، وهي كلمة (تَلْسَعُنَا)، ثم شبَّهَ الرِّماحَ بالوحوش الكاسرة، وحَذفَ المشبه به، وأبْقَى على صفةٍ دالّةٍ عليه، وهي كلمة (تَنْهَشُنَا)، فالاستعارتان مَكْنِيَّتَان.

- قالت مَيْ زيادة: "أُحِبُّ عَبَقَ تُرْبَة الجُدُود، ورَائِحَةَ الأرْضِ التي دَغْدَغَهَا المِحْرَاثُ مُنْذُ حِين، أُحِبُّ الأشْجَارَ ذَاتَ الظلِّ الوَارِف، أكَانَتْ مَحْجُوبَةً في أحْشَاءِ الوَادِي، أمْ أسْفَرَتْ مُشْرَقَةً عَلَى البَحْرِ البَعِيد، أحِبُّ الطُّرُقَ الوَعْرَة المُتَوَارِيَةَ في قلْبِ الغَاب، وتِلْكَ المُلْتَوِيَةَ عَلَى أكْتَافِ الجِبَالِ كالأفَاعِي البَيْضَاء".

أُسْطُولٌ من الاستعارات المكنية، تهزمُ به الكاتبةُ جيشَ الغُموضِ الذي قَدْ يكتنف الاستعارة المكنية، لقد شبهت تُربةَ الجُدود بالمسك، والقرينة: (عبق)، ثم شبهت الأرضَ بالعِطر، والقرينة: (رائحة)، ثم شبهت الأرضَ كذلك بالرَّضيع، والقرينة: (دغدغها)، ثم شبهت الوادي بالإنسان، أو الحيوان، والقرينة: (أحشاء)، ثم شبهت الأشجارَ بالشمس، أو البدر، والقرينة: (أسْفَرَتْ)، ثم شبهت الغابة بالإنسان، والقرينة: (قلب)، وأخيرًا شبهت الجبالَ بالإنسان كذلك، والقرينة: (أكتاف). وفي كلِّ تلك الاستعارات كان المشبّهُ به مُغَيَّبًا، والقرينة حاضرة.

التدريب الأول: تعرّف على الاستعارات التصريحية، والاستعارات المكنية في النماذج البلاغية الآتية:

- قال ميخائيل نعيمة واصفا الربيع: "(هَجَمَ الرَّبِيعُ)، بِهَاتَيْن الكلمتين حَيَّانِي أمْسِ أحدُ الجِيرَان، وكَانَتْ أجْمَلَ تَحِيَّة، فَقَدْ حَاصَرَنَا الشِّتَاءُ في هَذِهِ السَّنَةِ حِصَارًا طَوِيلا قَاسِيًا، اسْتَنْفَدَ كُلَّ مَا اخْتَزَنَّاهُ مِنْ الوَقُود، لَقَدْ سَئِمَ الجَمِيعُ رَوَائِحَ الفَحْمِ والدُّخَان، وسَئِمُوا حَتَّى زَغَارِيدَ النَّارِ في الحَطَب، وبَاتُوا يَتَبَرَّمُونَ بالأمْطَارِ والثُّلُوجِ والعَوَاصِفِ تَنْقَضُّ عَلَيْهِمْ مِنْ سَمَاءٍ غَضْبَى، لا يُلَطِّفُ مِنْ غَضَبِهَا شُعَاعُ شَمْس، أوْ بَسْمَةُ قَمَر، أوْ غَمْزَةُ نَجْمَة، وأخِيرًا أطَلَّتِ الشَّمْسُ عَلَيْنَا، لِتَتَوَلَّى بِذَاتِهَا قِيَادَةَ الهُجُومِ المُبَارَك، هُجُومِ الرَّبِيع، فَكَانَ البَرْدُ أوَّلَ ضَحَايَاه، وجَاءَ دَوْرُ الثَّلْج، حَلِيفِ البَرْدِ الأعْنَدِ والأشَدّ، وهَا هُوَ ذَا تَنْهَارُ عَزِيمَتُه، وتَتَصَدَّعُ صُفُوفُه، ويَثْخَنُ صَدْرُهُ بالجِرَاح، ويَمِيعُ قَلْبُه، فَيَنْحَدِرُ مِنْ الأعَالِي شَلَّالَاتٍ تَدْفَعُ شَلَّالَات، وفي انْحِدَارِهِ مِنَ الأعَالِي وانْدِفَاعِهِ نَحْوَ البَحْرِ يَأْتِيكَ بالعَجِيبِ مِنَ الأغَانِي، فَكَأَنَّهُ وهُوَ الهَارِبُ مِنَ المَيْدَانِ يَعُدُّ الهُرُوبَ ضَرْبًا مِنَ البُطُولَة، فَيُسْمِعُكَ مِنَ الأهَازِيجِ مَا لا تَمَلُّهُ أذُنُك، ولا تَرْتَوِي مِنْهُ رُوحُك".

- قال عائض القرني في إحدى مقاماته: "الجَمَالُ فِي الصُّبْحِ إذَا تَنَفَّس، فَسُبْحَانَ مَنْ صَوَّرَ وتَقَدَّس، الجَمَالُ فِي الصُّبْحِ بِطَلْعَتِهِ الآسِرَة، وإطْلَالَتِهِ البَاهِرَة، الجَمَالُ فِي الصُّبْحِ وهُوَ يَنْشُرُ عَبَاءَتُهُ الذَّهَبِيَّةَ عَلَى الوُجُود، فَيَكَادُ يُكَلِّمُهُ مِنْ حُسْنِهِ الجُلْمُود، الجَمَالُ فِي الصَّبْحِ يَوْمَ يَتَوَضَّأُ الفِكْرُ فِي عُبَابِ نُورِه، ويَغْتَسِلُ القَلْبُ فِي بَحْرِ سُرُورِه، وتَسْرَحُ النَّفْسُ فِي مِهْرَجَانِ عُرْسِه، وتُنْصِتُ الرُّوحُ لِهَمْسِهِ وجَرْسِه. الجَمَالُ فِي اللَّيْلِ إذَا عَسْعَس، وأقْبَلَ فِي هُدُوءٍ يَتَوَجَّس، يُقْبِلُ اللَّيْلُ بِرِدَائِهِ الأسْوَد، وشَعْرِهِ المُجَعَّد، فَيَسْتُرُ الأحْيَاءَ بِثِيَابِه، ويَضَعُ الأشْيَاءَ تَحْتَ جِلْبَابِه، فَيَمْلَأُ بِجَيْشِهِ المَسَاكِن، فَكُلُّ مُتَحَرِّكٍ سَاكِن، واللَّيْلُ لَهُ هَيْبَةٌ فِي العُيُون، كَأَنَّهُ كَتِيبَةٌ تَحْمِلُ المَنُون."

- قال محمد المويلحي: "نَزَلْنَا مِنْ ضَوَاحِي الإسْكَنْدَرِيَّةِ قَصْرًا ذَا رَوْضَةٍ غَنَّاء، فِي بُقْعَةٍ فَيْحَاء، لَا تَسْمَعُ فِيهَا إلَّا هَدِيلَ الوَرْقَاء، إيقَاعًا عَلَى هَدِيرِ المَاء، فَإذَا بَلَّلَ المَوْجُ جَنَاحَ النَّسِيم، فَرَفْرَفَ عَلَى ذَلِكَ الرَّوْضِ البَسِيم، نَثَرَ المَاءُ دُرًّا عَلَى تِيجَانِ الزَّهْر، ورَقْرَقَهُ دُمُوعًا فِي أحْدَاقِ العَبْهَر[1]، هُنَاكَ يَتَمَنَّى العَاشِقُ لَوْ اسْتَعَارَ هَذِي الدُّمُوعَ لِمَحَاجِرِه، فَيَسْتَلِينَ بِهَا قَلْبَ شَاجِيهِ وهَاجِرِه، وتَوَدُّ الغَانِيَةُ لَوْ نَظَمَتْ مِنْ ذَلِكَ الدُّرِّ عِقْدًا لِنَحْرِهَا، أوْ نِطَاقًا لِخِصْرِهَا."

- قال جبران خليل جبران: "الشَّاعِرُ أبُو اللُّغَةِ وأُمُّهَا، تَسِيرُ حَيْثُمَا يَسِير، وتَرْبِضُ أيْنَمَا يَرْبِض، وإذَا مَا قَضَى جَلَسَتْ عَلَى قَبْرِهِ بَاكِيَةً مُنْتَحِبَة، حَتَّى يَمَرَّ بِهَا شَاعِرٌ آخَر، ويَأخُذَ بِيَدِهَا، وإذَا كَانَ الشَّاعِرُ أَبَ اللُّغَةِ وأُمَّهَا، فَالمُقَلِّدُ نَاسِجُ كَفَنِهَا، وحَفَّارُ قَبْرِهَا."

- كتب المنفلوطي قائلا: "فإذَا انْقَضَى النَّهَار، وأَوَتِ الشَّمْسُ إلى خِدْرِهَا، صَعَدَ الأوْلَادُ إلَى صَخْرَةٍ عَظِيمَة، تُشْرِفُ عَلَى ذَلِكَ الوَادِي جَمِيعِه، فإذَا ألْقَوْا بِأنْظَارِهِم، خُيِّلَ إلَيْهِمْ أنَّهُمْ بَيْنَ سَمَاءَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْن: سَمَاءٍ تُنْبِتُ الكَوَاكِبَ والنُّجُوم، وأخْرَى تُنْبِتُ الأزْهَارَ والأنْوَار، أوْ بَيْنَ رَوْضَتَيْنِ مُتَرَامِيَتَيْن، تَتَأَلَّقُ في إحْدَاهُمَا الزَّنَابِقُ البَيْضَاءُ عَلَى دِيبَاجَةٍ زَرْقَاء، وفِي أُخْرَاهُمَا الوُرُودُ الحَمْرَاءُ عَلَى قَطِيفَةٍ خَضْرَاء".

- قال توفيق الحكيم: "فِي الشَّبَابِ يُورِقُ الخَيَالُ والشُّعُورُ والعَاطِفَة، وفِي الكُهُولَةِ يُورِقُ العَقْلُ والحِكْمَةُ والتَّجَارِب."

التدريب الثاني: حدّد نوع الاستعارة في النماذج الآتية:

- قال محمود غنيم يصف البحر، والغيد الحسان على شاطئه:

أيَسْكُنُ الدُّرُّ والمُرْجَانُ شَاطِئَهُ؟ أمْ فِي قَرَارَاتِهِ دُرٌّ ومُرْجَانُ؟

لا أرْهَبُ البَحْرَ والغِيدُ الحِسَانُ بِهِ فَإنَّ غَضْبَتَهُ عَطْفٌ وتَحْنَانُ

ولَا أهَابُ هَدِيرَ البَحْرِ إنْ سَبَحَتْ فِيهِ المَهَا، فَهْوَ تَطْرِيبٌ وألْحَانُ

عَجِبْتُ لِلْبَحْرِ، قَدْ فَاضَ العُبَابُ بِهِ لَكِنَّهُ لِرُضَابِ الغِيدِ ظَمْآنُ

- وله في الحكمة:

[1] العبهر: النرجس.

قُــلْ مَــا تَشَــاءُ، فَــإنَّ الــدَّهْرَ يَنْقُــدُهُ تَنْفِــي الحَصَــى يَــدُهُ والــدُّرَّ تُبْقِيــهِ

- وقال في رثاء عباس محمود العقاد صاحبِ العبقريّات:

طَلّــقَ الــدُّنْيَا ثَلَاثًــا، واصْــطَفَى مِــنْ بَنَــاتِ الفِكْــرِ حُــورًا أَرْبَعَــه

- وقال محمود غنيم يصف تأثره بشعر البحتريّ:

رَوْضَــةُ البُحْتُــرِيِّ مَنْبَــتُ رِيشِــي وبِهَــا قَــدْ نَشَــأتُ واشْــتَدَّ عُــودِي

- قال نزار قباني:

لَــمْ يَبْــقَ فِــي دَارِ البَلَابِــلِ بُلْبُــلٌ لَا البُحْتُــرِيُّ هُنَــا ولَا زِرْيَــابُ

- وقال نزار قباني:

لا تُتْعِبِــي يَــدَكَ الرَّقِيقَــةَ إنَّنِــي أَخْشَــى عَلَــى البِلّــوْرِ أَنْ يَتَوَجَّعَــا

- وقال نزار:

اِرْمِ نَظّارَتَيْــكَ كَــيْ أَتَمَلّــى كَيْــفَ تَبْكِــي شَــوَاطِئُ المَرْجَــانِ

- قال شاعر الجزائر محمد جربوعة في قصيدة "قنديل بني هاشم":

هَــذَا النَّبِــيُّ. اخْضِــرَارُ الأرْضِ نَظْرَتُــهُ وبَسْــمَةُ الثَّغْــرِ مِنْهَــا الضَّــوْءُ يَحْتَشِــمُ

- وقال في الغزل:

يَمَنِيَّــةٌ كَانَــتْ تُمَشِّــطُ نَهْرَهَــا فِــي حَضْــرَةِ الكَتِــفِ السَّــعِيدِ الأيْسَــرِ

- قال خليل مطران:

لَــوْ قِيــلَ لِلْحُسْــنِ كَيْــفَ تَهْــوَى - إنْ أَنْــتَ خُيِّــرْتَ – أَنْ تَكُونَــا؟

لَقَــالَ فِــي بَــدْءِ كُــلِّ شَــيْءٍ: يَــا لَيْــتَ لِــي هَــذِهِ العُيُــونَا

- قال مفدي زكريا:

لِأَجْــلِ بِــلَادِي عَصَــرْتُ الشُّــجُـ ـومَ، وأَتْـرَعْتُ كَأسِـي وصُغْـتُ الشَّـوَادِي

- قال محمود درويش:

أغْمَــدْتُ فِــي لَحْــمِ الظّــلَامِ هَزِيمَتِــي وغَــرَزْتُ فِــي شَــعْرِ الضِّــيَاءِ أنَــامِلِي

- قال معروف الرصافي في وصف السّاعَة:

وخَرْسَــاءَ لَــمْ يَنْطِــقْ بِحَــرْفٍ لِسَــانُهَا سِــوَى صَــوْتِ عِــرْقٍ نَــابِضٍ بِحَشَــاهَا

- وقال معروف الرصافي:

إنْ لَــمْ نُضَــاحِكْ بِالسُّــيُوفِ خُصُــومَنَا فَالمَجْــدُ بَــاكٍ والعُــلَا تَتَــأَفَّفُ

- وقال الرصافي:

كَــمْ نَشْــرَبُ الظّــنَّ فَــلا نَرْتَــوِي ونَأكُــلُ الحَــدْسَ فَــلا نَشْــبَعُ

- قال علي الجارم في وصف قصيدته:

لَقَـــدْ قَطَفْنَـــا لَـــكَ الأزْهَـــارَ بَاسِـــمَةً وفِـــي عُقُـــودٍ مِـــنَ الفُصْـــحَى نَظَمْنَاهَـــا

- وقال الجارم:

يُنْصِـــتُ اللّيْـــلُ حِـــينَ تُنْشِـــدُ يَـــا شِعْـــ ـــــرُ وتَنْفِـــي عَـــنْ مُقْلَتَيْـــهِ الرُّقُـــودَا

- قال شاعر المهجر رشيد أيوب:

أَصُـــوغُ القَـــوَافِي حَالِيَـــاتٍ نُحُورُهَـــا عَـــرَائِسَ أبْكَـــارٍ بَـــرَزْنَ مِـــنَ الخِـــدْرِ

إذَا مَـــا نَسِـــيمُ الشَّـــوْقِ هَـــزَّ قَرِيحَتِـــي تَسَـــاقَطَ مِنْهَـــا الـــدُّرُّ فِـــي رَوْضَـــةِ الشِّـــعْرِ

- وقال رشيد أيوب:

وسَـــــبَحْتُ فِـــــي بَحْـــــرِ القَـــــوَا فِـــــي أَنْتَقِـــــي مِنْـــــهُ الجُمَـــــانْ

أصْـــــــطَادُ كُـــــــلَّ خَرِيـــــــدَةٍ فَاقَـــــتْ عَلَـــــى الغِيـــــدِ الحِسَـــــانْ

- قال الشاعر القروي بمناسبة مرور ألف سنة على وفاة المتنبي:

تُحَيِّيـــكَ يَـــا نَسْـــرَ القَـــرِيضِ بَلَابِـــلٌ يَعِيـــبُ عَلَيْهَـــا الشَّـــدْوَ بُـــومٌ وغِرْبَـــانُ

إذَا أَنْـــتَ أَرْقَصْـــتَ النُّجُـــومَ تَرَنَّحَـــتْ أَرَاهِيـــرُ مِـــنْ تَغْرِيـــدِهِنَّ وأَفْنَـــانُ

- قال إيليا أبو ماضي:

أَحِـــبُّ الزَّهُـــورَ، وأَهْـــوَى الطِّيُـــورَ وأَعْشَـــقُ ثَرْثَـــرَةَ السَّـــاقِيَاتْ

ورَقْـــصَ الأَشِـــعَّةِ فَـــوْقَ الرَّوَابِـــي وضِـــحْكَ الجَـــدَاوِلِ والقَهْقَهَـــاتْ

- قال مصطفى صادق الرافعي في مقدم الربيع، وذهاب الشتاء:

أَصْـــبَحَ نَبْـــتُ الرُّبَـــى فَطِيمَـــا لَمَّـــا مَضَـــتْ أَشْـــهُرُ الرَّضَـــاعِ

- قال سليمان الصولة:

لَـــمْ أَلْـــقَ بَـــدْرًا قَبْلَـــهُ يَمْشِـــي عَلَـــى قَـــدَمٍ ولا جَـــبَلاً بِظَهْـــرِ حِصَـــانِ

- قال حافظ إبراهيم في رثاء الشيخ محمد عبده:

فَيَـــا سَـــنَةً مَـــرَّتْ بِـــأَعْوَادِ نَعْشِـــهِ لَأَنْـــتِ عَلَيْنَـــا أَشْـــأَمُ السَّـــنَوَاتِ

حَطَّمْـــتِ لَنَـــا سَـــيْفًا وعَطَّلْـــتِ مِنْبَـــرًا وأَذْوَيْـــتِ رَوْضًـــا نَاضِـــرَ الزَّهَـــرَاتِ

وأَطْفَـــأْتِ نِبْرَاسًـــا وأَشْـــعَلْتِ أَنْفُسًـــا عَلَـــى جَمَـــرَاتِ الحُـــزْنِ مُنْطَوِيَـــاتِ

- وقال حافظ إبراهيم:

فَيَـــا قَلْـــبُ لا تَجْـــزَعْ إذا عَضَّـــكَ الأَسَـــى فَإِنَّـــكَ بَعْـــدَ اليَـــوْمِ لَـــنْ تَتَأَلَّمـــا

ويَـــا عَـــيْنُ قَـــدْ آنَ الجُمُـــودُ لِمَـــدْمَعِي فَـــلا سَـــيْلَ دَمْـــعٍ تَسْـــكُبينَ ولا دَمَـــا

الاستعارة المُرَشَّحَة والمُجَرَّدَة والمُطْلَقَة

1) الاستعارة المُرَشَّحة:

إِذَا أَتَى الأَدِيبُ – بالإضَافَةِ إلى القَرِينَة – بِمَا يُلائِمُ المُشَبَّهَ بِهِ مِنْ كَلِمَاتٍ، أَوْ عِبَارَات، أَوْ أَوْصَاف، نُسَمّي تِلْكَ الاسْتِعَارَةَ مُرَشَّحَةً، "وسُمِّيَتْ مُرَشَّحَةً لِأَنَّ مَا اقْتَرَنَ بِهَا يُعْطِيهَا زِيَادَةَ تَقْوِيَةٍ لِلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ بِزِيَادَةِ أَغْطِيَةٍ، تَحْتَاجُ زِيَادَةَ عَمَلٍ ذِهْنِيّ، لِكَشْفِ إِرَادَةِ المَعْنَى المَجَازِيّ، الَّذِي اسْتُعْمِلَ اللَّفْظُ للدِّلَالَةِ عَلَيْه"[1].

وسنركز في درسنا هذا على الاستعارة المُرَشّحة، لِمَا لها مِنْ سحر وجمال، وبيان وكمال، وسأنقل لك شهادة الزمخشري في شأنها، يقول: "هَذَا مِنَ الصِّفَةِ البَدِيعَة، الَّتِي تَبْلُغُ بِالمَجَاز (الاستعارة) الذِّرْوَةَ العُلْيَا، وهُوَ أَنْ تُسَاقَ كَلِمَةٌ مَسَاقَ المَجَاز، ثُمَّ تُقَفَّى بِأَشْكَالٍ لَهَا وأَخَوَات، إذا تَلاحَقْنَ لَمْ تَرَ كَلامًا أَحْسَنَ مِنْهُ دِيبَاجَة، وأَكْثَرَ مَاءً ورَوْنَقا، وهُوَ المَجَازُ المُرَشَّح".

وإليك طائفة من نماذجها البليغة:

- قال مفدي زكريا في وصف جمال الجزائر:

بِـــــــلَادٌ تُمَـــــــازِحُ عُشّـــــــاقَهَا وتَمْنَـــــعُ عَـــــنْهُمْ لَذِيـــــذَ الوِصَـــــالِ

شبه الشاعرُ الجزائرَ بالمرأة الحسناء، وحذف المشبه به، وأبقى على قرينته (تُمازح عشاقَها)، ثم أتى بعبارة (وتمنعُ عنهم لذيذَ الوِصال)، وهي عبارة تلائم المشبه به المحذوف، أي تلائم المرأة الحسناء، وليس ذلك إلّا ادّعاءً منه بأنّ الجزائرَ حسناء حقيقيّة، فما يدّعيه الشاعرُ ليس تشبيها أو مجازًا، بل هو الحقيقة بعينها.

- قال بشارة الخوري مخاطبا فلسطين:

نَحْـــنُ يَـــا أُخْـــتُ عَلَـــى العَهْـــدِ الّـــذِي قَـــدْ رَضَـــعْنَاهُ مِـــنَ المَهْـــدِ كِلَانَـــا

شبه الشاعرُ العهدَ باللَّبن، وحذف المشبه به، وترك قرينته (رضعناه)، ثم أتى بلفظ (المهد)، وهو لفظ يلائم المشبه به، وهذا اللفظ وظيفتُه تقوية دعوى الشاعر بأنّ العهد لبنٌ حقيقيّ، لا محضَ مجاز. وبذلك تكون استعارة الشاعر مكنية مرشّحة.

- قال إبراهيم ناجي:

قَسَـــمًا قَـــدْ غَفَـــا الجَـــلَالُ لِيَصْـــحُو مِـــنْ جَدِيـــدٍ فِـــي وَجْهِـــكَ الوَضَّـــاءِ

شبه الشاعر الجلالَ بالإنسان مثلا، وحذف المشبه به على سُنَّة الاستعارة المكنية، والقرينة (غفا)، ثم ذكر لفظًا يلائم المشبه به المحذوف، وهو لفظ (ليصحو)، على سبيل الاستعارة المكنية المرشحة.

- قال الشاعر القروي في وصف سفينة (تيتانيك):

عِنْـــدَمَا سُـــلْطَانَةُ البَحْـــرِ سَـــرَتْ لَيْلَـــةً تَزْهُـــو بِـــأَبْهَى الحُلَـــلِ

[1] البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها عبد الرحمان حسن الميداني ص 253.

فالشاعر قد شبه السفينة بالسلطانة، وصرّح بالمشبه به، وحذف المشبه، والقرينة (البحر)، على سبيل الاستعارة التصريحية، غير أنه لم يضف عبارة (أبهى الحلل)، وهي عبارة تلائم المشبه به أي السلطانة، إلا ليزيد ذلك من تناسي المعنى الأصلي، وإيهام أن هذا الادعاء المجازي إنما هو حقيقة لا محض تشبيه.

- قال محمود غُنيم متحدثا عن أبنائه:

لَيْتَنِـــي أسْـــقِيهِمْ تَجَـــارِبَ عُمْـــرِي فِـــي إنَـــاءٍ، وأَيْـــنَ هَـــذَا الإنَـــاءُ؟

الشاعر شبه تجارب العمر بالماء، وحذف المشبه به كما هو اضح، وترك قرينته (أسقيهم)، نقول إن هذه الاستعارة المكنية قد استوفت قرينتها، فلماذا ذكر الشاعر عبارة (في إناء)؟ إنها عبارة تلائم المشبه به المحذوف، وتعزّز حقيقته، فلولا أنّ الشاعر كان قصدُه نسيانَ التشبيه وإنكارَه لما كانت لهذه الإضافة أيّ معنى.

- وقال محمود غنيم:

شَـــرَفُ العُرُوبَـــةِ بَـــاتَ وَهْـــوُ مُلَـــوَّثٌ بِالعَـــارِ، لَا تَلْبَسْـــهُ حَتَّـــى يَطْهُـــرَا

شبه الشاعر الشرف بالثوب، وحذف المشبه به وترك القرينة (ملوّث)، ثم ماذا صنع الشاعر؟ أضاف عبارة (لا تلبسه حتى يطهُرا)، وهي عبارة تقوّي دعوى الشاعر بأنّ الشرف ثوبٌ حقيقيّ، لا مجرَّد مجاز.

- قال نزار قباني في معرض حديثه عن القوميّة: "قَبْلَ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ كَانَ العَالَمُ العَرَبِيُّ في غَيْبُوبَةٍ جُزْئِيَّة، وكَانَ الشَّلَلُ نِصْفِيًّا، أمَّا الآنَ فإنَّ الجَسَدَ العَرَبِيَّ فَقَدَ حَسَاسِيَتَهُ القَوْمِيَّةَ نِهَائِيًّا، فَهُوَ لا يُحِسُّ بِآلَافِ المَسَامِيرِ التي تُغْرَزُ فِيه، ولا بِآلافِ السَّكَاكِينِ التي تَعْمَلُ فِيهِ بَتْرًا وقَطْعًا".

شبه نزار قباني العالمَ العربيَّ بشخصٍ مريض، ينام منذ سنوات في غرفة الإنعاش، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه (في غيبوبة)، وهو قرينة الاستعارة المكنية، ثم ذكر ما يلائم تلك الحالة المرَضيّة من قبيل: الشّلل النّصفيّ، وفقدان الحساسية بالجسد، والبتر، والقطع، وتلك عبارات من قاموس الطبّ، تلائم الشخص الذي يرقد على سرير المرض، أي تلائم المشبه به، كل تلك العبارات التي رشح بها الاستعارةَ كان هدفُ الشاعر من ورائها تقويةَ علاقة المشابهة بين العالم العربي، والشخصِ المغيّبِ الوعي، والادّعاء بأنّ المشبه هو عين المشبه به.

- قال مصطفى لطفي المنفلوطي: "أيُّهَا المُجْرِمُ الفَاتِكُ الذي يَسْلُبُ الأجْسَامَ أرْوَاحَهَا، إنَّ شَرِيكَكَ في الجَرِيمَةِ أبُوك، فَهُوَ الَّذِي غَرَسَ الجَرِيمَةَ في نَفْسِك، وتَعَهَّدَهَا بالسُّقْيَا، حَتَّى أيْنَعَتْ، ونَمَتْ، وأثْمَرَتْ".

إنّ الكاتب قد شبه الجريمة بالنبتة الصغيرة أو الفسيلة، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهي (غرسَ) على سبيل الاستعارة المكنية، فالاستعارة قد استوفت كما رأيت قرينتها، لكن الشاعر لم يكتف بذِكر قرينة المشبه به، بل ذَكَرَ كلمات تلائم المشبه به المحذوف، وهي: (السقيا)، (أينعتْ)، (نمتْ)، (أثمرتْ). نقول إنّ الكاتبَ قدْ قَوَّى الاستعارة بالترشيح، فالاستعارة التي بين يديك هي استعارة مكنية مرشّحة.

- قال علي الجارم:

بَسَـــمَتْ لَـــهُ الـــدُّنْيَا وأَشْـــرَقَ وَجْهُهَـــا مِـــنْ بَعْـــدِ مَـــا عَبَسَـــتْ لِطُـــولِ نُوَاحِهَـــا

فالشاعر شبه الدنيا بالإنسان، وقد استوفت هذه الاستعارة قرينتها، وهي في قوله (بسمت)، ثم قرن استعارته المكنية بما يلائم المشبه به (أشرق وجهها)، (عبست)، (نواحها) تقويةً لادّعاءِ اتّحادِ الطرفين.

- وقال علي الجارم:

قَـــدْ غَرَسْـــتَ الـــوَلَاءَ فـــي كُـــلِّ قَلْـــبٍ فَتَفَيَّـــــأَ فِـــــي ظِلِّـــــهِ مَمْـــــدُودَا

حيث شبه الولاءَ بالشجرة، وحذف المشبه به، وترك القرينة (غرسْتَ)، على سبيل الاستعارة المكنية، ثم ذكر ما يلائم المشبه به في عجز البيت.

- قال حافظ إبراهيم في وصف الأسطول العثماني:

مَلَكُـــوا البَـــرَّ فَلَمَّـــا لَـــمْ يَسَـــعْ مَجْـــدَهُمْ نَـــالُوا مِـــنَ البَحْـــرِ المَرَامَـــا

بِجَـــوارٍ مُنْشَـــآتٍ كَالـــدُّمَى أَيْنَمَـــا سَـــارَتْ صَـــبَا البَحْـــرُ وهَامَـــا

كُلّمَـــا أَوْفَـــتْ عَلَـــى أَمْوَاجِـــهِ سَـــجَدَ المَـــوْجُ خُشُـــوعًا واحْتِشَـــامَا

في البيت الثاني شبه الشاعرُ البحرَ بالعاشق، والقرينة (صَبَا)، على سبيل الاستعارة المكنية، ثم رشّح تلك الاستعارة بذكر ما يلائم المشبه به، وهي كلمة (هَامَ)، وفي البيت الثالث شبه الموجَ بالإنسان المُقيمِ الصلاة، وأضاف إلى جانب القرينة (سَجَدَ) ما يلائم المشبه به المحذوف (خُشوعًا واحتشاما).

- وله أيضا مهنئا ممدوحه بشفائه منْ مرضٍ ألمّ به:

لَبِسْـــتَ الشِّـــفَا ثَوْبًـــا جَدِيـــدًا مُبَارَكًـــا فَأَلْبَسْـــتَنَا ثَوْبًـــا مِـــنَ العِـــزِّ نَرْضَـــاهُ

وكَـــانَ عَلَيْـــكَ الـــدَّهْرُ يَخْفُـــقُ قَلْبُـــهُ فَلَمَّـــا شَـــفَاكَ اللهُ أَهْـــدَأتَ أَحْشَـــاهُ

الشاهد في الترشيح: (أهدأت أحشاه).

- وقال حافظ مادحا:

جَـــاءَ والأَحْـــلَامُ فِـــي أَصْـــفَادِهَا مَـــا لَهَـــا فِـــي سِـــجْنِهَا مِـــنْ مَـــذْهَبِ

طَبَـــعَ الظُّلْـــمُ عَلَـــى أَقْفَالِهَـــا بِلَظَـــاهُ خَاتَمًـــا مِـــنْ رَهَـــبِ

الشاهد في الترشيح: (سجنها)، و(أقفالها)

- قال محمد العيد آل خليفة في وصف مدينة الجزائر:

البَـــرُّ والبَحْـــرُ فِـــي أَكْنَافِهَـــا اعْتَنَقَـــا ووَاصَـــلَا قُـــبَلًا فِيهَـــا فَمًـــا بِفَـــمِ

فالشاعر قد شبه البرّ والبحر بالإنسان، على سبيل الاستعارة المكنية، والقرينة (اعتنقا)، لكنه رشح استعارته حين صبغ عجز البيت كاملا بما يلائم المشبه به (وواصلا قبلا فيها فما بفم).

- قال إيليا أبو ماضي بعد زوال الدولة العثمانية:

واسْتَأسَـــدُوا لَمَّـــا رَأَوْا لَيْـــثَ الشَّـــرَى عَـــافَ الزَّئِيـــرَ وقَلَّـــمَ الأَظْفَـــارَا

فالشاعر شبه الدولة العثمانية بالأسد، وصرح بالمشبه به، وحذف المشبه، فالاستعارة تصريحية، ثم ذكر ما يلائم المشبه به أي الليث، وهي عبارة: (عاف الزئير، وقلّم الأظفار). فالاستعارة تصريحية مرشحة.

2) الاستعارة المجردة:

وهِيَ أنْ يَأْتِيَ الكَاتِبُ، أو الشَّاعرُ بِعِبَارَاتٍ، أوْ أوْصَافٍ تُلائِمُ المُشَبَّه، أي "هِيَ الَّتِي اقْتَرَنَتْ بِمَا يُلائِمُ المُسْتَعَارُ لَه، وذَلِكَ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ القَرِينَة."[1]، مثل قولنا: "رَأَيْتُ الأَسَدَ فِي المَعْرَكَةِ يُبِيدُ الأعْدَاءَ بِرَشَّاشِه، ويُفَجِّرُ الدَّبَابَاتِ بِقَنَابِلِه."، فقد شبهنا الجندي بالأسد، وصرحنا بالمشبه به، وحذفنا المشبه، والقرينة (وسط المعركة)، ثم ذكرنا عبارتين: (يبيد الأعداء برشّاشه)، و(يفجّر الدبابات بقنابله)، وهما عبارتان تلائمان المشبه (الجندي)، وذلك إضعافا لعلاقة المشابهة بين الطرفين، وكي نذكّر أنّ الأمر لا يخرج عن دائرة المجاز، فالاستعارة إذن تصريحية مجرّدة.

ومن أمثلتها في الشعر قول خليل مطران في الرثاء:

ومَشَـــــتْ أمَّـــــةٌ تُشَـــــيِّعُ طَـــــوْدًا حَمَلَتْـــــهُ أيْـــــدٍ عَلَـــــى أعْـــــوَادِ

شبه الشاعر مرثيّه بالطود، وصرح بالمشبه به، على سبيل الاستعارة التصريحية، لكنه عاد وأتى بعبارة (حملته أيدٍ على أعواد)، وهي عبارة تلائم الإنسان الميت، أي تلائم المشبه، وهي العبارة التي أدّت إلى إضعاف علاقة المشابهة بين طرفي التشبيه.

ومن أمثلتها في الاستعارة المكنية قول البارودي:

هَـــلِ اكْتَحَلَـــتْ عَيْنَـــايَ إلَّا بِمَـــدْمَعٍ إذَا ذَكَرَتْـــكِ الـــنَّفْسُ سَـــالَ عَلَـــى خَـــدِّي؟

حيث شبه الشاعرُ دموعهُ بالكُحْل، والقرينة (اكتحلت)، ثم ذكر عبارة (سال على خدي)، وهي عبارة تلائم الدموع، أي تلائم المشبه لا المشبه به، وبذلك تكون الاستعارة مكنية مجردة.

ولقد سُمّيتْ هذه الاستعارة بالمُجَرَّدة لتجريدها من المبالغة، والتّجريد كما قال البلاغيون يُنزل الاستعارةَ إلى مستوى التشبيه، ويُضعف ادّعاءَ التطابق، أو الاتّحاد بين المشبه، والمشبه به.

3) الاستعارة المُطْلقة:

وهِيَ الَّتِي تَخْلُو مِمَّا يُلائِمُ المُشَبَّه، أو المُشَبَّهَ بِه، أي "الَّتِي لَمْ تَقْتَرِنْ بِمَا يُلائِمُ المُسْتَعَارَ لَه، ولا المُسْتَعَارَ مِنْه."[2] قال الله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾[3]. فالله قد شبه القرآن الكريم بإنسان، والقرينة (ينطق)، ولكن هذه الاستعارة خلتْ ممّا يلائم المشبه، وخلت كذلك ممّا يلائم المشبه به، ومنها قول مفدي زكريا عن حبيبته الجزائر:

ويَـــا مَـــنْ سَـــكَبْتِ الجَمَـــالَ بِرُوحِـــي ويَـــا مَـــنْ أشَـــعْتِ الضِّـــيَاءَ بِـــدَرْبِي

---

[1] علم البيان المرجع السابق ص 207.
[2] علم البيان المرجع السابق ص 206.
[3] المؤمنون 62.

هذا هو النوع الأول من الاستعارة المطلقة، وهو النوع الذي تخلو فيه الاستعارة من ملائمات المشبه، أو المشبه به.

أمّا النوع الثاني من الاستعارة المطلقة فهي تلك التي تجمع بين ما يلائم المشبه به، وما يلائم المشبه، بعبارة أخرى هي التي تجمع بين التّرشيح، والتّجريد. بهذا الاجتماع يقول علماءُ البيان: إنّ ما يلائم المشبه (التجريد)، وما يلائم المشبه به (الترشيح) قد تعادلا، لذلك يتساقطان، فنقول إنّها مطلقة، لا مجرّدة، ولا مرشّحة.

ومثالها في الشعر قول حافظ إبراهيم في تهنئة الخديوي عباس بالعيد:

أَزُفُّ فِيـــــهِ إِلَـــــى العَبَّـــــاس غَانِيَـــــةً عَفِيفَـــــةَ الخِـــــدْرِ مِـــــنْ آيَـــــاتِ عَـــــدْنَانِ

لقد شبه الشاعر قصيدته بالغانية، وصرح بالمشبه به، ثم ذكر ما يلائم المشبه به، وهي عبارة (عفيفة الخدر)، وهذا ما نسميه ترشيحا، ثم لم يكتف بذلك، فأتى بما يلائم المشبه، وهي عبارة (آيات عدنان)، وذلك ما نسميه تجريدا، ومنه تكون استعارة الشاعر تصريحية مطلقة.

ومثالها في النثر قول مصطفى لطفي المنفلوطي: "مَا لِهَؤُلَاءِ النَّظَّامِينَ لَا يَهْدَؤُونَ سَاعَةً وَاحِدَةً عَنْ تَصْدِيعِ رُؤُوسِنَا، وتَمْزِيقِ أَفْئِدَتِنَا بِهَذِهِ الصَّوَاعِقِ الَّتِي يُمْطِرُونَهَا عَلَيْنَا كُلَّ يَوْمٍ مِنْ سَمَاءِ الصُّحُف."

فالكاتب كما رأيت قد شبه قصائد هؤلاء النظامين بالصواعق، وصرح بالمشبه به، وحذف المشبه، ثم ذكر ما يلائم المشبه به، وهي كلمة (يمطرونها)، وهذا ما نسميه ترشيحا، كما ذكر ما يلائم المشبه، وهي كلمة (الصحف)، وهذا ما نسميه تجريدا، وبالتالي فالاستعارة مطلقة، لا مرشحة ولا مجردة.

نستنتج في الأخير أنّ التّرشيح أبلغُ منَ التّجريد والإطلاق، والاستعارة المرشحة تمثل الإفراط في المبالغة، بينما المجردة تمثل التفريط في المبالغة، والمطلقة قد أمسكت بعصا الاستعارة من وسطها.

تدريب: تعرّفْ على الاستعارة المرشحة، والمجردة، والمطلقة:

- قال محمد المويلحي إمامُ السجع في العصر الحديث يصف ليلةً: "سَمِعْتُ صَدِيقِي يُنَادِينِي نِدَاءً مُتَتَالِيَا، فَقُمْتُ إِلَيْهِ مُسْرِعًا ومُلَبِّيًا، وطَلَبَ مِنِّي أَنْ نُحْيِيَ اللَّيْلَةَ بِالسَّمَر، وأَنْ أَقْتُلَهَا مَعَهُ بِالسَّهَر، فَجَلَسْنَا نَتَبَادَلُ أَطْرَافَ الحَدِيث، مِنْ قَدِيمٍ فِي الزَّمَنِ وحَدِيث، إِلَى أَنْ صَارَتِ اللَّيْلَةُ فِي أُخْرَيَاتِ الشَّبَاب، فَاسْتَهَانَتْ بِالإِزَارِ والنِّقَاب، ثُمَّ دَبَّ المَشِيبُ فِي فَوْدِهَا[1]، وبَانَ أَثَرُ البَيَاضِ فِي جِلْدِهَا، فَنَزَعَتْ مِنْ صَدْرِهَا كُلَّ مَنْثُورٍ ومَنْظُوم، مِنْ دُرَرِ الكَوَاكِبِ ولَآلِئِ النُّجُوم، وأَلْقَتْ بِالفَرْقَدَيْنِ مِنْ أُذُنَيْهَا، وخَلَعَتْ خَوَاتِيمَ الثُّرَيَّا مِنْ يَدَيْهَا، ثُمَّ إِنَّهَا مَزَّقَتْ جِلْبَابَهَا، وهَتَكَتْ حِجَابَهَا، وبَرَزَتْ لِلنَّاظِرِينَ تَرْتَعِدُ مُتَوَكِّئَةً عَلَى عَصَا الجَوْزَاء، تُرَدِّدُ آخِرَ أَنْفَاسِ البَقَاء، فَسَتَرَهَا الفَجْرُ بِمُلَاءَتِهِ الزَّرْقَاء، ودَرَجَهَا الصُّبْحُ فِي أَرْدِيَتِهِ البَيْضَاء، ثُمَّ قَبَرَهَا فِي جَوْفِ الفَضَاء، وقَامَتْ عَلَيْهَا بَنَاتُ الهَدِيل، نَائِحَةً بِالتَّسْجِيعِ والتَّرْتِيل، ثُمَّ انْقَلَبَ المَأْتَمُ فِي الحَالِ عُرْسَ اجْتِلَاء، وتَغَيَّرَ النَّحِيبُ بِالغِنَاء، لِإِشْرَاقِ عَرُوسِ النَّهَار، وإِسْفَارِ مَلِيكَةِ البُدُورِ والأَقْمَار."

[1] الفود: جانب الرأس مما يلي الأذن.

- قال جبران خليل جبران: "أُحِبُّ الَّذِي يَشْتَغِلُ بِفِكْرِه، فَيَبْتَدِعُ مِنَ التُّرَابِ صُوَرًا حَيَّةً جَمِيلَةً نَافِعَة، وأُحِبُّ ذَلِكَ الَّذِي يَجِدُ فِي حَدِيقَةٍ وَرِثَهَا عَنْ أَبِيهِ شَجَرَةَ تُفَّاحٍ وَاحِدَة، فَيَغْرِسُ إِلَى جَانِبِهَا شَجَرَةً ثَانِيَة، وذَلِكَ الَّذِي يَشْتَرِي كَرْمَةً تُثْمِرُ قِنْطَارًا مِنَ العِنَب، فَيَعْطِفُ عَلَيْهَا ويُدَلِّلُهَا، لِتُعْطِيَ قِنْطَارَيْن، أُحِبُّ الَّذِي يَحُوكُ مِنَ القُطْنِ قَمِيصًا، ومِنَ الصُّوفِ جُبَّةً، ومِنَ الحَرِيرِ رِدَاءً، وأُحِبُّ الحَدَّادَ الَّذِي مَا أَنْزَلَ مِطْرَقَتَهُ عَلَى سِنْدَانِهِ إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهَا قَطْرَةً مِنْ عَرَقِه، وأُحِبُّ الخَيَّاطَ الَّذِي يَخِيطُ الأَثْوَابَ بِأَسْلَاكٍ مُشْتَبِكَةٍ بِأَسْلَاكٍ مِنْ نُورِ عَيْنَيْه، وأُحِبُّ النَّجَّارَ الَّذِي لَا يَدُقُّ المِسْمَارَ إِلَّا إِذَا دَفَنَ مَعَهُ شَيْئًا مِنْ عَزِيمَتِه."

- قال نزار قباني معلّقا على غضبه في قصيدته"هوامش على دفتر النكسة": هَلْ كَانَ عَلَيَّ يَا تُرَى أَنْ أَنْتَظِرَ انْحِسَارَ مِيَاهِ الطُّوفَانِ حَتَّى أَكْتُبَ عَنِ الطُّوفَان؟ وبِالتَّالِي هَلْ كَانَ عَلَى الأَدَبِ العَرَبِيِّ أَنْ يَضَعَ أَعْصَابَهُ فِي ثَلَّاجَةٍ حَتَّى تَرْحَلَ العَاصِفَة؟".

- وقال أيضا: "أَنَا مِنْ أُمَّةٍ تَتَنَفَّسُ الشِّعْر، وتَتَمَشَّطُ بِه، وتَرْتَدِيه".

- قال الشاعر الجزائري محمد جربوعة في قصيدة "لقطات تقول يا الله":

مَنْ أَسَالَ الزَّهْرَ فِي قَارُورَةِ العِطْرِ

فَقَالَتْ

لِمُصَلٍّ ذَاهِبٍ لِلْعَصْرِ:

يَا هَذَا تَعَطَّرْ مِنْ شِفَاهِي

ثُمَّ رُدَّ - مِنْ فَضْلِكَ فَوْقِي

قَبْلَ أَنْ تَمْضِي- الغِطَاءْ "؟

- قال نزار قباني في قصيدة بعنوان "اعتذار لأبي تمام":

فَقُلْ لِي أَيُّهَا الشَّاعِرْ:

لماذَا شِعْرُنَا العربيُّ قدْ يبُستْ مَفَاصِلُهُ

مِنَ التّكرار واصفرَّتْ سَنَابِلُهُ؟

وقل لي أيها الشاعرْ:

لماذا الشّعرُ حِينَ يشيخُ

لا يستلُّ سكِّينًا .. وينتحرُ؟

- قال علي الجارم في وصف الحبيب محمد:

ونَافَسَـــتِ الأَرْضُ السَّـــمَاءَ بِكَوْكَـــبٍ وَضِـــيءِ المُحَيَّـــا مَـــا حَوَتْـــهُ سَـــمَاءُ

لَـــهُ الحَـــقُّ والإيمَـــانُ بِـــاللهِ هَالَـــةٌ وفِـــي كُـــلِّ أَجْـــوَاءِ العُقُـــولِ فَضَـــاءُ

- وقال مادحًا:

فَلَكَـــمْ تَمَنَّـــى الـــدِّينُ طَـــالِعَ صُـــبْحِهِ واهْتَـــزَّ مِـــنْ شَـــوْقٍ إِلَيْـــهِ المِنْبَـــرُ
تَمْشِـــي المُنَـــى فِيـــهِ تَجُـــرُّ خِمَارَهَـــا خَفَـــرًا ويَزْهُوهَـــا الجَمَـــالُ فتُسْـــفِرُ

- قال مفدي زكريا:

مَـــنْ يَشْـــتَرِي الخُلْـــدَ؟ إنَّ اللهَ بَائِعُـــهُ فَاسْتَبْشِـــرُوا وأَسْـــرِعُوا، فَـــالبَيْعُ مَحْـــدُودُ
والرِّبْـــحُ يَـــا نَـــاسُ مَضْمُـــونٌ ومُدَّخَـــرٌ فِي مَصْـرِفِ اللهِ، لَا فِي (البَنْـكِ) مَرْصُـودُ

- وقال مفدي بمناسبة ليلة الأوّل من شهر نوفمبر (ليلة اندلاع الثورة الجزائرية):

تَـــأذَّنَ رَبُّـــكَ لَيْلَـــةَ قَـــدْرِ وأَلْقَـــى السِّـــتَارَ عَلَـــى أَلْـــفِ شَـــهْرِ

- ولمفدي زكريا بمناسبة انتصار الثورة الجزائرية:

سَـــبَحْنَا عَلَـــى لُجَـــجٍ مِـــنْ دِمَانَـــا وللنَّصْـــرِ رُحْنَـــا نَسُـــوقُ السَّـــفِينَا

- قال الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة في حسناء جزائرية ماتت في عزّ شبابها:

المَـــوْتُ جَـــاءَكِ خَاطِبًـــا فَرَضِـــيتِهِ زَوْجًـــا وبَـــاءَ بِصَـــدِّكِ الخُطَبَـــاءُ
فزُفِفْـــتِ فـــي عُـــرْسٍ لِزَوْجِـــكِ صَـــاخِبٍ لَكِـــنْ خِضَـــابُكِ يَـــا عَـــرُوسُ دِمَـــاءُ

- وقال آل خليفة بمناسبة حادثة السيّارة التي كادت أن توديَ بحياة العلّامة الجزائريّ البشير الإبراهيميّ:

فَـــرَّ مِنْـــكَ المَـــوْتُ يُخْـــزَى بِالمَلَامَـــهْ وتَخَطَّـــاكَ فَأَبْشِـــرْ بِالسَّـــلَامَهْ

- قال خليل مطران في وصف أدب الشيخ عبد الله البستاني:

يَصْـــطَادُ أَغْلَـــى الـــدُّرِّ مِـــنْ قَامُوسِـــهِ ومَنَالُـــهُ مِـــنْ أَقْـــرَبِ الشَّـــطْآنِ

- قال بشارة الخوري في صنعة عاصر الخمر:

يَـــا ذَابِـــحَ العُنْقُـــودِ خُضِّـــبَ كَفُّـــهُ بِدِمَائِـــهِ، بُورِكْـــتَ مِـــنْ سَـــفّاحِ!

- قال محمود غنيم مفتخرًا بشعره:

ومِـــنَ الحُـــرُوفِ المُعْجَمَـــاتِ عَصَـــرْتُ مَـــا لَا يَعْصِـــرُ الخَمَّـــارُ مِـــنْ أَعْنَابِـــهِ
يَا عُصْبَـــةَ الأَدَبِ الحَدِيـــثِ سَلِمْـــتِ مِـــنْ ظُفُـــرِ الزَّمَـــانِ عَلَـــى الأَدِيـــبِ ونَابِـــهِ

- وقال مخاطبا مجلس الأمن:

مَـــا بَـــالُ خَـــدِّكَ مِـــنْ لَطْـــمِ اليَهُـــودِ لَـــهُ كَأَنَّمَـــا هُـــوَ بِالحِنَّـــاءِ مُخْتَضِـــبُ

- وقال مادحا:

يُوشِـــكُ الحَـــقُّ – إِذْ تُـــدَافِعُ عَنْـــهُ – أَنْ يَمُـــدَّ اليَـــدَيْنِ بِالتَّصْـــفِيقِ
يَفْـــزَعُ الظُّلْـــمُ إِنْ رَآكَ كَمَـــا يَفْـــ ـزَعُ جَيْـــشُ الظَّـــلَامِ عِنْـــدَ الشُّـــرُوقِ

- قال محمود سامي البارودي:

تَبَسَّـــمَتْ فَجَلَـــتْ لِلْعَـــيْنِ مِـــنْ فَمِهَـــا يَاقُوتَـــةً أَودِعَـــتْ سَـــطْرَيْنِ مِـــنْ دُرَرِ

- قال مصطفى صادق الرافعي:

أنْـــتَ غَرَسْـــتَ الحُـــبَّ فِـــي أَضْـــلُعِي ... فَكَيْـــفَ لَا أَسْـــقِيهِ مِـــنْ أَدْمُعِـــي؟

- قال إيليا أبي ماضي واصفا شِعره:

بَنَيْـــتُ فِرْدَوْسِـــي وزَخْرَفْتُـــهُ ... حَتَّـــى إِذَا مَـــا تَـــمَّ ضَـــيَّعْتُهُ

أَجْرَيْـــتُ فِـــي أَنْهَـــارِهِ كَـــوْثَرًا ... فَذَاقَـــهُ النَّـــاسُ ومَـــا ذُقْتُـــهُ

- وقال إيليا أبو ماضي:

عَـــارٌ إِذَا أَنْشَـــبْتُ فِيـــكَ مَخَـــالِبِي ... إِذْ لَـــيْسَ مِـــنْ خُلُقِـــي افْتِـــرَاسُ نِعَـــاجِ

- قال أبو القاسم الشّابي:

وكَـــمْ نَسَـــجْتَ مِـــنَ الأَحْـــلَامِ أَرْدِيَـــةً ... قَـــدْ مَزَّقَتْهَـــا اللَّيَـــالِي وَهْـــيَ تَبْتَسِـــمُ

- قال نزار قباني:

أَلَا تَرَانِـــي بِبَحْـــرِ الحُـــبِّ غَارِقَـــةً ... والمَـــوْجُ يَمْضَـــغُ آمَـــالِي ويَرْمِيهَـــا؟

انْـــزِلْ قَلِـــيلًا عَـــنِ الأَهْـــدَابِ يَـــا رَجُـــلًا ... مَـــا زَالَ يَقْتُـــلُ أَحْلَامِـــي ويُحْيِيهَـــا

- قال شفيق المعلوف في رثاء شقيقه:

أَتَغُـــورُ تَحْـــتَ الأَرْضِ زَوْبَعَـــةٌ ... نَارِيَّـــةٌ قُدْسِـــيَّةُ اللّهَـــبِ؟

لَهْفِـــي علـــى نَسْـــرٍ تَوَغَّـــلَ فـــي ... تَحْلِيقِـــهِ يَوْمًـــا ولـــمْ يَـــؤُبِ

- قال معروف الرصافي:

دَعَـــوْتُ غُـــرَّ القَـــوَافِي وَهْـــيَ شَـــارِدَةٌ ... فَأَقْبَلَـــتْ وَهْـــيَ تَمْشِـــي مَشْـــيَ مُعْتَـــذِرِ

وسَـــلَّمَتْنِيَ عَـــنْ طَـــوْعٍ مَقَادَتَهَـــا ... فَرُحْـــتُ فِـــيهِنَّ أَجْـــرِي جَـــرْيَ مُقْتَـــدِرِ

إِنِّـــي لأَنْتَـــزِعُ المَعْنَـــى الصَّـــحِيحَ عَلَـــى ... عُـــرْيٍ فأَكْسُـــوهُ لفْظًـــا قُـــدَّ مِـــنْ دُرَرِ

- وللرصافي أيضا:

فَـــلا عَجَـــبٌ أَنَّـــا نَـــرَى كُـــلَّ سَـــاعَةٍ ... أُكُـــفَّ المَنَايَـــا دَامِيَـــاتِ الأَظَـــافِرِ

- قال حافظ إبراهيم:

أَيُّهَـــا الشَّـــرْقِيُّ شَـــمِّرْ ولا تَـــنَمْ ... وانْفُـــضِ العَجْـــزَ فَـــإِنَّ الجِـــدَّ قَامَـــا

وامْـــتَطِ العَـــزْمَ جَـــوَادًا لِلْعُـــلَا ... واجْعَـــلِ الحِكْمَـــةَ لِلْعَـــزْمِ زِمَامَـــا

وإِذَا حَـــاوَلْتَ فِـــي الأُفْـــقِ مُنًـــى ... فَارْكَـــبِ البَـــرْقَ ولا تَـــرْضَ الغَمَـــامَا

- ولحافظ إبراهيم:

فَمَـــا لِـــي أَرَى الأَخْـــلَاقَ قَـــدْ شَـــابَ قَرْنُهَـــا ... وحَـــلَّ بِهَـــا ضَـــعْفٌ ودَبَّ سَـــقَامُ؟

الاسْتِعَارَةُ الأصْلِيَّة والتَّبَعِيَّة

الاستعارة الأصْلِيَّة: الاسْتِعَارةُ تُعَدُّ أصْليَّةً إذا كَانَ اللّفْظُ المُسْتَعَارُ، أو اللَّفْظُ الَّذِي جَرَتْ فِيهِ اسْمًا جَامِدًا غير مُشْتَقّ[1]، وإليك طائفة من نماذجها البليغة:

- قال إيليا أبو ماضي:

فَـــتَحَ الفَجْـــرُ جَفْنَـــهُ فَـــإذَا الطّـــو فَـــانُ يَغْشَـــى المَدِينَـــةَ البَيْضَـــاء

فالشاعر شبه الفجر بالإنسان أو الحيوان، والقرينة (جفن)، وهو من الأسماء الجامدة، فالاستعارة مكنيّة أصليّة.

- قال البارودي يصف ليلة أنس رُفقة مَنْ يهوى:

وكَيْـــفَ لا تَبْلُـــغُ الأفْـــلَاكَ مَنْـــزِلَتِـــي والبَـدْرُ فِـــي مَجْلِسِـــي والشَّمْسُ فِي قَدَحِـــي؟

شبه البارودي المرأةَ الغانيةَ بالبدر، وشبه الخمرَ بالشمس، واللفظان المستعاران (البدر)، و(الشمس) اسمان جامدان يجعلان من الاستعارة تصريحية أصلية.

- قال الأخطل الصغير (بشارة الخوري):

فَعُيـــوُنُ النَّجُـــومِ تَرْنُـــو إلَيْنَـــا ولِسَـــانُ الـــدُّجَى يَكَـــادُ يَفُـــوهُ

فالشاعر شبه النجوم والليل بالإنسان، على سبيل الاستعارة المكنية، والقرينة (عيون، لسان)، ومما يلاحظ على الاستعارة أن اللفظين المستعارين (عيون، لسان) هما اسمان جامدان، فالاستعارتان بهذا الوضع تكونان أصليتين.

- قال رياض معلوف في وصف ليلة ماطرة:

وعَـــيْنُ السَّـــمَاءِ تُرَقْـــرِقُ دَمْعًـــا عَلَـــى خَـــدِّ هَـــذَا الزَّجَـــاجِ النَّـــدِي

لاحظ أن اللفظين المستعارين (عين)، و(خدّ) هما اسمان جامدان يجعلان الاستعارتين أصليتين.

- قال معروف الرصافي في رثاء أستاذه محمود شكري الألوسي:

أمَّـــا العِـــرَاقُ فَأمْسَـــى الرَّافِـــدَانِ بِـــهِ سَـــطْرَيْنِ للـــدَّمْعِ مِـــنْ خَدَّيْـــهِ قَـــدْ سَـــالَا[2]

الشاعر شبه نهري دجلة والفرات بسطرين من الدمع على سنة التشبيه البليغ، ثم شبه العراق بالإنسان، وحذف المشبه به، والقرينة (خَدَّيْهِ)، والملاحظ أنّ اللفظ المستعار (خَدَّيْهِ) هو اسم جامد يجعل من الاستعارة مكنية أصلية.

- قال حافظ إبراهيم:

وهَأنَـــا بَـــيْنَ أنْيَـــابِ المَنَايَـــا وتَحْـــتَ بَـــرَاثِنِ الخَطْـــبِ الجَسِـــيمِ[3]

---

[1] علم البيان عبد العزيز عتيق ص 181.
[2] الرافدان: دجلة والفرات.
[3] براثن: مخالب.

فالشاعر شبه المنايا بالسباع، والقرينة (أنياب)، وشبه الخطوب بالطيور الجارحة أو السباع، والقرينة (براثن)، واللفظان المستعاران (أنياب)، (براثن) هما اسمان جامدان، فالاستعارة أصلية.

- قال محمد العيد آل خليفة موصيا الشابّ الجزائري ببلاده:

هَلُـــمَّ نَـــذُدْ عَنْهَـــا نُسُـــورًا حَوَائِمَـــا عَسَـــى تَنْجَلِـــي عَنْهَـــا النَّسُـــورُ الحَـــوَائِمُ

فالاستعارة تصريحية، واللفظ المستعار (نسورًا) هو لفظ جامد، فالاستعارة تصريحية أصلية.

- قال أحمد شوقي في واحدة من استعاراته النادرة:

فَلَـــم أرَ قَبْلَـــهُ المَـــرِّيخَ مُلْقَـــىً ولَـــم أسْـــمَعْ بِـــدَفْنِ النَيِّـــراتِ

لاحظ أن شوقي قد شبَّهَ مَرْثِيَّهُ بالمرّيخ، وصرّح بذلك علنًا، وأكّد ذلك في عجز البيت، وهذا اللّفظ المستعار (المرّيخ) اسمٌ جامد كما لم يخْفَ عليك، وبالتالي نقول إنّ هذه الاستعارة تصريحية أصلية.

- قال ناصيف اليازجي:

للشَّـــامِ جِسْـــمٌ قَـــدْ أصِـــيبَ فُـــؤَادُهُ فَبَـــدَتْ عَلَيْـــهِ مِـــنَ السِّـــقَامِ عَلَائِـــمُ

فاللفظ المستعار (جسم)، وهو لفظ جامد، أمّا لفظة (فؤاده) فقد أتى به الشاعر لترشيح الاستعارة.

الاستعارة التَّبَعِيَّة: وهِيَ مَا كَانَ اللَّفْظُ المُسْتَعَارُ فِيهَا اسْمًا مُشْتَقًّا، أو فِعْلًا، أوْ حَرْفًا[1].

- الاستعارة التَّبَعِيّة في الاسم المشتق: ومثالُها في اسم الفاعل قول خليل مطران:

والأَرْضُ رَاقِصَـــةٌ والـــرِّيحُ عَازِفَـــةٌ والْجِـــدُّ يَمْـــزَحُ والأَخْطَـــارُ تَبْتَسِـــمُ

والشاهد في الاستعارة التَّبَعِيّة في الاسم المشتق: (رَاقِصَة – عَازِفَة).

ومثالها في اسم المفعول قول حافظ إبراهيم:

فَاسْـــتَبِينُوا قَصْـــدَ السَّـــبِيلِ وجِـــدُّوا فَالمَعَـــالِي مَخْطُوبَـــةٌ لِلمُجِـــدِّ

ومثالها في اسم الآلة قولُ مصطفى لطفي المنفلوطي: "لَا مِحْرَاثَ لِلْقَلْبِ غَيْرُ الشِّعْر". فاللفظ المستعار (مِحْرَاث)، وهو اسم آلة. ومثالها قول أحمد أمين: "لَقَدْ كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ قَبْلَهُ يَحْمِلُ مِصْبَاحًا لِقَوْمِه، فَجَاءَ مُحَمَّدٌ يَحْمِلُ مِصْبَاحًا لِلْعَالَم". مشبهًا الهداية بالمصباح، ومصرّحًا بالمشبه به، فاللفظ المستعار (مِصْبَاح) كما ترى اسم آلة على وزن (مِفْعَال).

ومثالها في اسم المكان قول محمود سامي البارودي:

يَـــا رَائِـــدَ الـــوُدِّ قَـــدْ صَـــادَفْتَ مُنْتَجَعًـــا بَـــيْنَ الجَـــوَانِحِ فَانْزِلْـــهُ ولَا تَـــرِمِ

فالشاعر شبه قلبه بالمنتجع على سبيل الاستعارة التصريحية، والمنتجع هو المكان الذي يقصده الناس لما فيه من كلأ وماء، ولو تأملت البيت لأدركت بلا عناء أنّ اللفظ المستعار (منتجع) هو اسم مكان على وزن مضارعه.

[1] علم البيان بسيوني عبد الفتاح فيود ص 196.

ومنها أيضا قول توفيق الحكيم: "إنَّ الفَنَّانَ لا يَهْدِمُهُ الذَّمُّ ولا القَدْح، بَلْ يَدْعَمَانِ وُجُودَه، إنَّمَا الَّذِي يَهْدِمُهُ حَقًّا هُوَ الإهْمَال، فَكَفَنُهُ مَنْسُوجٌ مِنَ العَنْكَبُوت، ومَدْفَنُهُ تَحْتَ غُبَارِ النِّسْيَان".

لاحظ أنّ اللفظ المستعار (مَدْفَن) هو اسم مكان.

ومثالها في الصفة المشبهة قول حافظ إبراهيم في رثاء محمود سامي البارودي:

مَـــا لِلْبَلَاغَـــةِ غَضْـــبَى لا تُطَـــاوِعُنِي؟ ومَـــا لِحَبْـــلِ القَـــوَافِي غَيْـــرُ مَمْـــدُودِ؟

فاللفظ المستعار (غَضْبَى) صفةٌ مشبهةٌ على وزن (فَعْلَى) التي مذكرُّها على وزن (أَفْعَل).

ومثالها أيضا في الصفة المشبهة على وزن (فَعْلَان) قول محمد العيد في وصف البادية:

والـــوَحْشُ سَـــلْوَانُ فـــي الغَابَـــاتِ مُنْطَلِـــقُ والطَّيْـــرُ جَـــذْلانُ فـــي الأوْكَـــارِ زَقْـــزَاقُ

فاللفظان المستعاران (سَلْوَان)، و(جَذْلَان) هما صفتان مشبهتان على وزن (فَعْلان).

ومثالها في الصفة المشبهة أيضا قول الشاعر الجزائري مصطفى بن رحمون في وصف موسم الورد:

انْظُـــرِ المَـــوْجَ هَادِيًـــا يَلْـــثُمُ الشَّـــطْآنَ صَـــــحْوَ الأَدِيـــــمِ، طَلْـــــقَ المُحَيَّـــــا

لاحظ أن اللفظين المستعارين (صَحْو، طَلْق) هما صفتان مشبهتان كلّ منهما على وزن (فَعْل).

ومثالها في اسم التفضيل قول محمود غنيم:

لَعَمْـــرُكَ قَـــدْ يَكُـــونُ المَـــوْتُ أَحْنَـــى عَلَـــــى الأَحْيَـــــاءِ مِـــــنْ أُمٍّ رَؤُومِ

لاحظ أن اللفظ المستعار (أَحْنَى) هو اسم تفضيل.

وقول معروف الرصافي:

وإنَّ أَصْـــدَقَ بَـــرْقٍ أَنْـــتَ شَـــائِمُهُ بَـــرْقٌ تَبَسَّـــمَ عَنْـــهُ الصَّـــارِمُ الخَـــذِمُ

فالملاحظ أن اللفظ المستعار (أَصْدَقُ) هو اسمُ تفضيل كما ترى.

ومثالها في صيغة المبالغة قول معروف الرصافي:

بِـــلَادٌ بِهَـــا جَهْـــلٌ وفَقْـــرٌ كِلَاهُمَـــا أَكُـــولٌ شَـــرُوبٌ لِلْحَيَـــاةِ قَتُـــولُ

فالألفاظ المستعارة (أَكُول، شَرُوب، قَتُول) هي صيغ مبالغة على وزن (فَعُول) كما رأيت.

ومثالها أيضا قول محمد العيد آل خليفة:

حَيَّتْـــكَ فـــي البَـــدْوِ كُـــلَّ الكَائِنَـــاتِ بِـــهِ الـــرِّيحُ عَازِفَـــةٌ والـــرَّوْضُ صَـــفّاقُ

لعلك أدركت أن اللفظ المستعار (صفّاق) هو صيغة مبالغة على وزن (فَعَّال).

- **الاستعارة التبعيّة في الفعل:** ومن أمثلتها قول إيليا أبي ماضي في رثاء صديقه أمين الريحاني:

فَابْسِـــمِي فَـــوْقَ قَبْـــرِهِ يَـــا نُجُـــومُ وتَـــرَنَّمْ مِـــنْ حَوْلِـــهِ يَـــا نَسِـــيمْ

فاللفظان المستعاران (ابسمي، وترنّم) هما فعلان كما رأيت.

- الاستعارة التبعية في الحرف: وتكثر هذه الاستعارة في كتاب الله، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً[1]﴾. لاحظْ أنّ لامَ التعليل في كلمة (لِيَكُونَ) لمْ تستعمل استعمالا حقيقيا، بل مجازيا. فالتقاطُ موسى ليس علّةً حقيقيةً ليكون عدوًّا، بل علة ليكون مصدرَ عونٍ وأمنٍ. لذلك شبه اللهُ العونَ بالعداوة، ثم استعار اللام لعلةٍ غائيةٍ، لتدلّ مجازًا على العداوة.

ومن الاستعارات التبعيّة في الحرف قوله تعالى: ﴿وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ طه71

حيث استعار حرف الجرّ (في) للدلالة به على معنى حرف الجرّ (على).

وإليك طائفة أخرى من الاستعارات التبعيّة في الحرف:

قال الله تعالى: (ومَنْ يَبْخَلْ فإنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ) محمد38

استعار الحرف (عن) للدلالة به على معنى الحرف (على)، والتقدير: يبخلُ على نفسه.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ الأعراف38

استعارَ الحرف (في) للدلالة به على معنى الحرف (مع)، والتقدير: ادخلوا مع أمم.

قال تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ إبراهيم9 ، استعارَ الحرف (في) للدّلالة به على معنى الحرف (إلى)، والتقدير: إلى أفواههم.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ الإسراء7، استعارَ حرف اللام للدلالة به على معنى الحرف (على)، والتقدير: وإنْ أسأتم فعليها.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الأنبياء47. استعارَ حرف اللام للدلالة به على معنى الحرف (في) والتقدير: في يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾، المطففين2، والتقدير: اكتالوا من الناس.

قال تعالى: ﴿وهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الشورى25، والتقدير: مِنْ عباده.

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ النساء2، والتقدير: مع أموالهم.

قال تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ فاطر40، والتقدير: ماذا خلقوا في الأرض؟

تدريب: تعرّف على الاستعارات الأصليّة، والتبعيّة فيما يأتي:

- قال ميخائيل نُعيمة: "غَدًا تَعُودُ مَيَادِينُ الحَرْبِ حُقُولًا وغَابَاتٍ ومُدُنًا آهِلَة، فَيَخْطُو المِحْرَاثُ في أَثَرِ المِدْفَع، والثَّوْرُ في أَثَرِ الدَّبَّابَة، وتَقْتَفِي الفَأْسُ الرَّصَاصَة، والمِطْرَقَةُ القُنْبُلَة، ويَعُودُ النُّورُ مِنْ مَنْفَاه، والّذين في الأَرْحَامِ يَبْرُزُونَ إلى العَالَم، ولكنَّ كِبَارَهُمْ سَيُوَقِّعُونَ في خَلَدِهِمْ أنَّ عَالَمَ الأمْسِ غَيْرُ عَالَمِ اليَوْم، وأمَّهَاتِهِمْ سَيُرْضِعْنَهُمْ مَعَ اللَّبَنِ حُبَّ الانْتِقَام، وأمَّا اليَدُ التي على المِحْرَاثِ فَسَتُبْذِرُ مَعَ كُلِّ حَبَّةٍ لَعْنَة، والّتي عَلَى الفَأْسِ سَتَقْطَعُ مَعَ كُلِّ عُودٍ يَدًا، والّتي عَلَى المِطْرَقَةِ سَتَسْحَقُ بِكُلِّ طَرْقَةٍ جُمْجُمَة، ولَوْ بِالخَيَال، وفِي مَكَانٍ مَا مِنْ بِلَادٍ مَا يَجْتَمِعُ جَمْهَرَةٌ مِنْ زُعَمَاءِ أُمَمِ الأَرْض، ويَنْكَبُّونَ عَلَى أكْدَاسٍ مِنَ الأوْرَاقِ والخَرَائِطِ يُفَصِّلُونَ مِنْهَا أرْضًا جَدِيدَةً لأُمَمٍ

[1] القصص 08.

جَدِيدَة، فَلِلسِّعَايَاتِ طَنِينٌ ودَبِيب، وللمَطَامِعِ أزِيزٌ ولَهِيب، وللبُغْضِ فَحِيحٌ وزَئِير، وللرِّيَاءِ بَسَمَاتٌ صَفْرَاء، وقَهْقَهَاتٌ بَلْهَاء، أمَّا المَحَبَّةُ فالتَّلَفُّظُ باسْمِهَا مَجَازٌ، وأمَّا الحَقُّ فَمِمْسَحَةٌ لأرْجُلِ الدَّاخِلِينَ والخَارِجِين".

- قال محمد المويلحي: "مَا تَخَيَّلْنَا فِي هَذَا الرَّوْضِ مُذْ رَأَيْنَاهُ إلَّا أَنَّنَا فِي حَفْلَةِ عُرْس، جَمَعَتْ أَسْبَابَ اللَّهْوِ وأَطْرَافَ الأُنْس، قَدَ نَصَبَ الغَيْمُ عَلَيْهَا سُرَادِقَه، ومَدَّ مُلْتَفُّ النَّبَاتِ فِيهَا نَمَارِقَه، وأشْرَقَتِ الأغْصَانُ بِالأَنْوَار[1]، إشْرَاقَ المَصَابِيحِ بِالأنْوَار، وقَامَتْ الأطْيَارُ عَلَى الأَعْوَاد، تَتَسَابَقُ فِي التَّرَنُّمِ والإنْشَاد، ولِلنَّسِيمِ بَيْنَ الشَّجَرِ نَغَمَاتٌ تُصَفِّقُ لَهَا أَكُفُّ الأوْرَاق، وتَقُومُ الأفْنَانُ لِلرَّقْصِ عَلَى سَاق، مُتَرَنِّحَةَ الأعْطَافِ مِنْ خَمْرِ النَّدَى، مُهْتَزَّةَ القُدُودِ بِغَمْزِ النَّدَى، تَبْسِمُ عَنْ أَقَاحٍ نَضِيد، يَزْرِي بِثَنَايَا الغِيد، ثُمَّ تَمِيلُ بِرَشِيقِ القَوَام، فَتَلْتَقِطُ مَا يَنْقُطُهَا بِهِ الغَمَام، والجَدْوَلُ يَجْرِي تَحْتَ أَذْيَالِهَا ويَتَعَثَّر، ويَنْسَابُ المَاءُ فِي ظِلَالِهَا ويَتَكَسَّر، كَأَنَّ حَصْبَاءَهُ اللُّؤْلُؤُ والمَرْجَان، فِي نُحُورِ الحِسَان، أوْ قَلَائِدُ العِقْيَان، فِي أَجْيَادِ القِيَان، ولَمَّا مُلْنَا مِنْ هَذِهِ الجَنَّةِ طَرَبَا، وقَضَيْنَا عَجَبَا، قُلْنَا: مَا شَاءَ الله، لا قُوَّةَ إلَّا بِالله."

- قال مصطفى لطفي المنفلوطي: "يَنْظُرُ الغَدُ إلى آمَالِنَا، وأمَانِينَا نَظَرَاتِ الاسْتِهْزَاءِ والسُّخْرِية، قائِلا فِي نَفْسِه: لَوْ عَلِمَ جَامِعُ المَالِ أنَّهُ يَجْمَعُ لِلْوَارِث، وعَلِمَ هَذَا البَانِي أنَّهُ يَبْنِي لِلْخَرَاب، وعَلِمَ هَذَا الوَالِدُ أنَّهُ يَلِدُ لِلْمَوْت، مَا جَمَعَ جَامِعٌ، ولا بَنَى بَانٍ، ولا وَلَدَ وَالِد".

- قال توفيق الحكيم في معرض حديثه عن دور الصحافة: "قَدِيمًا كَانَ النَّاسُ فِي البَدْوِ والحَضْرِ يَتَنَاوَلُونَ أيْضًا غِذَاءَهُمُ العَقْلِيّ فِي كُلِّ حِين، لِأَنَّ البَشَرِيَّةَ لَمْ تَنْقَطِعْ يَوْمًا عَنْ طَلَبِ الطَّعَامِ الذِّهْنِيّ، إلَى جَانِبِ الطَّعَامِ المَادِيّ، ولَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ صِحَافَةً يَوْمِيَّةً ولَا أُسْبُوعِيَّة، كَانَتْ تَعْرِفُ شُعَرَاءَ الحَيّ، وفَلَاسِفَةَ الأسْوَاق، وكَانَ هَؤلاءِ قَوْمًا مُمْتَازِين: أَنْبَتَتْهُمُ العَبْقَرِيَّةُ وأَرْضَعَهُمُ النُّبُوغ، هَكَذَا كَانَ المَطْبَخُ العَقْلِيّ فِي المَاضِي، فَهَلْ لَنَا أَنْ نَتَفَاءَلَ بِالمَطْبَخِ الحَدِيث؟".

- قال نزار قباني:

أرواحُنا تَشْكُو الإفْلاس

هلْ نحنُ خَيْرُ أُمَّة أُخْرِجَتْ للنَّاس؟

لوْ أنَّنَا لمْ نَدْفِنِ الوِحْدَةَ في التُّرَاب

لوْ بَقِيَتْ في دَاخِلِ العُيون

والأهْدَاب

لَمَا اسْتَبَاحَتْ لَحْمَنَا الكِلَاب.

- وقال نزار:

قَبْلَ عَامٍ الْتَقَيْنَا

كَانَ جُرْحِي لا يَزَالُ فِي طُفُولَتِه، وكَانَ حُزْنِي

[1] الأنوار جمع نَوْر: وهو الزهر الأبيض.

لا يَزَالُ يَتَعَلَّمُ الكَلِمَاتِ الأُولَى.

- قال حافظ إبراهيم في الرثاء:

فَلْيَشْـــمَتِ الحُسَّـــادُ فِـــي رَجُـــلٍ ... أَمْسَـــتْ مُنَـــاهُ وأَصْـــبَحَتْ صَـــرْعَى
ولْتَحْمِـــلِ الأَيَّـــامُ حَمْلَتَهَـــا ... غَـــاضَ المَعِـــينُ وأَجْـــدَبَ المَرْعَـــى
إِنِّـــي أَرَى مِـــنْ بَعْـــدِهِ شَـــلَلًا ... بِيَـــدِ العُـــلَا وبِأَنْفِهَـــا جَـــدْعَا
وأَرَى النَّـــدَى مُسْتَوْحِشًـــا قَلِقًـــا ... وأَرَى المُـــرُوءَةَ أَقْفَـــرَتْ رَبْعَـــا

- وقال في رثاء ابْنَةِ البَارُودي:

دَاسَ الحِمَـــامُ عَـــرِينَ آسَـــادِ الشَّـــرَى ... يَـــا لَيْـــتَ شِـــعْرِي أَيْـــنَ كَـــانَ أَبُـــوكِ؟

- وقال حافظ في تحية أحمد شوقي:

النِّيـــلُ قَـــدْ أَلْقَـــى إِلَيْـــهِ بِمَسْـــمَعِهِ ... والمَـــاءُ أَمْسَـــكَ فِيـــهِ عَـــنْ جَرَيَانِـــهِ
والزَّهْـــرُ مُصْـــغٍ والخَمَائِـــلُ خُشَّـــعٌ ... والطَّيْـــرُ مُسْـــتَمْتِعٌ عَلَـــى أَفْنَانِـــهِ

- قال مفدي زكريا:

سَـــلِ الفُصْـــحَى وقُـــلْ للضَّـــادِ رِفْقًـــا ... لِسَـــانُ الحَـــالِ أَفْصَـــحُ مِنْـــكِ نُطْقًـــا

- وقال مفدي مفتخرا بشعره:

كَـــمْ صَـــفَّقَتْ لِأَنَاشِـــيدِي مَـــدَافِعُنَا ... وأَطْرَقَـــتْ لِتَسَـــابِيحِي نَوَادِينَـــا

- قال الشاعر محمد جربوعة:

لِـــي جِـــرَاحٌ إِنْ أَتَـــى تَشْـــرِينُ تَصْـــحُو ... إِنَّ أَوْفَـــى أَصْـــدِقَاءِ المَـــرْءِ جُـــرْحُ

- قال محمود غنيم في وصف الربيع:

مَـرَّ النَّسِـيمُ عَلَـى سَـطْحِ الغَـدِيرِ ضُـحًى ... ومَـــاؤهُ مُطْبِـــقُ الجَفْنَـــيْنِ نَعْسَـــانُ
فِـــيمَ التَّجَعُّـــدُ إِذْ مَـــرَّ النَّسِـــيمُ بِـــهِ؟ ... سَـــلُوا الغَـــدِيرَ سَـــلُوهُ: أَهْـــوَ غَضْـــبَانُ؟

- وقال محمود غنيم في وصف ثورة الجزائر:

عَجَبِـــي عَلَـــى الـــذُّؤبَانِ كَيْـــ ... ـــفَ عَـــدَتْ عَلَـــى الأُسْـــدِ الكَوَاسِـــرْ؟

- وله في وصف فلّاح:

لَـــوْ تَـــرَى مَـــا يَخُـــطّ مِحْرَاثُـــهُ فِـــي ... أَرْضِـــهِ قُلْـــتَ: آيَـــةٌ فِـــي النَّجَابَـــهْ
إِنَّ لِلْكَـــوْنِ مَعْهَـــدًا لَـــمْ يُثَقِّـــفْ ... بِـــدَوَاةٍ ومِـــرْقَـــمٍ طُـــلَّابَـــهْ[1]

- قال خليل مطران:

[1] المِرْقَم: القلم.

عَــلَا مَفْرِقِــي بَعْــدَ الشَّــبَابِ مَشِــيبُ ... فَفَــوْدِي ضَــحُوكٌ والفُــؤادُ كَئِيــبُ[1]

شَــبَابٌ تَقَضَّــى بَــيْنَ لَهْــوٍ ونِعْمَــةٍ ... إذِ الــدَّهْرُ مُصْــغٍ والسُّــرُورُ مُجِيــبُ

- وقال مطران في رثاء أديبة لبنانية:

رَبَّــةَ النَّبْــلِ والجَمَــالِ المَصُــونِ ... هَــلْ يَنَــالُ الشَّــمُوسَ رَيْــبُ المَنُــونِ؟

- وقال مطران يصف منازلَ في لبنان:

حِجَارَتُهَــا ضَــحَّاكَةٌ عَــنْ بَيَاضِــهَا ... وآجُرُّهَــا عَــنْ حُمْــرَةٍ يَتَبَسَّــمُ

- قال محمود سامي البارودي في وصف جزيرة:

فَــتَحَ الرَّبِيــعُ بِهَــا مَــدَارِسَ بَهْجَــةٍ ... لِلْعَــيْنِ فِيهَــا بَهْجَــةٌ لا تَضْــرَأ[2]

فَــالرِّيحُ تَكْتُــبُ والغَــدِيرُ صَــحِيفَةٌ ... والسُّــحْبُ تَــنْقُطُ والحَمَــائِمُ تَقْــرَأ

- وقال في وصف ليلة:

لَيْــلٌ غَيَــاهِبُــهُ حَيْــرَى وأنْجُمُــهُ ... حَسْــرَى وسَــاعَاتُــهُ فِي الطُّــولِ كَالحِجَــجِ

- قال مصطفى صادق الرافعي في وصف الغروب:

تَــدَرَّجَتِ الشَّــمْسُ وَسْــنَى الجُفُــونِ ... لِمَضْــجَعِهَا فــي سَــرِيرِ الأفــقْ

- قال أبو القاسم الشابي:

هُــوَ الحَــقُّ يَغْفَــى... ثُــمَّ يَــنْهَضُ سَــاخِطًا ... فَيَهْــدُمُ مَــا شَــادَ الظَّــلَامُ ويَحْطِــمُ

- وقال الشابي يشكو جراحه:

هَــذِهِ زَفْــرَةٌ يُصَــعِّدُهَا الهَــمُّ ... إلَــى مَسْــمَعِ الفَضَــاءِ السَّــاهِي

- قال علي الجارم في المدح:

أحْيَــا النُّفُــوسَ بِآمَــالٍ تُضَــاحِكُهَا ... فَاليَــأسُ فِيهَــا غَرِيــبُ الأهْــلِ والــدَّارِ

- وقال علي الجارم في الرثاء:

ولــمْ نَــدْرِ أنَّ المَــوْتَ بَاسِــطٌ كَفَّــهُ ... إلــى الغُصْــنِ فِــي رَيْعَانِــهِ وهــو مُونِــعُ

- وقال واصفا "المَوْتَ" في الحرب العالمية الأولى:

يَحْسُــو دَمَ القَتْلَــى، فَــأظْمِئْ بِــهِ! ... ويَــنْهَشُ اللَّحْــمَ، فَمَــا أجْشَــعَا!

- قال معروف الرصافي:

تَبَسَّــمَتِ الــبِلَادُ بِكُــلِّ أرْضٍ ... ومَــا زَالَ العِــرَاقُ بِــهِ قَطُــوبُ

- وقال الرصافي يصف امرأة شبَّ حريق في دارها:

---

[1] الفود: جانب الرأس.
[2] تضرأ: تخفى.

openkan.com

تَبْكِـــي وقَـــدْ ضَـــحِكَ الحَرِيـــقُ بِـــدَارِهَا كَـــالبَرْقِ يَضْـــحَكُ فِـــي الـــدُّجَى ويَلُـــوحُ

- قال بشارة الخوري (الأخطل الصغير):

لُبْنَـــانُ كَـــمْ لِلْحُسْـــنِ فِيـــكِ قَصِـــيدَةٍ نَثَـــرَتْ مَبَاسِـــمَهَا عَلَيْهَـــا الأنْجُـــمُ

كَيْـــفَ الْتَفَـــتَّ فَجَـــدْوَلٌ مُتَـــأَوِّهٌ تَحْـــتَ الغُصُـــونِ ورَبْـــوَةٌ تَتَبَسَّـــمُ

- قال أحمد شوقي:

إذَا حَلُمْـــتَ فَالشَّـــرُّ وَسْـــنَانُ حَـــالِمٌ وإنْ غَضِـــبْتَ فَالشَّـــرُّ يَقْضَـــانُ مُغْضِـــبُ

- قال الشاعر القروي في الوصف:

رَأَيْـــتُ الـــوَحْشَ يَـــأنَسُ للأغَـــانِي وصَـــدْرَ الـــرِّيحِ يَخْفِـــقُ بالحَنَـــانِ

وعُشْـــبَ الحَقْـــلِ يَبْسِـــمُ عَـــنْ جُمَـــانٍ ولَـــمْ أرَ عَابِسًـــا غَيْـــرَ الـــدُّخَانِ

- وقال القروي في الحكمة:

أشْـــبِعِ العَقْـــلَ حِكْمَـــةً واخْتِبَـــارَا وامْـــلإِ القَلْـــبَ رَحْمَـــةً وحَنَانَـــا

- قال جبران خليل جبران:

شَـــاخَتِ الـــرُّوحُ بِجِسْـــمِي وَغَـــدَتْ لا تَـــرَى غَيْـــرَ خَيَـــالَاتِ السِّـــنِين

والْتَـــوَتْ مِنِّـــي الأَمَـــانِي وانْحَنَـــتْ قَبْـــلَ أَنْ أَبْلُـــغَ حَـــدَّ الأَرْبَعِـــين

الاسْتِعَارَةُ التَّمْثِيلِيَّة

تعريف الاستعارة التمثيلية: "هِيَ اسْتِعَارَةٌ شَائِعَةٌ فِي الأَمْثَالِ السَّائِرَةِ نَثْرًا وشِعْرًا"[1]، وهِيَ نَوْعٌ مِنَ الاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّة، كَوْنُنَا نُصَرِّحُ فِيهَا بِالمُشَبَّهِ بِه، والفَرْقُ بَيْنَ الاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّة، والاسْتِعَارَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ أنَّ الأُولَى تَجْرِي فِي المُفْرَد، والثَّانِيَةَ تَجْرِي فِي المُرَكَّب (الكَلام المُرَكَّب)، وهِيَ تَشْبِيهُ حَالٍ بِحَال.

فمن الاستعارة التمثيلية قولنا لبعضنا البعض، ونحن عرب يجمعنا ما يجمعنا من أواصر ووشائج:

أصَـــابِعُ كَـــفِّ الحُـــرِّ فِـــي العَـــدِّ خَمْسَـــةٌ ولَكِنَّهَـــا فِـــي مَقْـــبَضِ السَّـــيْفِ وَاحِـــدُ

إن هذا القول في الأصل هو حكمة للشاعر القروي، وظفناها اليوم، وحال الأمة العربية كما تعلم، استعرناها كما أنشدها الشاعر، فنحن قد استعرنا التركيب ككل تشبيها لحالٍ بحال. لذلك قال علماء البيان: "إنّ قرينة الاستعارة التمثيلية هي قرينة حالية تُفهم من سياق الكلام".

ومن الاستعارة التمثيلية قول الأستاذ لمن أجاب دون تفكير، وَأَخْطَأَ :"قَبْلَ الرِّمَاءِ تُمْلَأُ الكَنَائِنُ".

وهذا القول هو مَثَلٌ له مورد تاريخي، وظَّفناه دون زيادة أو نقصان لهذا التلميذ، لتشابه الحالين.

ونقول مثلا للحاسدين الذين لا يَضُرُّ كلامُهم: "لا يَضُرُّ السَّحَابَ نَبْحُ الكِلَاب".

- ونقول لمَنْ أردنا أنْ نحثَّهُ على السَّعي والاجتهاد:

إذا أَنْـــتَ لَـــم تَـــزْرَعْ وأَبْصَـــرْتَ حَاصِـــدًا نَـــدِمْتَ عَلَـــى التَّفْـــرِيطِ فِـــي زَمَـــنِ البَـــذْرِ

إنّ بلاغة، وسرَّ الاستعارة التمثيلية هو توظيفُ التاريخ، وبَعْثُ التُّراث الأدبيّ القديم، وتوظيفه في الأدب الحديث، هذا إلى جانب الإيجاز، أيْ جمع المعاني الكثيرة في ألفاظٍ قليلة.

تدريب: دلَّ على الاستعارات التمثيلية، واشرحها:

- والعُـــودُ لَا يُفْـــزِعُ كَلْـــبَ الفَـــلَا إلَّا إذَا صَـــــارَ عَصًـــــا يَابِسَـــــهْ
- إنَّ ابـــــنَ آدمَ لا يُعْطِيـــــكَ نَعْجَتَـــــهُ إلّا لِيَأْخُـــــذَ مِنْـــــكَ الثَّـــــوْرَ والجَمَـــــلا
- الـــذَّنْبُ يَتْـــرُكُ شَـــيْئًا مِـــنْ فَرِيسَـــتِهِ لِلْجَـــائِعِينَ مِـــنَ الـــذِّؤْبَانِ إنْ شَـــبِعَا
- لا تَحْتَقِـــرَنَّ صَـــغِيرًا فِـــي مُخَاصَـــمَةٍ إنَّ البَعُوضَـــةَ تُـــدْمِي مُقْلَـــةَ الأَسَـــدِ
- ومَـــا ضَـــرَّ الـــوُرُودَ؟ ومـــا عَلَيْهَـــا؟ إذا المَزْكُـــومُ لَـــمْ يَطْعَـــمْ شَـــذَاهَا
- إذَا مَـــــا أرَادَ اللهُ إهْـــــلَاكَ نَمْلَـــــةٍ سَـــمَتْ بِجَنَاحَيْهَـــا إلـــى الجَـــوِّ تَصْـــعَدُ
- إذا سَـــقَطَ الـــذُّبَابُ علـــى طَعَـــامٍ رَفَعْـــتُ يَـــدِي ونَفْسِـــي تَشْـــتَهِيهِ
- أيُرْجَـــى بـــالجَرَادِ صَـــلَاحُ أمْـــرٍ وقَـــدْ جُبِـــلَ الجَـــرَادُ عَلـــى الفَسَـــادِ؟
- ألا رُبَّ رَاجٍ حَاجَـــــةً لا يَنَالُهَـــــا وآخَـــرُ قَـــدْ تُقْضَـــى لَـــهُ وهُـــوَ جَـــالِسُ

[1] علوم البلاغة مرجع سابق ص 212.

بَلاغَةُ الاسْتِعَارَة

التشبيهُ، والاستعارةُ، والكنايةُ، والمجازُ هي أقطاب البلاغة، وأعمدة الإعجاز، غير أنّ علماء البلاغة يعتبرون الاستعارة قطبَ البلاغة الرئيس، وجوهرها النفيس، وقد عبّرَ عبد القاهر الجرجاني عن فضيلة الاستعارة بقوله: "اعْلَمْ أَنَّ الاسْتِعَارَةَ هِيَ أَمَدُّ مَيْدَانًا، وأَشَدُّ افْتِنَانًا، وأكْثَرُ جَرَيَانًا، وأعْجَبُ حُسْنًا وإحْسَانًا، إنَّهَا تُبْرِزُ البَيَانَ فِي صُورَةٍ تَزِيدُ قَدْرَهُ نُبْلًا، وتُوجِبُ لهُ بَعْدَ الفَضْلِ فَضْلا، وإنّكَ لَتَجِدُ اللَّفْظَةَ الوَاحِدَةَ قَدِ اكْتَسَبَتْ فَوَائِد، حَتَّى تَرَاهَا مُكَرَّرَةً فِي مَوَاضِع، ولَهَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ تِلْكَ المَوَاضِعِ شَأنٌ مُفْرَد، وشَرَفٌ مُنْفَرِد، إنَّهَا تُخْرِجُ لَكَ مِنْ بَحْرِهَا جَوَاهِرَ تَمُدُّ فِي الشَّرَفِ والفَضِيلَةِ بَاعًا لا يَقْصُر، وتُبْدِي مِنَ الأوْصَافِ الجَلِيلَةِ مَحَاسِنَ لا تُنْكَر، ومِنْ مَنَاقِبِهَا أيْضًا أنَّهَا تُعْطِي الكَثِيرَ مِنَ المَعَانِي بِاليَسِيرِ مِنَ الألْفَاظ، حَيْثُ تُخْرِجُ مِنَ الصَّدَفَةِ الوَاحِدَةِ الغَزِيرَ مِنَ الدُّرَر، وتَجْنِي مِنَ الغُصْنِ الوَاحِدِ الكَثِيرَ مِنَ الثَّمَر."[1]

ومن حسناتها التَّشْخِيصُ والتَّجْسيد في المعنويّات، وبثُّ الحياة في الجَمَاد، يقول الجرجاني: "فَإنَّكَ لَتَرَى بِهَا الجَمَادَ حَيًّا نَاطِقا، والأعْجَمَ فَصِيحًا، والأجْسَامَ الخُرْسَ مُبَيِّنَةً، والمَعَانيَ الخَفِيَّةَ بَادِيَةً جَلِيَّة، وإنْ شِئْتَ أَرَتْكَ المَعَانِيَ اللَّطِيفَةَ الَّتِي هِيَ مِنْ خَبَايَا العَقْلِ، كَأنَّهَا قَدْ جُسِّمَتْ، حَتَّى رَأتْهَا العُيُونُ."[2]

وهذا ما جسده خليل مطران حين قال في وصف شعر أحمد شوقي:

وسَبْـــكٌ يُعِيـــدُ اللَّفْـــظَ لَحْنًـــا مُوَقَّعَـــا ... ويُبْـــدِي لَنَـــا المَعْنَـــى الخَفِـــيَّ مُجَسَّـــدَا

كما عبَّرَ عنه معروف الرصافي أحسن تعبير، وصوّره أدقّ تصوير:

أرَى الحُسْـــنَ فِـــي لُبْنَـــانَ أيْنَـــعَ غَرْسُـــهُ ... وقَـــارَبَ حَتَّـــى أمْكَـــنَ الكَـــفَّ لَمْسُـــهُ

فالحُسنُ - هذا المعنى المجرَّدُ في العقل - قد قارب مرمى البصر، حتى وقع في شباك النظر، فأبصرتهُ العيون، ولمستهُ الأكفّ، وإنْ أردت أن تميط اللثام عن مكنون جمال هذه الاستعارة لقلت عبارة واحدة: استعارةٌ قد ضربتْ عليها المحاسنُ أطنابها، وخلعتْ عليها الزخارفُ جلبابها.

ومثل ذلك في قول خليل مطران:

لَـــوْ قِيـــلَ لِلْحُسْـــنِ كَيْـــفَ تَهْـــوَى ... - إنْ أَنْـــتَ خُيِّـــرْتَ – أَنْ تَكُونَـــا؟

لَقَـــالَ فِـــي بَـــدْءِ كُـــلِّ شَـــيْءٍ: ... يَـــا لَيْـــتَ لِـــي هَـــذِهِ العُيُـــونَا

وإنْ قلت هل من مزيد، فاصغِ إلى هذا التغريد:

ومَـــنْ إذا قِيـــلَ: إنَّ البَـــدْرَ يُشْـــبِهُهُ ... حُسْـــنًا أَتَـــى البَـــدْرُ مِمَّـــا قِيـــلَ يَعْتَـــذِرُ

فالبدر ليس كما تراه وأراه جمادًا لا حياة تدبّ فيه، أرأيت كيف صوّرهُ الشاعرُ إنسانا؟ ألم يجعل له عينين وشفتين ولسانا؟ صورة استعارية بعثت الحياة في البدر، ونشرت في جوانبه الحركة، وبعثت في قلبه أجمل الفضائل. أرأيت أسلوبًا أرْشق منه تعبيرًا، وأرقّ تأثيرًا، وأدقّ تصويرًا؟

---

[1] أسرار البلاغة للجرجاني ص 32.
[2] المرجع نفسه ص 33.

وأروع منه في (أحاسيس) الجمادات قولُ محمد جربوعة في قصيدة (قنديل بني هاشم):

هَـــذَا النَّبِـــيُّ. اخْضِـــرَارُ الأَرْضِ نَظْرَتُـــهُ وبَسْـــمَةُ الثَّغْـــرِ مِنْهَـــا الضَّـــوْءُ يَحْتَشِـــمُ

واستمع إلى هذا العرض الممتع، والتصوير المبدع، حين ينتحل البارودي شخصية عَالِمِ الجمال العارِفِ بأسراره، والمُحيط بأخباره، فيشبه لك أسنان العاج باللؤلؤ في الصفاء والنقاء والبياض واللمعان، ويشبه الشفتين بالحجر الكريم الأحمر الذي يعرف بالعقيق، دون أن يأتي على ذكر المشبه، فيقول:

وتَبْسِـــمُ عَـــنْ جُمَـــانٍ فِـــي عَقِيـــقٍ يُقَـــالُ لَـــهُ بِحُكْـــمِ الـــذَّوْقِ ثَغْـــرُ

تصوير يملك الجِنان، ويعقل اللسان، ويبعث في النفس إعجابا يروغ من التصوير، ونشوةً تفرّ من الوصف والتعبير.

وإن أردت أن تزداد بالبلاغة كلفا، وتتعلق بالبيان شغفا، فاستمع إلى هذه الاستعارة التي تذيع معانيها شذًى وعرفا. يقول محمود سامي البارودي في وصف قلمه:

غَـــرِدٌ إِذَا مَـــا جَـــالَ فَـــوْقَ صَـــحِيفَةٍ سَـــجَدَتْ لِحُسْـــنِ صَـــرِيرِهِ الأَوْتَـــارُ

فكأنّ القلمَ بلبلٌ يشدو ويغرّد، وكأنّ الوَتَرَ عابدٌ يركعُ ويسجد. أرأيت لحنًا أعذب من هذا طَرَبَا، وآيةً من آيات البيان أكثرَ من هذه عَجَبَا؟ فوالذي علّم بالقلم، ومنح خيرَ خلقه جوامعَ الكلم، إنّ قلمك يا سَامِي مِنَ السِّحرِ المُبين ما تخرُّ له سَحَرَةُ البيان ساجدين.

واقرأ وإيّاي قول حافظ إبراهيم في رثاء ابنة البارودي:

دَاسَ الحِمَـــامُ عَـــرِينَ آسَـــادِ الشَّـــرَى يَـــا لَيْـــتَ شِـــعْرِي أَيْـــنَ كَـــانَ أَبُـــوكِ؟

صورة بيانية تجعلك تدين لحافظٍ باعتراف، وليس ذلك سوى أنها صورةٌ تلقي بالنفس الرّوعة، وتستجدي من المآقي الدمعة.

ومن الاستعارات التصريحية التي يرُوعك سحرُها، ويهزّ وجدانَك تأثيرُها، ويُبهر نفسَك تصويرُها قول علي الجارم:

نَظَمْنَـــا لُؤْلُـــؤَ الفِـــرْدَوْسِ فِيهَـــا وسَـــمَّيْنَاهُ تَضْـــلِيلًا كَلَامَـــا

فالشاعر لم يكتفِ بإبهار نفسك، وانتزاع الإعجاب من فؤادك حين شبه ألفاظ قصيدته باللآلئ في صدر البيت، إنه أراد أن يضلّلك، ويسحر عيونك في عَجُز البيت، بأنْ ألقى عليك تعويذةً جعلتك تعجز عن تمييز الحقيقة من المجاز.

وهات صورةً من صور بشارة الخوري يصف فيها صنعة عاصر الخمر:

يَـــا ذَابِـــحَ العُنْقُـــودِ خُضِّـــبَ كَفُّـــهُ بِدِمَائِـــهِ، بُورِكْـــتَ مِـــنْ سَـــفّاحِ

صورةٌ لم يُسبقْ إليها بشارةُ الخوري، على كثرة ما في الشعر العربي قديمه وجديده من خمريات تتناول وصف عاصر الخمر، انظر إليه كيف يشبه العاصِرَ بالسَّفاح، ويشبه العنقودَ بالذبيحة، ويشبه آثار لون العنب بالدّماء التي تخضب كفّ العاصر! استعارةٌ تنفي بلابل الصُّدور، وتجلّي بواعث السرور.

واقرأ معي قول خليل مطران:

حَتَّـــى الهُمُـــومُ سَـــمَتْ إلَيْـــكَ بِوُدِّهَـــا مَـــنْ كَـــانَ يَحْسَـــبُ لِلْهُمُـــومِ قُلُوبَـــا؟

تأمّلْ يا خليلي كيف برع الشاعر حين زعم للهموم قلوبا تحبّ بها، ولم تكن الهمومُ تُعرف بالوداد من قبلُ، حتى جاء مطرانُ وسَمَا بجوهرها، وخلق لها قلوبًا مشحونة بالأحاسيس والعواطف!

واسمع إلى قول محمود غنيم حين يشبه عَرَقَ الفلاح باللؤلؤ، ويشبه الفلاح المصريّ البسيطَ بالأمير:

شَـــاهَدْتُ لُؤلُـــؤةً كَـــالبَرْقِ تَـــأتَلِقُ عَلَـــى جَبِـــينِ أَمِيـــرٍ سَـــارَ مُخْتَـــالًا

هل هذه يا تُرى كلماتٌ أم دُرٌّ نظيم؟ وهل تلك معانٍ أمْ جوهر يتيم؟

وتذوّق معي طعم هذه الاستعارات التي اقتنصها لك محمد العيد آل خليفة في رحاب البادية:

حَيَّتْـــكَ فـــي البَـــدْوِ كُـــلَّ الكَائِنَـــاتِ بِـــهِ الـــرِّيحُ عَازِفَـــةٌ والـــرَّوْضُ صَـــفّاقُ

والحَقْـــلُ مُحْتَفِـــلُ الأشْـــجَارِ مِـــنْ طَـــرَبٍ تَشْـــدُو وتَهْفُـــو بِـــهِ وُرْقٌ وأوْرَاقُ

تخيّل وأنت في البادية مدعوٌّ لحفلة تحييها مظاهر الطبيعة، جَوقَة موسيقية، تعزف فيها الريح بصوتها العذب الرخيم، والروض قد احمرّت أكفّه من التصفيق، وأوراق الأشجار راقصة على أنغامٍ أنّى تبدعها أنامل الفنان، وبنات الهديل يصفقن بأجنحتهنّ، ويطربْنك بأعذب الألحان، ثم أخبرني: أجرّبتَ ثَمَرًا أشهى من هذا مذاقا؟ أو أبصرتَ دُرَرًا أكثر من هذه إشراقا؟

وتأمل معي هذه المعجزة البيانية التي ينشد فيها نزار قباني:

أَلَا تَرَانِـــي بِبَحْـــرِ الحُـــبِّ غَارِقَـــةً والمَـــوْجُ يَمْضَـــغُ آمَـــالِي ويَرْمِيهَـــا؟

انْـــزِلْ قَلِـــيلًا عَـــنِ الأَهْـــدَابِ يَـــا رَجُـــلًا مَـــا زَالَ يَقْتُـــلُ أَحْلَامِـــي ويُحْيِيهَـــا

وتدبّر سِحْرَ الاستعارة، وروعة العبارة، تجدِ الشّاعر يعدُّ الآمالَ لُبَانَا، ويجعل الأحلامَ إنسانا، فيشبّهُ ما هو معنويّ بما هو حسيّ، من أجل بعْث الصورة، وإحيائها، وتشخيصها.

ثم تأمل معي قول نزار قبّاني، وهو يعتلي ذُروة البلاغة، ويبلغ منتهى البراعة، حين يصوّر قرطاجة فتاةً شابّة زرقاء العينين، ويصوّر الزمان شيخا، لَوَتِ السنينُ كفه على العصا:

بَحْرِيَّـــةَ العَيْنَـــيْنِ يَـــا قَرْطَاجَـــةُ شَـــاخَ الزَّمَـــانُ وأنْـــتِ بَعْـــدُ شَـــبَابُ

استعارة لا تقرأ مثلها على مدى الأزمان، غرّةٌ في وجه البيان، تسحر اللُّبَّ، وتملك الطرف بجمالها الفاتن الفتّان.

ثم دع ناظريك يكتحلان بهذه الاستعارة الحسناء، التي اصطفاها حافظ إبراهيم من مملكة البيان، وكيف أبدع في تجميلها وتطييبها، لتُزَفَّ إلى كلّ عقل عاشق لحِسان البلاغة العربية:

فَاسْـــتَبِينُوا قَصْـــدَ السَّـــبِيلِ وجِـــدُّوا فَالمَعَـــــالِي مَخْطُوبَـــــةٌ لِلمُجِـــــدِّ

لا شك أنّ شاعر النيل قد عقد قِرَانَ المَعَالي بالإنسان المُجِدّ السّاعي، فالمعالي بعد أنْ كانت اسمًا من أسماء المعاني في قواميس العربية، خلقها الشّاعر في أحسن تقويم، غادةً مدلّلة تحتفل بخطوبتها بفارس أحلامها.

واحكم بربِّكَ على هذه اللآلئ، واسأل غوّاص لبنان عن سحرها:

وسَـــــبَحْتُ فِـــــي بَحْـــــرِ القَـــــوَا فِـــــي أنْتَقِـــــي مِنْـــــهُ الجُمَـــــانْ

أصْـــــــطَادُ كـــــــلَّ خَرِيـــــــدَةٍ فَاقَـــــتْ عَلَـــــى الغِيـــــدِ الحِسَـــــانْ[1]

أليس هذا الجمان، بدليل على أنَّ الاستعارةَ سلطان، وبيانُها هو البيان؟

واكتشف بنفسك عبقرية الخيال عند شاعرنا مفدي زكريا في تصويرٍ يهزّ أوتار الفؤاد:

إلَامَ تَضَـــــلُّ تَلْسَـــــعُنَا الجِـــــرَاح؟ وفِـــــيمَ تَبِيـــــتُ تَنْهَشُـــــنَا الرِّمَـــــاح؟

وحدِّثني عن إحساسك، وأنتَ تتخيّلُ الجراحَ عقاربَ سامّة، تغرز إبرها المسمومة في شعبنا، والرّماحَ كلابًا مسعورة تنهش في لحْمنا، لله ما أجمله من بيت! وما أبعد شأو شاعرِنا في التشييد! وأجلّ شأنه في البناء والتجديد!

[1] الخريدة: اللؤلؤة.

المَجَازُ المُرْسَل

تعريف المجاز المرسل: "هُوَ الكَلِمَةُ المُسْتَعْمَلَةُ فِي غَيْرِ مَا وُضِعَتْ لَهُ لِعَلَاقَةٍ غَيْر المُشَابَهَة، مَعَ قَرِينَةٍ مَانِعَةٍ مِنْ إرَادَة المَعْنَى الوَضْعِيّ"[1]. وذكرَ الدّكتورُ يوسف أبو العدوس في كتابه (المجازُ المرسل والكناية): "هُوَ مَجَازٌ لُغَوِيّ، يَرْتَبِطُ فِيهِ المَعْنَى الحَقِيقِيُّ بِالمَعْنَى المَجَازِيّ، بِعَلاقَةٍ غَيْرِ المُشَابَهَة، وسُمِّيَ بِالمُرْسَلِ لأَنَّهُ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِعَلاقَةِ المُشَابَهَة، فالإرْسَالُ فِي اللُّغَةِ هُوَ الإطْلَاق، والمَجَازُ الاسْتِعَارِيُّ مُقَيَّدٌ بِادِّعَاءِ أنَّ المُشَبَّهَ مِنْ جِنْسِ المُشَبَّهِ بِه، والمَجَازُ المُرْسَلُ مُطْلَقٌ عَلَى هَذَا القَيْد"، وقِيل: إنّمَا سُمِّيَ مُرْسَلًا لأَنَّهُ لَمْ يُقَيَّدْ بِعَلَاقَةٍ مَخْصُوصَة، بَلْ رُدِّدَ بَيْنَ عَلَاقَاتٍ كَثِيرَة. "وقَدْ أَحْصَى البَيَانِيُّونَ مَا يَزِيدُ عَلَى عِشْرِينَ عَلَاقَةٍ مِنَ العَلَاقَاتِ الَّتِي يَسْمَحُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِاسْتِعْمَالِ المَجَازِ المُرْسَل، لَدَى وُجُودِهِ بَيْنَ المَعْنَى الأَصْلِيِّ لِلَّفْظ، والمَعْنَى الآخَر، الَّذِي يُطْلَقُ عَلَيْهِ اللَّفْظُ مَجَازًا"[2].

علاقات المجاز المرسل:

1) السَّبَبِيَّة: وذَلِكَ إذَا كَانَتِ الكَلِمَةُ المَذْكُورَةُ الَّتِي اسْتُعْمِلَتْ فِي غَيْرِ مَا وُضِعَتْ لَهُ سَبَبًا فِي المَعْنَى المُرَادِ مِنَ القَوْل، ومن تلك العلاقة إطلاق اليد على النعمة، لأنها سببها، قال حافظ إبراهيم:

سَنُطْرِي أيَادِيكَ الّتِي قَدْ أفَضْتَهَا ... عَلَيْنَا فَلَسْنَا أمَّةً تَجْحَدُ اليَدَا

فالمذكور (اليد)، والمقصود (النعمة) فهي سببها.

وقد وردت اليد بمعناها الحقيقي ومعناها المجازي في قول محمود سامي البارودي:

فَمَا مَدَدْتُ يَدِي إلَّا لِمَنْحِ يَدٍ ... ولَا سَعَتْ قَدَمِي إلَّا لِإسْعَادِ

وقد ورد السّبب، والمسبَّب في قول ناصيف اليازجي:

كَمْ مِنْ أيَادٍ لَهُ مَا زِلْتُ أذْكُرُهَا ... ونِعْمَةٍ لَسْتُ أنْسَاهَا مَدَى الحِجَجِ

2) المُسَبَّبِيَّة: وذَلِكَ حِينَمَا يَكُونُ اللفظُ المَذْكُورُ مُسَبَّبًا عَنِ المَعْنَى المُرَاد، فَيَكُونُ المَعْنَى المُرَادُ هُوَ السَّبَبُ فِي اللَّفْظِ المَذْكُور، ومثالها قوله تعالى: (ويُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا)[3]. وأنت خبيرٌ بأنّ الله ينزّل الماءَ من السّماء، فالماءُ سببٌ، واللفظُ المذكورُ (الرزق) مُسَبَّب. ومثالها أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾[4]. حيث ذَكرت الآيةُ المسبَّبَ وهو النار، وأرادت السّبب (أموال اليتامى).

3) الآلِيّة: وهُوَ أنْ تَكُونَ الكَلِمَةُ المُسْتَعْمَلَةُ آلةً، أو أداةً لِمَا هُوَ مُرَاد، ومثالها من كلامنا في عصرنا الحديث قولنا: "شَرَّفَ اللاعِبُ الكُرةَ الجزائرية"، أو "شرّف الحَكَمُ الصّافرةَ العربيّة"، والمراد في الأولى مستوى اللّعب، وفي الثانية مستوى التحكيم، فالكرة آلة (أداة) اللعب، والصّافرةُ أداة التحكيم. ومثالها أيضا قول نزار قباني:

---

[1] المفصل في علوم البلاغة العربية ص 500.
[2] البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها عبد الرحمان حسن الميداني ص 275.274.
[3] غافر 13.
[4] النساء 10.

وحَـــــارَ الجَـــــوَابُ بِحُنْجُرَتِـــــي وجَـــــفَّ النِّـــــدَاءُ ومَـــــاتَ الفَـــــمُ

فقد أطلق الشاعر لفظ (الفم)، وأراد (الكلام)، وبما أن الفم هو أداة (آلة) الكلام، فالعلاقة آلية.

ومنها قوله:

مَـــاذَا سَـــأَقْرَأُ مِـــنْ شِـــعْرِي ومِـــنْ أَدَبِـــي؟ حَـــوَافِرُ الخَيْـــلِ دَاسَـــتْ عِنْـــدَنَا الأَدَبَـــا

وحَاصَـــــرَتْنَا، وآذَتْنَـــــا، فَـــــلَا قَلَـــــمٌ قَـــــالَ الحَقِيقَـــــةَ إِلّا اغْتِيـــــلَ أَوْ صُـــــلِبَا

فنزار قباني أطلق لفظ (قلم)، وأراد به الشاعر، والقلمُ هو أداة الكتابة، أي أداة الشاعر، فالعلاقة آلية.

4) الكُلِيّة: وفِيهَا يَرِدُ اللَّفْظُ الدَّالُ عَلَى الكُلّ، ويُرَادُ بِهِ الجُزْء، ومثالها قول محمود غنيم:

أَعْـــدَدْتُ لِلنَّقَـــادِ صَـــدْرًا لَـــمْ يَضِـــقْ يَوْمًـــا بِمُنْتَقِـــدٍ فَسِـــيحُ رِحَابِـــهِ

فالشاعر ذَكَرَ الكُلّ: (الصّدر)، وقَصَدَ الجُزْء: (القلب).

ومن نماذج هذه العلاقة في النثر قول أحمد حسن الزيات: "وأَجْمَلُ شَيْءٍ فِي الرَّبِيعِ أَصَائِلُهُ وأَمَاسِيه، فَفِي هَذَيْنِ الوَقْتَيْنِ تَزْدَهِرُ شَوَارِعُ القَاهِرَةِ بِزَهَرَاتٍ شَتَّى مِنْ بَنَاتِ الإِنْسَان، فَتَمْلَأُ الجَوَّ عِطْرًا، والعُيُونَ سِحْرًا، والقُلُوبَ فِتْنَةً." فالمجاز وقع بعلاقته الكلية في قوله: (شوارع القاهرة)، ووقع كذلك في قوله: (تملأ الجو عطرا، والعيون سحرا، والقلوب فتنة.) لأنّ الحقيقة أن بعضا فقط من شوارع القاهرة تزدهر بتلك الزهرات، كما أن تلك الزهرات لا تستطيع أن تملأ الجو كله عطرا والعيون كلها سحرًا، والقلوب كلها فتنة.

5) الجزئية: وفِيهَا يَرِدُ اللَّفْظُ الدَّالُ عَلَى الجُزْء، ويُرَادُ بِهِ الكُلّ، ومثالها قول مفدي زكريا:

شَـــعْبُ الجَزَائِـــرِ قَـــالَ فِـــي اسْـــتِفْتَائِهِ: لَا.. لَـــنْ أَبِـــيحَ مِـــنَ الجَزَائِـــرِ إِصْـــبَعَا

الشاعرُ ذكرَ الجزء، وهو مقدار الإصبع من أرض الجزائر، ولكنّ المُرادَ هو الكلّ، أي أرض الجزائر كلها.

ومنه قول الشاعر محمد جربوعة في قصيدة "قَدَرٌ حُبُّهُ ولا مَفَرَّ لِلْقُلُوب":

يُحِبُّهُ مُوَلَّهٌ

عَلَى جِبَالِ الأَلْبِ والأَنْدِيزِ فِي زَقْرُوسَ

فِي جِبَالِ القُطْبِ فِي تَجَمُّدِ العِظَامْ

يَذْكُرُهُ مُسْتَقْبِلًا

تَخْرُجُ مِنْ شِفَافِهِ الحُرُوفُ فِي بُخَارِهَا

تَخْتَالُ فِي تَكْبِيرَةِ الإِحْرَامْ.

ففي عبارة (تخرج من شفافه الحروفُ) أطلق الشاعرُ (الشفاه)، والمقصود (الفم)، والشفاه جزء من الفم.

والعلاقة نفسها في قوله في قصيدة أخرى:

لَكِنَّنِـــي فِـــي كُـــلِّ لَيْلَـــةِ جُمْعَـــةٍ أَدَعُ القَصِـــيدَةَ جَانِبًـــا وأَتُـــوبُ

حيث أطلق الشاعرُ الجزءَ (القصيدة)، وأراد الكلّ (الشعر)، فالمجاز مرسل، وعلاقته الجزئية

ومثالها قولنا: "أَلْقَى الخَطِيبُ كَلِمَةً مُؤَثِّرَة"، فنحن ذكرنا الجزءَ (الكلمة)، وقصدنا الكلَّ (الخُطبة)، ومنها قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾[1]، فالآية ذكرت الوجوه، والمقصود (المؤمنون)، فالمذكور الجزء، والمُراد الكلّ.

6) المَحَلِيّة: وفِيهَا يَرِدُ اللّفظُ الدَّالُ عَلَى المَحَلّ، ويُرَادُ مَا حَلَّ بِه، مثل قول الشاعر الجزائري محمد جربوعة:

وإذَنْ لِمَـــــاذَا لَا تَسِـــــيلُ عُيُونُهَـــــا أَمْ أَنَّهَـــا تَخْشَـــى ابْـــتِلَالَ البُرْقُـــعِ؟

يريد الشاعرُ بالعيون الدموع، فالدموع هي التي تسيل، والعيون محلٌّ للدموع، فالشاعر أطلق المحلّ، وأراد الحال، فالمجاز مرسل، والعلاقة محلية. ومنها قوله أيضا في قصيدته الرائعة "قَدَرٌ حُبُّهُ ولا مَفَرَّ لِلْقُلُوب":

تُحِبُّهُ الصُّفُوفُ فِي صَلَاتِهَا

يُحِبُّهُ المُؤتَمُّ فِي مَالِيزْيَا

وفِي جِوَارِ البَيْتِ فِي مَكَّتِهِ

يُحِبُّهُ الإِمَامْ.

فالمجاز المرسل في قوله: (تُحِبُّهُ الصُّفُوفُ في صَلَاتِها): حيث أطلق الشاعرُ لفظَ الصُّفوف، وأراد المصلِّين.

ومن تلك العلاقة قول حافظ إبراهيم:

رَكِبُـــوا البِحَـــارَ وقَـــدْ تَجَمَّـــدَ مَاؤهَـــا والجَـــوُّ بَـــيْنَ تَنَـــاوُحِ الأَرْوَاحِ

فالشاعر أراد أن يقول إنّ القوم ركبوا السفن الحربية رغم تجمد الماء، واضطراب الرياح، فذكر (البحار)، وأراد (السفن)، فالعلاقة محليّة، لأنّ السفن محلُّها أو مكانها البحر، ومن أمثلتها قول محمود درويش:

سَيِّدِي القَاضِي:

أنَا لَسْتُ بِجِنْدِيّ

وأنَا لَا شَأْنَ لِي فِي مَا تَقُولُ المَحْكَمَة.

والمُرادُ من (المحكمة) القُضاة، وهي العلاقة نفسها في قولنا: "قرَّرَ البَرْلَمَانُ أوِ المَجْلِسُ كَذَا وكَذَا".

7) الحاليّة: وفِيهَا نَذْكُرُ الحَال، بَدَلًا مِنَ المَحَلِّ الَّذِي حَلَّ فِيه، ومثالها قول الله تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2]. فالمقصود من (رحمة الله) الجنّة، ولمّا كانت الجنةُ محلّا للرحمة، والرحمةُ حالةً في الجنة فإنّ العلاقة حاليّة.

8) المَاضَوِيّة (اعتبار ما كان): وتُطْلَقُ هَذِهِ الحَالَةُ عِنْدَمَا نَسْتَعْمِلُ كَلِمَةً تُطْلَقُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الشَّيْء، ونَحْنُ نَقْصِدُ مَا آلَ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِك، ومثالها قول أسماء بنت أبي بكر الصديق حين رأت ابنها عبد الله بن الزبير- رضي الله عنهم أجمعين- وقد صلبه الحجّاج: "أَمَا آنَ لِهَذَا الفَارِسِ أنْ يَتَرَجَّل؟" ففي كلمة (الفارس) مجاز مرسل، لأنه كان قبل قتله فارس الفرسان.

---

[1] الغاشية 8. 9. 10.
[2] آل عمران 107.

9) المُسْتَقْبَلِيّة (اعتبار ما سوف يكون): وهُنَا نَذْكُرُ مَا سَوْفَ يَؤُولُ إِلَيْهِ الشَّيْء، ومثالها قول محمد العيد آل خليفة مخاطبا رجال الجزائر:

أَوْلَادُكُـــمْ خُلَفَـــاؤُكُمْ مِـــنْ بَعْـــدِكُم فَلِـــدُوا الكِـــرَامَ وأَخْلِفُـــوا الأَخْيَـــارَا

والمقصود لِدُوا الصِّغَارَ الذين سيكونون في المستقبل كِرَامًا وأَخْيَارَا، لأنَّ تلك الصفتين لا يمكن اكتسابهما حقيقة إلا في مستقبل أيام الطفل، ومنه قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ[1]﴾ أي سيكون في المستقبل عليمًا، لأنّ صفة العلم لا يكتسبها الغلام إلا مستقبلا.

10) الضِّدّية: وفِي هَذِهِ العَلاقَةِ يُطْلَقُ اللّفْظُ، ويُرَادُ بِهِ ضِدُّ مَعْنَاه، ويُسْتَعْمَلُ هَذَا المَجَازُ لِأَغْرَاضِ السُّخْرِيَّة، والاسْتِهْزَاء، والتَّهَكُّم، ومنها قول قائد الجيش لجَلاّدِيهِ: "أَكْرِمُوا أَسِيركُم"، (راجع قصة خالد بن الوليد رضي الله عنه، حين قال لجنوده في ليلة باردة: "أَدْفِئُوا أَسْرَاكُم"، وإنْ كان ابنُ الوليد يقصد المعنى الحقيقيّ، لا المجازي كما فهمه الجنود). ومن هذه العلاقة أيضا قولُ بعض الصِّحَافِيّين: "أَكْرَمَ الفَرِيقُ المُضِيفُ مَرْمَى الضُّيوف بِوَابِلٍ مِنَ الأَهْدَاف". قال الشاعر القروي في قصيدة "العزيز والذليل":

جَـــادَ العَزِيـــزُ عَلَـــى الـــذّلِيلِ بِصَـــفْعَةٍ تَرَكَـــتْ بِصَـــحْنِ الخَـــدِّ طَـــابَعَ خَمْسِـــهِ

ومَضَـــى العَزِيـــزُ يَحُـــكُّ رَاحَـــةَ كَفِّـــهِ ومَضَـــى الـــذّلِيلُ يَحُـــكُّ جِلْـــدَةَ رَأسِـــهِ

بلاغة المجاز المرسل:

"يؤدّي المجازُ المرسلُ دورًا هامًّا في بلاغة التعبير، لأنهُ يوسِّع دلالتَهُ، ويَبْعَثُ على التأمّل الذي يُخَلِّصُ العبارةَ من قيود المباشرة، ويفتح المجال واسعًا أمام الخيال"[2]. وتَكْمُنُ أهميته كذلك في كونهِ "يُضْفِي على الصُّورة رونقا بديعا، ويوسّعُ دائرة الإيحاء، ويكمِّلُ وظيفة اللّغة من خلال الرُّؤية الفنيّة للأشياء، وإذا كان مُسْتَحَبًّا فيه الغموضُ الفنّي، فإنّ هذا الأخير لا يعني التّعقيد، ففي المجاز المرسل يتشوّقُ القارئُ إلى تحصيل الصُّورة كاملةً، فيشعرُ بلذّةِ الاكتشاف، بعد أنْ أعمل عقلهُ، وخياله في اكتشاف العلاقات القائمة بين ضروبه".[3]

والمجاز يحقق الإيجاز، وهو مقصد من أهم مقاصد البلاغة، مثل قول محمد العيد: "لِدُوا الكِرَامَ، وأَخْلِفُوا الأَخْيَارَا"، والمقصود لِدُوا الصِّغَارَ الذين سيكونون في المستقبل كِرَامًا وأَخْيَارَا. "وهكذا لا يلجأ إلى المجاز إلا لتحقيق غاية في صناعة الكلام، فإذا لم يحقق المجاز غاية من الغايات السابقة، ولم يكن له أثر في تقويم اللفظ أو تحسين المعنى، فلا ينبغي العدول عن الحقيقة إليه"[4].

التدريب الأول: اكتشف المجاز المرسل، وعلاقاته فيما يأتي:

- قال الشاعر الجزائري محمد جربوعة:

---

[1] الحجر 53.
[2] علوم البلاغة مرجع سابق ص 230.
[3] المرجع نفسه ص 231.
[4] البيان العربي دكتور بدوي طبانه ص 297.

أُحَدّثُ كُلَّ قَارِئَةٍ
تُفَتِّشُ في بَقَايَا البُنِّ
في الفِنْجَانِ
عَنْ بَخْتِ.

- وقال أيضا:

فقيرٌ
يكسرُ الأحجارَ في (دِلْهِي)
ويُخْرِجُ خُبْزَهُ مُرًّا
ويَحْلُمُ بالمَسَاءِ الحُلْوِ.

- وله كذلك:

فَيُرْسِلُ العُيُونَ فِي انْدِهَاشِهَا
ويُرْسِلُ الشِّفَاهَ فِي سَلَامِهَا مُصَلِّيًا.

- قال نزار قباني:

أشْكُوكِ للسَّمَاءْ
كَيْفَ اسْتَطَعْتِ أنْ تَخْتَصِرِي
جَمِيعَ مَا في الأرْضِ مِنْ نِسَاءْ؟

- قال أبو القاسم سعد الله متغنيا بثورة "نوفمبر":

كَانَ حُلْمًا.. كَانَ شَوْقًا.. كَانَ لَحْنًا
غَيْرَ أنَّ الأرْضَ ثَارَتْ
والهُتَافَاتِ تَعَالَتْ
مِنْ رَصَاصِ الثَّائِرين.

- قال أبو ماضي في الشباب:

غَـــــدٌ لَهُـــــمْ وغَـــــدٌ فِـــــيهِمُ ... فَيَـــا أَمْـــسُ فَـــاخِرْ بِمَـــا هُـــوَ آتْ
ويَـــا حَبَّـــذَا الأُمَّهَـــاتُ اللّـــوَاتِي ... يَلِـــــدْنَ النَّوَابِـــــغَ والنَّابِغَـــــاتْ
فَكَـــمْ خَلَـــدَتْ أُمَّـــةٌ بِيَـــرَاعٍ ... وكَـــمْ نَشَـــأَتْ أُمَّـــةٌ فِـــي دَوَاةْ

- وقال أبو ماضي في الرثاء:

مَـــا كُنْـــتُ أَدْرِي قَبْـــلَ طَـــارَ نَعْيُـــهُ ... أنَّ النُّفُـــوسَ مِـــنَ العُيُـــونِ تَسِـــيلُ

- ولإيليا أبي ماضي في الإنسان المُتَكَبِّر:

obeikan.com

نَسِـــيَ الطِّـــينُ سَـــاعَةً أنَّـــهُ طِـــينٌ حَقِيـــرٌ فَصَـــالَ تِيهًـــا وعَرْبَـــدْ

- قال بشارة الخوري:

فَاسْـــكُبِي رُوحَـــكِ الحَنُـــونَ عَلَيْـــهِ كَانْسِـــكَابِ السَّـــمَاءِ فِـــي عَيْنَيْـــكِ

- وقال بشارة الخوري:

أَنَـــا أَدْرَى بِـــالطَّيْرِ حِـــينَ تُغَنِّـــي كَـــمْ جِـــرَاحٍ سَـــالَتْ عَلَـــى الأَعْـــوَادِ

- قال حافظ إبراهيم في وصف القطار:

يَـــا حَدِيـــدًا يَنْسَـــابُ فَـــوْقَ حَدِيـــدِ كَانْسِـــيَابِ الرَّقْطَـــاءِ فَـــوْقَ الرِّغَـــامِ

- قال الشاعر الجزائري مفدي زكريا:

فَـــاتْرُكْ فِرَنْسَـــا وهَـــي فـــي أَحْلامِهـــا سَـــكْرَى يُمَـــزِّقُ جُنْـــدُها أَوْصَـــالَها

دَعْهَـــا مَـــعَ الأَحْـــدَاثِ تَحْصِـــدُ زَرْعَهَـــا وذَرِ الزَّمَـــانَ يُعَجِّـــلِ اضْـــمِحْلالِها

- قال أحمد سحنون:

إِلَـــى الثَّـــأرِ يَـــا مَعْشَـــرَ المُسْـــلِمِين إِلَـــى القُـــدْسِ كَـــيْ نَنْصُرَالمَسْـــجِدَا

- قال حافظ إبراهيم واصفا قصرا:

فَيَـــا لَـــكَ مَنْـــزِلًا رَحْبًـــا سَـــرِيًّا بَنَتْـــهُ أَنَامِـــلُ الـــذَّوْقِ السَّـــلِيمِ

- قال الشاعر القروي في الحكمة:

ولَـــوْ كَـــانَ يُغْنِـــي الحُـــبُّ أَوْ يَـــدْفَعُ الـــرَّدَى لَمَـــا نَـــامَ تَحْـــتَ التُّـــرْبِ حَـــيٌّ لَـــهُ أُمُّ

- وللشاعر القروي في الغرب:

أَحْسِـــنْ إِلَـــيْهِمْ بِالإِسَـــاءَةِ إِنَّمَـــا تَـــرْوِيضُ ذِي نَـــابٍ مِـــنَ الإِحْسَـــانِ

- قال علي الجارم في مولد ابنة الملك فاروق "فريال":

صـــفَّقْتُ مِصْـــرُ حِينَمَـــا جَـــاءَتِ الـــبُشْ رَى، فَـــأَهْلًا بِمَوْلِـــدِ الآمَـــال

- وقال أيضا:

إِنْ كَبَّـــرَتْ بِأَقَاصِـــي الصِّـــينِ مِئْذَنَـــةٌ سَـــمِعْتَ فِـــي الغَـــرْبِ تَهْلِيـــلَ المُصَـــلِّينَا

- وللجارم أيضا في الرِّثاء:

قَضَـــى دَاوُدُ فَـــالأَقْلامُ حَسْـــرَى نَـــوَاكِسُ خَاشِـــعَاتٌ لِلْقَضَـــاءِ

التدريب الثاني: حدّد المجاز المرسل، وعلاقته في الأمثلة الآتية:

- قال الله عزَّ وجلّ:

- ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأعراف31

- ﴿وأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً﴾ الأنعام6

- ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ المسد1.
- ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ الزمر30.
- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ الغاشية2.
- ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ النور33.
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ المرسلات48.
- ﴿فاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ﴾ الجمعة9.
- ﴿قال أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يوسف36.
- ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ الصافات101.
- قال ميخائيل نعيمة: "غَدًا تَنْتَهِي الحَرْب، فلا مِدْفَعَ يَقْذِفُ الحُتُوف، ولا دَبَّابَةَ تَنْشُرُ البَوَار، ولا طَائِرَةَ تُمْطِرُ الفَنَاء، ولا غَوَّاصَةَ تَزْرَعُ الأعْمَاقَ رُكَامًا وعِظَامًا".
- قالت مي زيادة: "أَتَعْرِفُونَ كَيْفَ تَحْزَنُ عُيُونُ الأطْفَال؟ حَدَّقَ إِلَيَّ سَائِلًا عَنْ أَعَزِّ عَزِيزٍ لَدَيْه، وقَالَ بِصَوْتٍ هَادِئ: أُمِّي..أُمِّي."
- قال طه حسين: "الأدِيبُ يُخَيَّلُ إلى نَفْسِهِ أنَّ الأَدَبَ نَفَحَاتٌ طَبِيعِيَّةٌ تَصْدُرُ عَنْ أصْحَابِهَا مِنَ الصُّدُور".
- قال توفيق الحكيم: "مَا مِنْ شَكٍّ أَنَّنَا سَنَجِدُ فِي مُخْتَلَفِ فُرُوعِ الأدَبِ أقْلَامًا سَتَكُونُ لَهَا الصَّدَارَةُ والقِيَادَةُ فِي الأعْوَامِ المُقْبِلَة".
- قال أحدُهم: "طَبِيبُ الأسْنَانِ رَجُلٌ يَحْصُلُ عَلَى لُقْمَتِهِ مِنْ أفْوَاهِ الآخَرِين".
- قيل: "شَهْرُ العَسَلِ هو الإجَازَةُ الّتي يَحْصُلُ عَلَيْهَا الرَّجُلُ قَبْلَ أنْ يَبْدَأ العَمَلَ تَحْتَ الرِّئَاسَةِ الجَدِيدَة".

المَجَازُ العَقْلِيّ

تعريف المجاز العقليّ: "هُوَ إسْنَادُ الفِعْل، أوْ مَا فِي مَعْنَاهُ إلَى غَيْرِ مَا هُوَ لَه، لِعَلاقَةٍ مَا، مَعَ وُجُودِ قَرِينَةٍ تَمْنَعُ مِنْ إرَادَةِ الإسْنَادِ الحَقِيقِيّ"[1]، والمَقْصُودُ بِـ (مَا فِي مَعْنَاه): المُشْتَقَّاتُ الَّتِي تَعْمَلُ عَمَلَ الفِعْل، كالمَصْدَر، واسْمِ الفَاعِل، واسْمِ المَفْعُول، والصِّفَةِ المُشَبَّهَة، واسْمِ التَّفْضِيل.

علاقات المجاز العقليّ:

السَّبَبِيَّة: وفِيهَا يُسْنَدُ الفِعْلُ، أوْ مَا فِي مَعْنَاه، إلَى السَّبَبِ الَّذِي أَدَّى إلَيْه. ومثالها: "أهْلَكَ النَّاسَ الدِّينَار"، لاحظْ أننا أسندنا الفعل "أهلك" إلى الدّينار، الدينارُ لا يهلك الناسَ حقيقة، بل هو سببُ الفتنة التي تؤدي إلى الهلاك، فالمجاز عقلي، والعلاقة سببية.

ومنها قول نزار قباني:

يَـــا فِلَسْـــطِينُ، لا تُنَـــادِي عَلَـــيْهِمْ قَـــدْ تَسَـــاوَى الأمْـــوَاتُ والأحْيَـــاءُ
قَتَـــلَ الـــنَّفْطُ مَـــا بِهِـــمْ مِـــنْ سَـــجَايَا ولَقَـــدْ يَقْتُـــلُ الثَّـــرِيَّ الثَّـــرَاءُ

ومنها قول مفدي زكريا في إشارةٍ إلى (عصبة الأمم) غير المأسوف عليها:

كَـــمْ خَـــانَ فِيهَـــا قَضَـــايَا العَـــدْلِ نَاصِـــعَةً قَـــوْمٌ يَسُـــوقُهُم (الـــدُّولَارُ) كَـــالبَقَرِ!

ومنها قول محمود غنيم:

الفَـــنُّ إنْ يَأخُـــذْ بِسَـــاعِدِ أمَّـــةٍ نَهَضَـــتْ، وتَـــذْهَبُ رِيحُهَـــا بِذَهَابِـــهِ

والمقصود من الفن الفنّانون، فهم الذين يأخذون بسواعد الأمة، وقد نُسب الفعلُ إلى الفن لأنّ الفن هو سبب النهضة.

ومن هذه العلاقة قول بعضهم: "شَفَى الطَّبِيبُ المَرِيض"، فالشافي هو الله تعالى، والطبيبُ سببٌ في الشفاء، ومنها أيضا قولنا: "بَنَى رَئِيسُ الجُمْهُورِيَّةِ جَامِعَ الجَزَائِرِ الأَعْظَم"، فالرئيس ليس في الحقيقة فاعلاً، وإنما هو مَنْ أصدر قراره بالبناء، فكان بناء الجامع في عُهدته، نقول لقد أسندنا فعل (بنى) إلى الرئيس، ولكنه ليس الفاعل الحقيقي، إنما الفاعل الحقيقي هم العُمّال، والبناؤون الذين يبنون الجامع بقرار صادر من الرئيس.

الزَّمَانِيَّة: وفِيهَا يُسْنَدُ الفِعْلُ إلَى الزَّمَانِ الَّذِي وَقَعَ فِيه، ومثالها قول معروف الرصافي:

أقُـــولُ ولَيْـــلُ الغَـــرْبِ لَـــيْسَ بِنَـــائِمٍ: أمَـــا لِنِيَـــامِ القَـــوْمِ فِـــي الشَّـــرْقِ مِـــنْ بَعْـــثِ؟

حيث أسند الشاعرُ النَّومَ الذي هو فعلٌ للإنسان إلى الليل، والليل لا ينام، بل يقع فيه النوم، فإسنادُ النوم لليل مجازٌ عقليّ، علاقتُه الزّمانية.

ومنه قول مفدي زكريا:

نُـــوفَمْبَرُ غَيَّـــرْتَ مَجْـــرَى الحَيَـــاة وكُنْـــتَ نُـــوفَمْبَرُ مَطْلَـــعَ فَجْـــرِ

[1] المعجم المفصل في علوم البلاغة الدكتورة إنعام نوّال عكاوي ص 639.

المَكَانِيَّة: وفِيهَا يُسْنَدُ الفِعْلُ، أوْ مَا فِي مَعْنَاه، إِلَى مَكَانِ المُسْنَدِ إِلَيْه، أيْ يُسْنَدُ الفِعْلُ إِلَى المَكَانِ الَّذِي وَقَعَ فِيه، ومثالها قولنا: "فِي بِلادِنَا حَدَائِقُ غَنَّاء"، منَ الواضح أنّ الحدائق لا تغنّي، وإنما أسندنا الغناء إلى غير فاعله الحقيقي، وبما أنّ الفاعل الحقيقي الذي يغنّي هو الطيور، والعصافير، التي مكانها الحدائق، لذلك أسندنا الغِناء إلى الحدائق، على سبيل المجاز العقلي، الذي علاقته مكانية.

وقد جمع الشاعرُ محمدُ العيد آل خليفة بين الفاعلين الحقيقي، والمجازي في قوله في وصف فوّارة:

يَـــــا حَبَّـــــذَا عَـــــيْنٌ تَفُـــــورْ حَفّـــــتْ بِحَافّتِهَـــــا الزَّهُـــــورْ

فِـــــي رَوْضَـــــةٍ غَنَّـــــاء قَـــــدْ غَنَّـــــتْ بِسَـــــاحَتِهَا الطّيُـــــورْ

المَصْدَرِيَّة: وفِيهَا يُسْنَدُ الفِعْلُ إِلَى مَصْدَرِهِ، بَدَلاً مِنَ الفَاعِلِ الحَقِيقِيّ، ومثالها قول ميخائيل نعيمة في وصف الحرب: "كَأَنَّ العَالَمَ فِي حُمَّى، وفي هَذَيَان، أوْ كَأَنَّ النَّاسَ قَدْ جُنَّ جُنُونُهُم". والمعنى: جُنّ الناسُ، ومثالها أيضا قول نزار قباني:

فَـــذُنُوبُ شِـــعْرِي كُلّهَـــا مَغْفُـــورَةٌ واللهُ جَـــلَّ جَلَالُـــهُ التَّـــوَّابُ

والمعنى: جَلَّ اللهُ. حيث أسند الشاعرُ الفعلَ إلى مصدره، بدل أنْ يسنده إلى الفاعل الحقيقي.

ومثل قول شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا:

نُـــوفَمْبَرُ جَـــلَّ جَلَالُـــكَ فِينَـــا أَلَسْـــتَ الـــذي بَـــثّ فِينَـــا اليَقِينَـــا؟

ومثالها كذلك (جَدَّ جِدُّهُمْ)، فنحن جعلنا المصدر (جِدُّهُم) فاعلاً، وأسندنا الفعل إليه بدلاً من الفاعل الحقيقي.

كقول محمد العيد آل خليفة:

جَـــدَّ جِـــدُّ الإِسْـــلَامِ فِـــي كُـــلِّ أَرْضٍ وانْجَلَـــى عَـــنْ بَنِيـــهِ دَاءُ الفُتُـــورِ

الفَاعِلِيَّة: وفِيهَا يُسْنَدُ الفِعْلُ إِلَى صِيغَةِ اسْمِ المَفْعُول، والمُرَادُ هُوَ اسْمُ الفَاعِل، ومثالها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾ الإسراء45، فالحِجَابُ في أصله سَاتِرٌ، لا مَسْتُور، نقول: لقد حَلَّ اسمُ الفاعل مَحَلَّ اسم المفعول، فالعبارة إذن مجازٌ عقليّ، والعلاقة فاعِليّة.

المفعولية: وهِيَ عَكْسُ العَلاَقَةِ السَّابِقَة، وفِيهَا يُسْنَدُ الفِعْلُ إِلَى صِيغَةِ اسْمِ الفَاعِل، والمُرَادُ اسْمُ المَفْعُول، نحو قولنا: "هَذَا مَكَانٌ آمِنٌ"، أو: "الطَّرِيقُ سَالِكَة"، فنحن استخدمنا صيغة اسم الفاعل (آمِن) و(سالكة)، ونريد صيغة اسم المفعول (مأمون)، و(مسلوكة)، ففي العبارتين مجازٌ عقليّ، والعلاقة مفعولية.

ومثالها قول محمد العيد آل خليفة:

رِيَـــاضٌ دَنَـــتْ للطّـــامِعِينَ قُطُوفُهَـــا فَلَـــمْ يَمْتَنِـــعْ مِـــنْهُمْ عَـــنِ القَطْـــفِ طَـــاعِمُ

المذكورُ اسمُ الفاعل: (طَاعِم)، والمقصودُ اسمُ المفعول: (مَطْعُوم).

ومثالها قول محمود سامي البارودي:

جُـــودِي عَلَـــيَّ ولَـــوْ بِوَعْـــدٍ كَـــاذِبٍ فَالوَعْـــدُ فِيـــهِ تَعِلّـــةٌ ورَجَـــاءُ

والمقصود: (جُودي عليّ ولو بوعد مكذوب).

وقول خليل مطران:

مَـــــا أَسْـــــخَفَ العَبَـــــرَاتِ سَـــــاكِبَةً والـــــنَّعْشُ يَحْجُـــــبُ وَجْـــــهَ مُبْتَسِـــــمِ

فالعبرات تكون مسكوبة لا ساكبة.

قرينة المجاز العقلي: للمجاز العقلي أربع قرائن هي:

القرينة اللفظية: قد تُذكرُ في الكلام قرينةُ المجاز العقلي ذِكْراً لفظياً، مثل: "بَنَى أَغْنِيَاءُ المَدِينَةِ مَسْجِدًا بَدِيعًا بِفَضْلِ أَمْهَرِ البَنَّائِين"، فالقرينة كما نلاحظ لفظية، وهي (بفضل أَمْهَر البنّائين).

القرينة العقلية: مثل: "شَوْقِي إِلَى الكَعْبَةِ الشَّرِيفَةِ سَاقَنِي إِلَى زِيَارَتِهَا"، فالشّوق ليس في الحقيقة فاعلاً، لكنّهُ الدّافعُ للزّيارة، وهذا أمرٌ يُدْرَك بالعقل.

القرينة المُدْرَكَة بالعادة: مثل: "كَتَبَتِ الصَّحِيفَةُ مَقَالًا مُثِيرًا عَنِ البِيئَة"، فالصحيفةُ ليست في الحقيقة فاعلا، وإنما الصِّحَافِيُّ هو الفاعل الحقيقيّ، وإدراك ذلك يكون بالعادة.

القرينة الحالية: مثل: "كَتَبَ الوَالِدُ رِسَالَةً إِلَى ابْنِهِ المُهَاجِر"، فإنْ كانتْ حالُ الوالدِ معروفةً بأنّهُ أُمِّيٌّ، عرفنا بأنه أَمَرَ مَنْ يكتبها لَهُ، فالقرينة حالية.

بلاغة المجاز العقلي:

المجازُ العقليُّ أسلوبٌ راقٍ، يُعَبِّرُ عن سعة اللغة العربية، وقُدرتها على تجاوز حدود الحقيقة إلى الخيال، ويسمّيه بعضُ البلاغيّين الإسنادَ المجازي، لذلك ترى كثيرا من الباحثين يدرجونه في علم المعاني، لا في علم البيان. ويُعتبَر المجازُ العقلي من الأساليب البلاغية التي وسَّعَتْ مجالاتِ التعبير، وأضْفتْ على اللّغة طابع الجمال، فبِوَسَاطَتِهِ أثبتت اللّغةُ العربية قُدرتَها على القفز فوق حدود الحقيقة، بُغية استيعاب الصُّور الخياليّة السّاحرة، وقد أطلق أئمةُ البلاغة العِنان في الحديث عن بلاغة المجاز العقلي، فقال ابن رشيق القيرواني في كتابه (العُمْدَة): "إنّ العرب كثيرًا ما تستعمل هذا المجاز، وتعُدُّهُ من مفاخر كلامها، وهو دليل الفصاحة، وبه بانتْ لغتُها عن سائر اللغات، والمجازُ في كثيرٍ من الكلام أبْلَغُ من الحقيقة، وأحْسَنُ موقعاً في القلوب، والأسماع".

تدريب: اكتشف المجاز العقلي، وحدّد علاقته، وبيّنْ بلاغته فيما يأتي:

- قال الشاعر الجزائري محمد جربوعة في قصيدة: "لقطاتٌ تقول يا الله":

أَخْبِرِينِي

مَنْ إذا القِنْدِيلُ في الشَّارِعِ

أَنْهَى الزَّيْتَ..

والحَارِسُ قدْ نَامَ قليلا

يُرْسِلُ البَدْرَ لِيَأْتِينَا بِحَفْنَاتِ ضِيَاءْ؟

- قال أحمد أمين: "الأُمِيُّ لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَسْتَنِيرَ بِكِتَابٍ ولا بِصَحَافَة، ولا يَتَّصِلُ بالأمَّةِ وشُؤُونِهَا إلّا مِنْ طَرِيقٍ ضَيِّقٍ فَاسِد، كالإشَاعَاتِ والرِّوَايَاتِ الكَاذِبَة."

- ولأحمد أمين: "رَحِمَ اللهُ زَمَانًا كَانَ الأبُ فِيهِ الآمِرَ النَّاهِي، والحَاكِمَ المُطْلَق، والمَلِكَ غَيْرَ المُتَوَّج."

- وكتبَ قائلا: "رُبَّمَا كَانَ في النَّقْدِ أحْيَانًا هَجْرٌ، وهَجْوٌ، وسِبَاب، ولكنْ كَانَ بِجَانِبِ ذَلِكَ حَقَائِقُ تُذَاع، وبُحُوثٌ تُنْشَر، تَعَالَ فانْظُرْ مَعِي الآنَ إلَى مَا وَصَلْنَا إلَيْه، لَقَدْ كَثُرَتِ الكُتُبُ التي يَطْبَعُهَا المُؤَلِّفُون، وأصْبَحَ الإنْتَاجُ الأدَبِيّ أضْعَافَ مَا كَان".

- قال ميخائيل نعيمة: "لا أُنْكِرُ أنَّ للنّفْطِ قِيمَةً كَبِيرَةً في تَسْيِيرِ عَجَلَاتِ المَدَنِيَّة، ولكِنِّي أُنْكِرُ عَلَى النّفْطِ قِيمَةً جَدِيرَةً بأنْ تُهْدَرُ في سَبِيلِهَا الدِّمَاءُ البَشَرِيَّةُ الزَّكِيَّة، فَتُزْهَقُ الأرْوَاح، وتَتَفَتَّتُ الأكْبَاد، وتَغْدُو المُدُنُ الآهِلَةُ والقُرَى العَامِرَةُ خَرَابًا، والحُقُولُ والبَسَاتِينُ الغَنَّاءُ يَبَابًا".

obeikan.com

الكِنَـايَة

تعريف الكناية لغة: "الكِنَايَةُ من الاكْتِنَان، وهو السَّتْر، وأَصْلُهَا كِنَانَة، وإنَّمَا قُلِبَتْ النُّونُ يَاءً هَرَبًا مِنْ تَكْرَارِ نُونَيْن"[1]. فالكِنَايَةُ أنْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ، وتُرِيدُ غَيْرَهُ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْه. وهِيَ الكَلَامُ عَلَى الشَّيْءِ عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مُبَاشِر، إذْ هِيَ عَكْسُ الإيضَاح، وعَكْسُ المُصَارَحَة. قال أحمد شوقي في الغزل:

يَـــا فَتَـــاةَ العِـــرَاقِ، أَكْـــتُمُ مَـــنْ أَنْـــ ـــــتِ، وأَكْنِـــي عَـــنْ حُـــبِّكُمْ بِـــالعِرَاقِ

الكناية اصطلاحا: عرّف الجرجاني الكنايةَ بقوله: "هِيَ أنْ يُرِيدَ المُتَكَلِّمُ إثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ المَعَانِي، فَلَا يَذْكُرُهُ بِاللَّفظِ المَوْضُوعِ لَهُ فِي اللُّغَة، ولَكِنْ يَجِيءُ إلَى مَعْنًى هُوَ تَالِيهِ ورِدْفُهُ فِي الوُجُود، فَيُومِئُ بِهِ إلَيْه، ويَجْعَلُهُ دَلِيلًا عَلَيْه"[2]. ولقد اشتهر في الكناية التعريفُ الآتي: "الكِنَايَةُ لَفْظٌ أُطْلِقَ، وأُرِيدَ بِهِ لَازِمُ مَعْنَاه الحَقِيقِي، مَعَ قَرِينَةٍ لا تَمْنَعُ مِنْ إرَادَةِ المَعْنَى الأصْلِيّ"[3].

أقسام الكناية:

1)الكناية عن صفة: "وهِيَ الكِنَايَةُ الَّتِي يَسْتَلْزِمُ لَفْظُهَا صِفَةً مِنَ الصِّفَات"[4]، كالنّدم، وكالبُخْل، والكَرَم، والشَّجَاعَة، والجُبْن، والذَّكَاء، والحُمْق، وغَيْرِهَا مِنَ الصِّفَات. ومن نماذجها قول الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة:

يَـــا لَمَجْـــدٍ مُضَـــيَّعٍ غَيْـــرُ مُجْـــدٍ عَـــضُّ كَـــفٍّ عَلَيْـــهِ أَوْ قَـــرْعِ سِـــنِّ

فالشاعر ذكر صفتين (عضّ الكفّ)، و(قرْع السّن)، وتلك صفتان غير مقصودتين، وإنما كان مُراد الشاعر صفتين لازمتين عنهما، وهما الندم والحسرة.

ومن نماذجها قول محمد العيد مخاطبا شهر رمضان الكريم:

حَمَلْـــتَ لَهَـــا مِـــنَ الزَّيْتُـــونِ غُصْـــنًا كَمَـــا حَمَلَتْـــهُ سَـــالِفَةُ الحَمَـــامِ

فالشاعر يريد القول إن شهر رمضان الفضيل يحمل للبَرَايَا التراضيَ والسلام بعد العداواتِ والخصام، لكنه عبّر عن تلك الصفات المقصودة بصفة أخرى غير مقصودة في ذاتها، وهي (حمل غصن الزيتون).

ومن الكناية عن الصفة قول علي الجارم:

لا يَنْـــزِلُ الضَّـــيْفُ صُـــبْحًا عُقْـــرَ دَارِهِـــم إلّا ويُمْسِـــي عِشَـــاءً صَـــاحِبَ الـــدَّارِ

فالشاعر ذكر صفة امتلاك الضيف للدّار، وهي ليست الصفة المقصودة، بل أراد صفة ثانية لازمة عنها، وهي صفة الكرم، فلفظ (صاحب الدّار) هو اللفظ الذي كنى به، والكرم هو المعنى الذي كنى عنه.

ومنها قول علي الجارم أيضا:

---

[1] جوهر الكنز لابن الأثير الحلبي ص 100.
[2] دلائل الإعجاز للجرجاني ص 105.
[3] علم البيان عبد العزيز عتيق ص 203.
[4] علوم البلاغة مرجع سابق ص 243.

فَوَقَفْـــــتَ فَانْحَنَـــــتِ الـــــرُّؤُو سُ فَكُنْـــتَ أَعْلَـــى النَّـــاسِ كَعْبَـــا

فانحناء الرؤوس كناية عن صفة الاحترام والإجلال، وعلوّ الكعب كناية صفة عن التفوق والتميّز.

ومن كنايات الصفة قول علي الجارم في الغزل:

عَلِقْتُهَـــا صَـــامِتَةَ الحَجْلَـــيْنِ أنْصَـــعَ مِـــنْ سَـــبِيكَةِ اللّجَـــيْنِ

فالشاعر يصف من تعلّق بها، فيقول إنها صامتة الخلخالين، أي لا يُسمع لهما حسّ، وهي كناية عن امتلاء ساقيها.

ومنها قول محمود سامي البارودي في صفة الكرم:

فَـــزُرْهُمْ تَجِـــدْ مَعْـــرُوفَهُمْ دَانِـــيَ الجَنَـــى عَلَيْـــكَ وبَـــابَ الخَيْـــرِ لَـــيْسَ لَـــهُ قُفْـــلُ

ومنها قول أحمد شوقي مفتخرا بقومه:

يَا ابْـــنَ الَّذِيـــنَ إذَا الحُـــرُوبُ تَنَـــابَعَتْ صَلَّـــوْا عَلَـــى حَـــدِّ السُّيُـــوفِ وصَـــامُوا

فالشاعر يثبت علوّ كعبٍ في التصوير، ويذكر صفةَ صلاةِ وصيام قومه على حدِّ السيوف، ولكنها ليست الصفة المقصودة في ذاتها، بل الصفة التي قصدها الشاعر هي شجاعة قومه في الحروب، وملازمتهم للسيوف، مثلما يلزم المتعبد صلاته وصيامه.

ومنها قول معروف الرصافي في قصيدة "مليكة غناء العرب":

نَكَـــادُ إذَا هِـــيَ غَنَّـــتْ نَطِيـــرُ إِلَيْهَـــا بِأَجْنِحَـــةٍ مِـــنْ طَـــرَبْ

وإنْ هِـــيَ قَامَـــتْ لإنْشَـــادِهَا جَثَوْنَـــا لَهَـــا وثَنَيْنَـــا الرُّكَـــبْ

في البيت الأول كناية عن صفة الإعجاب أو الانبهار بغناء المطربة، وفي البيت الثاني كناية لطيفة عن صفة الإنصات أو الإصغاء للطرب الأصيل.. فكأنّ على رؤوسهم الطّير.

ومن كنايات الرصافي قوله مخاطبا قومه:

فَقَـــدْ بَـــحَّ صَـــوْتِي واسْتَشَـــاطَتْ جَـــوَانِحِي وقَـــلَّ اصْـــطِبَارِي واسْـــتَطَالَ بُكَـــائِي

ومن نماذج الكناية عن الصفة قول فوزي المعلوف في شأن النازحين عن لبنان بسبب الحرب:

وَدَّعُوهَـــا والمَـــاءُ مِـــلْءُ المَـــآقي لنَوَاهَـــا والنَّـــارُ مِـــلْءُ الكُبُـــود

فالشاعر ذكر النازحين عن وطنهم، ونسب إليهم صفتين: الأولى: (امتلاء المآقي بالماء)، والثانية: (تأجّج النار في الأكباد)، ولكن الشاعر لم يُرد تلك الصفتين، وإنما أراد الصفة اللازمة عن كلٍّ منهما، أي: الحزن الشديد، وحرقة القلب.

ومن الكنايات الراقية قول الشاعر القروي مفاخرًا بقومه العرب:

تَمِيـــدُ بِنَـــا الجِبَـــالُ إذَا زَحَفْنَـــا وتَـــرْتَجُّ السُّـــهُولُ بِنَـــا ارْتِجَاجَـــا

سَـــنَفْتَحُ فِـــيكُمُ لِلْمَـــوْتِ سُـــوقًا تُلاقِـــي فِـــي صُـــفُوفِكُمُ رَوَاجَـــا

في البيت الأول كناية عن صفة القوّة والبأس، وفي البيت الثاني كناية عن صفة التّهديد والوعيد.

ومن كنايات القرويّ الخالدة قوله:

والعَـــالَمُ العَرَبِـــيُّ يَـــرْهَنُ سَـــيْفَهُ فِحِكَايَـــةُ الشَّـــرَفِ الرَّفِيـــعِ سَـــرَابُ

فالصفة المذكورة، وهي غير مقصودة لذاتها هي (يرهن سيفه)، والصفة المقصودة اللازمة عنها هي صفة الجبن والخَوَر، نقول إنّ (رهن السيف) هو اللفظ الذي كَنَى به الشاعر، والجُبْنُ هو المعنى الذي كَنَى عنه.

ومنها قولُ إيليا أبي ماضي في صفة الجُبْن:

وقُلُـوبُهُـم قـدْ أسْـرَعَـتْ ضَـرَبَـاتُـهَـا وتَـظُـنُّـهَـا وَقَـفَـتْ عَـنِ الخَفَقَـانِ

مُتَلَفِّتِـينَ إلَـى الـوَرَاءِ بِـأَعْيُنٍ تَتَخَيَّـلُ الأعْـدَاءَ فـي الأجْفَـانِ

ومن الكنايات الظريفة قول محمود غنيم:

أأَنْشِـئُ كُـلَّ يَـوْمٍ أَلْـفَ بَيْـتٍ وأَسْـكُنُ بَعْـدَ ذَلِـكَ بِـالكِرَاءِ؟

الشطر الأول كناية عن صفة الإكثار في الشعر، أي أنه شاعر مكثر، والشطر الثاني كناية عن صفة الفقر.

ومن هذا النوع من الكنايات قول مصطفى صادق الرافعي:

ولَـوْ هَـبَّ النَّسِـيمُ عَلَـيَّ يَوْمًـا لَزَحْزَحَنِـي ورَبِّـكِ عَـنْ مَكَـانِي

فالشاعر يشكو فراق من يحبُّ، وقد نسب لجسده صفة غير مقصودة لذاتها (زَحْزَحَتُه عن مكانه بفعل هبوب النسيم)، وإنما أراد الصفة اللازمة عن تلك الصفة، وهي صفة النحول، والهزال.

- أمّا الآن فسأتركك أيّها القارئ الكريم مع طائفة مختارة من كنايات الشاعر الكبير نزار قبّاني، هذا الأديب الذي لا تكاد تقع عينك على بيت له، أو سطر، أو جملة، إلا وقد ضمّنها كناية رائعة، فكأنما هو يغرف الكنايات من البحر، أو كأنما يدّخرُها في علب!

- يقول نزار قباني: "يُرِيدُ بَعْضُ النُّقَادِ القَوْلَ إنَّ جَمِيعَ الثِّيَابِ الّتِي لَبِسْتُهَا خِلَالَ أرْبَعِينَ عَامًا كَانَتْ مَلَابِسَ مُسْتَعْمَلَة، وإنَّ كُلَّ القُمَاشِ الّذي اسْتَعْمَلْتُهُ كَانَ مِنْ وَبَرِ الجَمَل، وإنَّنِي لا أزَالُ أرْبِطُ نَاقَتِي عَلَى أبْوَابِ فَنَادِقِ لُنْدُن، إنَّ القَصِيدَةَ العَمُودِيَّةَ بَدَأَتْ تُلَمْلِمُ ثِيَابَها، وتَجْمَعُ حَقَائِبَهَا مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيل، ولَيْسَ مِنْ مَكَارِمِ الأخْلاقِ في شَيْءٍ أنْ نَرْمِيَهَا هِيَ وحَقَائِبَهَا مِنَ النَّافِذَة".

- وقال في مَنْ يعترضون على شعره التجديدي: "طَبْعًا أنَا لا أُسْقِطُ الحُطَيْئَةَ والفَرَزْدَقَ والنَّابِغَةَ مِنْ شَجَرَةِ العَائِلَة، ولَكِنَّنِي بالتَّأكِيدِ لا أَطْلُبُ إذْنَهُمْ، وأُهَاتِفُهُمْ كُلَّمَا جَلَسْتُ لأكْتُبَ قَصِيدَة."

- ومن شعره الكنائي قوله:

لأنَّنِي حَاوَلْتُ أنْ أكْشِفَ عنْ حُزني وعنْ بلائي

ضُرِبْتُ بالحِذاء

يا سيِّدِي السُّلْطان

لأنَّ نِصْفَ شَعْبِنَا ليس لهُ لِسَان..

نُرِيدُ جِيلًا يَفْلَحُ الآفَاق
ويَنْكُشُ التَّاريخَ مِنْ جُذُوره
ويَنْكُشُ الفِكْرَ من الأعْمَاق
نُريدُ جِيلا لا يَنْحَنِي.. لا يَعْرِفُ النِّفَاق
يا أيُّهَا الأطْفال
أنتُم الجِيلُ الذي سَيَكْسِرُ الأغْلَال
ويَقْتُلُ الأقْبُيونَ في رُؤُوسِنَا
ويَقْتُلُ الخَيَال.

- وقال أيضا:

ما زِلْنَا مُنْذُ حُزَيْرَان...نَحْنُ الكُتّاب
نَتَمَطّى فَوْقَ وَسَائِدِنَا
نَرْكَبُ أحْصِنَةً مِنْ خَشَب
ونُقَاتِلُ أشْبَاحًا وسَرَاب.

- ولنزار:

ونَلْبَسُ جِلْدَ النُّمُورِ ونَحْنُ حَمَام
ونَزْعُمُ أنّا جِبَال
ونَحْنُ نَطِيرُ بكلّ اتّجَاه كَرِيش النّعام.

- وقال أيضا:

فَمَا زِلْنَا نُطَقْطِقُ عَظْمَ أرْجُلِنَا
ونَقْعُدُ في بُيُوتِ اللهِ نَنْتَظِرُ
بأنْ يَأتيَ الإمامُ عليّ.. أوْ يأتي لنا عُمَرُ
ولنْ يأتوا.. ولنْ يأتوا
فلا أحَدَ بِسَيْفِ سِوَاهُ يَنْتَصِرُ.

2)الكناية عن موصوف: "وهِيَ الكِنَايَةُ الَّتِي يَسْتَلْزِمُ لَفْظُهَا ذَاتًا، أوْ مَفْهُومًا"[1]، كالرَّجُل، والمَرْأَة، والوَطَن، والقَلْب، والمَوْت، وغَيْرِها. قال محمود غنيم بمناسبة تكريم الأديب عزيز أباظة:

عَصْــرُ الحُسَــامِ وعَصْــرُ الــذّرَّةِ اقْتَرَنَــا فِــي شِــعْرِهِ، والْتَقَــى الصَّــارُوخُ بِالجَمَــلِ

[1] علوم البلاغة مرجع سابق ص 245.

obeikan.com

ذكر الشاعرُ (عصر الحُسام)، والتركيبُ كناية عن موصوف هو العصر القديم، و(عصر الذرة) وهو كناية عن موصوف هو العصر الحديث، وفي لفظ (الصاروخ) كناية عن موصوف أيضا هو الأدب الحديث، وفي لفظ (الجَمل) كناية عن موصوف كذلك هو الأدب القديم.

ومن هذا النوع من الكناية قول "شاعر النيل" في الحرب اليابانية الرُّوسية:

قَـــدْ أَقْسَـــمَ البِـــيضُ بِصُـــلْبَانِهِمْ ... لا يَهْجُـــرُونَ المَـــوْتَ أوْ يُنْصَـــرُوا

وأَقْسَـــمَ الصُّـــفْرُ بِأَوْثَـــانِهِمْ ... لا يَغْمِـــدُونَ السَّـــيْفَ أوْ يَظْفَـــرُوا

أشْـــبَعْتِ يَـــا حَـــرْبُ ذِئَـــابَ الفَـــلَا ... وغَصَّـــتِ العِقْبَـــانُ والأَنْسُـــرُ

إنْ كَـــانَ هَـــذَا الـــدُّبُّ لا يَنْثَنِـــي ... وذَلِـــكَ التِّنِّـــينُ لا يُقْهَـــرُ

في البيت الأول ذكر حافظ إبراهيم كلمة (البِيض)، وهي كناية عن موصوف، هو الشعب الياباني، وفي البيت الثاني ذكر كلمة (الصُّفر)، وهي كناية عن موصوف، هو الشعب الروسي، أما البيت الثالث فهو كناية عن صفة، لا موصوف، وهي كثرة القتلى في تلك الحرب، وأما في البيت الرابع، فقد ذكر الشاعر لفظتين: (الدُّب)، و(التِّنِّين)، الأولى كناية عن موصوف، هو روسيا، والثانية كناية عن موصوف، هو اليابان.

ومن النماذج الرفيعة لهذا النوع من الكناية قول مصطفى صادق الرافعي في حجاب المرأة المسلمة:

أَلَا أَبْقُـــوا الحِجَـــابَ عَلَـــى الغَـــوَانِي ... قَـــدِ اشْـــتَبَهَ الحَمَـــائِمُ والصُّـــقُورُ

فالحمائم كناية عن موصوف هو الفتيات، والصقور كناية عن موصوف هو الشباب.

ومنها قول علي الجارم:

خُلُـــقٌ كَمَـــا يَصْـــفُو النَّضَـــارُ وطَلْعَـــةٌ ... أَزْهَـــى مِـــنْ ابْـــنِ اللَّيْـــلِ فِـــي هَالَاتِـــهِ

والمقصود من (ابن الليل) القمر، وهو كناية عن موصوف.

ومنها قول الجارم أيضا:

نَغَـــمُ الشِّـــعْرِ فِـــي رُبَـــا جَنَّاتِـــهِ ... أَسْـــكَتَ ابْـــنَ الغُصُـــونِ فِـــي دَوْحَاتِـــهِ

فـ (ابن الغصون) كناية عن موصوف هو الطير المغرد.

ومنها قول على الجارم أيضا:

ودَمُ الشَّـــبَابِ لَـــهُ رَوَائِـــعُ نَشْـــوَةٍ ... مَـــا نَالَهَـــا يَوْمًـــا دَمُ العُنْقُـــودِ

فـ (دمُ العنقود) كناية عن موصوف هو الخمر.

ومنها قول محمود سامي البارودي في وصف الخمر:

إذَا وَلَجَـــتْ بَيْـــتَ الضَّـــمِيرِ رَأَيْتَهَـــا ... وَرَاءَ بَنَـــاتِ الصَّـــدْرِ تَسْـــفُلُ أَوْ تَعْلُـــو

فـ (بيتُ الضمير) كناية عن القلب، و(بناتُ الصّدر) كناية عن الهموم.

ومن أمثلتها كذلك قول شاعر المهجر رشيد أيوب:

تَـذَكّرتُ أوطَـاني عَلـى شَـاطِىء النّهـرِ فَجَـاشَ لَهِيـبُ الشّـوقِ فـي مَوضـعِ السِّـرِّ

فـ (موضع السِّر) كناية عن موصوف، هو الفؤاد.

ومنها قول خليل مطران:

فَيَـــا كِرَامًـــا أقَرَّتْنِـــي حَفَـــاوَتُهُمْ بِحَيْـــثُ يَحْسُـــدُنِي أَرْبَـــابُ تِيجَـــانِ

دُومُـــوا ودَامَـــتْ بِـــلَا عَـــدٍّ مَفَـــاخِرُكُمْ مُخَلّـــدَاتٍ لِأَزْمَـــانٍ فَأَزْمَـــانِ

والعِـزُّ والجَـاهُ فِـي هَـذَا الحِمَـى أَبَـدًا بِكُـمْ جَدِيـدَانِ مَـا كَـرَّ الجَدِيـدَانِ

ففي قول الشاعر: (أرباب التيجان) كناية عن موصوف هو الملوك، وفي قوله: (الجديدان) كناية عن موصوف هما الليل والنهار، وأمّا قوله: (العزُّ والجاهُ في هذا الحمى) كناية عن نسبة، سيأتي الحديث عنها بعد هذا النوع من الكناية.

ومن أمثلة الكناية عن الموصوف قول محمد العيد آل خليفة:

أيُّهَـــا المُحْتَفُـــونَ بِالضَّـــادِ هَـــذَا حَـــرَمُ الضَّـــادِ فِـــي سُـــمُوٍّ وأَمْـــنِ

فـ (الضّادُ) كناية عن موصوف، هو اللغة العربية.

كما يكنى عن اللغة العربية بـ (بنت الصحاري) على حدّ قول علي الجارم في المدح:

تُنَـــافِحُ عَـــنْ بِنْـــتِ الصَّـــحَارِي مُشَـــمِّرًا وتَفْـــتَحُ مِـــنْ أَسْـــرَارِهَا كُـــلَّ مُغْلَـــقِ

وكنى عنها الشاعرُ علي الجارم بـ (سليلة عدنان) حين أنشد متحدثا عن مصر:

وأعَـــادَتْ إِلَـــى سَـــلِيلَةِ عَـــدْنَا نَ شَـــبَابًا غَضًّـــا ومَجْـــدًا أَثِـــيلَا

ومن نماذجها النثرية قول رفاعة الطهطاوي يصف رحلة في البحر: "وبَعْدَهَا عَصَفَتِ الرِّيَاح، وتَلَاعَبَ مَاءُ البَحْرِ بِذَاتِ الأَلْوَاح، تَلَاعُبَ الأَشْبَاحِ بِالأَرْوَاح." ففي قوله (ذات الألواح) كناية عن موصوف هو السفينة.

ومن أمثلتها قول ميخائيل نعيمة: "وفِي هَذَا السَّيْلِ الجَارِفِ مِنَ القِيلِ والقَالِ كَلِمَاتٌ تَتَرَدَّدُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا عَلَى كُلِّ شَفَةٍ ولِسَان: الذَّهَبُ الأَسْوَدُ، والذَّهَبُ الأَصْفَر..."، فالذهب الأسود كناية عن موصوف هو البترول.

ومن الكناية عن الموصوف قول جبران على لسان المطر: "أَنَا خُيُوطُ فِضَّةٍ تَطْرَحُنِي الآلِهَةُ مِنَ الأَعَالِي، أَنَا لآلِئُ جَمِيلَةٌ سَرَقَتْنِي ابْنَةُ الصَّبَاح، ورَصَّعَتْ بِيَ الحُقُول".فـ (ابنة الصباح) كناية عن موصوف هو الشمس.

3) الكناية عن نسبة: "وهِيَ الكِنَايَةُ الَّتِي يَسْتَلْزِمُ لَفْظُهَا نِسْبَةً بَيْنَ الصِّفَة وصَاحِبِهَا المَذْكُورَيْنِ فِي اللَّفْظ"[1]، وتَتَمَيَّزُ هَذِهِ الكِنَايَةُ عَنِ النَّوْعَيْنِ السَّابِقَيْن بأَنَّ المَعْنَى الأَصْلِيَّ لِلْكَلَامِ غَيْرُ مُرَادٍ فِيهَا، وبِأَنَّنَا نُصَرِّحُ فِيهَا بِذِكْرِ الصِّفَةِ المُرَادِ إِثْبَاتُهَا لِلْمَوْصُوف، وإِنْ كُنَّا نَمِيلُ بِهَا عَنِ المَوْصُوفِ نَفْسِهِ إِلَى مَا لَهُ اتِّصَالٌ بِه.

[1] علوم البلاغة ص 247.

قال الجرجاني: "إنَّهُمْ يَرُومُونَ وَصْفَ الرَّجُل، ومَدْحَهُ، وإثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ المَعَانِي الشَّرِيفَةِ لَه، فَيَدَعُونَ التَّصْرِيحَ بِذَلِك، ويَكْنُونَ عَنْ جَعْلِهَا فِيه، بِجَعْلِهَا فِي شَيْءٍ يَشْتَمِلُ عَلَيْه، ويَلْتَبِسُ بِه، ويَتَوَصَّلُونَ فِي الجُمْلَةِ إِلَى مَا أرَادُوا مِنَ الإثْبَات، لا مِنَ الجِهَةِ الظَّاهِرَةِ المَعْرُوفَة، بَلْ مِنْ طَرِيقٍ يَخْفَى، ومَسْلَكٍ يَدِقّ"[1].

وهذه طائفة من نماذجها:

قال شاعر النيل حافظ إبراهيم:

إنِّـــي لَأبْصِـــرُ فِـــي أثْنَـــاءِ بُرْدَتِـــهِ نُـــورًا بِـــهِ تَهْتَـــدِي لِلْحَـــقِّ ضُـــلّالُ

وإليك شرح هذا النوع من الكناية: صرّح حافظ إبراهيم بالموصوف (الممدوح) المعبَّر عنه بضمير الغائب في (بُرْدَتِهِ)، وصرّح بصفة (النُّور)، ولكنه لم يصرّح بالنسبة بين هذه الصفة والممدوح، بل صرّح بنسبة أخرى (إثبات النُّور إلى البردة)، وهذه النسبة تستلزم النسبة المُرادة، وهي نسبة تلك الصفة إلى الممدوح، فنقول إذن إنّ الشاعر قد نسب النُّور إلى بردة الممدوح، ومنها إلى الممدوح نفسه.

وقال حافظ إبراهيم في مدح شيخين:

خَمْسُـــونَ عَامًـــا فِـــي الجِهَـــادِ كَلَاهُمَـــا شَـــاكِي اليَرَاعَـــةِ طَـــاهِرُ الجِلْبَـــابِ

صرّح الشاعر بالموصوف (الممدوحان)، المعبّر عنهما بضمير الغائب (هما)، وصرّح بصفة الطهارة، ولم يصرّح بالنّسبة بين هذه الصفة والموصوفَين، بل نراه يصرّح بنسبة أخرى (إثبات الطهارة للجلباب)، وهذه النسبة تستلزم النسبة المُرادة، وهي نسبة هذه الصفة (الطهارة) إلى الممدوحَين، فالشاعر نسب الطهارة إلى الجلباب، ومنها إلى الممدوحَين.

ومنها قول نزار قباني:

غَيْـــرَ أنَّ الهَـــوَى يَصِـــيرُ ذَلِـــيلًا كُلّمَـــــا ذَلَّ لِلرِّجَـــــالِ جَبِـــــينُ

حيث نسب الشاعرُ الذُّلَّ إلى الجبين، ومنه إلى الرِّجال.

ومن نماذج الكناية عن الموصوف قول محمد العيد أيضا:

وهَـــلْ يَبْسُـــطُ الإسْـــلَامُ فِـــي الأرْضِ ظِلّـــهُ وتَنْتَشِـــرُ الفُصْـــحَى وتَعْلُـــو العَمَـــائِمُ؟

الشاعر نسب العلوّ والمجد إلى عمائم العرب، ومنها إلى العرب أنفسهم.

ومن كنايات النسبة قول ناصيف اليازجي:

الفَخْـــرُ بـــينَ بُرُوجـــهِ وسُـــرُوجِهِ والنَّصْـــرُ بـــينَ سُـــيُوفِهِ ورِمَاحِـــهِ

ناسبًا الجودَ إلى السَّرير، والنصرَ إلى اللواء، ومنهما إلى الممدوح.

ومن نماذجها قول خليل مطران:

غَانِيَـــةٌ فِـــي جَمَـــالِ صُـــورَتِهَا مَـــا تَشْـــتَهِيهِ المُنَـــى مِـــنَ الصُّـــوَرِ

[1] المفصل في علوم البلاغة ص 542.

حيث نسب الشاعرُ الاشتهاء إلى المُنى، ومنها إلى نفسه.

ومن أمثلتها كذلك قول خليل مطران واصفًا أخلاقَ عَرُوسٍ ممدوحه:

مِـــنْ بَيْـــتِ مَجْـــدٍ فَارَقَتْـــهُ فَضَـــمَّهَا بَيْـــتٌ كَفِيلَـــةُ مَجْـــدِهِ الأَدْهَـــارُ

حيث نسب الشاعرُ في صدر البيت المجدَ إلى العروس وأهلها، حين نسبهُ إلى بيتها، وكذلك فعل في العجز: حيث نسب المجد إلى البيت، ومنه إلى الممدوح.

ومن أمثلة هذا النوع من الكناية قول الشاعر علي الجارم في شأن شعراء لبنان الذين هاجروا إلى أمريكا:

نَزَحُـوا عَـنِ الأَوْطَـانِ فِـي طَلَـبِ العُـلا والعَـــزْمُ مِـــلْءُ حَقَائِـــبِ النَّـــزَّاح

نسب الشاعرُ العزمَ إلى الحقائب، ومنها إلى تلك "الطُّيُورِ المُهَاجِرَة".

ومن نماذجها أيضا قول علي الجارم:

للنَّصْـــــرِ فِـــــي أعْلَامِهِـــــمْ صِـــــلَةٌ بِأَبْنَـــــاءِ الغُمُـــــودِ

حيث نسب الشاعرُ النصرَ إلى الأعلام، ومنه إلى الممدوحين. أمّا قوله (أبناء الغمود) فهي كناية عن موصوف هو (السيوف).

ومن نماذجها النثرية قول أحمد حسن الزيات: "مَاذَا تَفْهَمُ مِنَ الشِّتَاءِ يَا ابْنَ مِصْرَ الضَّحُوك؟ هَلْ تَفْهَمُ مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ أَسَابِيعُ مِنْ عُمْرِ العَام، لَا تَدْرِي أَهِيَ أَوَاخِرُ خَرِيفِه، أَمْ أَوَائِلُ رَبِيعِه؟ هَلْ تَجِدُ فِي جِسْمِكَ غَيْرَ دِفْءِ النِّعْمَة؟ وفِي نَفْسِكَ غَيْرَ بَهْجَةِ الأَرْض؟ وفِي عَيْنِكَ غَيْرَ إِشْرَاقِ الجَمَال؟"

وقد وقعت الكنايات بالنسبة في قوله: (هَلْ تَجِدُ فِي جِسْمِكَ غَيْرَ دِفْءِ النِّعْمَة؟ وفِي نَفْسِكَ غَيْرَ بَهْجَةِ الأَرْض؟ وفِي عَيْنِكَ غَيْرَ إِشْرَاقِ الجَمَال؟) فقد نسب الدفء إلى النعمة، ومنها إلى الجسم، ونسب البهجة إلى الأرض، ومنها إلى النفس، ونسب الإشراق إلى الجمال، ومنه إلى العين.

ومن كنايات النِّسبة قولُ الشاعر:

إِنْ حَـــلَّ حَـــلَّ الجُـــودُ فَـــوْقَ سَـــرِيرِهِ أَوْ سَـــارَ سَـــارَ النَّصْـــرُ تَحْـــتَ لِوائِـــهِ

ومنها قول الشاعر:

وَخَـــــيَّمَ المَجْـــــدُ بِسَـــــاحَتِهِ وَفَـــاضَ بَحْـــرُ الجُـــودِ فِـــي بُرْدَتِـــهِ

ومثلها أيضا قول الآخر:

ورُحْـــتَ فَـــوْقَ جَـــوَادٍ كالعُقَـــابِ جَـــرَى والجُـــودُ فِـــي سَـــرْجِكَ والمَجْـــدُ والخَيْـــرُ

بلاغة الكناية:

الغَرَضُ من الكناية هو المُبالغة، والبُعْدُ عن المباشرةِ، والمبالغةُ في الصفة سبيلٌ إلى تثبيتها في النفوس، لذلك يَعتبر الجاحظُ الكنايةَ أبلغ من التَّصريح، وهي أبلغُ من الإفصاح عند الجرجاني، فللكناية قيمةٌ بلاغية، "وهي أسلوب ذكي من أساليب التعبير عن المراد، وهي من أبدع وأجمل فنون الأدب، ولا يستطيع تصيّد

الجميل النادر منها إلا أذكياء البلغاء وفطناؤهم، وممارسوا التعبير عما يريدون التعبير عنه بطرق جميلة بديعة غير مباشرة،"[1]. ومن حسنات الكناية تجسيد المعاني، وإبرازها في صور محسوسة، تزخر بالحياة والحركة، فيكون ذلك أدْعى لتأكيدها ورسوخها في النفس، ومن حسناتها أيضا أننا نستطيع أن نعبّر بوساطتها عن كثير ممّا نتحاشى التصريح به، فهي باب واسع، تجد النفس فيها المكمن الآمن، والطريق السالك، والمسلك الخالي من كل ما يجلب التعب، والأذى، "ألا ترى أن أسلوب الكناية يمكّنك أن تشفيَ غليلك؟ فكم كلمةٍ لا تودُّ التصريح بها ترفّعا، فتجد في الكناية متنفسا، فتنتقل من المعنى المكشوف إلى المعنى المكسوف، وربما كان ذلك خشية لا ترفّعا، فتنال بأسلوب الكناية من خصمك، وتبلغ ما لا تستطيعه في غيرها، فتشفي غلة نفسك، دون أن تجعل له إليك سبيلا"[2] هذا "ومن أوضح ميزات الكناية التعبير عن القبيح بما تسيغ الآذانُ سماعه، وأمثلة ذلك كثيرة جدا في القرآن الكريم، وكلام العرب، فقد كانوا لا يعبّرون عمّا لا يحسُن ذكره إلا بالكناية، فيذكر الواحدُ منهم المعاني التي يريدها، دون أن يخدش وجه الأدب".[3]

التدريب الأول: عيّنْ نوع الكناية ممّا يأتي، واشرحها:

- كتب أحمد حسن الزَّيات يصفُ حديقةً قال: "كنتُ أغْشَى كلَّ صباحٍ هذا المُجْتَلَى السَّاحر، فَهَا هِيَ ذِي أُمُّ الكَوْنِ قدْ لَأْلَأَتْ بِسِهَامِهَا ذَوَائِبَ النَّخْل، وبَنَاتُ الهَدِيل يَبْحَثْنَ كَعَادَتِهِنَّ في فُروع التِّين، وهُنَّ يُرَجِّعْنَ علَى التَّقَاعُدِ أَلْحَانَ الخَرِيف، والسُّكُونُ مَرْهُوبُ الجَلَال، يَعْمُقُ ثُمَّ يَعْمُقُ حتَّى تَكاد تَسْمَعُ صوْتَ النَّبَاتِ وهو يَنْبُتُ، وطِفْلَان يَجِينَانِ أحْيَانًا إلى الحَدِيقَة، فلَوْلَا حَرَكَتُهُمَا لَحَسِبْتَهُمَا زَهْرَتَيْنِ من زُهُورِها. أسِيرُ في الرَّوْضَةِ، وأسْأَلُ النَّبْتَةَ الوَلِيدَةَ بالأَمْسِ مَا حَظُّهَا اليَوْمَ مِنْ سِرِّ الحَيَاةِ، ونِعْمَةِ الوُجُود؟ فأَيُّ مَنْظَرٍ يَسْحَرُ اللُّبَّ، ويَمْلِكُ الطَّرْفَ كهَذَا المَنْظَرِ الفَاتِنِ الفَتَّان؟!".

- قال نزار قبّاني في تعليقه على هزيمة العرب: "أهمُّ مَا فَعَلَهُ حُزَيْرَانُ هُوَ أَنَّهُ رَمَانَا جَمِيعًا مِنْ خَلْفِ مَكَاتِبِنَا، وقَلَبَ مَقَاعِدَنَا، وقَذَفَ كُتُبَنَا وأَوْرَاقَنَا وأَقْلَامَنَا إلى الشَّارِع، حُزَيْرَانُ غَرَزَ دَبُّوسًا حَادًّا في عَقْلِنَا، كَسَرَ كُلَّ طَوَاحِينِ الهَوَاءِ التي كَانَتْ تَدُورُ في دَاخِلِنَا، ولا تَطْحَنُ شَيْئًا، ثَقَبَ كُلَّ أَكْيَاسِ الغُرُورِ والعَنْتَرِيَّات، التي كَانَتْ تَمْلَأُ جَمَاجِمَنَا، حُزَيْرَانُ كَنَسَ مُسْتَعْمَرَاتِ العَنْكَبُوتِ في رُؤُوسِنَا، واغْتَالَ جَمِيعَ الخُرَافَات، مِنْ أَبِي زَيْدٍ الهِلَالِي، إلى الزِّير، إلى الشَّاطِرِ حَسَن، إلى السِّنْدِبَاد، إلى كُلِّ الأَبْطَالِ المَصْنُوعِينَ مِنْ مَادَّةِ الحُلُمِ والتَّمَنِّيَّات، والذين اخْتَبَأْنَا وَرَاءَهُمْ قُرُونًا لِنُخْفِيَ جُبْنَنَا، وعَجْزَنَا عَنْ أَنْ نَكُونَ أَبْطَالًا لِحِسَابِنَا الخَاص، كَانَ الخَامِسُ مِنْ حُزَيْرَانَ الجَنِينَ المَيِّت، الّذي حَمَلْنَاهُ إلى المَقْبَرَةِ لَيْلًا حَتَّى لا يَرَانَا المَارَّة، لا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبَرِّئَ نَفْسَهُ مِنْ دَمْ هَذَا الطِّفْل الّذي قُتِلَ فِي يَوْمِهِ السَّادِس، كُلُّنَا بِمَا فِي ذَلِكَ الجُدْرَانُ، والأَبْوَابُ، والأَشْجَارُ، ومَصَابِيحُ الطُّرُقَاتِ، غَارِقُونَ في التُّهْمَةِ حَتَّى الرُّكَب".

---

[1] البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها عبد الرحمان حسن الميداني الجزء الثاني ص 141.
[2] البلاغة فنونها وأفنانها الدكتور فضل حسن عباس ص 270 . 271.
[3] البلاغة الواضحة ص 132.

- قال أحمد أمين في وصفِ ثريٍّ: "لَمْ يَذُقْ يَوْمًا طَعْمَ الحَاجَة، كَانَ يَأْكُلُ فِي الحَيَاةِ مِنْ مَائِدَةٍ فَخْمَة، لَيْسَ فِيهَا تَوَابِل، ويَنْعَمُ دَائِمًا بِلَذَّةٍ لَمْ يُلَوِّنْهَا الشَّقَاء، لَمْ يُرْزَقْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا ابْنًا وَاحِدًا، وُلِدَ وفِي فَمِهِ مِلْعَقَةٌ مِنَ الذَّهَبِ كَمَا يَقُولُون، وقَدْ وَضَعَ فِيهِ كُلَّ أَمَلِهِ، وفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّام أَخَذَتِ الوَلَدَ الحُمَّى، فارْتَفَعَتْ حَرَارَتُه، وذَبُلَ جِسْمُه، واصْفَرَّ وَجْهُه، وبَذَلَ الأبُ كُلَّ مَا يَسْتَطِيعُ لِنَجَاتِه، لَكِنْ دُونَ جَدْوَى، ويَنْظُرُ الأبُ إِلَى مَزَارِعِهِ الفَسِيحَةِ، ودُنْيَاهُ العَرِيضَة، فَيَرَاهَا أَضْيَقَ مِنْ سَمِّ الخِيَاط، يَتَمَنَّى لَوْ جُرِّدَ مِنْ كُلِّ ثَرْوَتِهِ لِيَنْجُوَ ابْنُهُ مِنْ هَادِمِ اللَّذَّات، ولَكِنْ هَيْهَات هَيْهَات، فَقَدْ غَلَبَ القَدَرُ، وانْطَفَأَتْ شُعْلَةُ الوَلَد".

- ولأحمد أمين أيضا: "افْعَلْ مَا هُوَ صَحِيح، ثُمَّ أَدِرْ ظَهْرَكَ لِكُلِّ نَقْدٍ سَخِيف".

- وقال في المدنيَّة الحديثة: "إِنَّ المَدَنِيَّةَ الغَرْبِيَّةَ قَامَتْ عَلَى أَكْتَافِ أَشْخَاصٍ يُعَدُّونَ عَلَى الأَصَابِع، لَكِنَّنِي أَرَى أَنَّ العِلْمَ قَدْ أَسْرَعَ فِي السَّيْر، حَتَّى جَاوَزَ القَلْبَ بِمَرَاحِل، فَوَاجِبُنَا أَنْ نَمْنَحَ العِلْمَ إِجَازَة، حَتَّى يُدْرِكَهُ القَلْبُ.".

- قال صَاحِبُ النَّظَرَات: "جَاءَ أَبُو تَمَّام شَيْخُ الصِّنَاعَةِ اللَّفْظِيَّة، فسَلَكَ إِلى كَثِيرٍ مِنْ مَعَانِيهِ البَدِيعَةِ طَرِيقَ اللَّفْظِ المَصْنُوع، والأسْلُوبِ المُتَكَلَّف، فَثَغَرَ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ ثَغْرَةً أَلَحَّ عَلَيْهَا السَّائِرُونَ على أَثَرِهِ مِنْ بَعْدِهِ بأَظْفَارِهِمْ وأَنْيَابِهِمْ، حتَّى صَيَّرُوهَا فُوهَةً وَاسِعَة، لا تَمْنَعُ مَا وَرَاءَهَا، ولا تَدْفَعُ مَا أَمَامَهَا".

- وقال أيضا: "أَلَيْسَ غَرِيبًا فِي لُغَةِ الضَّادِ أَنْ يَكُونَ لِسَفِينَةِ البَرِّ مِئَتَا اسْم، ولا يَكُونُ لِسَفِينَةِ البَحْرِ القَلِيلُ مِنْ ذَلِكَ الحَظِّ الكَثِير؟!".

- قال ميخائيل نُعيمة: "نَحْنُ سَائِرُونَ إِلَى أَهْدَافِنَا، مَا فِي ذَلِكَ شَكّ، إِلَّا أَنَّنَا نَسِيرُ بِأَرْجِلِ السَّلَاحِف، وكَانَ فِي إِمْكَانِنَا أَنْ نَطِيرَ بِأَجْنِحَةِ النُّسُور.".

- وَصَفَ صَاحِبُ العَبْقَرِيَّاتِ أُسْلُوبَهُ في الكِتَابَة، قَال: "لَسْتُ مِرْوَحَةً للكُسَالَى النَّائِمِين".

التدريب الثاني: حدّد نوع الكناية في النماذج الآتية:

- قال توفيق زياد:

أنْ تُدْخِلُوا الفيلَ بِثُقْبِ إِبْرَهْ

وأنْ تَصِيدُوا السَّمَكَ المَشْوِيَّ في المَجَرَّهْ

أنْ تَحْرثوا البَحْرا

أن تُنْطِقوا التِّمْسَاح

أَهْوَنُ ألْفَ مَرَّهْ

مِنْ أنْ تُمِيتُوا باضْطِهَادِكُمْ وَمِيضَ فِكْرَه

- قالت فدوى طوقان في أطفال الحجارة:

رَفَعُوا القُلُوبَ عَلَى الأكُفِّ حِجَارَةً، جَمْرًا، حَرِيقْ

هذا أوانُ الشدّ!

واشتدَّتْ... ومَاتُوا واقفين... متوهّجين.

- قال محمود درويش (في ذكرى الشَّهيد الطفل محمد الدّرّة):

محمّد..

كان في وسْعِ صيَّادِهِ أنْ يُفكِّرَ بالأمرِ

ثانيةً، ويقولَ: سأتركُهُ ريثما يَتَهَجَّى

فِلَسْطِينَهُ دُونَ مَا خَطَأ...

وأقتلُه في غدٍ، عندما يَتَمَرَّدْ!

- قال نزار قباني:

تَقَيَّحَتْ أَفْخَاذُنَا

تَقَيَّحَتْ فِي رَأْسِنَا الأَفْكَارْ

وصَارَ لَحْمُ ظَهْرِنَا

جُزْءًا مِنَ الجِدَارْ

- وقال نزار قبّاني:

هَلْ جَاءَ زَمَانٌ

فِيهِ نَسْتَقْبِلُ إسْرَائِيلَ بِالوُرُودِ وآلافِ الحَمَائِم

والنَّشِيدِ الوَطَنِيّ؟

- قال الشاعر الجزائري محمد جربوعة واصفا حال الأمة العربية:

دَعِـــي الجِـــرَاحَ.. دَعِيهَـــا فِـــي أَكِنَّتِهَـــا ... ولا تَصُـــبِّي إنَـــاءَ الزَّيْـــتِ فِـــي الحَطَـــبِ

ألا أشِـيـبُ وزَهْـــرُ الشَّـــامِ تَـقْـطِـفُـــهُ ... أصَـابِـــعُ الإثْـــمِ والأشْـــلاءُ لـلـرُّكَـــبِ؟

وفِـــي العِـــرَاقِ نَخِيـــلٌ لَـــمْ يَـــنَمْ سَـــنَةً ... يُقَلِّـبُ الكَـفَّ طُـولَ اليَـوْمِ فِـي عَجَـبِ

وفِـــي طَرَابُلُـــسَ فَـوْضَـــى مِـنْ تَـدَاخُلِهَـا ... تَصُـومَ رَمضَـانَ فِـي العِشْرِيـنَ مِنْ رَجَـبِ

قَلْبِـــي مِـــنَ اللَّحْـــمِ حَسَّـــاسٌ ويُـــوجِعُنِي ... وكَـــمْ تَمَنَّيْـتُ لَـــوْ قَـــدْ كَـــانَ مِـــنْ خَشَـــبِ

وهَـــلْ أكُـــونُ طَبِيعِيًّـــا ومُنْسَجِمًـــا ... إنْ عِشْتُ شَهْرَيـنِ فِـي أَرْضِـي ولَمْ أشِـبِ؟

- وقال في شأن من يتغزل بها:

مُدَلَّلَـــةٌ، وتَشْـــهَقُ حِـــينَ تَبْكِـــي ... وتَعْقِـــدُ حَاجِبَيْهَـــا كَالصِّـــغَارِ

وتَطْلُـــبُ مَـــا تَشَـــاءُ يَجِـــيءُ فَـــوْرًا ... عَلَـــى التَّرْحِيـــبِ ، لَـــوْ لَـــبَنَ الكَنَـــارِي

نَمَـــتْ فِـــي القُطْـــنِ لَيِّنَـــةً ، وعَاشَـــتْ ... مُخَبَّـــأَةً كَلُؤْلُـــؤةِ المَحَـــارِ

- قال مفدي زكريا:

وقُـلِ: الجَزَائِـرُ واصْـغِ إنْ ذُكِـرَ اسْـمُهَا ... تَجِـــدِ الجَبَـــابِرَ سَـــاجِدِينَ ورُكَّعَـــا

- وقال مفدي زكريا:

ذَرُوا العَوَاطِـــفَ فَالرَّشَّـــاشُ يَجْهَلُهَـــا و(سَـــجْدَةُ السَّـــهْوِ) لَا تُحْيِـــي ضَـــحَايَانَا
يَا نَاعِـــسَ الطَّـــرْفِ هَلْ رَاعَتْـكَ مِحْنَتُنَـــا أمْ عَـــنْ كَـــوَارِثِنَا لَا زِلْـــتَ نَعْسَـــانَا؟

- قال علي الجارم يصف جيشا:

لَـــوْ صُـــبَّتِ الأمْطَـــارُ صَـــبًّا فَـــوْقَهُمْ مَـــا مَـــسَّ مَـــوْطِئَ نَعْلِهِـــمْ أمْطَـــارُ

- وقال الجارم مادحا:

مَسَـــحَتْ مِصْـــرُ بِـــهِ عَـــيْنَ الكَـــرَى بَعْـــدَ أَنْ طَـــالَ عَلَـــى مِصْـــرٍ كَرَاهَـــا

- وله أيضا في المدح:

عَقَـــــدُوا خَنَاصِـــــرَهُمْ عَلَـــــى صِـــــدْقِ الوَفَـــــاءِ أَشَـــــدَّ عَقْـــــدِ

- وقال الجارم:

يَـــا ابْنَـــةَ الـــيَمِّ لَا تُرَاعِـــي فَـــإِنِّي قَـــدْ رَأَيْـــتُ الأمُـــورَ جَـــزْرًا ومَـــدَّا

- قال خليل مطران:

المَجْـــــدُ رَهْـــــنُ إِشَـــــارَةٍ بِيَمِينِـــــهِ والنَّصْـــــرُ بَـــــيْنَ يَدَيْـــــهِ كَالمُنْقَـــــادِ
والفَخْـــــرُ فِـــــي رَايَاتِـــــهِ مُتَمَثِّـــــلٌ وطَلَائِـــــعُ العُقْبَـــــانِ فِـــــي تَـــــرْدَادِ
يُلْقِـــي الرِّجَـــالَ عَلَـــى الثَّـــرَى قَتْلَـــى كَمَـــا يُلْقِـــي السَّنَـــابِـــلَ مِنْجَـــلُ الحَصَّـــادِ

- وقال خليل مطران:

ولَبِئْـــتْ كُـــلِّ نَـــؤومِ الضُّـــحَى فِـــي لُجَـــجِ الأحْـــلَامِ تَسْـــتَبْحِرُ

- وقال خليل مطران في وصف دار ممدوحه:

ومَشِـــيدٌ مِـــنَ الصُّـــرُوحِ رَحِيـــبٌ جَمَـــعَ المَجْـــدَ كُلّـــهُ فِـــي فِنَـــاءِ

- قال محمود غنيم:

قَـــالُوا لَنَـــا: عَـــدَسٌ، فَـــأَفْزَعَنِي اسْـــمُهُ لِـــمَ لَا، وقَـــدْ تَكَـــوَّنَ مِنْـــهُ هَيْكَلِـــي
حَتَّـــى ظَفِـــرْتُ لَـــدَى الـــوَزِيرِ بِأَكْلِـــهِ فَلَعِقْـــتُ مِـــنْ بَعْـــدِ المَلَاعِـــقِ أَنْمُلِـــي

- قال حافظ إبراهيم مهنئا الإمام محمد عبده في أثناء سياحته إلى الجزائر:

أَدْرَكُـــوا قَـــدْرَ ضَـــيْفِهِمْ فَأَقَـــامُوا يَرْقُبُـــونَ الإمَـــامَ فَـــوْقَ السَّـــحَابِ

- ولحافظ إبراهيم في الهجاء:

كَـــمْ صَـــكَّ مَسْـــمَعَنَا بِجَنْـــدَلِ لَفْظِـــهِ وأَطَـــالَ مِحْنَتَنَـــا بِطُـــولِ لِسَـــانِهِ

- وقال حافظ مادحا:

ذَكَّرْتَنَـــا يَـــوْمَ ضَـــاعَتْ أَرْضُ أَنْدَلُـــسٍ الحَـــرْبُ فِي البَـــابِ والسُّلْطَـــانُ فِي اللَّعِـــبِ

- وقال حافظ في وصف قطار:

رَأَيــــتُ ابْـــنَ البُخَـــارِ عَلَـــى رُبَاهَـــا يَمُـــــرُّ كَأَنَّـــــهُ شَـــــرْخُ الشَّـــــبَاب

- قال إيليا أبو ماضي:

ونَمُـــدُّ أَيْـــدِيَنَا فَتَرْجِـــعُ لَـــمْ تُصِـــبْ وتَعُـــــودُ فَـــــوْقَ قُلُوبِنَـــــا أَيْـــــدِينَا

- قال معروف الرصافي:

لَنَـــا قَلَـــبَ الـــدَّهْرُ الخَـــؤُونُ مِجَنَّـــهُ وكَـــرَّ عَلَيْنَـــا لَابِسًـــا جِلْـــدَةَ النَّمْـــرِ

- قال محمد العيد آل خليفة:

مَـا أَجْـدَرَ الحَـقَّ أَنْ تُحْنَـى الـرُّؤُوسُ لَـهُ وأَنْ يُشَـــالَ عَلَـــى الأَعْنَـــاقِ كَـــالعَلَمِ

- وقال رحمه الله:

أَذَوِي العَمَـــــائِمَ عَلِّمُـــــوا وتَعَهَّـــــدُوا بِـــــالوَعْظِ والـــــذِّكْرَى ذَوَاتِ البُرْقُـــــعِ

- قال رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) مخاطبا نفسه، وهو يقرع السنّ أسفًا على حياته في الغربة:

دَفَنْـــتَ رَبِيـــعَ عُمْـــرِكَ فِـــي بِـــلادٍ بِهَـــا طَالَـــتْ لَيَالِيـــكَ القِصَـــارُ

ثِمَـــارُكَ مِـــنْ طَوَافِـــكَ سَـــعْيُ نَمْـــلٍ وحَـــظّ صَرَاصِـــرَ، بِـــئْسَ الثِّمَـــارُ

وفِـــي أُذُنَيْـــكَ صَـــوْتٌ مِسْـــتَمِرٌّ "رَشِـــيدُ" أَفِـــقْ صَـــفّرَ القِطَـــارُ

علم البديع

obeikan.com

المحسّنات اللفظية

obeikan.com

الجِنَاس

تعريف الجناس: الجِنَاسُ في اللُّغة هو المُشَاكَلَة، أو الاتِّحَاد في الجِنْس، يُقَال: جَانَسَهُ أيْ شَاكَلَهُ، واشْتَرَكَ مَعَهُ في جِنْسِهِ، وجنسُ الشَّيء أصْلُهُ. أمّا في الاصطلاح فقدْ عرَّفَهُ السَّكَاكِي بقوله: "هُوَ تَشَابُهُ الكَلِمَتَيْنِ فِي اللَّفْظِ"، وعرَّفَهُ المُحْدثُون تعريفًا أكثرَ دِقَّة، فقالوا: "هُوَ أنْ يَتَشَابَهَ اللَّفْظَانِ في النُّطْق، ويَخْتَلِفَا في المَعْنَى".[1]

أنواعه:

1 الجناس التام: وهو ما اتَّفَقَ فيه اللَّفظان المُتَجَانِسَان في أمُورٍ أرْبَعَة، هي: نَوْعُ الحُرُوف، وعَدَدُهَا، وشَكْلُهَا، وتَرْتِيبُهَا، مَعَ اخْتِلافِ المَعْنَى، كقول خليل مطران في تحية سعد زغلول يوم عودته من منفاه:

خَفَقَتْ لِطَلْعَةِ وَجْهِكَ الأعْلَامُ ومَشَتْ تُحِيطُ بِرَكْبِكَ الأعْلَامُ

لعلك لاحظت أنّ لفظتي (الأعْلام) متفقتان في نوع الحروف، وعددها، وشكلها، وترتيبها، لكنهما مختلفتان في المعنى، فالأولى بمعنى الرَّايَات، والثانية بمعنى كُبَرَاء الأُمَّة.

وكقول مطران حين رأى عند باب حسناء ورقةً خضراء نابتة بين حجرين:

كُلٌّ لَدَيْكِ رَقِيقٌ إذَا قَسَا القَلْبُ أوْ رَقْ

ولَيْسَ فِي ذَاكَ بِدْعٌ فَالصَّخْرُ عِنْدَكِ أوْرَقْ

ومنه قول الشاعر محمود غنيم:

غَدَتْ تَصْهَرُ النَّاسَ مِثْلَ الجَلِيدِ ولَكِنَّ فِي مِصْرَ شَعْبًا جَلِيدَا

فكلمة (الجليد) في الشطر الأول مقصود بها النَّدى المتجمد، وفي الشطر الثاني (جليدا): أي صبُورًا على الشدائد.

ومنه قول محمود سامي البارودي مفتخرا بنفسه:

أنَا ابْنُ قَوْلِي وحَسْبِي فِي الفَخَارِ بِهِ وإنْ غَدَوْتُ كَرِيمَ العَمِّ والخَالِ

ولِي مِنَ الشِّعْرِ آيَاتٌ مُفَصَّلَةٌ تَلُوحُ فِي وَجْنَةِ الأيَّامِ كَالخَالِ

فكلمة (الخال) في البيت الأول مقصودٌ بها أخ الأمّ، وفي البيت الثاني الشامةُ السوداء التي تنبت على بشرة بدن الإنسان، والتي يغلب وجودها على الخدّ.

ومنه قول أحمد شوقي في قصيدة "على سفح الأهرام":

قِفْ نَاجِ أهْرَامَ الجَلَالِ ونَادِ هَلْ مِنْ بُنَاتِكَ مَجْلِسٌ أوْ نَادِ؟

وأنت تلاحظ اتفاق لفظتي (نادِ) في نوع الحروف، وعددها، وشكلها، وترتيبها، مع اختلاف معنى كلٍّ منهما، فالأولى من المناداة، والثانية من الاجتماع.

وكقول أمير الشعراء أيضا:

[1] لباب البديع الدكتور محمد حسن شرشر ص 148.

عَظِـــيمُ النَّـــاسِ مَـــنْ يَبْكِـــي العِظَامَـــا ويَنْـــدُبُهُمْ ولَـــوْ كَـــانُوا عِظَامَـــا

الشاهد في الجناس التام: (العِظَامَا – عِظَامَا): الأولى جمع عظيم، والثانية جمع عظْم.

ومنه قول مصطفى صادق الرافعي مخاطبا عصفورة:

خُـذِي فِـي جَنَاحَيْـكِ الهَـوَى مِـنْ جَوَانِحِـي ورُوحِـــي بِرُوحِـــي لِلَّتِـــي أَخَـذَتْ لُـبِّـــي

لعلك لاحظت اتفاق لفظتي (رُوحِي) في نوع الحروف، وعددها، وشكلها، وترتيبها، مع وجود اختلاف في معنى كل منهما، فالأولى بمعنى (اذهبي)، والثانية بمعنى (نفسي، أو قلبي).

ومثل قول الشاعر القروي:

لَمْيَـــاءُ هَـــذَا جَبِـــينُ الفَجْـــرِ قَـــدْ سَـــفَرَا ومَوْسِـــمُ الحُـــبِّ عَنَّـــا مُزْمِـــعٌ سَـــفَرَا

لاحظ أنّ لفظتي (سَفَرَا) متفقتان في نوع الحروف، وعددها، وشكلها، وترتيبها، لكنهما مختلفتان في المعنى، فالأولى بمعنى الإشراق والظهور، والثانية بمعنى الرحيل.

ومنه قول علي الجارم في الرثاء:

مُحْيِـــي القَضَـــاءِ رَمَـــاهُ فِـــي رَيَعَانِـــهِ سَـــهْمُ القَضَـــاءِ فَمَـــا لَـــهُ مِـــنْ فَـــادِي

القضاء (الأولى): عَمَلُ القَاضِي، و(الثانية): القَدَر.

2 الجناس غير التّام: وهُوَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ اللَّفظَانِ فِي وَاحِدٍ مِنَ الأُمُورِ الأَرْبَعَةِ السَّابِقَةِ، كَأَنْ يَخْتَلِفَا في:

1. نَوْعِ الحُروف: ومثاله قول مفدي زكريا:

وفِـــي قُـــدْسِ جَنَّاتِنَـــا النَّاضِـــرَهْ وُجُـــوهٌ إِلَـــى رَبِّهَـــا نَـــاظِرَهْ

أو قوله أيضا:

أَكْبَـــادُ مَـــنْ؟ هَـــذِي الَّتِـــي تَتَفَطَّـــرُ ودِمَـــاءُ مَـــنْ؟ هَـــذِي الَّتِـــي تَتَقَطَّـــرُ

ومثاله قول علي الجارم:

دَعُـــونِي أُوَفِّـــي بـــالقَرِيضِ دُيُونَـــهُ فَقَـــدْ عَـــادَ غُرْمًـــا مَـــا تَوَهَّمْتُـــهُ غُنْمَـــا

ومنه قول محمد العيد آل خليفة مخاطبا الشباب الجزائري:

سَـــارَ جِيـــرَانُكُمْ مَـــعَ العَصْـــرِ شَـــوْطًا ووَقَفْـــتُمْ مَـــا بَـــيْنَ وَهْـــمٍ ووَهْـــنِ

ومنه قول البشير الإبراهيمي في إحدى خواطره عن الشباب: "أَتَمَثَّلُهُ بَانِيًا لِلْوَطَنِيَّةِ عَلَى خَمْس، كَمَا بُنِيَ الدِّينُ قَبْلَهَا عَلَى خَمْس: "السِّبَابُ آفَةُ الشَّبَاب، واليَأْسُ مُفْسِدٌ لِلْبَأْس، والآمَالُ لا تُدْرَكُ بِغَيْرِ الأعْمَال، والخَيَالُ أَوَّلُهُ لَذَّةٌ وآخِرُهُ خَبَال، والأَوْطَانُ لا تُخْدَمُ باتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَان".

2. عَدَدِ الحُرُوف: ومنه قول خليل مطران:

فَارَقْتُهَـــــا أَبْغِـــــي سَـــــعَادَتَهَا والحُـــــبُّ فِـــي القُرْبَـــانِ لَا القُـــرْبِ

ومنه قول الشاعر محمود غنيم:

وأُطَيِّبُ سَاعِ الحَيَاةِ لَدَيَّا ... عَشِيَّةَ أَخْلُو إِلَى وَلَدَيَّا

وقول غُنيم كذلك بمناسبة انتصار الثورة الجزائرية:

قُمْ نَادِ: حَيَّ عَلَى الفَلَاحْ ... الفَجْرُ – فَجْرُ السِّلْمِ – لَاحْ

ومنه قول مصطفى صادق الرافعي:

يَا طَيْرُ مَا لِلنَّوْمِ قَدْ طَارَا ... ومَا قَضَيْنَا مِنْهُ أَوْطَارَا

ومنه قول حافظ إبراهيم في غلاء الأسعار:

وغَدَا القُوتُ فِي يَدِ النَّاسِ كَالَيَا ... قُوتِ حَتَّى نَوَى الفَقِيرُ الصِّيَامَا

ومنه قول أحمد شوقي:

سَلُوا غَزَالًا غَزَا قَلْبِي بِحَاجِبِهِ ... أَمَا كَفَى السَّيْفُ حَتَّى جَرَّدَ القَلَمَا؟

ومنه قول محمد العيد بمناسبة الترحيب بالحُجَّاج:

حَبَاكُمْ بِحَجِّ البَيْتِ أَكْرَمُ مَنْ حَبَا ... فَأَهْلًا وسَهْلًا بِالحَجِيجِ ومَرْحَبَا

الشاهد في قوله: (حَبَا – مَرْحَبَا).

3. تَشْكِيلِ الحُرُوف: كقول حافظ إبراهيم:

بَكَى عَالَمُ الإِسْلَامُ عَالِمَ عَصْرِهِ ... سِرَاجَ الدَّيَاجِي هَادِمَ الشُّبُهَاتِ

ومثله قول الأمير عبد القادر الجزائري:

أَوْقَاتُ وَصْلِكُمْ عِيدٌ وأَفْرَاحُ ... يَا مَنْ هُمُ الرُّوحُ لي والرَّوْحُ والرَّاحُ

ومثله قول محمد العيد آل خليفة:

يَا لَمَجْدٍ مُضَيَّعٍ غَيْرُ مُجْدِ ... عَضَّ كَفٍّ عَلَيْهِ أَوْ قَرْعِ سِنِّ

أو قوله:

إِنَّ لِلْعُرْبِ فِي الحَضَارَةِ قِدْمًا ... قَدَمًا لِلْوَرَى عَلَيْهَا اسْتِنَادُ

ومنه قول الشاعر القروي:

يَحِقُّ لَكُمْ أَنْ تَسْتَخِفُّوا بِهَائِمِ ... فَمَا هُوَ مَنْ يَرْضَى بِعَيْشِ البَهَائِمِ

ومثاله أيضا قول معروف الرصافي في قصيدة (العِلْمِ والعَلَم):

كِلَاهُمَا ضَامِنٌ لِلنَّاسِ حُرْمَتَهُمْ ... هَذَا لَهُ الحُكْمُ أَوْ هَذَا لَهُ الحِكَمُ

ومنه قول مصطفى صادق الرافعي مادحا:

جَرَى النِّيلُ فِيهَا حَاكِيًا نَيْلَ كَفِّهِ ... وهَلْ فِي الوَرَى مَنْ يَعْدِلُ البَحْرَ بِالنَّهْرِ؟

4. تَرْتِيبِ الحُرُوف: ومثاله قول محمّد العيد:

مَرَّتْ بِنَا مِحَنٌ لَنَا فِي طَيِّهَا ... مِنَحٌ يَفُوزُ بِكَسْبِهَا مَنْ يَصْمُدُ

ومثاله قول ميخائيل نعيمة: "الشَّبَابُ ثَرْوَةٌ وثَوْرَة".

ومثاله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وآمِنْ رَوْعَاتِنَا".

ودُعاؤه عليه الصلاة والسلام مودِّعا رمضان: "اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْهُ آخِرَ العَهْدِ مِنْ صِيَامِنَا إيَّاه، فإنْ جَعَلْتَهُ فأجْعَلْنِي مَرْحُومًا، ولا تَجْعَلْنِي مَحْرُومَا".

وقد اجتمع النوعان التّامُ وغير التّام في قول صفيّ الدين الحلي في الربيع:

وَرَدَ الرَّبِيـــــعُ فَمَرْحَبًـــــا بِـــــوُرُودِهِ وبنُـــــورِ بَهْجَتِـــــهِ ونَـــــوْرِ وُرُودِهِ

(وُرُودِهِ): قُدُومِهِ، (نُور): ضِيَاء، (نَوْر): الزَّهْرُ الأبْيَض، (وُرُودِهِ): ورود البساتين المعروفة.

كما اجتمعا في قول الشاعر:

قـــد نَهَانَـــا عَـــنِ الغَـــرَامِ نُهَانَـــا إذْ هَوَانَـــا ألّا نَـــذُوقَ هَوَانَـــا

(نَهانا): مَنَعَنَا، (نُهَانَا): عَقْلُنا، (هَوَانَا الأولى): حُبُّنَا، (هَوانا الثانية): الذُّلُّ، والمَهَانَة.

قيمة الجناس و بلاغته:

اختلف البديعيّون في قيمة الجناس ومنزلته، فقد قال فيه يحيى بن حمزة العلويّ: "هو مِنْ ألْطَفِ مَجَارِي الكَلَام، ومِنْ مَحَاسِنِ مَدَاخِلِه، وهو عَظِيمُ المَوْقِعِ في البَلاغَة، جَلِيلُ القَدْرِ في الفَصَاحَة، وهو مِنَ الكَلامِ كالغُرَّةِ في الفَرَس"[1]، وقال فيه الأندلسيّ: "الجِنَاسُ أشْرَفُ الأنْوَاعِ اللَّفْظِيَّة"، وقال ابن السّبكي: "وكَفَى بالتَّجْنِيسِ فَخْرًا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام: "غِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ، وَعُصَيَّةُ عَصَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ"[2]، وأكثر البلاغيين مدحًا للجناس صلاح الدين الصفدي، وقد ألّف فيه كتابا أسماه "جِنَان الجناس" لا بأس أن أذكر بعض ما جاء في مقدّمته: "الجِنَاسُ إنْ دَخَلَ في خُطْبَةٍ توَّجَهَا، أوْ قَصِيدَةٍ دَبَّجَها، فهو في البَدِيعِ خَالُ خَدِّه، وطِرَازُ بُرْدِه، وفَصُّ خَاتَمِه، وجُودُ حَاتَمِه، وسَجْعُ حَمَامِه، وسَحُّ غَمَامِه، وزَهْرُ كِمَامِه، وقَمَرُ تَمَامِه، يَكْسِبُ اللَّفْظَ رَوْنَقًا وطَلَاوَة، وبِهِ لا تَزَالُ حُورُ المَعَانِي في حُلِيٍّ وحُلَّة وحَلَاوَة".[3]

غير أنّ في هذا الكلام ما يدلُّ على مبالغة الصفدي، وغلوّه، وإيثاره لهذا اللون البديعي، ومبلغ تعصّبه له، وذلك ما دعا الخفاجي إلى القول: "المَحْمُودُ مِنَ الجِنَاسِ مَا قَلَّ، ووَقَعَ تَابِعًا للمَعْنَى، غَيْرَ مُتَكَلَّف، ولا مَقْصُودٍ في نَفْسِهِ"، وقال شهاب الدين محمود: "إنَّمَا يَحْسُنُ الجِنَاسُ إذا قَلَّ وأتَى في الكَلَامِ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ ولا اسْتِكْرَاه".

قال ابن الوردي في هذا المعنى:

إذا أحْبَبْـــتَ نَظْـــمَ الشِّـــعْرِ فـــاخْتَرْ لِنَظْمِـــكَ كُـــلَّ سَـــهْلٍ ذِي امْتِنَـــاعِ

ولا تَقْصِـــدْ مُجَانَسَـــةً ومَكِّـــنْ قَوَافِيَـــهُ وكِلْـــهُ إلـــى الطِّبَـــاعِ

ويرى الجرجاني أنّ الجناس يُستحسن إذا كان سهلا، لا أثر للكلفة عليه، يقول الجرجاني: "ومِنْ هَهُنَا كَانَ أحْلَى تَجْنِيسٍ تَسْمَعُهُ وأعْلاه، وأحقُّهُ بالحُسْنِ وأوْلاه مَا وَقَعَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ إلَى اجْتِلابِه، وتَأهُّبٍ لِطَلَبِه".

[1] دراسات في علم البديع الدكتور مصطفى السيد جبر ص 118.
[2] فن الجناس علي الجندي ص 18.
[3] جنان الجناس صلاح الدين الصفدي ص 07.

ويرى الدكتور علي الجندي: "أنَّ تَنَاسُبَ الألفاظ في الصُّورة كلِّها، أو بعضها، مِثْلُ التَّوافُق والانْسجام، في الزيّ والهندام، تميل إليه النفوسُ بالفطرة، وتأنس به، ويطمئن إليه الذوق، ويسكن، لأنه نظام، وانسجام، وتناسق، وتلك أشياء مغروس حبها في الغرائز، لخلعها على النفوس السكينة والهدوء، ضف إلى ذلك التجاوب الموسيقي الصّادر منْ تماثل الكلمات تماثلا كاملا، أو ناقصا، وهو ما يطرب الأذن، ويؤنس النفس، ويهزُّ أوتار القلوب"[1]، وعلى خلاف السجع، فكلما كان التماثل أوسع، وأشمل، كان ذلك أشبه شيء بقطعة موسيقية مختلفة الآلات، متناسقة الأصوات، وهناك مزيّة أخيرة للجناس، فبينما هو يُريكَ أنه سيعرض عليك معنًى مكرّرًا، ولفظًا مردَّدًا، لا تجني منه غير الانقباض والسآمة، إذَا هو يفاجئك، فيجلو عليك معنًى مستحدثًا، يغاير ما سبقه كُلَّ المغايرة، وإنْ هو حَكاهُ في الصورة والمعرض، فتأخذك الدهشة لهذه المفاجأة السَّارة اللذيذة، وفي هذا ورد قوله تعالى في أهل الجنة: "كلّما رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمْرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الّذي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وأُتُوا بِهِ مَتَشَابِها"، وقد أتَى الجرجاني بهذا المعنى في قوله: "وقَدْ أعَادَ عَلَيْكَ اللَّفْظَةَ كَأَنَّهُ يَخْدَعُكَ عَنِ الفَائِدَة، وقَدْ أعْطَاهَا، ويُوهِمُكَ كأَنَّهُ لَمْ يَزِدْكَ شَيْئًا، وقَدْ أحْسَنَ الزِّيَادَةَ وَوَفَاهَا". وعموما يمكن القول إنَّ الجناس لا يكون مقبولا إلا إذا ورد عفو الخاطر، وفيض البديهة، وكان في كلامٍ مطبوع، لا تكلّف فيه، ولم يكن من الكثرة التي تثقل كاهل المعنى، وتجعله يضيع في سراديب الصنعة.

التدريب الأول: حدّد الجناس، ونوعه في الأبيات الآتية:

- وتَـــأْبَى الصَّـــفَائِحُ نَشْـــرَ الصَّحَـــ ـــائِفِ مَـا لَـمْ تَكُـنْ بـالقَرَارَاتِ تَسْـرِي
ويَـــأْبَى الحَدِيـــدُ اسْـــتِمَاعَ الحَـــدِ ـــثِ إذَا لَـمْ يَكُـنْ مِـنْ رَوَائِـعِ شِـعْرِي
- قُـلْ لِـلْجَـزَائِـرِ وهْـيَ أمٌّ مُـرْضِعُ مِـثْـلَ الـلَّـبْـوَةِ أيَّ أمٍّ مُـرْضِـعِ
أبنـاؤُكِ الأشْبَـال فِـيـكِ تَـزَاوَرُوا وتَـزَاءَرُوا فِـي الـغِيـلِ مِنْكِ بِمَسْمَعِ
أطْعَمْتِ مُكْثِرةً فأطْمَعْتِ العِدِى لا تُكْثِرِي الإطْعَامَ كيْلا تُطْمِعِي
- فِـي فَمِـي، يَـا عِـرَاقُ مَـاءٌ كَثِيـرُ كَيْـفَ يَشْكُو مَـنْ كَـانَ فِـي فِيـهِ مَـاءُ؟
- يَـا فُـؤادِي رَحِـمَ اللَّـهُ الهَـوَى كَـانَ صَـرْحًا مِـنْ خَيَـالٍ فَهَـوَى
- وطَـارَحَـكَ (النَّـايُ) شَجْـوَ النُّـوَاحِ وكُنْـتَ تَـئِـنُّ إذَا الـنَّـايُ (أَنَّ)
ومَـالَ فَنَـاحَ عَلَيْـكَ (الكَمَـانُ) وأظْهَـرَ مِـنْ بَثِّـهِ مَـا كَمَـنْ
- كُـفِّـي القِتَـالَ وفُكِّـي قَيْـدَ أَسْـرَاكِ يَكْـفِيـكِ مَـا فَعَلَـتْ بِالنَّـاسِ عَيْنَـاكِ
كَمَّلْـتِ أوْصَـافَ حُسْـنٍ غَيْـرِ نَاقِصَـةٍ لَـوْ أنَّ حُسْـنَكِ مَقْـرُونٌ بِحُسْـنَاكِ
- إنّ هـذا الرَّبِـيـعَ شَـيءٌ عَـجِـيـبُ تَضْحَـكُ الأرضُ مِـنْ بُكـاء السَّمَـاءِ
ذَهَـبٌ حَيْثُمَـا ذَهَبْنَـا ودُرٌّ حَيْـثُ دُرْنَـا وفِضّـةٌ فِـي الفَضَـاءِ

[1] فن الجناس علي الجندي ص 29.

- رويْـدك مِـنْ كَسْـبِ الـذّنوبِ فأنْـتَ ... لا تُطيـقُ علـى نـارِ الجَحِـيمِ ولا تَقْـوَى
أتَرْضَـى بـأنْ تَلْقَـى المُهَـيْمِنَ فـي غَـدٍ ... وأنـتَ بـلا عِلْـمٍ لـديْكَ ولا تَقْـوَى
- إذْ أنـتَ فـي يـومِ الجِـلادِ علـى العِـدى ... خَطْـبٌ وفـي يـومِ الجِـدَال خَطيـب
حُـزْتَ المحـامـدَ بالمَـكـارمِ مَيّتًـا ... فَغَـدَا لـكَ التَّـأْبِيـنُ لا التَّـأنِيـبُ
- يـا مَـاكِرًا بِـي وبإخْوَانِـهِ ... مهْـلا فَمَـا المَكْـرُ مِـنَ المَكْرُمَـاتْ
- مِنْهَـاجِـي العَـدْلُ وقَـمْـعُ الهَـوَى ... فَهَـلْ لِمِـنْـهَـاجِي مِـنْ هَـاجِ؟
- بَكَيْـتُ علـى فراقِـكَ كـلَّ يـوم ... وأمْلَيْـتُ الجِفَـانَ مِـنَ الجُفُـونِ
ولـوْ كـان البُكـاءُ بِقَـدْرِ شَـوْقِي ... لَمَـلأْتُ العُيُـونَ مِـنَ العُيُـونِ
- أطعْـتَ مـا سَـنَّ أعـدائي ومـا فَـرَضُوا ... وشَـاهِـدُوكَ بسُـخْطِي رَاضِيًـا فـرَضُـوا
- لَأشْـكُرَنَّكَ مَعْرُوفـاً هَمَمْـتَ بِـهِ ... إنَّ اهْتِمَامَـكَ بِـالمَعْرُوفِ مَعْـرُوفُ
- تُـرَى هَـلْ لِعَيْنِـي حِيلَـةٌ أَنْ تَـرَاكُـمُ ... وكَـيْـفَ؟ وفِيـهَـا للدُّمُـوعِ تَـرَاكُـمُ؟

التدريب الثاني: حدد نوع الجناس في الأمثلة الآتية:

- قال محمد المويلحي: "الْتَفَتَ رَفِيقِي إِلَى الفُنْدُقِ فَرَأَى فِيهِ شُمُوسَ الكَهْرَبَاءِ مُشْرِقَة، ويَنَابِيعَ الضِّيَاءِ مُتَدَفِّقَة، وأعْمِدَةَ المَصَابِيحِ كَأَنَّهَا أغْصَانُ الأشْجَار، أَزْهَرَتْ بِالأنْوَارِ مَكَانَ الأنْوَار[1]، فَصَارَ كُلُّ عَمُودٍ مِنْهَا عَمُودَ فَجْر، يُفَجِّرُ ثَغْرُهُ الدُّجْنَةَ أَيَّ فَجْر، وكَأَنَّ مَنْثُورَ الشُّمُوعِ فِي ظُلْمَةِ الحَلَك، مَنْثُورَ النُّجُومِ فِي قُبَّةِ الفَلَك، ورَأَى تَحْتَهَا صُفُوفًا مِنَ الرِّجَال، بَيْنَ صُفُوفٍ مِنْ ذَوَاتِ الحِجَال، عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِين، وأَرَائِكَ مُتَّكِئِين."
- وقال المويلحي: "ثُمَّ دُرْنَا قَلِيلًا فِي مَنْجَمِ الذَّهَبِ بَعْدَ أَنْ انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ مِنْ مَنْجَمِ الفِضَّة، فَلَمْ نَجِدِ العُمَّالَ فِيهِ أَسْعَدَ حَالًا، ولَا مَتَاعِبَهُ أَهْوَنَ احْتِمَالا، لا نَصِيبَ لَهُمْ مِنَ الأَصْفَرِ الرَّنَّان، مِمَّا يَجْلُو عَنْهُمْ صَدَأَ الأَحْزَان، سِوَى أَنَّهُمْ صُفْرُ الأَيْدِي مِنَ الفِضَّةِ والذَّهَب، صُفْرُ الوُجُوهِ مِنَ النَّصَبِ والتَّعَب."
- قال أحمد شوقي: "انْصَرَفَ النَّاسُ مِنَ الجَنَازَة، وقَدْ هَانَ عَلَيْهُمُ اليَوْمُ الرَّاحِل، فَلَا العَبْرَةَ أَرَاقُوا، ولَا عَلَى العِبْرَةِ أَفَاقُوا، فَسُبْحَانَ الَّذِي أَلْهَى بِالأَمَل، وشَغَلَ بِالعَمَل، واسْتَنْهَضَ الإِنْسَانَ لِأَعْبَاءِ اليَوْمِ فَحَمَل."
- وقال شوقي: "مَنْ أَثْرَى أَوْ سَاد، فَلَا يَعُدَّنَّ الحُسَّاد."
- وله أيضا رحمه الله: "السَّقْيُ بَعْدَ الغَرْس، والتَّرْبِيَةُ قَبْلَ الدَّرْس."
- قال طه حسين: "الأَدِيبُ يُخَيَّلُ إِلى نَفْسِهِ أَنَّ الأَدَبَ نَفَحَاتٌ طَبِيعِيَّةٌ تَصْدُرُ عَنِ أَصْحَابِهَا مِنَ الصُّدُور، لأَنَّهَا لا بُدَّ لَهَا مِنَ الصُّدُور".
- قال أحمد أمين: "لَيْسَتْ تُعَدُّ الأُمَّةُ رَاقِيَةً تَسْتَحِقُّ البَقَاءَ إِلَّا إِذَا أَرْسَلَتِ الأُمُّ أَبْنَاءَهَا إِلَى مَيَادِينِ القِتَال، وهِيَ تَبْتَسِمُ."

[1] الأنوار: جمعُ نَوْر، وهو الزهر الأبيض.

- قال البشير الإبراهيمي في مقالة بعنوان "عيد الأضْحى وفلسطين": "النُّفُوسُ حَزِينَة، واليوم يَوْمُ الزِّينَة، إخْوَانُنَا مُشَرَّدُون، فهلْ نَحْنُ مِنَ الرَّحْمَةِ والعَطْفِ مُجَرَّدُون؟ أيُّهَا العَرَبُ لا عِيدَ حتَّى تُنَفِّذُوا في صُهْيُونَ الوَعِيد، وتُنْجِزُوا لِفِلَسْطِينَ المَوَاعِيد، ولَا نَحْرَ حتَّى تَقْذِفُوا بِصُهْيُونَ في البَحْر".

- وقال رحمه الله: "وَيْحَكُمْ أَفَكُلَّمَا رَثَّ حَبْلُ الاسْتِعْمَار، وتَصَدَّعَ جِدَارُه، وأشْرَفَ عَلَى الفَنَاء، جَاءَتْ أَمْرِيكَا حَاضِنَةُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ تُكَفْكِفُ دُمُوعَه، وتُنَظِّمُ جُمُوعَه، وتُرَمِّمُ جِدَارَه، وتُعَمِّرُ بِالدُّولارِ دَارَه؟".

- وله أيضا: "يَبْقَى الأدَبُ العَرَبِيُّ رِبَاطًا يَجْمَعُ العَرَبَ مَهْمَا اخْتَلَفُوا، أو تَفَرَّقُوا بِطَارِئٍ مِنْ طَوَارِئِ الهَمّ، أوْ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الاخْتِلافِ في الهِمَم".

- وللبشير الإبراهيمي في الدُّعَاء: "اللَّهُمَ جَنِّبْنَا زَلَّةَ الرَّأْيِ، وزَلْزَلَةَ العَقِيدَة".

- قال مُولُود قاسم نايت بلقاسم في وصيته للدُّعَاة: " كُونُوا الرُّعَاةَ الوُعَاة، والدُّعَاةَ السُّعَاة".

- قال جبران خليل جبران: "قُلْتُ لأحْلامِي: تَعَالِي، فتَعَالَتْ".

- تساءل توفيق الحكيم قائلا: "هَلْ قَرْضُ الشِّعْرِ سَيَنْقَرِضُ في مُسْتَقْبَلٍ غَيْرِ بَعِيد؟".

- قال أحَدُ العَطَّارِين: "إنْ فَاتَنِي رِبْحُهُ – يقْصدُ العِطْر– فَمَا فَاتَنِي رِيحُه".

- نَظَرَ حَكيمٌ إلى رَجُلٍ يَبْنِي دَارًا، فقال له: "تَأَنَّقْ فِيهَا، فَهِيَ عِشُّك، وفِيها عَيْشُك".

السَّجْع

تعريف السّجع لغة: "مَأْخُوذٌ مِنْ سَجْعِ الحَمَام"[1]، يقال: سَجَعَتِ الحَمَامَةُ سَجْعًا، إذَا كَرَّرَتْ صَوْتَهُا على طريقةٍ وَاحِدَة. قال بشارة الخوري مُخاطبًا الطَّير:

تَسْـــجَعُ السَّـــجْعَةَ البَدِيعَـــةَ فِـــي الفَجْـــ ـــــــرِ وتَـــــأتِي بِمِثْلِهَـــــا تَكْـــــرَارَا

السّجع اصطلاحا: هو تَوَافُقُ الفَاصِلَتَيْن مِنَ النَّثْرِ عَلَى حَرْفٍ وَاحِد، "وهُوَ فِي مُقَابَلَةِ التَّصْرِيعِ فِي الكَلَامِ المَنْظُوم"[2].

اقرأ قولَ أحمد شوقي في كتابه (أسْوَاق الذَّهب): "الوطنُ مَوْضِعُ المِيلاد، ومَجْمَعُ أوْتار الفُؤاد، وأوَّلُ تُرابٍ مَسَّ الرَّاحَتَيْن، مَجْرَى الصِّبَا ومَلْعَبُه، وعَرُوسُ الشَّباب ومَوْكِبُه، مُسْتَوْدَعُ المَفَاخِر، وصَوَّانُ المَآثِر، صَحِيفةُ الأخْبَار، وكِتَابُ الأبْرَار، وما الوَطَنُ إلا الأُسْرَةُ الكُبْرى، والسَّقْفُ الوَاحِد، والمَنْزِلُ الحَاشِد، وما القَوْمُ في ظِلالِهِ إلّا إخوانٌ مُتَصَافُون، وجِيرَانٌ مُتَآلِفُون، والوطنُ لا يَتِمُّ تَمَامُه، إلّا حِينَ يحْمِلُ العِلْمُ فيه يَدَ العِمَارَة، فاطْلُبُوهُ في مَدَارِسِ الزَّمَانِ وحَلَقَاتِه، وخُذُوهُ مِنْ عُلَمَائِهِ وثُقَاتِه".

فلو تأملت قول شوقي لوجدته مؤلفا من مجموعة من الجمل، أو الفقرات، كُلُّ فقرتين متّحدتان، أو متماثلتان في الحرف الأخير، (المِيلاد، الفُؤاد)، (مَلْعَبُهُ، مَوْكِبُهُ)، (المَفَاخِر، المَآثِر)، (الأخْبَار، الأبْرَار)، (الوَاحِد، الحَاشِد)، (مُتَصَافُون، مُتَآلِفُون)، (حَلَقَاتِهِ، ثُقَاتِه). وتسمى الكلمة الأخيرة من كلِّ فقرة فاصلة، ولو أمعنت النظر في المثال من جديد لوجدتَ كُلَّ الفواصل ساكنة، إذْ يجبُ أنْ تُسكَّن الفاصلةُ دائما في النثر للوَقْف، فالعرب كما قيل لا تبدأ بساكن، ولا تقف عند متحرك، قال عائض القرني في (المقامة النحويّة): "العَرَبُ لَا تَبْدَأُ بِسَاكِن، لأنَّهَا تُحِبُّ التَّنَقُّلَ فِي المَسَاكِن، أمَا تَرَاهَا فَتَحَتْ بِالسُّيُوفِ الجَوَازِمِ الأقْطَار، وحَرَّرَتْ مِنْ سُوءِ الحَالِ الأمْصَار؟ وهِيَ لَا تَقِفُ عَلَى مُتَحَرِّك، لأنَّهَا تُحِبُّ السَّاكِنَ المُتَنَسِّك، وتَبْغُضُ المُتَغَيِّرَ المُتَهَتِّك."

ومن روائع السّجع قولُ إمامِهِ في العصر الحديث محمد المويلحي في كتابه (حديث عيسى بن هشام): "ولَمَّا وَقَفَتْ بِنَا الرِّكَابُ فِي سَاحَةِ الأهْرَام، وَقَفْنَا هُنَاكَ مَوْقِفَ الإجْلَالِ والإعْظَام، قُبَالَةَ ذَلِكَ العَلَمِ الَّذِي يُطَاوِلُ الرَّوَابِيَ والأعْلَام، والهَضَبَةِ الَّتِي تَعْلُو الهِضَابَ والآكَام، مَا بَرِحَتْ ثَابِتَةً تُنَاطِحُ مَوَاقِعَ النُّجُوم، وتَسْخَرُ بِثَوَاقِبِ الشُّهُبِ والرُّجُوم، وتُحَدِّثُ حَدِيثَ المُشَاهَدَةِ والعَيَان، عَنْ قُدْرَةِ هَذَا الإنْسَان، فِي بَدَائِعِ الصُّنْعِ والإتْقَان، وتُنْبِئُ عَنْ قُوَّةِ هَذَا الضَّعِيفِ الضَّئِيل، فِي إقَامَةِ هَذَا الأثَرِ الجَلِيل، وكَيْفَ جَازَ لِهَذَا الفَانِي البَائِد، أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ مِثْلُ هَذَا البَاقِي الخَالِد، وجَلَّ صُنْعُ القَدِيرِ الخَالِق، فِي تَصْوِيرِ هَذَا الحَيَوَانِ النَّاطِق، حَيْثُ جَعَلَهُ مَصْدَرًا لِلْأَعْمَالِ المُتَنَاقِضَة، والأفْعَالِ المُتَغَايِرَةِ والمُتَعَارِضَة، فَبَيْنَمَا تَرَاهُ يَصْعَدُ إلَى أَجْرَامِ السَّمَاءِ وعَوَالِمِهَا، ويَبْحَثُ بِفِكْرِهِ فِي رُسُومِهَا ومَعَالِمِهَا، ويَسِيرُ بِعِلْمِهِ فِي أَنْحَائِهَا ومَنَاكِبِهَا، ويَهْتَدِي لِحِسَابِ أَقْمَارِهَا وكَوَاكِبِهَا، إذْ تَرَاهُ يَعْثِرُ عَثْرَةً

[1] العقد البديع في فن البديع للخوري عوّاد ص 294.
[2] معجم البلاغة العربية الدكتور بدوي طبانة ص 273.

بِرِجْلِه، فَيَكُونُ فِيهَا مُنْتَهَى أَجَلِه، ويَهْوِي بِإِذْنِ اللهِ إِلَى مَكَامِنِ الخُلْد[1]، وهُوَ طَامِعٌ فِي شَجَرَةِ الخُلْد، فَهُوَ ذَلِكَ الَّذِي صَغُرَ وكَبُر، وعَظُمَ وحَقُر، وعَزَّ وذَلّ، وكَثُرَ وقَلّ، وصَعَدَ وهَبَط، وعَلَا وسَقَط، وصَلُحَ وفَسَد، وعَرَفَ وجَحَد، وسَعِدَ وشَقِي، وفَنِيَ وبَقِي، وسُبْحَانَ القَاهِرِ فَوْقَ عِبَادِه."

ومن بدائع السجع قول الداعية الدكتور عائض القرني في (مقامة الكِتاب): "عَلَيْكَ بِالكِتَاب، فَهُوَ خَيْرُ الأصْحَاب، يُقَوِّي جَنَانَك، ويَبْسُطُ لِسَانَك، والكِتَابُ إِذَا خَانَ الصَّدِيقُ وَفَى، وإِذَا تَكَدَّرَ الزَّمَانُ صَفَا، خَلِيلٌ مَا أَمْلَحَه! وصَاحِبٌ مَا أَصْلَحَه! وصَامِتٌ مَا أَفْصَحَه! بَشِيرٌ ونَذِير، ونَدِيمٌ وسَمِير، إِذَا وَعَظَ أَبْكَاك، وإِنْ حَدَّثَ أَشْجَاك، جَزَى اللهُ الكِتَابَ، أَفْضَلَ ثَوَاب، فَقَدْ أَغْنَاكَ عَنِ البُخَلَاء، وكَفَاكَ الثُّقَلَاء، يُوفِي لَكَ الكَيْل، ويُقَصِّرُ عَلَيْكَ اللَّيْل، هُوَ تَاجُكَ فِي كُلِّ نَاد، وأَنِيسُكَ فِي كُلِّ وَاد، أَصْرِفْ لَهُ أَثْمَنَ الأَوْقَات، وأَنْفِقْ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الهِبَات، فَهُوَ الَّذِي حَبَّبَ إِلَيْكَ الزَّمَان، وأَجْلَسَكَ فِي صَدْرِ المَكَان، فَلَيْسَ المَجْدُ حُلِيًّا وآنِيَة، ولَا دُفًّا وغَانِيَة، ولَا قُطُوفًا دَانِيَة، ولَيْسَ السُّؤْدُدُ بُنُودًا وجُنُودَا، أَوْ حُشُودًا ووُفُودَا، لَكِنَّ المَجْدَ والسَّعَادَة، والشَّرَفَ والسِّيَادَة، عِلْمٌ أَصِيل، وبُرْهَانٌ ودَلِيل، وكِتَابٌ جَلِيل، يُغْنِيكَ عِنْ كُلِّ خَلِيل."

بلاغة السجع:

"يذهبُ بعضُ العلماء إلى كراهة السجع، وبعضهم يذهب إلى استحسانه، وحُجَّةُ الفريق الأول أنه إذا وقع بتكلّف وتصنّع أذهبَ طلاوةَ الكلام، وأزالَ ماءَه، ويضربون مثالا عن ذلك، وهو سجع الكهّان، مستشهدين بقوله صلى الله عليه وسلم: "أَسَجْعًا كسَجْعِ الكُهَّان؟". وهذا السجع هو بعيد عن البلاغة، وقائله يلجأ إليه من أجل تعمية المعنى، وصرف انتباه السامع، وتشتيت فكره بهذا الزخرف اللفظي، من أجل إحقاق باطل، أو إبطال حق.

وحُجَّةُ من يستحسن السجع أنَّه يُحَسِّنُ الألفاظ ، ويُظهر آثار الصنعة فيها، ولولا ذلك لم يَرِدْ في كلام الله عزّ وجلّ، وقد استشهد هؤلاء بما جاء في أوائل سورة طه، قال تعالى: (طَهَ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمَوَاتِ العُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وإِنْ تَجْهَرْ بِالقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى.)"[2]

والمذهبُ الصَّحيحُ أنَّ السَّجْعَ مَحْمُودٌ إذا وَقَعَ سَهْلا مُتَيَسَّرًا، بلا كُلفة ولا مَشَقّة، و"السَّجْعُ يُخَامِرُ العُقولَ مُخَامَرَةَ الخَمْر، ويُخَدِّرُ الأعْصَابَ إخْدَارَ الغِنَاء، ويؤثّر في النفوس تأثيرَ السّحر، ويلعبُ بالأفْهَام لعبَ الرّيحِ بالهَشِيم، لِمَا يُحدثُهُ مِنَ النَّغْمَة المُؤَثِّرَة، والموسيقى القويّة التي تَطْرَبُ لها الأذن، وتهشُّ لها النَّفس، فتُقْبِلُ على السَّمَاع مِنْ غير أنْ يداخلها مَلَل، أوْ يُخَـالطها فُتُور، فيتمكّنُ المعنَى في الأذْهَان، ويَقِـرُّ في الأفكار، ويعِزُّ لَدَى

[1] الخُلد: الفأر.
[2] دراسات في علم البديع مرجع سابق ص 136. 137.

العُقُول."[1]

تدريب: دُلَّ على السّجع في النماذج الآتية، وبين بلاغته:

- قال محمد المويلحي: "رَأَيْتُ فِي المَنَامِ كَأَنِّي فِي صَحْرَاءِ الإمَام، أَمْشِي بَيْنَ القُبُورِ والرِّجَام، فِي لَيْلَةٍ زَهْرَاءَ قَمْرَاء، أُحَدِّثُ نَفْسِي بَيْنَ تِلْكَ القُبُور، وفَوْقَ هَاتِيكَ الصُّخُور، بِغُرُورِ الإنْسَانِ وكِبْرِه، وشُمُوخِهِ بَمَجْدِهِ وفَخْرِه، وإغْرَاقِهِ فِي دَعْوَاه، وإسْرَافِهِ فِي هَوَاه، واسْتِعْظَامِهِ لِنَفْسِه، ونِسْيَانِهِ لِرَمْسِه، فَقَدْ شَمَخَ المَغْرُورُ بِأَنْفِهِ حَتَّى رَامَ أَنْ يَثْقُبَ بِهِ الفَلَك، اسْتِكْبَارًا لِمَا جَمَعَ واسْتِعْلَاءً بِمَا مَلَك، وبَيْنَمَا أَنَا فِي هَذِهِ المَوَاعِظِ والعِبَر، وتِلْكَ الخَوَاطِرِ والفِكَر، أَتَأَمَّلُ فِي عَجَائِبِ الحَدَثَان، وأَعْجَبُ مِنْ تَقَلُّبِ الأزْمَان، مُسْتَغْرِقًا فِي بَدَائِعِ المَقْدُور، مُسْتَهْدِيًا لِلْبَحْثِ فِي أَسْرَارِ البَعْثِ والنُّشُور، إذَا بِرَجَّةٍ عَنِيفَةٍ مِنْ خَلْفِي، كَادَتْ تَقْضِي بِحَتْفِي، فَالْتَفَتُّ الْتِفَاتَ الخَائِفِ المَذْعُور، فَرَأَيْتُ قَبْرًا انْشَقَّ مِنْ بَيْنِ القُبُور، وقَدْ خَرَجَ مِنْهُ رَجُلٌ طَوِيلُ القَامَة، عَظِيمُ الهَامَة، فَصُعِقْتُ مِنْ هَوْلِ الوَجَل، صَعْقَةَ مُوسَى يَوْمَ دُكَّ الجَبَل، فَلَمَّا أَفَقْتُ مِنْ غَشْيَتِي، وانْتَبَهْتُ مِنْ دَهْشَتِي، أَخَذْتُ أُسْرِعُ فِي مِشْيَتِي، فَسَمِعْتُهُ يُنَادِينِي، وأَبْصَرْتُهُ يُدَانِينِي، فَوَقَفْتُ امْتِثَالًا لِأَمْرِه، واتِّقَاءً لِشَرِّه، ثُمَّ دَارَ الحَدِيثُ بَيْنَنَا."

- وقال في وصف متحف: "كَمْ هُنَاكَ مِنْ صُوَرٍ بَرَاهَا الإتْقَانُ والإحْكَام، تُمَثِّلُ لِلْعُقُولِ والأفْهَام، مَا لَا يُمَثِّلُهُ تَأْلِيفُ الكَلَام، وتُشَخِّصُ لَكَ حَوَادِثَ التَّارِيخِ ومَنَاظِرَه، كَأَنَّكَ كُنْتَ حَاضِرَهُ ونَاظِرَه، ويُوَضِّحُ لَكَ قَلَمُ الرَّسْمِ والتَّصْوِير، مَا يَعْجَزُ عَنْهُ قَلَمُ الخَطِّ والتَّحْرِير، مِنْ مَكْنُونِ الأَهْوَاءِ والأَشْجَان، بِلَفْظٍ مُبِينٍ مِنَ النُّقُوشِ والأَلْوَان، فَمَا شِئْتَ فِيهَا مِنْ أَثَرٍ يَجْلُو صَدَأَ الحِسّ، ويُرَقِّقُ حَوَاشِيَ النَّفْس، فَتَتَوَلَّاكَ هَزَّةُ الطَّرَبِ لِرُؤْيَتِهَا، وتَعْتَرِيكَ نَفْحَةُ السِّحْرِ مِنْ هَيْئَتِهَا، فَتَكَادُ تَئِنُّ لِلْفَارِسِ المَقْتُول، وتَعْطِفُ عَلَى الوَالِهِ المَتْبُول، فَتَتَرَحَّمُ عَلَى قَتِيلِ الرُّمْحِ والحُسَام، كَمَا تَسْتَغْفِرُ لِشَهِيدِ الهَوَى والغَرَام، وتَسْتَبِيكَ الفَتَاةُ الحَسْنَاء، والكَاعِبُ العَذْرَاء، فَتَصْبُو إلَى مَحَبَّتِهَا، وتَطْمَعُ فِي مَوَدَّتِهَا، لَوْلَا عُيُونُ الرُّقَبَاءِ مِنْ أَهْلِهَا، وهُمْ ضَارِبُونَ حَوْلَهَا."

- قال عائض القرني في (مقامة القلم): "إنْ غَضِبَ القَلَمُ فَجَّرَ الدِّمَاء، وأَبَادَ الأحْيَاء، وأَشْعَلَ حَرْبًا شَعْوَاء، وإنْ رَضِيَ مَنَحَ المَوَاهِب، وأَعْطَى الرَّغَائِب، وأهْدَى المَنَاصِب، إنْ شَاءَ فَمِدَادُهُ سُمُّ الحَيَّات، وأُمُّ النَّكَبَات، وإنْ أَرَادَ جَعَلَ سُطُورَهُ نُورًا، ومَلَأَهَا حُبُورًا، ونَمَّقَهَا حُسْنًا مَنْشُورًا، إذَا سَالَ لُعَابُه، كَثُرَ صَوَابُه، وحَضَرَ جَوَابُه، وتَزَاحَمَ عُبَابُه، لا تَسْمَعُ لَهُ كَلَامًا، ولَكِنَّهُ صَارَ لِلْحِكْمَةِ إمَامًا، لَفْظُهُ أَغْلَى مِنَ اليَاقُوت، بِهِ خُطَّ الوَحْيُ فِي المَلَكُوت، مُصِيبَةُ القَلَمِ أَنَّهُ يُذِيعُ الأسْرَار، ولَا يَكْتُمُ الأخْبَار، إذَا تَشَجَّعَ مَلَأَ الصَّفَحَات، وعَبَّأَ المُجَلَّدَات، وإنْ جَبُنَ أَلْغَزَ وأَوْجَز، وطَلْسَمَ وأَعْجَز، يَشْرَبُ ولا يَأكُل، ويُجِيبُ ولَا يَسْأل، إنْ عَبَّأَتْهُ مِدَادَا، أَحَالَ بَيَاضَكَ سَوَادَا، عَقْلُهُ مَرْهُون، وخَصْمُهُ مَغْبُون، وعَذَابُهُ غَيْرُ مَأمُون، لَهُ رَأسٌ بِلَا عَيْنَيْن، ولِسَانٌ بِلَا شَفَتَيْن، وصَدْرٌ بِلَا يَدَيْن، لَا يَتَكَلَّمُ حَتَّى يَشْبَع، ولَا يَخْطُبُ حَتَّى يَرْضَع، ولَا يَسْكُتُ حَتَّى يُوضَع، يَرْقُصُ عَلَى نَبَضَاتِ قَلْبِك، فَإنْ أَوْقَفْتَ الإمْلَاءَ نَادَى: اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّك، فَذِكْرُكَ غِذَاؤه، وكَفُّكَ حِذَاؤه، ومِدَادُكَ مَاؤه، وجَيْبُكَ وِعَاؤه."

[1] الصبغ البديعي في اللغة العربية الدكتور أحمد إبراهيم موسى ص 496. 497.

- قال أحمد شوقي في مقدّمة كتابه (أسواق الذهب): "الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَم، وألْهَمَ نَوَابِغَ الكَلِم، وجَعَلَ الأمْثَالَ والحِكَم، أَحْسَنَ أَدَبِ الأُمَم، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ دِيمَةِ البَيَانِ المُنْسَجِمَة، وعَلَى مُوسَى الكَلِيمِ وعِيسَى الكَلِمَة، وبَعْد، فَهَذِهِ فُصُولٌ مِنَ النَّثْر، ومَا زَعَمْتُ أَنَّهَا غُرَرُ زِيَاد[1]، أوْ سَجْعُ المُطَوَّقَةِ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا المَيَّاد، ولَا تَوَهَّمْتُ حِينَ أَنْشَأْتُهَا أَنِّي صَنَعْتُ أطْوَاقَ الذَّهَبِ للزَّمَخْشَرِيّ، أوْ طَبَعْتُ أَطْبَاقَ الذَّهَبِ للأصْفَهَانِيّ، وإنْ سَمَّيْتُ هَذَا الكِتَابَ بِمَا يُشْبِهُ اسْمَيْهِمَا، وَوَسَمْتُهُ بِمَا يَقْرُبُ فِي الحُسْنِ مِنْ وَسْمَيْهِمَا، وإنَّمَا هِيَ كَلِمَاتٌ اشْتَمَلَتْ عَلَى مَعَانٍ شَتَّى الصُّوَر، وأغْرَاضٍ مُخْتَلِفَةِ الخَبَر، جَلِيلَةِ الخَطَر، مِنْهَا مَا طَالَ عَلَيْهِ القِدَم، وشَابَ عَلَى تَنَاوُلِهِ القَلَم، ومِنْهَا مَا كَثُرَ عَلَى الأَلْسِنَةِ فِي هَذِهِ الأيَّام، وأصْبَحَ يَعْرِضُ فِي طُرُقِ الأقْلَام، وتَجْرِي بِهِ الأَلْفَاظُ فِي أَعِنَّةِ الكَلَام، حِكَمٌ عَنِ الأيَّامِ تَلَقَّيْتُهَا، ومِنَ التَّجَارِيبِ اسْتَمْلَيْتُهَا، وفِي قَوَالِبِ العَرَبِيَّةِ وَعَيْتُهَا، وعَلَى أسَالِيبِهَا حَبَّرْتُهَا وَوَشَيْتُهَا، وبَعْضُ هَذِهِ الخَوَاطِرِ قَدْ نَبَعَ مِنَ القَلْبِ وهُوَ عِنْدَ اسْتِجْمَامِ عَفْوِه، وطَلَعَ فِي الذِّهْنِ وهُوَ عِنْدَ تَمَامِ صَحْوِهِ وصَفْوِه، وغَيْرُهُ – ولَعَلَّهُ الأكْثَرُ – قَدْ قِيلَ والأكْدَارُ سَارِيَة، والأقْدَارُ بِالمَكَارِهِ جَارِيَة، والدَّارُ نَائِيَة، وحُكُومَةُ السَّيْفِ عَابِثَةٌ عَاتِيَة، فَأَنَا أسْتَقِيلُ القَارِئَ فِيهِ السَّقَطَات، وأسْتَوْهِبُهُ التَّجَاوُزَ عَنِ الفَرَطَات، اللَّهُمَ غَيْرَ وَجْهِكَ مَا ابْتَغَيْت، وسِوَى النَّفْعِ لِخَلْقِكَ مَا نَوَيْت، وعَلَيْكَ رَجَائِي أَلْقَيْت، وإلَيْكَ بِذُلِّي وضَعْفِي انْتَهَيْت."

- قال محمود سامي البارودي في مقدمة ديوانه: "لِلشِّعْرِ رُتْبَةٌ لَا يَجْهَلُهَا إِلَّا مَنْ جَفَا طَبْعُه، ونَبَا عَنْ قَبُولِ الحِكْمَةِ سَمْعُه، فَهُوَ حِلْيَةٌ يَزْدَانُ بِجَمَالِهَا العَاطِل، وَعُوذَةٌ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا البَاطِل، ولَقَدْ كُنْتُ فِي رَيْعَانِ الفُتُوَّة، وانْدِفَاعِ القَرِيحَةِ بِتَيَّارِ القُوَّة، أَلْهَجُ بِهِ لَهَجَ الحَمَامِ بِهَدِيلِه، وآنَسُ بِهِ أُنْسَ العَدِيلِ بِعَدِيلِه، لَا تَذَرُّعًا إِلَى وَجْهٍ أَنْتَوِيه، ولَا تَطَلُّعًا إِلَى غُنْمٍ أَحْتَوِيه، وإنَّمَا هِيَ أَغْرَاضٌ حَرَّكَتْنِي، وإِبَاءٌ جَمَحَ بِي، وغَرَامٌ سَالَ عَلَى قَلْبِي، فَلَمْ أَتَمَالَكْ أَنْ أَهَبْتُ، فَحَرَّكْتُ بِهِ جَرْسِي، أوْ هَتَفْتُ فَسَرَّيْتُ بِهِ عَنْ نَفْسِي. واللهَ أَسْأَلُ أَنْ يُلْهِمَنِي الصَّوَاب، ولَا يَحْرِمَنِي الثَّوَاب، إِنَّهُ أَكْرَمُ مَسْؤول، وأَفْضَلُ مَأمُول."

- قال البشير الإبراهيمي: "وأُفَكِّرُ فِي قَوْمِي المُسْلِمِينَ فَأَجِدُهُمْ قَدْ وَرِثُوا مِنَ الدِّينِ قُشُورًا بِلَا لُبَاب، وأَلْفَاظًا بِلَا مَعَان، ثُمَّ عَمِدُوا إِلَى رُوحِهِ فَأَزْهَقُوهَا بِالتَّعْطِيل، وإِلَى زَوَاجِرِهِ فَأَرْهَقُوهَا بِالتَّأْوِيل، وإِلَى هِدَايَتِهِ الخَالِصَة، فَمَوَّهُوهَا بِالتَّضْلِيل، وهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ طَوَّقَتْهُمْ أُورُبَا بِأَطْوَاقٍ مِنْ حَدِيد، وسَامَتْهُم العَذَابَ الشَّدِيد، وأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ زُمْرَةِ الأَحْرَارِ إِلَى حَظِيرَةِ العَبِيد، وَوَرِثَتْ بِالقُوَّةِ والكَيْدِ والصَّوْلَةِ والأَيْدِ أَرْضَهُمْ وديَارَهُمْ، واسْتَوْلَتْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وخَيْرَاتِ أَوْطَانِهِمْ، وأَصْبَحُوا غُرَبَاءَ فِيهَا، حَظُّهُمْ مِنْهَا الحَظُّ الأَوْكَس، وجَزَاؤُهُمْ فِيهَا الجَزَاءُ الأَبْخَس."

- قال المنفلوطي في مقالة (المَرقَص): "حَكَى صَدِيقٌ لي، قال: إنَّ العَيْنَ لا تَكَادُ تَمْلِكُ مَدَامِعَهَا، كُلَّمَا أبْصَرَتْ هذا الجُنْدِيَّ الجَلِيل، واقِفًا هذا المَوْقِفَ الذَّليل، يَسْمَعُ قِرَاعَ الدُّفُوف، لا قِرَاعَ السُّيُوف، ويَرَى حُمْرَةَ الصَّهْبَاء، لا حُمْرَةَ الدِّمَاء، ويَحْمِي الفُسْقَ والفُجُور، لا القِلاعَ والثُّغُور، رأيتُ الدَّنانيرَ ذائبةً في الكُؤُوس، والعُقُولَ جَامِدَةً في الرُّؤُوس، والحَبَائِلَ مَنْصُوبَةً لاسْتِلَابِ الجُيُوب، والسِّهَامَ مُسَدَّدَةً لاصْطِيَادِ القُلُوب".

[1] زياد بن أبيه من أشهر خطباء الدولة الأموية.

- وصف أحمد حسن الزَّيات أسلوبَ أحمد أمين فقال: "كَانَ هَمُّهُ مِنَ الكِتَابَةِ أنْ يُقَرِّرَ ويُقْنِع، لا أنْ يُؤَثِّرَ ويُمْتِع، فَأنْتَ مِنْهُ بإزَاءِ عَالِمٍ يَبْحَثُ لِيُنْتِج، أوْ مُصْلِحٍ يَصِفُ لِيُعَالِج، لا بِإزَاءِ مُصَوِّرٍ يُلَوِّنُ لِيُعْجِب، أوْ مُوسِيقَارٍ يُلَحِّنُ لِيُطْرِب".

- قال أحمد أمين: "لَوْلا الجَمَالُ مَا كَانَتِ الحَدَائِقُ والبَسَاتِين، ولا كَانَ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ رَائِحَةِ البِنْزِينِ ورَائِحَةِ اليَاسَمِين، ولَوْلاهُ لَكَانَتْ أصْوَاتُ البُومِ والغِرْبَان، كأصْوَاتِ البُلْبُلِ والكَرَوَان".

- ووصف أحمد أمين أسلوب بعض الكتاب فقال: "هُوَ فِي فَنِّهِ أطْرَبُ مِنْ سَجْعِ الحَمَام، وأَحْسَنُ مِنَ الدُّرِّ فِي النِّظَام، أَلْفَاظُهُ العَذْبُ الزُّلَالُ أَوْ أَرَقّ، ومَعَانِيهِ السِّحْرُ الحَلَالُ أَوْ أَدَقّ."

- قال ميخائيل نعيمة: "إنْ سُئِلْتُمْ عَنْ أَبْدَعِ آيَاتِ الفَنّ، وأَغْلَاهَا، قُولُوا: ضَمِيرٌ لَا يُسَخَّر، وجَبِينٌ لَا يُعَفَّر، ولِسَانٌ حَلِيمٌ شَكُور، وقَلْبٌ عَفِيفٌ غَفُور، وعَيْنٌ لَا تُبْصِرُ القَذَى، ويَدٌ لَا تُنْزِلُ الأَذَى."

obeikan.com

رَدُّ العَجُزِ على الصَّدْر

تعريفُه: ويُسَمَّى كذلك **التَّصْدِير**: ويَكُونُ في النَّثْرِ، كما يَكُونُ كذلك في النَّظْم.

1/ في النَّثْر: وهُوَ أنْ يُجْعَلَ أحَدُ اللَّفْظَيْنِ المُكَرَّرَيْن، أو المُتَجَانِسَيْن، فِي أوَّلِ الفِقْرَة، والآخَرُ فِي آخِرِهَا، والمُرَادُ بالمُكَرَّرَيْن: المُتَّفِقَيْنِ فِي اللَّفْظِ والمَعْنَى[1]. ومثاله قوله تعالى: (وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أحَقُّ أنْ تَخْشَاهُ)[2] .

وسئل أحدُهم عن القنبلة الذريّة، فقال: "اخْتِرَاعٌ لِتَدْمِيرِ كُلِّ اخْتِرَاع".

2/ في النَّظْم: وهو أن يجعلَ الشَّاعرُ أحدَ اللفظين المتجانسين في آخِرِ البَيْتِ، ويجعلَ اللفظَ الآخَرَ إمَّا: في أَوَّلِ البَيْت، أوْ فِي آخِرِ الشَّطْرِ الأوَّل، أوْ فِي وَسَطِ الشَّطْرِ الأوَّل، أوْ فِي أَوَّلِ الشَّطْرِ الثَّانِي. وإليك تفصيل ذلك:

1. في أوَّلِ البَيْت:

كقول حافظ إبراهيم في الرثاء:

يَـــا رَحْمَـــةَ اللهِ هَـــذَا قَبْـــرُهُ فَقِفِـــي ... وآنِسِـــــي رُوحَـــــهُ يَـــــا رَحْمَـــــةَ اللهِ

أو كقول نسيب عريضة:

اتَّخَـــذْتُ أمْرِيكَـــا وَطَنًـــا عَزِيـــزًا ... فَكَانَـــتْ لِـــي كَأحْسَـــنِ مَـــا اتَّخَـــذْتُ

أو كقول البارودي متشوقا إلى وطنه:

حُـــزْنٌ بَرَانِـــي وأشْـــوَاقٌ رَعَتْ كَبِـــدِي ... يَا وَيْـــحَ نَفْسِـــيَ مِـــنْ حُـــزْنٍ وأَشْـــوَاقِ

أو كقول إيليا أبي ماضي في الوصف:

رَقَّـــتْ حَوَاشِـــيهَا واخْضَـــرَّ جَانِبُهَـــا ... وأَجْمَـــلُ الأرْضِ مَـــا رَقَّـــتْ حَوَاشِـــيهَا

أو كقول محمد الأخضر السائحي:

واللَّيَـــالِي مَـــنْ يَطْمَـــئِنُّ إِلَيْهَـــا ... سَـــحَقَتْهُ وذَاكَ شَـــأنُ اللَّيَـــالِي

2. في آخِرِ الشَّطْرِ الأوَّل:

كقول معروف الرصافي في رثاء أحمد شوقي:

الشِّـــعْرُ كُنْـــتَ أَمِيـــرَهُ وسَـــمِيرَهُ ... فَمَـــنِ المُسَـــامِرُ بَعْـــدَ فَقْـــدِ سَـــمِيرِهِ؟

أو كقول مفدي زكرياء في الذكرى الثامنة والسبعين لوفاة الأمير عبد القادر:

وإنْ تَـــذْكُرِ الـــدُّنْيَا زَعِيمًـــا مُخَلَّـــدًا ... فَإنَّـــكَ فِـــي الـــدُّنْيَا الـــزَّعِيمُ المُخَلَّـــدُ

أو كقول مفدي مخاطبا شهر نوفمبر:

وذَكَّرْتَنَـــا فـــي الجَزَائِـــرِ بَـــدْرًا ... فَقُمْنَـــا نُضَـــاهِي صَـــحَابَةَ بَـــدْرِ

ومنه قول علي الجارم:

---

[1] فن البديع دكتور عبد القادر حسين ص 123.
[2] الأحزاب 37.

وأبْعَــثُ فِــي الصَّــحْرَاءِ أنَّــاتِ شَــيِّقٍ وهَــلْ تَسْــمَعُ الصَّــحْرَاءُ أنَّــاتِ شَــيِّقِ؟

ومنه قول ناصيف اليازجي:

أَمْسَى ولَـيْسَ لَــهُ سَــمْــعٌ ولا بَـصَــرٌ مَـنْ كَـانَ في النَّـاسِ مِلْءَ السَّمْـعِ والبَصَـرِ

3. في وسط الشَّطْرِ الأوَّل:

كقول معروف الرُّصافي:

إنْ كَــانَ مَحْمُــودَ الفِعَــالِ فَإنَّــهُ وَرِثَ المَكَــارِمَ عَــنْ أَبٍ مَحْمُــودِ

أو كقول نزار قباني:

جَــاءَ تِشْــرِينُ يَــا حَبِيبَــةَ عُمْــرِي أَحْسَــنُ الوَقْــتِ لِلْهَــوَى تِشْــرِينُ

ومنه قول مفدي زكرياء:

إذَا كَــانَ للشَّــيْطَانِ فَضْــلٌ عَلَــيْهِمْ فَشِــعْرِي وَحْــيٌ لا وَسْــوَاسُ شَــيْطَانِ

ومنه قول محمد العيد آل خليفة:

وتَــرَى الأَدِيــبَ الأَلْمَعِــيَّ مُــؤَخَّرًا ومُحَقَّــرًا وهْــوَ الأدِيــبُ الأَلْمَعِــي

ومنه قول إيليا أبي ماضي في رثاء أبيه:

أقُــولُ: لَــوْ أنِّــي.. كَــيْ أبَــرِّدَ لَــوْعَتِي فَيَــزْدَادُ شَــجْوِي كُلَّمَــا قُلْــتُ: لَــوْ أنِّــي

4. في أوَّلِ الشَّطْرِ الثَّانِي:

كقول خليل مطران:

وعَيْنَــانِ كَــالنَّجْمَيْنِ فِــي حَلَــكَ الــدُّجَى هُمَــا نِعْمَــةُ الــدُّنْيَا وشَــقْوَتُهَا هُمَــا

أو كقول الشاعر محمود غنيم في الوحدة العربية:

ولَــوْ أنَّــا لَــدَى الزَّحْــفِ صَــفّا مَــا دَهَانَــا مِــنَ الأَسَــى مَــا دَهَانَــا

أوكقول الشاعر القروي:

أتَــاكَ الهَــوَى فَاصْبِــرْ عَلَى الوَجْــدِ والأَلَــمِ أَلَــمْ يَأتِــكَ الإنْــذَارُ مِــنْ أَهْلِــهِ أَلَــمْ؟

أوكقول محمود سامي البارودي:

وإنّــي لَــرَاضٍ مِــنْ هَــوَاكِ بِنَظْــرَةٍ وحَسْــبِي بِهَــا إنْ أنْــتِ لَــمْ تَبْخَلِــي حَسْــبِي

أوكقول حافظ إبراهيم في الإمام محمد عبده بعد عودته من الجزائر:

بَكَّــرَا صَــاحِبَيَّ يَــوْمَ الإيَــابِ وقِفَــا بِــي بِعَــيْنِ شَــمْسٍ قِفَــا بِــي

بلاغة رد العجز على الصدر:

إنّ ردّ العجز على الصدر يؤكد المعنى، ويقرّره، وذلك بإعادة اللفظ مرة ثانية، كما يجمّل اللفظ، ويحسنّه، ضف إلى ذلك أنه يربط بين أجزاء الكلام، فيجعل القول متّسقا، ومنسجما، وهناك ميزة أخرى "وهي دلالة

أوّلِ الكلام على آخره، وارتباط آخره بأوله، وتلك هي البلاغة، فقد قال الخبراء بفن القول: البلاغة أن يكون أول كلامك دالا على آخره، وآخرُه مرتبطا بأوّله، وقد كان صُنّاع الكلام يفخرون بدلالة أول كلامهم على آخره، وارتباط آخره بأوله، كما كان النقاد يفطنون للكلام الجيد المتماسك، ويدركون آخره عند سماعهم لأوله."[1] وقد أشاد به أبو هلال العسكري في الصناعتين بقوله: "إنَّ لِرَدِّ الأَعْجَازِ عَلَى الصُّدُورِ مَوْقِعًا جَلِيلًا فِي البَلَاغَة، ولَهُ فِي المَنْظُومِ خَاصَّةً مَحَلًّا خَطِيرًا"[2]

كما أثنى عليه ابن رشيق في كتاب العُمدة بقوله: "إنَّهُ يُكْسِبُ البَيْتَ الَّذِي فِيهِ أُبَّهَة، ويَكْسُوهُ رَوْنَقًا ودِيبَاجَة، ويَزِيدُهُ مَائِيَّةً وطَلَاوَة".

تدريب: دُلَّ على رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْر، وبيِّنْ نوعه في الأمثلة الآتية:

- قال أحمد شوقي:

واسْـــتَخْبِرُوهُ: إِلَـــى كَـــمْ نَـــارُ جَفْوَتِـــهِ؟ أَمَـــا كَفَـــى مَـــا جَنَـــتْ نَـــارُ الخُـــدُودِ أَمَـــا؟

- وقال أحمد شوقي في قصيدة "نكبة دمشق":

جَـــزَاكُم ذُو الجَـــلَالِ بَنِـــي دِمَشْـــقٍ وعِـــزَّ الشّـــرْقِ أَوَّلُـــهُ دِمَشْـــقُ

- وقال أيضا:

وتَمَـــامُ فَضْـــلِكَ أَنْ يَعِيبَـــكَ حُسَّـــدٌ يَجِـــدُونَ نَقْصًـــا عِنْـــدَ كُـــلِّ تَمَـــامِ

- قال خليل مطران:

حَسَـــبٌ زَادَهُ سَـــنًى وسَـــنَاءً نَسَـــبٌ جَـــامِعُ السَّـــنَى والسَّـــنَاءِ

- وقال مطران:

يُبَـــالِي فِـــي الصَّـــدَاقَةِ كُـــلَّ شَـــيْءٍ وقَـــدْ يَلْقَـــى الخُطُـــوبَ فَمَـــا يُبَـــالِي

- قال محمود غنيم:

يَـــا أَيُّهَـــا السِّـــلْمُ المُطِـــلُّ عَلَـــى الـــوَرَى طُـــوبَى لِعَهـــدِكَ إِنْ تَحقَّـــقَ طُـــوبَى

- وقال محمود غنيم مخاطبا ربه:

مَـــا جَـــاءَنِي فِيـــكَ شَـــيْطَانِي يُشَـــكِّكُنِي إِلّا وَعَـــادَ بِثَـــوْبِ الخِـــزْيِ شَـــيْطَانِي

- وقال في نعمة الأبناء:

مَـــا عَرَفْـــتُ الحَنَـــانَ والحُـــبَّ إِلّا يَـــوْمَ جَـــاءُوا، أَنْعِـــمْ بِهِـــمْ يَـــوْمَ جَـــاءُوا

- قال الشاعر القروي:

فَلَـــمْ أَرَ غَيْـــرَ نَفْسِـــي مِـــنْ صَـــدِيقٍ ولَـــمْ أَرَ مِـــنْ عَـــدُوٍّ غَيْـــرَ نَفْسِـــي

- قال أبو القاسم الشابي:

[1] علم البديع الدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود ص 315.
[2] الصناعتين ص 400.

أَلَا إِنَّ أَحْـــــلَامَ الـــــبِلَادِ دَفِينَـــــةٌ تُجَمْجِـــمُ فِـــي أَعْمَاقِهَـــا مَـــا تُجَمْجِـــمُ

- قال محمد العيد مخاطبا حبيبته الجزائر:

مَـــا زَالَ حُبُّـــكِ نَاشِـــئًا مُتَرَعْرِعًـــا فِـــي نَاشِـــئٍ بِجَـــوَانِحِي مُتَرَعْـــرعِ

أقْسَـــمْتُ لَـــوْ خَيَّرْتِنِـــي فـــي مَصْـــرَعٍ مَـــا اخْتَـــرْتُ إلّا فِـــي سَـــبِيلِكِ مَصْـــرَعِي

- وقال آل خليفة:

يَـــا أَيُّهَـــا الشَّـــعْبُ لُـــذْ بِـــالحَقِّ مُعْتَصِـــمًا وارْكُـــنْ إِلَـــى لَائِـــذٍ بِـــالحَقِّ مُعْتَصِـــمِ

- قال الشاعر الجزائري محمد الأخضر السائحي:

أبِـــي - يَـــا وَقَـــاكَ اللهُ - شَـــرَّ النَّوَائِـــبِ لَأَنْـــتَ أَحَـــقُّ النَّـــاسِ بِالمَـــدْحِ يَـــا أَبِـــي

إِذَا اعْتَرَضَـــتْنِي فِـــي طَرِيقِـــي نَوَائِـــبٌ تَعَرَّضْـــتَ تَحْمِينِـــي شُـــرُورَ النَّوَائِـــبِ

- قال حافظ إبراهيم مادحا:

تَوَلَّيْـــتَ الأُمُـــورَ فَتًـــى وكَهْـــلَا فَلَـــمْ يَبْلُـــغْ مَـــدَاكَ فَتًـــى وكَهْـــلُ

- وقال حافظ إبراهيم:

قَـــدْ ضِـــقْتُ ذَرْعًـــا بِالحَيَـــاةِ ومَـــنْ يَفْقِـــدْ أَحِبَّتَـــهُ يَضِـــقْ ذَرْعَـــا

- قال مصطفى صادق الرافعي:

وَيْـلٌ لِمَـنْ عَـاشَ فِـي لَهْـوٍ وفِـي لَعِـبٍ فَمِيتَـةُ المَجْـدِ بَـيْنَ اللّهْـوِ واللّعِـبِ

- قال إيليا أبو ماضي:

طُوبَـــاكَ إِنَّـــكَ لا تُفَكِّـــرُ فِـــي غَـــدٍ بَـــدْءُ الكَآبَـــةِ أَنْ تُفَكِّـــرَ فِـــي غَـــدِ

- ولإيليا أبي ماضي:

ثَمَـــانٍ وعَشْـــرٍ وهُـــوَ يَخْـــدِمُ قَوْمَـــهُ ألا حَبَّـــذَا تِلْـــكَ الثَّمَـــانِيُّ والعَشْـــرُ

- قال محمود سامي البارودي في رثاء ابنه:

وَاكَبِـــدِي يَـــا عَلِـــيُّ بَعْـــدَكَ لَـــو كَانَـــتْ تَبُـــلُّ الغَلِيـــلَ (وَاكَبِـــدِي)

- وقال سامي البارودي:

فَيَـــا سَـــعْدُ حَـــدِّثْنِي بِأَخْبَـــارِ مَـــنْ مَضَـــى فَأَنْـــتَ خَبِيـــرٌ بِالأَحَادِيـــثِ يَـــا سَـــعْدُ

- وقال وهو في منفاه:

وَحِيـــدٌ مِـــنَ الخُـــلّانِ فِـــي أَرْضِ غُرْبَـــةٍ أَلَا كُـــلُّ مَـــنْ يَبْغِـــي الوَفَـــاءَ وَحِيـــدُ

التَّرْصِيع

تعريفُ التَّرْصِيع لغة: التَّرْصِيعُ فِي اللُّغَة "هُوَ وَضْعُ الجَوَاهِرِ وغَيْرِهَا فِي الذَّهَب"[1].

التَّرْصِيعُ اصطلاحا: "هُوَ أنْ يَأْتِيَ النَّاظِمُ بِبَيْتٍ يُقَابِلُ جَمِيعَ أَلْفَاظِ صَدْرِهِ، أوْ أَكْثَرَهَا بِأَلْفَاظِ عَجُزِهِ وَزْنًا وتَقْفِيَةً"[2]. فهُو مَأخُوذٌ مِنْ تَرْصِيعِ العِقْد، وذَلِكَ بِأنْ يَكُونَ فِي أَحَدِ جَانِبَيْهِ مِنَ الجَوْهَرِ مِثْلَ مَا فِي الجَانِبِ الآخَر.

وعرفه رشيد الدين الوطواط بقوله: هُوَ أنْ يُقَسِّمَ الكَاتِبُ أو الشَّاعِرُ عِبَارَاتِهِ إلَى أقْسَامٍ مُنْفَصِلَة، ثُمَّ يَجْعَلَ كُلَّ لَفْظٍ مِنْهَا في مُقَابِلِ لَفْظٍ آخَر، يَتَّفِقُ مَعَهُ فِي الوَزْن، وحَرْفَ الرَّوِيّ، وإذَا تَحَدَّثْنَا عَنِ النَّثْر، فقُلْنَا (حُرُوف الرَّوِيّ)، فَمَا ذَلِكَ إلَّا مِنْ بَابِ التَّوَسُّع، لأنَّ حُرُوفَ الرَّوِيِّ لا تَكُونُ فِي الحَقِيقَةِ إلَّا فِي الشِّعْر."[3]

وأستشهد في تعريف الترصيع بقول الشاعر في بديعيّته:

فَرَائِـــدُ رَصَّـــعَتْ تِيجَـــانَ مَـــدْحِهِمِ فَوَائِـــدُ جَمَّعَـــتْ عِقْيَـــانَ نَعْـــتِهِمِ

بتأملك للبيت تجد أنّ هناك أربعة ألفاظ في صدر البيت، تقابلها أربعة ألفاظ في العجز، وهي كالآتي: (فَرَائِدُ) تقابل (فَوَائِدُ)، و(رَصَّعَتْ) تقابل (جَمَّعْتْ)، و(تِيجَانَ) تقابل (عِقْيَانَ)، و(مَدْحِهِمِ) تقابل (نَعْتِهِمِ). وهي ألفاظ كما لاحظت تتفق في الوزن، وفي الحرف الأخير.

كما يمكنك أن تلاحظ هذا المثال: "هَذَا كِتَابٌ غَزِيرَةٌ شَوَاهِدُهُ، يَسِيرَةٌ قَوَاعِدُهُ، طَرِيفَةٌ أشْعَارُهُ، لَطِيفَةٌ أخْبَارُهُ". لاحظ أن الألفاظ: (غَزِيرَةٌ، يَسِيرَةٌ) – (شَوَاهِدُهُ، قَوَاعِدُهُ) – (طَرِيفَةٌ، لَطِيفَةٌ) – (أشْعَارُهُ، أخْبَارُهُ). وهي ألفاظ متقابلة كما ترى، ومتّفقة في أوزانها، وأعجازها.

ووصف الأديب محمد المويلحي مكانَ لهوٍ في كتابه (حديث عيسى بن هشام) قال: "ودَخَلْنَا – لَا أدْخَلَ اللهُ عَلَيْكَ طَوَارِقَ النِّقَم، ولَا أخْرَجَكَ مِنْ طَرَائِقِ النِّعَم – فِي ذَلِكَ المَكَانِ فَرَأَيْنَاهُ حَوْمَةَ وَغًى احْتَدَمَ وَطِيسُه، ومَيْدَانَ حَرْبٍ اصْطَدَمَ خَمِيسُه، عَجَاجَتُهُ الدُّخَان، ومَتَارِسُهُ الدِّنَان، ونِبَالُهُ صَمَّامَاتُ القَوَارِير، وطُبُولُهُ نَغَمَاتُ المَزَامِير، وأبْطَالُهُ وشُجْعَانُهُ عُمَّالُهُ وغِلْمَانُه، وكَأنَّ مِنَصَّةَ الرَّقْصِ هِيَ حِصْنُهُ الحَصِين، وصَاحِبَ الحَانِ هُوَ قَائِدُ الكَمِين، وكَأنَّ المُغَنِّينَ هُمُ الكُمَاةُ والأقْرَان، والرَّاقِصَاتِ الحُمَاةُ والفُرْسَان".

الألفاظ التي شكّلت الترصيع هي كالآتي: (طَوَارِق، طَرَائِق) – (النِّقَم، النِّعَم) – (احْتَدَمَ، اصْطَدَمَ) – (وَطِيسُهُ، خَمِيسُهُ) – (صَمَّامَات، نَغَمَات) – (القَوَارِير، المَزَامِير) – (أَبْطَال، عُمَّال) – (شُجْعَانُهُ، غِلْمَانُه) – (الكُمَاة، الحُمَاة) – (الأقْرَان، الفُرْسَان).

ومن فنّ الترصيع قول محمود سامي البارودي:

فَمَـــا كُـــلُّ مَـــنْ رَاضَ البَدِيهَـــةَ عَاقِـــلٌ ولا كُـــلُّ مَـــنْ خَـــاضَ الكَرِيهَـــةَ بَاسِـــلُ

الشاهد في الترصيع: (رَاضَ، خَاضَ)، (البَدِيهَةَ، الكَرِيهَةَ)، (عَاقِلٌ، بَاسِلُ).

---

[1] معجم البلاغة العربية الدكتور بدوي طبانة ص 257.
[2] العقد البديع في فن البديع للخوري عواد ص 293.
[3] معجم البلاغة العربية ص 257.

ومنه قول مفدي زكريا:

نَطَــقَ الرَّصَّـــاصُ فَمَـــا يُبَـــاحُ كَـــلامُ وجَـــرَى القِصَـــاصُ فَمَـــا يُتَـــاحُ مَـــلامُ

الشاهد في الترصيع: (الرّصاص، القصاص)، (يُباح، يُتاح)، (كلام، مَلام).

وقوله أيضا:

جَزَائِـــرُ، يَـــا بِدْعَـــةَ الفَـــاطِرِ ويَـــا رَوْعَـــةَ الصَّـــانِعِ القَـــادِرِ

الشاهد في الترصيع: (بِدْعَةَ، رَوْعَةَ)، (الفَاطِرِ، القَادِرِ).

ومن روائعه أيضا قول مفدي زكريا:

يَـــا أَرْضُ مِيـــدِي، واصْـــعَقِي يَـــا سَـــمَا يَـــا نَـــارُ زِيـــدِي، وادْفَقِـــي يَـــا دِمَـــا

الشاهد البلاغي: (ميدي، زيدي)، (اصعقي، ادفقي)، (سما، دما).

ومنه قول خليل مطران:

البَحْـــرُ سَـــاجٍ والسَّـــكِينَةُ سَـــائِدَهْ واللّيْـــلُ دَاجٍ والمَدِينَـــةُ رَاقِـــدَهْ

الشاهد في الترصيع: (ساجٍ، داجٍ)، (السّكينة، المدينة)، (سائده، راقده).

وقول مطران في مساوئ المدينة:

حَيْـــثُ الرَّذَائِـــلُ فِـــي مَرَافِـــلِ عِـــزَّةٍ حَيْـــثُ الفَضَـــائِلُ فِـــي غَلَائِـــلِ هُـــونِ

الشاهد في الترصيع: (الرّذائل، الفضائل)، (مرافل، غلائل).

ومنه قول إيليا أبي ماضي:

قُـــلْ لِلّحَمَـــائِمِ فِـــي ضِـــفَافِ الـــوَادِي يَـــا لَيْـــتَكُنَّ عَلَـــى شَـــغَافِ فُـــؤَادِي

الشاهد في الترصيع: (ضِفَافِ، شَغَافِ)، (الوَادِي، فُؤَادِي).

ومن التصريع قول الدكتور زكي مبارك:

وجَـــنَّ عَلَـــيَّ اللَّيْـــلُ حَتَّـــى حَسِبْتُـــهُ جَفَـــاءَ كَرِيـــمٍ أوْ رَجَـــاءَ لَئِيـــمِ

الشاهد البلاغي في الترصيع قوله: (جَفَاء، رَجَاء)، (كَرِيم، لَئِيم).

ومن الترصيع قول محمد البشير الإبراهيمي مخاطبا العيد: "أَصْبَحْنَا فِيكَ كَالضَّمِيرِ المُعَذَّبِ فِي النَّفْسِ النَّافِرَة، وأَصْبَحْتَ فِينَا كَالنَّبِيِّ المُكَذَّبِ فِي الأُمَّةِ الكَافِرَة."

الشاهد في الترصيع: (المُعَذَّب، المُكَذَّب)، (النَّافِرَة، الكَافِرَة).

وقوله أيضا: "الحَضَارَةُ حَقَّقَهَا مَنْ سَادَ بالعَدْل، وقَادَ بالعَقْل".

ومن أبلغ شواهد الترصيع قول أحد الأدباء: "إنَّ أَوَّلَ العَدْلِ أنْ يَبْدَأَ المَرْءُ بِنَفْسِه، فَيُلْزِمَهَا كُلَّ خَلّة زَكِيَّة، وخَصْلَةٍ رَضِيَّة، ومَذْهَبٍ سَدِيد، ومَكْسَبٍ حَمِيد، لِتَسْلَمَ عَاجِلا، وتَسْعَدَ آجِلا، وأَوَّلَ الجَوْرِ أنْ يَعْمَدَ إلَيْها، فَيُكْسِبَهَا الآثَام، ويُعْقِبَهَا المَذَام، فَيَعْظُمَ وِزْرُهَا، ويَقْبُحَ ذِكْرُها. لا سَمِيرَ كالعِلْم، ولا ظَهِيرَ كالحِلْم، تَعَلَّمِ العِلْمَ فإنّهُ

يُقَوِّمُكَ ويُسَدِّدُكَ صَغِيرًا، ويُقَدِّمُكَ ويَسُودُكَ كَبِيرًا، تَعَلَّمْهُ، فإنَّهُ عِزٌّ لا يَبْلَى جَدِيدُه، وكَنْزٌ لا يَفْنَى مَدِيدُه، والجَهْلُ مَطِيَّةٌ، مَنْ رَكِبَهَا ذَلّ، ومَنْ صَحِبَهَا ضَلّ، خَيْرُ المَوَاهِبِ العَقْل، وشَرُّ المَصَائِبِ الجَهْل، ومَنْ صَاحَبَ العُلَمَاءَ وُقِّر، ومَنْ صَاحَبَ السُّفَهَاء حُقِّر، ومَنْ لَمْ يَتَعَلَّمْ فِي صِغَرِه، لَمْ يَتَقَدَّمْ فِي كِبَرِه، لا سَائِسَ مِثْلُ العَقْل، ولا حَارِسَ مِثْلُ العَدْل، العَاقِلُ يَعْتَمِدُ عَلَى عَمَلِه، والجَاهِلُ يَعْتَمِدُ عَلَى أَمَلِه، ومَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ بالأيَّام، لَمْ يَنْزَجِرْ بالمَلام، رُبَّ مُسْتَعْجِلٍ لأذِيَّة، ومُسْتَقْبِلٍ لِمَنِيَّة، مَنْ جَمَحَ بِهِ العُدْوَان، جَنَحَ عَنْهُ الإخْوَان، كَثْرَةُ الحِجَاجِ تُوَلِّدُ السَّآمَة، وكَثْرَةُ اللَّجَاجِ تُوَلِّدُ النَّدَامَة، مَنْ كَانَ أكْبَرُ هَمِّهِ الطَّعَام، كَانَ أكْثَرُ كَسْبِهِ الحَرَام، ومَنْ رُفِعَ بلا كِفَايَة، وُضِعَ بلا جِنَايَة، وأفْضَلُ المَرَاتِبِ والمَنَازِل، مَا تُنَالُ بِالمَنَاقِبِ والفَضَائِل، ومَنْ تَتَبَّعَ خَفِيَّاتِ الذُّنُوب، حُرِمَ مَوَدَّاتِ القُلُوب، خَيْرُ الأعْمَالِ مَا قَضَى فَرْضَك، وخَيْرُ المَالِ مَا وَقَى عِرْضَك، لا تَقْطَعْ قَرِيبًا وإنْ كَفَر، ولا تَأْمَنْ غَرِيبًا وإنْ شَكَر، عَثْرَةُ الرِّجْلِ تَزِلُّ القَدَم، وعَثْرَةُ اللِّسَانِ تُزِيلُ النِّعَم، مَنْ كَثُرَ ابْتِهَاجُهُ بالمَوَاهِب، اشْتَدَّ انْزِعَاجُهُ لِلْمَصَائِب، مِنْ شَرَائِطِ المُرُوءَةِ أنْ تَتَعَفَّفَ عَنِ الحَرَام، وتَتَلَطَّفَ عَنِ الآثَام، وتُنْصِفَ فِي الحُكْم، وتَكُفَّ عَنِ الظُّلْم، ومَنْ غَرَسَ شَجَرَةَ الحِلْم، اجْتَنَى ثَمْرَةَ السِّلْم، ومَنْ أكْثَرَ العُدْوَان، لَمْ يَأْمَنْ حُلُولَ النِّقَم، ومَنْ آثَرَ الإحْسَان، لَمْ يَعْدِمْ مَوَارِدَ النِّعَم".

بلاغة الترصيع:

فنّ الترصيع رفيع الشأن في ذاته، ولكنه إذا اقترن بالجناس فإنه يزداد عُلُوًّا، ورفعةَ شأن، ومثاله قول أحدهم: قَدْ وَطِئَتِ الدَّهْمَاءُ أعْقَابَهُمْ، وخَشِيَتِ الأعْدَاءُ أعْقَابَهُمْ. وقول الآخر: الكُؤُوسُ فِي الرَّاحَات، والنُّفُوسُ فِي الرَّاحَات. "وأكثرُ الشعراء من القدماء، والمحدثين قد غزوا هذا المغزى، ورموا هذا المرمى، وإنما يحسن إذا كان له في البيت موضع يليق به، فإنه ليس في كل موضع يحسن، ولا على كل حال يصلح"[1].

تدريب: حدّد التَّرْصِيع في الأمثلة الآتية:

- قال عائض القرني في صفة طالب العلم: "إنْ أَعْجَبَكَ عِلْمُكَ فَتَكَبَّرْت، وأطْرَبَكَ فَتَجَبَّرْت، وأغْضَبَكَ فَتَهَوَّرْت، فَاعْلَمْ أنَّهُ عِلْمٌ ضَار، وبِنَاءٌ مُنْهَار."

- قال محمد المويلحي في وصف إحدى رحلاته: "فَسِرْنَا إلَى حَيْثُ الهُمُومُ تَفْرِسُنَا، والغُمُومُ تُخْرِسُنَا، والأكْدَارُ لا تُفَارِقُنَا، والأقْدَارُ لا تُوَافِقُنَا."

- قال محمد البشير الإبراهيمي: "إنَّكُمْ يا أبْنَائِي رِجَالُ حَرَكَة، فَلا تَشِينُوهَا بالسُّكُون، وأبْطَالُ مَعْرَكَة، فَلا يَكُنْ مِنْكُمْ إلى الهُوَيْنَا رُكُون".

- وقال الإبراهيمي عن الشباب: "أتَمَثَّلُهُ مُصَاوِلًا لِخُصُومِهِ بِالحِجَاجِ والإقْنَاع، لا بِاللَّجَاجِ والإقْذَاع".

- قال أحمد شوقي في كتاب أسواق الذهب: "الفَضَائِلُ حَلائِل، والرَّذَائِلُ خَلائِل".

- وقال شوقي كذلك: "لا أَعْلَمُ لكَ مُنْصِفًا إلا عَمَلَك، إذا أَحْسَنْتَهُ جَمَّلَك، وإذا أتْقَنْتَهُ كَمَّلَك".

[1] معجم البلاغة العربية ص 257.

- قال مصطفى لطفي المنفلوطي: "لَوْلا السُّرُورُ فِي سَاعَةِ المِيلاد، مَا كَانَ البُكَاءُ فِي سَاعَةِ المَوْت، ولَوْلا فَرْحَةُ التَّلاق، مَا كَانَتْ تَرْحَةُ الفِرَاق".

- قال مفدي زكريا:

ولَـــوَافِحُ النِّيـــرَانِ خَيْـــرُ لَـــوَائِحٍ رُفِعَـــتْ لِمَـــنْ فِـــي نَاظِرَيْـــهِ رُكَـــامُ

ورَوَائِـــحُ البَـــارُودِ مِسْـــكُ نَـــوَافِحٍ سُـــجِرَتْ لِمَـــنْ فِـــي مَنْخَرَيْـــهِ زُكَـــامُ

- وقال مفدي زكريا مفتخرًا:

حَلّقْـــتُ كَالنَّسْـــرِ فِـــي آفَـــاقِ حَاضِـــرِنَا وغُصْـــتُ كَالسِّـــحْرِ فِـــي أعْمَـــاقِ مَاضِـــينَا

- قال خليل مطران في الشكوى:

ضَـــجِيعُ مَهْـــدٍ لَظَـــى الحُمَّـــى يُسَـــاوِرُنِي صَـــرِيعُ وَجْـــدٍ كَوَقْـــدِ النَّـــارِ مُشْـــتَعِلِ

- وقال خليل مطران:

زُهْـــرٌ مَـــآثِرُهُمْ زَهْـــرٌ مَفَـــاخِرُهُمْ فِـــي مُجْتَلَـــى الحِلْـــمِ أَوْ فِـــي مُجْتَنَـــى الحِكَـــمِ

- وقال مطران:

فَأَنَـــارَ أَهْـــلَ الحَـــزْمِ كُـــلُّ حَقِيقَـــةٍ وأَثَـــارَ أَهْـــلَ العَـــزْمِ كُـــلُّ خَيَـــالِ

- قال حافظ إبراهيم:

كَثِيـــرُ الأيَـــادِي حَاضِـــرُ الصَّفْـــحِ مُنْصِـــفُ كَثِيـــرُ الأعَـــادِي غَائِـــبُ الحِقْـــدِ مُسْعِـــفُ

- وقال حافظ إبراهيم:

فـــالعَرْشُ فِـــي فَـــرَحٍ والمُلْـــكُ فِـــي مَـــرَحٍ والخَلْـــقُ فِـــي مِـــنَحٍ والـــدَّهْرُ فِـــي رَهَـــبِ

- قال الشاعر القروي في وصف الحرب:

فَـــالبِرُّ مِـــنْ عَصْـــفِهَا أطْـــوَادُهُ قَصَـــبُ والبَحْـــرُ مِـــنْ قَصْـــفِهَا أَغْـــوَارُهُ قِمَـــمُ

- وقال القروي:

الفَجْـــرُ مِـــنْ أبْوَابِـــهِ والـــدَّهْرُ مِـــنْ حُجَّابِـــهِ والزَّهْـــرُ مِـــنْ حُجَّاجِـــهِ

- قال عباس محمود العقاد:

ظَمْـــآنُ ظَمْـــآنُ لَا صَـــوْبُ الغَمَـــامِ ولَا عَـــذْبُ المُـــدَامِ ولا الأنْـــدَاءُ تَرْوِينِـــي

- وقال العقاد في وصف الدنيا:

شَـــرُّهَا يَـــا بُنَـــيَّ شَـــرٌّ ثَقِيـــلُ خَيْرُهَـــا يَـــا بُنَـــيَّ خَيْـــرٌ قَلِيـــلُ

- قال ميخائيل نُعيمة في وصف النّهر المتجمّد:

وتَكْـــرُّ مَوْجَتُـــكَ النَّقِيَّـــةُ حُـــرَّةً نَحْـــوَ البِحَـــارْ حُبْلَـــى بِأسْـــرَارِ الدُّجَى، ثَمْلَـــى بِأنْـــوَارِ النَّهَـــارْ

- قال علي الجندي:

مَـــنْ ذَا يُبَاهِيـــكَ بِالعَلْيَـــاءِ مُفْتَخِـــرًا؟ ومَـــنْ يُبَارِيـــكَ فِـــي الهَيْجَـــاءِ مُقْتَحِمَـــا؟

- قال محمود سامي البارودي:

كَـالْبَرْقِ فِـي عَجَـلٍ والرَّعْـدِ فِـي زَجَـلٍ والْغَيْـثِ فِـي هَلَـلٍ والسَّـيْلِ فِـي هَمَـلِ

- وقال أيضا:

فالـصَّبْـرُ مُنْخَـذِلٌ والـدَّمْـعُ مُنْهَمِـلُ والعَـقْـلُ مُخْتَبِـلُ والقَلْـبُ مُشْتَغِـلُ

- قال أحمد سحنون في نصرة الشعب الفلسطيني:

ونُنْصِـفَ شَـعْبًا هَـدَى واهْتَـدَى ونَنْسُـفَ شَـعْبًا بَغَـى واعْتَـدَى

- قال أحمد شوقي:

قُـوَّادُ مَعْرَكَـةٍ وُرَّادُ مَهْلَكَـةٍ أَوْتَـادُ مَمْلَكَـةٍ آسَـادُ مُحْتَـرَبِ

- قال علي الجارم:

السَّـيْلُ فِـي دَفَعَاتِـهِ، والسَّـيْفُ فِـي عَزَمَاتِـهِ، والمَـوْتُ فِـي وَثَبَاتِـهِ

- قال سليمان الصّولة:

فالعَـدْلُ فـي فَـرَحٍ والظّلْـمُ فـي تَـرَحٍ والعِلْـمُ فـي مَـرَحٍ والجَهْـلُ فـي كَـدَرِ

- قال ناصيف اليازجي في المديح:

البَـدْرُ مِـنْ حُسَّـادِهِ والـدَّهْرُ مِـنْ أَحْفَـادِهِ والنَّصْـرُ مِـنْ أَجْنَـادِهِ

المحسّنات المعنوية

obeikan.com

الطِّبَاق

تعريف الطّباق لغة: الطِّبَاقُ فِي اللُّغَة وَضْعُ طَبَقٍ عَلَى طَبَق، كَوَضْعِ غِطَاءِ القِدْرِ عَلَى القِدْر، حَتَّى تَحْصُلَ التَّغْطِيَةُ بِإِحْكَام، ونَقُولُ: طَابَقَ الشَّيْءَ عَلَى الشَّيْءِ مُطَابَقَةً، وطِبَاقًا، أيْ أطْبَقَهُ عَلَيْه.

الطباق اصطلاحًا: "يُعَرَّفُ الطِّبَاقُ عِنْدَ جُمْهُورِ البَلَاغِيِّينَ بِأَنَّهُ الجَمْعُ بَيْنَ مُتَقَابِلَيْنِ فِي الجُمْلَةِ فِي كَلَامٍ وَاحِد"[1]، ومثاله قوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى والبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ) فاطر 19-22.

صُوَر الطباق:

1/ أنْ يُجمَعَ بَيْنَ اسْمَيْن: مثل قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالهُدَى) البقرة 16

فالجمع بين الضلالة، والهدى في العبارة الواحدة طباق، لأنّ الضلالة ضد الهدى.

2/ أنْ يُجْمَعَ بَيْنَ فِعْلَيْن: مثل قوله تعالى: (يُحْيِي وَيُمِيتُ) النجم43.

فالجمع بين (يحيي)، و(يميت) في عبارة واحدة طباق، لأنّ الحياة ضدُّ الموت.

3/ أنْ يُجْمَعَ بَيْنَ حَرْفَيْن: مثل قوله تعالى: (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) البقرة 286

فالجمع بين (اللام في لها)، و(على) طباق، لأنّ في (اللام) معنى المنفعة، وفي (على) معنى المضرّة.

4/ أنْ يُجْمَعَ بَيْنَ مُخْتَلِفَيْن: مثل قوله تعالى: (وأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ) آل عمران 49.

فالجمع بين (أحيي)، و(الموتى) طباق، لأنّ الإحياء ضدُّ الإماتة.

أقسام الطباق:

طباق الإيجاب: وهُوَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ لَفْظَيْنِ مُتَضَادَّيْن، وكُلٌّ مِنْهُمَا مُثْبَت، كالأمثلة السابقة.

طباق السَّلب: وهُوَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ فِعْلَيْنِ مِنْ مَصْدَرٍ وَاحِد، أَحَدُهُمَا مُثْبَتٌ، والآخرُ مَنْفِيّ[2]، وعرّفه العسكريّ بقوله: "هُوَ بِنَاءُ الكَلَامِ عَلَى نَفْيِ الشَّيْءِ مِنْ جِهَة، وإِثْبَاتِهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى."[3] مثل قول محمود غنيم في وصف "الروبوت" أو الإنسان الآلي:

لا يُشْبِهُ النَّاسَ إحْسَاسًا وعَاطِفَةً ... ويُشْبِهُ النَّاسَ تَرْكِيبًا وأَعْضَاءَ

ومنه قول إيليا أبي ماضي:

بَنَيْتُ فِرْدَوْسِي وزَخْرَفْتُهُ ... حَتَّى إِذَا مَا تَمَّ ضَيَّعْتُهُ

أَجْرَيْتُ فِي أَنْهَارِهِ كَوْثَرًا ... فَذَاقَهُ النَّاسُ ومَا ذُقْتُهُ

وقَدْ يَكُونُ طِبَاقُ السَّلْبِ جَمْعًا بَيْنَ اسْمَيْن، أَحَدُهُمَا مُثْبَتٌ، والآخَرُ مَنْفِيّ، كما في قول أحمد شوقي:

كَأَنَّ وَجْهَكَ تَحْتَ النَّقْعِ بَدْرُ دُجًى ... يُضِيءُ مُلْتَثِمًا أَوْ غَيْرَ مُلْتَثِمِ

---

[1] بلاغة الطباق والمقابلة الدكتور محمد علي أبو زيد ص 17.
[2] المرجع نفسه ص 40.
[3] الصناعتين ص 421.

وقد اجتمع طباق الإيجاب، وطباق السلب في قول إيليا أبي ماضي:

لا تَقْلَقِـــي يَـــوْمَ النَّـــوَى أوْ فَـــاقْلَقِي يَـــا نَفْـــسُ كُـــلُّ تَجَمُّـــعٍ لِتَفَـــرُّقِ

كما اجتمعا قي قول ميخائيل نُعيمة: "أَنَقُولُ إنَّ الإنْسَانَ مَقْضِيٌّ عَلَيْهِ بِحَيَاةٍ نِصْفُهَا تَفَاهُمٌ ونِصْفُهَا سُوءُ تَفَاهُم، ثُمَّ نَسْتَسْلِمُ لِذَلِكَ القَضَاءِ صَاغِرِين، ونَمْضِي نَنْحَرُ أيَّامَنَا السِّمَانَ لأيَّامِنَا العِجَاف؟".

بلاغة الطباق:

الطباق من الأمور الفطرية المركوزة في الطباع، والتي لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام، فهو يثبت المعنى في النفس، إذ الضدُّ أقرب خُطُورًا بالبال إذا ذُكر ضدُّه، وقد قيل: "والضدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضّدُّ".[1] وذلك إشارة إلى قول الشاعر:

فَالوَجْـــهُ مِثْـــلُ البَـــدْرِ مُبْـــيَضُّ والشَّـــعْرُ مِثْـــلُ اللّيْـــلِ مُسْـــوَدُّ

ضِـــدَّانِ لَمَّـــا اسْـــتُجْمِعَا حَسُـــنَا والضِّـــدُّ يُظْهِـــرُ حُسْـــنَهُ الضِّـــدُّ

و"من هنا فإن تعاملنا مع التقابل والتطابق لا يكون فقط بوصفها محسنات بديعية معنوية، لا عمل لها سوى تقوية المعنى، وإنما أيضا من منطلق ما تحدثه من موسيقى خفية، وحركة نفسية في قارئ الشعر أو سامعه."[2]

أمّا في الأدب الحديث، والمعاصر، فالطباق ينمّ في أغلب الحالات عن الصراع النفسي، والغليان الداخلي وصفة الأسى، والألم، والحزن، ورفض الأمر الواقع، فها هو ذا حافظ إبراهيم لم يجدْ أفضل من لغة التضاد للتعبير عن أساه، يقول حافظ:

كَـمْ مَـرَّ بِـي فِيـكِ عَـيْشٌ لَسْـتُ أذْكُـرُه ومَـرَّ بِـي فِيـكِ عَـيْشٌ لَسْـتُ أنْسَـاهُ

وَدَّعْـتُ فِيـكِ بَقَايَـا مَـا عَلِقْـتُ بِـهِ مِـنَ الشَّـبَابِ ومَـا وَدَّعْـتُ ذِكْـرَاهُ

أهْفُـو إلَيْـهِ عَلَـى مَـا أقْرَحَـتْ كَبِـدِي مِـنَ التَّبَـارِيحِ، أوْلَاهُ وأخْـرَاهُ

وهذا أبو القاسم خمّار يعبر عن صراعه، وحزنه على وطنه:

فَاسْـتَوْغَلَتْ بَيْنَنَـا الأضْـدَادُ، وانْقَلَبَـتْ كُـلُّ المَفَـاهِيمِ بِالقَاصِـي والـدَّانِي

أفْرَاحُنَـا أصْـبَحَتْ بِالـدَّمْعِ مُمْطِـرَةً وحُلْمُنَـا صَـارَ أشْـبَاحًا لِحِرْمَـانِ

وهذا محمود دويش يشحن لغته الشعرية بجماليّة بنية التضاد، حيث يقول:

لِلْخَوْفِ أسْمَاءُ عَدِيدَة
مِنْ بَيْنِهَا ألّا نَخَاف
وأنْ نَرَى الصَّيَّاد
في رِيشِ الطَّرِيدَة

ويقول نزار قباني:

---

[1] دراسات في علم البديع ص 35.
[2] موسيقى الشعر العربي الجزء الأول دكتور حسني عبد الجليل يوسف ص 16.15.

قَدْ صَغُرْنَا أَمَامَكُمْ أَلْفَ قَرْنٍ
وكَبِرْتُمْ خِلَالَ شَهْرٍ قُرُونَا.

ويقول أيضا:

اعْتِيَـــادِي عَلَـــى غِيَابِـــكِ صَـــعْبٌ واعْتِيَـــادِي عَلَـــى حُضُـــورِكِ أصْـــعَبْ
أتَمَنَّـــى لَـــوْ كُنْـــتِ بُؤْبُـــؤَ عَيْنِـــي أتُرَانِـــي طَلَبْـــتُ مَـــا لَـــيْسَ يُطْلَـــبْ؟

ويقول عبد القادر المازني:

فأنْـــتَ جَحِيمِـــي فـــي الحَيَـــاةِ وجَنَّتِـــي وأنْـــتَ عَـــذُوِّي والحَبِيـــبُ المُـــؤازَرُ

ولك أن تتخيل حجم المعاناة النفسية التي جسدها الشاعر في هذا البيت.

وعموما يمكن القول إنّ في فطرة الإنسان حُبًّا لرؤية الأشياء المتباعدة في الحياة متجاورةً في رحاب اللغة.

تدريب: دُلَّ على الطباق، وبيّن نوعه، وبلاغته في الأمثلة الآتية:

- قال خليل مطران:

إنَّ هَـــذِي الحَيَـــاةَ سُـــخْرِيَّةٌ تُقْـــ ـــضَى بِجِـــدٍّ، بِـــئْسَ الطِّبَـــاقُ الأَلِـــيمُ
أَقَـــوِيٌّ وبَعْـــدَ آنٍ ضَـــعِيفٌ؟ أَصَـــحِيحٌ وفِـــي ثَـــوَانٍ سَـــقِيمُ؟

- وقال خليل مطران مخاطبًا النجم:

فَيَـــا لَـــكَ مِـــنْ صَـــامِتٍ نَـــاطِقٍ ويَـــا لَـــكَ مِـــنْ مُعْجِـــمٍ مُعْـــرِبِ

- قال بشارة الخوري:

يَبْكِـــي ويَضْـــحَكُ لَا حُزْنًـــا ولا فَرَحًـــا كَعَاشِـــقٍ خَـــطَّ سَـــطْرًا فِـــي الهَـــوَى ومَحَـــا

- قال جبران خليل جبران:

سُكُـــوتِي إِنْشَـــادٌ وجُـــوعِـــي تُخْمَـــةٌ وفِي عَطَشِـــي مَـــاءٌ وفِي صَحْوَتِـــي سُكْـــرُ
وفِي لَوْعَتِـــي عُـــرْسٌ وفِي غُرْبَتِـــي لِقًـــا وفِي بَاطِنِـــي كَشْـــفٌ وفِي مَظْهَـــرِي سِتْـــرُ

- قال إسماعيل صبري:

إنَّ الحَيَـــاةَ سُـــرُورَهَا وبُكَاءَهَـــا ونَعِيمَهَـــا وشَـــقَاءَهَا سِـــيَّانِ

- قال الشاعر القروي:

وتَطْلُـــبُ نَفْسِـــي مِـــنْ زَمَـــانِي صَـــدَاقَةً وهَيْهَـــاتَ أَنْ تَلْقَـــاهُ إلّا مُعَادِيَـــا
أَذَلِـــكَ ذَنْبِـــي يَـــا زَمَـــانُ بِـــأَنَّنِي قَضَـــيْتُ مَشِـــيبِي فِـــي الوَفَـــا وشَـــبَابِيَا؟
ولِـــي حَسَـــنَاتٌ يَـــا زَمَـــانُ كَثِيـــرَةٌ فَمَـــا لَـــكَ تَرْوِيهَـــا عَلَـــيَّ مَسَـــاوِيَا؟

- وقال في الحكمة:

عَـــدْلُ الطَّبِيعَـــةِ رَحْمَـــةٌ والظُّلْـــمُ إنْ جَـــادَتْ عَلَـــى كَـــفٍّ بِسِـــتِّ أَصَـــابِعِ

- قال محمود غنيم:

إنْ كُنْـتَ يَـا بَحْـرُ عِمْلَاقًـا فَأَنْـتَ ومَـا تَحْوِيـــهِ فِـــي مَلَكُـــوتِ اللهِ كَـــالقَزَمِ

- قال أبو القاسم الشابي:

فَوَجَـــدْتُ أعْـــرَاسَ الوُجُـــودِ مَآتِمًـــا ووَجَـــدْتُ فِـــرْدَوْسَ الزَّمَـــانِ جَحِيمَـــا

- قال محمود غنيم:

قَـــالُوا الحَضَـــارَةَ قُلْـــتُ أَسْـــفَرَ وَجْهُهَـــا وبَـــدَتْ مَحَاسِـــنُهَا فَكُـــنَّ عُيُوبَـــا

- قال علي الجارم:

مَلِـــكٌ فَضْـــلُهُ تَـــرَاهُ قَرِيبًـــا ومَـــدَى رَأْيِـــهِ تَـــرَاهُ بَعِيـــدَا

- قال إيليا أبو ماضي عن الإنسان:

خِفْـــهُ قَـــدِيرًا، وخِفْـــهُ لَا اقْتِـــدَارَ لَـــهُ فَـــالظُّلْمُ والغَـــدْرُ إمَّـــا عَـــزَّ أوْ هَانَـــا

سُـــرُورُهُ فِـــي بُكَـــاءِ الأكْثَـــرِينَ لَـــهُ وحُزْنُـــهُ أنْ تَـــرَى عَيْنَـــاهُ جَـــذْلَانَا

- وقال أبو ماضي مخاطبا البلبل:

يَـا أَيُّهَـا الشَّـادِي المُغَـرِّدُ فِـي الضُّـحَى أَهْـــوَاكَ إنْ تُنْشِـــدْ وإنْ لَـــمْ تُنْشِـــدِ

- قال إلياس فرحات:

ومَـــا أَنَـــا إلّا كَالزَّمَـــانِ وأَهْلِـــهِ أَعَـــافُ وأَسْـــتَحْلِي وأَرْضَـــى وأَغْضَـــبُ

- قال محمد الأخضر السائحي في رثاء البشير الإبراهيمي:

أيُّهَـــا الرَّاحِـــلُ المُقِـــيمُ سَـــلامَا طِبْـــتَ فـــي الأرْضِ والسَّـــمَاءِ مُقَامَـــا

- قال محمد العيد آل خليفة واصفا الدنيا:

بِـــيضٌ وسُـــودٌ وأخْيَـــارٌ وأشْـــرَارُ كَـــمْ تَحْتَـــوِينَ عَلَـــى الأضْـــدَادِ يـــا دَارُ

- قال إلياس فيّاض في الشَّهيد:

لا تَبْكِـــهِ فـــاليَوْمَ بَـــدْءُ حَيَاتِـــهِ إنَّ الشَّـــهِيدَ يَعِـــيشُ يَـــوْمَ مَمَاتِـــهِ

- قال معروف الرصافي:

وإنِّـــي جَبَـــانٌ فِـــي فِـــرَاقِ أَحِبَّتِـــي وإنْ كُنْـــتُ فِـــي غَيْـــرِ الفِـــرَاقِ شُـــجَاعَا

- وقال الرصافي:

قَـــوْمٌ أَضَـــاعُوا مَجْـــدَهُمْ وتَفَرَّقُـــوا فَتَـــرَاهُمُ جَمْعًـــا وهُـــمْ أَشْـــتَاتُ

- وللرصافي في حب لبنان:

فَيَـــا لَائِمِـــي فِـــي حُـــبِّ لُبْنَـــانَ إنَّنِـــي أَحِـــسُّ لَعَمْـــرِي مِنْـــهُ مَـــا لَا تُحِسُّـــهُ

- وقال أيضا:

فَـــأَرِشْ جَنَـــاحِي كَـــيْ أَطِيـــرَ بِرِيشَـــةٍ فَيَكُـــونَ ظَنِّـــي فِـــي نَـــدَاكَ يَقِينِـــي

- قال شوقي:

المَـــالُ حَلّـــلَ كُـــلَّ غَيْـــرِ مُحَلّـــلِ حَتَّـــى زَوَاجَ الشِّـــيبِ بالأبْكَـــارِ

مـــا زُوِّجَـــتْ تلـــك الفَتَـــاةُ وإنَّمَـــا بِيـــعَ الصِّـــبَا والحُسْـــنُ بالـــدِّينَارِ

- قال حافظ إبراهيم في وصف الشمس:

هِـــيَ مَـــوْتٌ وحَيَـــاةٌ لِلْـــوَرَى وظَـــلَالٌ وهُـــدًى لِلْغَـــابِرِين

- قال محمود سامي البارودي مفتخرا:

ومَـــا ذَاكَ إلّا أَنَّنِـــي بِـــتُّ سَـــاهِرًا ونَـــامُوا ومَـــا عُقْبَـــى التَّـــيَقّظِ كَـــالغَفْوِ

- وقال البارودي في الوصف:

فَالضَّـــوْءُ مُحْتَـــبِسٌ والمَـــاءُ مُنْطَلِـــقٌ والجَـــوُّ مُنْقَـــبِضٌ والظِّـــلُّ مُنْبَسِـــطْ

- وقال في مدح مصطفى صادق الرافعي:

مُهَـــذَّبُ الطَّبْـــعِ مَـــأمُونُ الضَّـــمِيرِ إِذَا بَلَوْتَـــهُ كَـــانَ بَادِيـــهِ كَخَافِيـــهِ

- وللبارودي أيضا:

لَـــهُ بَـــيْنَ مَجْـــرَى القَـــوْلِ آيَـــاتُ حِكْمَـــةٍ يَـــدُورُ عَلَـــى آدَابِهَـــا الجِـــدُّ والهَـــزْلُ

- وقال البارودي متغزلا:

ولَـــمْ تَـــدْرِ ذَاتُ الخَـــالِ والحُـــبُّ فَاضِـــحٌ بِأَنَّ الَّـــذِي أُخْفِيـــهِ غَيْـــرُ الَّـــذِي أُبْـــدِي

- قال نزار قباني: "للمَرَّةِ الأولى أدْخُلُ الزَّمَنَ الشِّعْرِيَّ الجَزَائِرِيّ، أكْتَشِفُهُ ويَكْتَشِفُنِي، أخْتَرِقُهُ ويَخْتَرِقُنِي. عَرَفْتُ الأزْمِنَةَ العَرَبِيَّةَ كُلَّهَا، بِضِيقِهَا واتِّسَاعِهَا، بِذَكَائِهَا وسُخْفِهَا، بارْتِفَاعِهَا وانْحِدَارِهَا، بِعَافِيَتِهَا ومَرَضِهَا، بِحَنَانِهَا وهَمَجِيَّتِهَا، بجَاهِلِيَّتِهَا وإسْلَامِهَا، بمَآثِرِهَا وصَغَائِرِهَا، بِنِظَامِهَا وفَوْضَاهَا، بِجَدْوَاهَا وقِلَّةِ جَدْوَاهَا، إنَّنِي أدْخُلُ الزَّمَنَ الشِّعْرِيَّ الجَزَائِرِيَّ، عَلَّهُ يُعَوِّضُنِي عَنِ الزَّمَنِ العَرَبِيِّ الآخَر، الّذِي تَرَكْتُهُ وَرَائِي في المَشْرِق، وهو يَتَرَنَّحُ ويَتَكَسَّر".

- قال طه حسين: "النَّاسُ كُلُّهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّ حَيَاتَهُمْ مِزَاجٌ مِنَ الخَيْرِ والشَّر، ومِنَ السُّرُورِ والحُزْن، ومِنَ الرَّجَاءِ واليَأْس، ومِنَ الابْتِهَاجِ والابْتِئَاس، وإنَّ أدْبَاءَهُمْ يَخْتَلِفُونَ حِينَ يُرِيدُونَ أنْ يُصَوّرُوا لَهُمْ هَذِهِ الحَيَاةَ فِيمَا يُنْشِئُونَ مِنْ أَدَب، فَبَعْضُهُمْ لا يُصَوِّرُ مِنَ الحَيَاةِ إلا صَفْوَهَا وعَفْوَهَا، ومَا يَشِيعُ فِيهَا مِنْ نَقَاءٍ وجَمَال، وبَعْضُهُمْ لا يُصَوِّرُ مِنَ الحَيَاةِ إلّا شَرَّهَا ونكْرَهَا، ومَا يَجْثُمُ عَلَيْهَا مِنْ فَسَادٍ وضَلَال، وبَعْضُهُمْ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ ذَلِك، فَيُصَوِّرُهَا شَائِقَةً رَائِقَةً حِينًا، ويُصَوِّرُهَا قَاتِمَةً بَغِيضَةً حِينًا آخَر، ولَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا كُلِّهِ جَدِيد، فَمِنَ الكُتَّابِ مَنْ يَتَفَاءَلُ دَائِمًا، ومِنْهُمْ مَنْ يَتَشَاءَمُ دَائِمًا، ومِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُ مِنَ التَّفَاؤُلِ والتَّشَاؤُمِ بِطَرَف".

- قال ميخائيل نعيمة: "عَلَيْنَا أنْ نَقْهَرَ الغَضَبَ بالتَّسَامُح، والطَّمَعَ بالقَنَاعَة، والكِبْرِيَاءَ بالوَدَاعَة، والشَّهْوَةَ بالعِفَّة، وحُبَّ الثَّأرِ بالصَّفْح، والخُشُونَةَ باللِّين، والظُّلْمَ بالعَدْل، والرِّيَاءَ بالصِّدْق، وسُوءَ الظَّنِّ بِحُسْنِ الظَّن، والخَوْفَ بالشَّجَاعَة، والشَّك بالإيمَان، والكُرْهَ بالمَحَبَّة...إلى آخِرِ مَا في القَلْبِ البَشَرِيِّ مِنْ سُودِ الشَّهَوَاتِ وبِيضِهَا".

- قال الولد لأبيه: "صَاحِبُ القُمَامَةِ عِنْدَ البَاب"، قال الأب: "يَا بُنَيَّ نَحْنُ أصْحَابُ القُمَامَة، وهو صَاحِبُ النَّظَافَة".

- قال عمر المختار رحمه الله: "لَئِنْ كَسَرَ المِدْفَعُ سَيْفِي، فَلَنْ يَكْسِرَ البَاطِلُ حَقِّي".

- وقال أحدهم: "لَوْ أمْطَرَتِ السَّمَاءُ حُرِّيَةً لَرَأَيْتَ بَعْضَ العَبِيدِ يَحْمِلُونَ المِظَلَّات".

- قال أحد الحكماء: "لا تُعَاشِرْ نَفْسًا شَبِعَتْ بَعْدَ جُوع، فإنَّ الخَيْرَ فِيهَا دَخِيل، بَلْ عَاشِرْ نفْسًا جَاعَتْ بَعْدَ شَبَع، فإنَّ الخَيْرَ فِيهَا أَصِيل".

- قال حكيم: "لَئِنْ تُدْخِلَ يَدَكَ في فَمِ التِّنِينِ خَيْرٌ مِنْ أنْ تَبْسِطَهَا إلى غَنِيٍّ نَشَأَ في الفَقَر".

obeikan.com

المُقَابَلَة

تعريفُ المُقَابَلَة: هِيَ أنْ يَأتِيَ الأدِيبُ بلَفْظَيْنِ فأكْثَر، ثُمَّ يَأْتِي بِأضْدَادِهَا عَلَى التَّرْتِيب، "ويُمْكِنُ أنْ يُقَالَ تَعْرِيفًا لَهَا: أنْ يَأْتِيَ المُتَكَلِّمُ بِمَعْنَيَيْن، أوْ مَعَانٍ، ثُمَّ يَأْتِيَ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا يُقَابِلُ مَا ذَكَرَهُ أَوَّلًا عَلَى التَّرْتِيب"[1].

صُوَرُ المقابلة:

- مقابلة اثنين باثنين: مثل قول محمد البشير الإبراهيمي عن حال أمتنا العربية: "إنَّنَا يا أبْنَائِي كُنَّا أوَّلَ مَنْ نَام، وآخِرَ مَنِ اسْتَيْقَظ". فقد أتى باللفظين: (أوَّلَ) و(نَام)، ثم أتى بما يقابلها (آخِر) و(استيقظ) على التَّرتيب.

ومثل ذلك في قول المنفلوطي: "كَانَتْ ابْتِسَامَتُهُ كَبَارِقَةِ السَّيْف، يَرْتَاعُ لَهَا الأَعْدَاء، ويَرْتَاحُ لَهَا الأَوْلِيَاء." فقد قابل الكاتبُ (يَرْتَاع) بـ (يَرْتَاح)، وقابل (الأعْدَاء) بـ (الأوْلِيَاء) على الترتيب.

- مقابلة ثلاثة بثلاثة: مثل قول البشير الإبراهيمي عن الشباب: "أتَمَثَّلُهُ مِقْدَامًا عَلَى العَظَائِمِ فِي غَيْرِ تَهَوُّر، مِحجَامًا عَنِ الصَّغَائِرِ فِي غَيْرِ جُبْن".

فقد قابل الأديب الإقدام بالإحجام، وقابل العظائم بالصغائر، وقابل التهوّر بالجبن.

ومثل قول محمود سامي البارودي:

قَـــدْ سَـــرَّنِي حِـــينَ أَتَـــى مُقْـــبِلًا وسَـــاءَنِي حِـــينَ مَضَـــى مُعْرِضَـــا

فقد قابل البارودي السرور بالإساءة، وقابل الإتيان بالمُضي، وقابل الإقبال بالإعراض.

ومثل قوله أيضا:

فَمَـــا أَسِـــفْتُ لِبُـــؤْسٍ بَعْـــدَ مَقْـــدُرَةٍ ولَا فَرِحْـــتُ بِـــوَفْرٍ بَعْـــدَ إِقْـــلَالِ

ومنها قول خليل مطران في وصف أخلاق سعد زغلول:

قَـــدْ نَاصَـــرَ العَـــدْلَ فِيـــهِ فَهْـــوَ مُنْتَصِـــرٌ وهَـــاجَمَ البَغْـــيَ فِيـــهِ فَهْـــوَ مُنْهَـــزِمُ

- مقابلة أربعة بأربعة: مثل قول محمود سامي البارودي:

نَهَـــارُ مَشِـــيبٍ سَـــاءَنِي وهْـــوَ أَبْـــيَضُ ولَيْـــلُ شَـــبَابٍ سَـــرَّنِي وهْـــوَ أَسْـــوَدُ

وقد كانت المقابلة بين أربعة معان (النهار، والمشيب، والإساءة، والبياض)، وما يقابلها من معان أربعة وهي (الليل، والشباب، والسرور، والسواد) على الترتيب.

ومثلها ما جاء في وصية أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه: "هَذَا مَا أوْصَى بِهِ أَبُو بَكْرٍ عِنْدَ آخِرِ عَهْدِهِ بالدُّنْيَا خَارِجًا مِنْهَا، وأوَّلِ عَهْدِهِ بالآخِرَةِ دَاخِلًا فِيهَا".

- مقابلة خمسة بخمسة: ومثالها قول الشاعر:

فالصُّـــبْحُ يَشْـــمَتُ بِـــي فَيُقْبِـــلُ ضَـــاحِكًا واللَّيْـــلُ يَرْثِـــي لـــي فَيُـــدْبِرُ عَابِسَـــا

[1] بلاغة الطباق والمقابلة ص 57.

فقد قابل الشاعرُ (الصُّبح) بـ (اللَّيل)، وقابل (يَشْمَت) أيْ يفرح بـ (يرثي)، وقابل (بِي) بـ (لِي)، وقابل (يُقْبِل) بـ (يُدْبِر)، وقابل (ضاحكًا) بـ (عابسًا).

- مقابلة ستة بستة: ومثالها قول الشاعر:

علـــى رَأسِ عَبْـــدٍ تَـــاجُ عِـــزٍّ يُزِينُـــهُ وفـــي رِجْـــلِ حُـــرٍّ قَيْـــدُ ذُلٍّ يُشِـــينُهُ

فقد جيء أولا بـ (على)، و(رأس)، و(عبد)، و(تاج)، و(عزّ)، و(يزينه)، ثم جيء بما يقابلها: (في)، و(رِجل)، و(حرّ)، و(قيد)، و(ذلّ)، و(يشينه) على الترتيب.

بلاغة المقابلة:

المقابلة تضفي على المعنى حُسْنا وبهاء، لِمَا لها من أثر جليل في تثبيت المعنى، وتقويته، فهي ترفع من قدر الكلام، وتكسبه رونقا، ورقيّا، وتقوّي الوشائج بين الألفاظ، والمعاني، وتجلو الأفكار، وتوضّحها، شريطة أنْ تجريَ مجرى الطبع، أمّا إذا تكلّفها الأديب، واستكره قريحته لأجلها، فإنها تكون سببا في غموض المعنى، والتباسه، واضطراب الأسلوب، وتعقيده. "ومن صفات الأدب الجيد تلاحم أجزائه، وائتلاف ألفاظه، حتّى كأنّ الكلام بأسره مِنْ حسن الجوار، وشدة التلاحم كلمة واحدة، وحتّى كأنّ الكلمة بأسرها حرف واحد، وكما يتمُّ هذا التلاحم عن طريق التشابه، يتمُّ كذلك عن طريق التّضاد، لأنّ المعاني يستدعي بعضها بعضا، فمنها ما يستدعي شبيهَه، ومنها ما يستدعي مُقَابِلَه، بل إنَّ الضدَّ أكثرُ خُطُورًا على البال من الشبيه، وأوضح في الدلالة على المعنى منه"[1].

وعلى هذا، فكلما أتت المقابلة في الكلام بِدَعْوَةٍ من المعنى، لا تطفّلا عليه، كانت أنجح في أداء وظيفتها في تحسين المعنى. "وتضاف إلى المقابلة جمالية أخرى، وهي تحقيق التوقّع، فالمتلقّي حين يدرك التقابلَ بين المعنيين الأوَّلَيْن في المقابلة، يُعِدُّ نفسه لتلقّي التَّقابلات الأخرى، فإذا تحقَّقَ له ذلك التنبّؤ أحسَّ بشيء من المُتعة، هي المتعة التي نحسُّها حين تتحقق تنبُّؤاتُنا"[2].

التدريب الأول: حدّد المقابلة، وبين بلاغتها في الأمثلة الآتية:

- قال حافظ إبراهيم:

العِلْـــمُ فِـــي البَأسَـــاءِ مُزْنَـــةُ رَحْمَـــةٍ والجَهْـــلُ فِـــي النَّعْمَـــاءِ سَـــوْطُ عَـــذَابِ

- قال إلياس فرحات:

فَـــالخَيْرُ فِـــي الـــبَعْضِ بِالتَّهْـــذِيبِ مُكْتَسَـــبٌ والشَّـــرُّ فِـــي الكُـــلِّ طَبْـــعٌ غَيْـــرُ مُكْتَسَـــبِ

- قال ناصيف اليازجي:

كَـــمْ مـــاتَ مَـــنْ كـــانَ يُرْجَى عَيْشُـــهُ فقَضَـــى وعَـــاشَ مَـــنْ كـــانَ يُخْـــشَى مـــوْتُـــهُ فبَقِـــي

- قال خليل مطران:

[1] علم البديع عبد العزيز عتيق ص 90.91.
[2] المفصل في علوم البلاغة العربية ص 563.

ومَـــا انْقَبَضَـــتْ إلّا عَـــنِ الشّـــرِّ كَفّـــهُ ومَـــا انْبَسَـــطَتْ إلّا لِخَيْـــرٍ أَنَامِلُـــهْ

- وقال خليل مطران في مساوئ المدينة:

حَيْـــثُ الرَّذَائِـــلُ فِـــي مَرَافِـــلِ عِـــزَّةٍ حَيْـــثُ الفَضَـــائِلُ فِـــي غَلَائِـــلِ هُـــونِ

- وقال مطران:

وَارَحْمَتَـــاهُ لِقَـــوْمٍ فَـــارَقُوا النِّعَمَـــا مِـــنْ غَيْـــرِ ذَنْـــبٍ لَهُـــمْ واسْـــتَقْبَلُوا النِّقَمَـــا

- قال إيليا أبو ماضي:

أَحْبِـــبْ فَيَغْـــدُو الكَـــوْنُ كُوخًـــا نَيِّـــرًا أَبْغِـــضْ فَيُمْسِـــي الكَـــوْنُ سِـــجْنًا مُظْلِمَـــا

- قال شاعر المهجر نعمة الحاج في سلاح البكاء:

سِـــلَاحٌ ضَـــعِيفُ العَـــزْمِ لَـــيْسَ بِنَـــافِعٍ لِيَـــدْفَعَ غُرْمًـــا أوْ لِيَجْلِـــبَ مَغْنَمَـــا

- قال عباس محمود العقاد:

وقَهْـــرُ الفَتَـــى آلَامَـــهُ فِيـــهِ لَـــذّةٌ وفِـــي طَاعَـــةِ اللّـــذّاتِ شَـــيْءٌ مِـــنَ الأَلَـــمِ

- قال محمود سامي البارودي:

ولَكِنَّنِـــي بَـــاقٍ عَلَـــى مَـــا يَسُـــرُّنِي ويُغْضِـــبُ أَعْـــدَائِي ويُرْضِـــي أَصَـــادِقِي

فَحَسْـــرَةُ بُعْـــدِي عَنْ حَبِيـــبٍ مُصَـــادِقٍ كَفَرْحَـــةِ بُعْـــدِي عَنْ عَـــدُوٍّ مُمَـــاذِقِ

- وقال البارودي داعيًا ربَّهُ:

فَفَـــرِّبْ لِـــيَ الْخَيْـــرَ الّـــذِي أَنَـــا رَاغِـــبٌ وبَاعِـــدْنِيَ الشَّـــرَّ الّـــذِي أَنَـــا حَـــاذِرُ

فَلَيْـــسَ لِمَـــنْ تُقْصِيـــهِ فِي النَّـــاسِ نَافِـــعٌ وَلَيْـــسَ لِمَـــنْ تُدْنِيـــهِ فِي النَّـــاسِ ضَـــائِرُ

- وللبارودي في الفخر:

نُغِيـــرُ علَـــى الأبْطَـــالِ والصُّـــبْحُ بَاسِـــمٌ ونَـــأوِي إِلَـــى الأدْغَـــالِ واللّيْـــلُ جَـــانِحُ

- قال محمود غنيم:

عَـــــرَفَ الله فِطْـــــرَةً لَا اكْتِسَـــــابَا فَرَجَـــــا عَفْـــــوَهُ وخَـــــافَ عِقَابَـــــهْ

- قال الشاعر القروي:

بِنْـــتَ العُرُوبَـــةِ هَيِّئِـــي كَفَنِـــي أنَـــا عَائِـــدٌ لأُمُـــوتَ فِـــي وَطَنِـــي

أأَجُـــودُ مِـــنْ خَلْـــفِ البِحَـــارِ لَـــهُ بِـــالرُّوحِ ثُـــمَّ أضِـــنُّ بالبَـــدَنِ؟

- وللشاعر القروي:

قَـــدْ يُحْسَـــبُ المَـــرْءُ نَـــذْلًا وهُـــوَ مُنْتَصِـــرٌ وقَـــدْ يُعَـــدُّ شَـــرِيفًا وهُـــوَ مُنْهَـــزِمُ

- وللشاعر القروي أيضا:

فلـــمْ أرَ كالعَـــادَاتِ شَـــيْئًا بِنَـــاؤُهُ يَسِـــيرٌ وأمَّـــا هَدْمُـــهُ فَعَسِـــيرُ

- وقال القروي:

فَجُـــــنْحُ اللّيْـــــلِ مُبْـــــيَضٌّ لَهِيبًـــــا وَوَجْـــــهُ الصُّـــــبْحِ مُسْـــــوَدٌّ عُجَاجَـــــا

- قال أحمد شوقي:

إذَا حَلُمْـــــتَ فَالشَّـــــرُّ وَسْـــــنَانُ حَـــــالِمٌ وإنْ غَضِـــــبْتَ فَالشَّـــــرُّ يَقْضَـــــانُ مُغْضِـــــبُ

- وقال شوقي واصفا:

فَشُـــــرُوقُهَا الأَمَـــــلُ الحَبِيـــــبُ لِمَـــــنْ رَأى وغُرُوبُهَـــــا الأَجَـــــلُ البَغِـــــيضُ لِمَـــــنْ دَرَى

- قال ميخائيل نعيمة مخاطبا البحر:

هَـــــلْ فِـــــي سُـــــكُونِكَ أمْـــــنٌ وفِـــــي هِيَاجِـــــكَ ذُعْـــــرُ
أمْ فِـــــي امْتِـــــدَادِكَ يُسْـــــرٌ وفِـــــي انْقِبَاضِـــــكَ عُسْـــــرُ
وفِـــــي انْخِفَاضِـــــكَ ذُلٌّ وفِـــــي ارْتِفَاعِـــــكَ فَخْـــــرُ
وفِـــــي سُـــــكُوتِكَ حُـــــزْنٌ وفِـــــي هَـــــدِيرِكَ بِشْـــــرُ؟

- قال مصطفى صادق الرافعي:

فـــــوَاللهِ إنَّ الحُـــــبَّ خَيْـــــرُ مَحَاسِـــــنِي ووَاللهِ إنَّ الحُـــــبَّ شَـــــرُّ عُيُـــــوبِي

- وله أيضا:

يـــــا واصِـــــلاً بالمَعَـــــانِي وهَـــــاجِرِي فـــــي الكَـــــلامِ
مُخَاصِـــــمِي فـــــي نَهَـــــارِي مُصَـــــالِحِي فـــــي مَنَـــــامِي

- قال معروف الرصافي:

رُبَّ لَيْـــــلٍ بالوَصْـــــلِ كَـــــانَ ضِـــــيَاءً ونَهَـــــارٍ بـــــالهَجْرِ كَـــــانَ ظَلَامَـــــا

- قال أحمد رامي:

فَـــمَـــا أطَـــالَ الـــنَّـــوْمُ عُـــمْـــرًا ولا قَـــصَّـــرَ فـــي الأَعْـــمَـــارِ طُـــولُ السَّـــهَـــرْ

- قال الشاعر الجزائري رَمَضَان حَمُّود:

كَثْـــــرَةُ النَّـــــاسِ لا تُفِيـــــدُ إذا مَـــــا هَـــــدَمَ النَّـــــذْلُ مَـــــا بَنَتْـــــهُ الكِـــــرَام
فَقَلِيـــــلٌ مَـــــعَ الوِئَـــــامِ كَثِيـــــرٌ وكَثِيـــــرٌ مَـــــعَ الخِـــــلَافِ حُطَـــــامُ

التدريب الثاني: دُلّ على المقابلة الواردة في الأمثلة الآتية، واشرحها:

- قال أحمد أمين: "أيُّهَا اللَّيْل.. كَمْ لَفَفْتَ ثَوْبَكَ عَلَى مُتَنَاقِضَات: حُزْنٍ عَلَى مَيِّت، وسُرُورٍ لِمِيلَاد، ومُحِبٍّ مَهْجُورٍ يَشْكُو طُولَك، ومُحِبٍّ وَاصِلٍ يَشْكُو قِصَرَك، وعَابِدٍ مُتَهَجِّدٍ يُنَاجِي رَبَّه، وفَاسِقٍ فَاجِرٍ يَبْغِي حَظَّه، ودَمْعَةٍ حَرَّى تَسْبِلُهَا أُمٌّ وَلْهَى بِجَانِبِ سَرِيرِ مَرِيض، وضِحْكَةٍ صَارِخَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ سِكِّيرٍ عِرْبِيد، ومَجْلِسِ أُنْسٍ تَتَجَاوَبُ فِيهِ الأَقْدَاحُ والأَوْتَار، ويَلْبَسُ فِيهِ اللَّيْلُ ثَوْبَ النَّهَار، بَيْنَ بُدُورٍ وكَاسَاتٍ تَدُور، ومَجْلِسِ بُؤسٍ

تَتَجَاوَبُ فِيهِ الزَّفَرَاتُ والحَسَرَات، وتَتَسَاقَطُ فِيهِ النُّفُوس، قَدْ تَلَظَّى الهَمُّ فِي ضُلُوعِهِم، فَهُمْ بَيْنَ كَاسِفِ بَال، ومُنْقَبِضِ صَدْر، ولَهِيفِ قَلْب."

- وقال أحمد أمين مخاطبا "شجرة الورد": "خَرَجْتِ مِنْ ظَلَامِ الأَرْضِ إِلَى نُورِ السَّمَاء، ومِنْ مَقْبَرَةِ البَاطِنِ إِلَى مَسْرَحِ الظَّاهِر، ومِنْ سُكُونِ الجُذُورِ إِلَى لَعِبِ الغُصُون، ومِنْ عُبُوسِ المَنْبَتِ إِلَى ضَحِكِ الثَّمْرَة، وهَكَذَا كَانَ أَخُوكِ الإِنْسَان، خَضَعَ لِلْقَدَرِ كَمَا تَخْضَعِين، وثَارَ كَمَا تَثُورِين، فَاجْتَمَعَ لَهُ جَبْرُ الطَّبِيعَةِ واخْتِيَارُ الإِرَادَة، وعَمِلَ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ ظُلُمَاتِ الاسْتِعْبَادِ إِلَى نُورِ الحُرِيَّة، وبَلَغَ مِنْ تَطَوُّرِهِ أَنْ كَادَ يَكُونُ مَلَكًا كَرِيمًا، أَوْ شَيْطَانًا رَجِيمًا، وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَه."

- وقال أحمد أمين ناقدًا: "كَانَ البَارُودِي أَوْ شَوْقِي يَقُولُ القَصِيدَة، فَيَقُومُ نَاقِدٌ مُعْتَرِضٌ يَفْضَحُ مَعَايِبَهَا، ومَادِحٌ مُسَانِدٌ يُبَيِّنُ مَحَاسِنَهَا، ومِنْ هَذَا وذَاكَ يَسْتَفِيدُ الأدِيب، ويَرْقَى الأَدَب".

- قال البشير الإبراهيمي: "العِيدُ في نَظْرَةِ الإِسْلامِ مُلْتَقَى عَوَاطِفَ تَتَقَارَب، بَيْنَ طَوَائِفَ كَانَتْ في أَمْسِهِ تَتَحَارَب، فَفِيهِ يَتَنَزَّلُ الغَنِيُّ المُتْرَف، ويَصْعَدُ الفَقِيرُ المُعْدَم، فَيَلْتَقِيَانِ في عَالَمٍ مِنَ العَوَالِمِ المُثْلَى، يَتَجَلَّى العِيدُ بِجَلالِهِ عَلَى الغَنِيّ، فَيَنْسَى تَأَلُّهَهُ بالمَال، ويَذْكُرُ أَنَّ كُلَّ مَنْ حَوْلِهِ إِخْوَانُهُ أَوَّلا، وأَعْوَانُهُ ثَانِيا، فَيَمْحُو إِسَاءَةَ عَامٍ بإِحْسَانِ يَوْم، ويَتَجَلَّى عَلَى الفَقِيرِ بِجَمَالِه، فَيَنْسَى مَتَاعِبَ العَام، ومَكَارِهَ العَام، وتَمْحُو بَشَاشَةُ العِيدِ مِنْ نَفْسِهِ آثَارَ التَّبَرُّمِ والضِّيق، وتَنْهَزِمُ في نَفْسِهِ دَوَاعِي اليَأْسِ على حِينِ تَنْتَصِرُ بَوَاعِثُ الرَّجَاء".

- وقال ناصحًا الشَّباب بالعمل: "خَبِّرُونِي أَيُّهَا الفِتْيَان، مَاذَا يَكُونُ مَصِيرُ الرَّجُلِ الفَقِيرِ إِذَا قَعَدَ عَنِ العَمَلِ انْتِظَارًا لِمِيرَاثٍ يَهْبِطُ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاء، أَوْ كَنْزٍ يَقْفِزُ إِلَيْهِ مِنْ جَوْفِ الأَرْض؟".

- قال مصطفى لطفي المنفلوطي: "لَوْلا السُّرُورُ في سَاعَةِ المِيلاد، مَا كَانَ البُكَاءُ في سَاعَةِ المَوْت، ولَوْلا الوُثُوقُ بِدَوَامِ الغِنَى، مَا كَانَ الجَزَعُ مِنَ الفَقْرِ، ولَوْلا فَرْحَةُ التَّلاق، ما كَانتْ تَرْحَةُ الفِرَاق".

- قال ميخائيل نعيمة: "النَّاسُ عَلَى سَفَر، وإِنْ تَسْأَلْنِي: مِنْ أَيْنَ وإِلَى أَيْن؟ أُجِبْكَ: مِنْ غَيَاهِبِ الجَهْل، إِلَى سَنَاءِ المَعْرِفَة، ومِنْ غَفْلَةَ الغَرِيزَةِ المُسْتَسْلِمَة، إِلَى وَعْيِ الإِرَادَةِ الخَلَّاقَة، ومِنْ عُبُودِيَّةِ المَوْت، إِلَى حُرِيَّةِ الحَيَاة."

- وقال نعيمة: "عُدَّةُ السِّلْمِ الصِّدْق، وعُدَّةُ الحَرْبِ الكَذِب، عُدَّةُ السِّلْمِ الأَمَانَة، وعُدَّةُ الحَرْبِ الخِيَانَة، عُدَّةُ السِّلْمِ الثِّقَة، وعُدَّةُ الحَرْبِ الشَّك، عُدَّةُ السِّلْمِ المَحَبَّة، وعُدَّةُ الحَرْبِ البُغْض، عُدَّةُ السِّلْمِ العَطَاء، وعُدَّةُ الحَرْبِ النَّهْب، عُدَّةُ السِّلْمِ التَّعْمِير، وعُدَّةُ الحَرْبِ التَّخْرِيب، عُدَّةُ السِّلْمِ الإِيمَانُ بالإِنْسَان، وعُدَّةُ الحَرْبِ الكُفْرُ باللهِ وبالإِنْسَانِ مَعًا، عُدَّةُ السِّلْمِ الحَيَاة، وعُدَّةُ الحَرْبِ المَوْت".

- قال طه حسين: "مِنْ أَخَصِّ خَصَائِصِ الأَدَبِ أَنَّهُ عَصِيٌّ مُتَمَنِّعٌ مُتَشَدِّدٌ في التَّمَنُّعِ حِينَ يَدْعُوهُ الدَّاعِي، ثُمَّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ رَضِيٌّ طَيِّعٌ سَمْحٌ حِينَ لا يَدْعُوهُ دَاع".

التَّضْمِين

تعريف التَّضْمِين لُغَةً: مِنْ ضَمَّن الشَّيْءُ الشَّيْءَ، أيْ أَوْدَعَهُ إيَّاه، ومِنْهُ مَضْمُونُ الكِتَاب كَذَا، وكَذَا.

التَّضْمِينُ اصْطِلاحًا: التَّضْمِينُ فِي البَدِيعِ العَرَبِيِّ أنْ يُضَمِّنَ الشَّاعِرُ شَيْئًا مِنْ شِعْرِ غَيْرِه، مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ أحْيَانًا، وأحْيَانًا مِنْ دُونِ الحَاجَةِ إلَى التَّنْبِيهِ عَلَيْه. قال أبو هلال العسكري: "وقَدْ تُسَمِّي اسْتِعَارَتَكَ الأَنْصَافَ والأَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِك، وإدْخَالَكَ إيَّاهُ فِي أَثْنَاءِ أَبْيَاتِ قَصِيدَتِكَ (تَضْمِينًا)، وهَذَا حَسَن"[1].

- ومثال التنبيه قول حافظ إبراهيم:

رَوَتْ قَــوْلَ بَشّــارٍ فَنَّــارَتْ وأَقْسَــمَتْ ... وقَامَــتْ إِلَــى عَبْــدِ الحَمِيــدِ تُحَاسِــبُهْ

"إذَا المَلِــكُ الجَبَّــارُ صَــعَّرَ خَــدَّهُ ... مَشَــيْنَا إِلَيْــهِ بِالسُّــيُوفِ نُعَاتِبُــهْ"

فقد نبّه الشاعر على التضمين في قوله: (روت قول بشار)، أمّا التضمين فقد ورد في البيت الثاني.

- ومثل قول صفي الدين في رجل أقرضه دينا، فأبطأ في ردّه:

فــلا تَجْعَلَــنَّ العِــرْضَ للمَــالِ جُنّــةً ... وكُــنْ كــالفَتَى الكِنْــدِيِّ حِــينَ يَقُــولُ:

"يَهُــونُ عَلَيْنَــا أنْ تُصَــابَ نُفُوسُــنَا ... وتَسْــلَمَ أعْــرَاضٌ لَنَــا وعُقُــولُ"

فقد نبّه الشاعرُ على التضمين في عجز البيت الأول: (وكنْ كالفتى الكنديّ حين يقولُ:). أمّا التضمين فكان البيتَ الثاني:

"يَهُــونُ عَلَيْنَــا أنْ تُصَــابَ نُفُوسُــنَا ... وتَسْــلَمَ أعْــرَاضٌ لَنَــا وعُقُــولُ"

وهو بيت لأبي الطيب المتنبي.

ومن التضمين ما يُعرف بالتشطير، وهو أن يعمد الشاعرُ إلى أبيات مشهورة لغيره، فيقسّم أبياتها إلى شطرين، يضيف إلى كلّ منهما شطرًا من عنده، ومنه قول محمد العيد آل خليفة مضمّنا شعر الشافعي:

"دَعِ المَقَــادِيرَ تَجْــرِي فــي أعِنَّتِهَــا" ... فَلِلْمَقَــادِيرِ سِــرٌّ غَــامِضٌ عَــالِ

فَــوِّضْ إلَــى اللهِ مَــا يَعْــرُوكَ مِــنْ نُــوَبٍ ... "ولا تَبِيــتَنَّ إلّا خَــالِيَ البَــالِ"

"مَــا بَــيْنَ غَمْضَــةِ عَــيْنٍ وانْتِبَاهَتِهَــا" ... يَسْــلُو الحَــزِينُ كَمَــا قَــدْ يَحْــزَنُ السَّــالِي

- ومن التضمين قول أبي القاسم خمّار:

"وظُلْــمُ ذَوِي القُرْبَــى أَشَــدُّ مَضَاضَــةً ... عَلَــى المَــرْءِ مِــنْ وَقْــعِ الحُسَــامِ" وأَخْطَــرُ

"بِــلَادِي وإنْ جَــارَتْ عَلَــيَّ عَزِيــزَةٌ ... وقَــوْمِي وإنْ ضَــنُّوا عَلَــيَّ" سَــأَغْفِرُ

- ومن التضمين قول إيليا أبي ماضي:

ولا غَــرْوَ إنْ صُــغْنَا لَهَــا النَّثْــرَ حِلْيَــةً ... فَفِــي عُنُــقِ الحَسْــنَاءِ يُسْتَحْسَــنُ الــدُّرُّ

فالشاعر كما هو واضح قد ضمن شطر بيت من قصيدة شهيرة لأبي الطيب المتنبي.

[1] معجم البلاغة العربية الدكتور بدوي طبانة ص 355.

- وكتب علي الجارم حين أُرْسِلَ في بعثة إلى إنجلترا، وهو يضع القبعة:

لَبِسْـــــتُ الآنَ قُبَّعَـــــةً بَعِيـــــدًا عَـــنِ الأوْطَـــانِ، مُعْتَـــادَ الشُّـــجُونِ

فـــإنْ هِـــيَ غَيَّـــرَتْ شَـــكْلِي فَـــإنِّي "مَتَـــى أضَـــعِ العَمَامَـــةَ تَعْرِفُـــونِي"

فالشاعر قد ضمن شطر بيت من قصيدة سُحَيم الرِّياحي التي يقول فيها:

أنَـــا ابـــنُ جَـــلَا وطَـــلّاعُ الثّنَايَـــا مَتَـــى أضَـــعِ العِمامَـــةَ تَعْرِفُـــوني

- ومنه قول علي الجارم أيضا:

إذا المَـرْءُ لَـمْ يُـخْـلِـدْهُ فَـضْـلُ جِـهَـادِهِ "فَـكُـلُّ الَّـذِي فَـوْقَ التُّـرَابِ تُـرَابُ"

فعجز البيت من قصيدة مشهورة للمتنبي، حيث يقول:

إذا نِلْـتُ مِنْـكَ الـوُدَّ فالمَـالُ هـيّنٌ وكُـلُّ الـذي فَـوْقَ التُّـرَابِ تُـرَابُ

- ومنه قول شكيب أرسلان:

"أولَئِـكَ آبَـائِي فَجِئْنِـي بِمِـثْلِهِمْ" وإلّا فَهُـمْ فـي الأَرْضِ خَيْـرُ القَبَائِـلِ

الشطر الأول من قصيدة معروفة للفرزدق.

- ومن التضمين قول محمد صالح الجزائري:

ويُـرْخِصُ فـي العَلْيَـاءِ نَفْسًـا نَفِيسَـةً "ومَـنْ خَطَـبَ الحَسْـنَاءَ لَـمْ يَغْلُـهُ المَهْـرُ"

فالشطر الثاني من بيت لأبي فراس الحمداني، يقول فيه:

تَهُـونُ عَلَيْنَـا فِـي المَعَـالِي نُفُوسُـنَا ومَـنْ خَطَـبَ الحَسْـنَاءَ لَـمْ يَغْلُـهُ المَهْـرُ

- ومنه قول عبد الحميد الرافعي :

واثْـرُكْ مُنَاجَـاةَ الـدِّيَارِ ولا تَقُـلْ "يـا دَارَ عَبْلَـةَ بـالجَوَاءِ تَكَلَّمِـي"

فالشطر الثاني من قصيدة شهيرة لعنترة بن شدّاد يقول فيها:

يـا دَارَ عَبْلَـةَ بـالجَوَاءِ تَكَلَّمِـي وعِمِـي صَـبَاحًا دَارَ عَبْلَـةَ واسْـلَمِي

- ومنه قول مصطفى الغلاييني:

قَـدْ بِعْـتُ نَفْسِـي لأَحْيِـي صِـبْيَةً هَلَكُـوا "واحَـرَّ قَلْبَـاهُ مِمَّـنْ قَلْبُـهُ شَـبِمُ"

الشطر الثاني من قصيدة للمتنبي.

- ومن بديعه قول سليمان الصولة مضمّنا قصيدة المتنبي:

"تَمُـرُّ بِـكَ الأبْطَـالُ كَلْمَـى هَزِيمَـةً" مُـرُورَ كِبَـاشٍ طَارَدَتْهَـا ضَـرَاغِمُ

وعِرْضُـكَ مَوْفُـورٌ وجَأْشُـكَ ثَابِـتٌ "ووَجْهُـكَ وَضَّـاحٌ وثَغْـرُكَ بَاسِـمُ"

- ومن التضمين قول الشاعر:

فَشَـمِّرْ بِعَـزْمٍ لِلْمَتَـابِ فإنَّمَـا "عَلَـى قَـدْرِ أهْـلِ العَـزْمِ تَـأتِي العَـزَائِمُ"

وإنْ عَظُمَـــتْ مِنْـــكَ الجِنَايَـــاتُ إنَّهـــا "سَتَصْـــغُرُ فـــي عَـــيْنِ العَظِـــيمِ العَظَـــائِمُ"
سَـــيَأْتِيكَ مِـــنْ مَـــوْلَاكَ مَـــا هُـــوَ أَهْلُـــهُ "وتَـــأْتِي عَلَـــى قَـــدْرِ الكِـــرَامِ المَكَـــارِمُ"

فالشّاعر كما هو مُلاحظ قد ضمّنَ قصيدته أشْطُرًا من قصيدة مشهورة للمتنبي.

- ومن التضمين قول الشاعر:

قَـــالُوا: تُحِـــبُّ العَـــرَبْ قلـــتُ: أحِـــبُّهُم يَقْضِـــي الجِـــوَارُ عَلَـــيَّ والأرْحَـــامُ
قـــالوا: لَقَـــدْ بَخِلُـــوا عَلَيْـــكَ أجَبْـــتُهُمْ: "أهْلِـــي وإنْ ضَـــنُّوا عَلَـــيَّ كِـــرَامُ"

- ومنه قول الشاعر:

لَـــئْنْ كَـــانَ قَـــدْ وَافَـــى أخِيـــرًا فَإنَّـــهُ "الآتٍ بِمَـــا لَـــمْ تَسْـــتَطِعْهُ الأوَائِـــلُ"

فالشطر الثاني من قصيدة لأبي العلاء المعرّي.

- ومنه قول الشاعر:

لَـــجَّ المُعَاتِـــبُ فـــي لَـــوْمِي فَقُلْـــتُ لَـــهُ "دَعْ عَنْـــكَ لَـــوْمِي فَـــإنَّ اللَّـــوْمَ إغْـــرَاءُ"
هَـــذَا ولَا تَلْـــتَمِسْ بُرْئِـــي بِمَعْتَبَـــةٍ "ودَاوِنِـــي بِـــالَّتِي كَانَـــتْ هِـــيَ الـــدَّاءُ"

فالشطران الأخيران من البيتين من قصيدة لأبي نواس.

- ومنه قول الشاعر:

كَـــانَ الزَّمَـــانُ بِأُقْيَـــاكُمْ يُمَنِّينَـــا وحَـــادِثُ الـــدَّهْرِ بـــالتَّفْرِيقِ يَثْنِينَـــا
فَعِنْـــدَمَا صَـــدَقَتْ فِـــيكُمْ أمَانِينَـــا "أضْـــحَى التَّنَـــائِي بَـــدِيلا عَـــنْ تَـــدَانِينَا"

فعجز البيت الثاني من قصيدة شهيرة لابن زيدون، يقول فيها:

أضْـــحَى التَّنَـــائِي بَـــدِيلا عَـــنْ تَـــدَانِينَا ونَـــابَ عَـــنْ طِيـــبِ لُقْيَانَـــا تَجَافِينَـــا

أنواع التضمين: التضمين قسمان:

1- الاستعانة: وذلك إذا بلغ مقدارُ التضمين بيتًا، فأكثر.

2- الإيداع: وذلك إذا بلغ مقدارُ التضمين شَطْرَ بَيْتٍ، أو دُونَه.

بلاغة التضمين:

"أسلوب التضمين يكشف عن مهارة الأديب الفائقة في إحكام الصلة بين كلامه، وما أخذه من شعر غيره، كما أنه يزداد به حُسنا، ويستعير من قوّته قوة"[1]، والتضمين يكشف عن سعة خزينة الشاعر الأدبية، لكنّ بعض الشعراء أُغرموا به، وجَرَوا فيه شوطا بعيدا، حتى استخدموا معاني الشعر المضمَّن في غير معانيها التي قيلت فيها، وتسابقوا في ميدانه، حتى اعتبروه غاية الفخر، وقد جاء في "الصبغ البديعي": "التضمين

[1] لباب البديع ص 196.

عموما إذا جاء محكما مُتْقَنًا ساغ، وعذُب، وأنبأ عن تفوّق الشاعر، وإلمامه بالشعر، وإلّا كان ضربا من السرقة المعيبة، دالّا على إفلاس الشاعر، وسوء صنيعه".

تدريب: دُلَّ على التضمين، وبين نوعه فيما يأتي:

- أيَــا فَاضِــلاً حَاكَــتْ مَعَــانِي صِــفَاتِهِ ... عُيُــونَ المَهَــا بَــيْنَ الرُّصَــافَةِ والجِسْــرِ
قَصَــائِدُكَ الغَــرَّاءُ لَــمَّــا قَــرَأْتُــهَــا ... جَلَبْـنَ الهَــوَى مِنْ حَيْـثُ أدْرِي ولا أَدْرِي
- فَكُنَّــا بِــهِ كالقَلْــبِ طُــولَ حَيَاتِنَــا ... لَنَــا الصَّــدْرُ دُونَ العَــالَمِينَ أوِ القَبْــرُ
- وقــد تَنْطِــقُ الأفْعَــالُ والفَــمُ صَــامِتٌ ... ويَأتِيــكَ بالأخْبَــارِ مَــنْ لَــمْ تُــزَوِّدُ
- إلامَ أفْرَاحُنَــا والمَــوْتُ آخِرُنَــا ... وهَــلْ يَــرُوقُ دَفِينًــا جَــوْدَةُ الكَفَــنِ؟
- إنَّ العُيُــونَ التــي فــي طَرْفِهَــا حَــوَرٌ ... وتِلْــكَ أعْــيُنُ مَــنْ نَهْــوَى وتَهْوَانَــا
سُــيُوفُ أَلْحَاظِهَــا فــي الجَفْــنِ مُغْمَــدَةٌ ... قَتَلْنَنَــا ثُــمَّ لَــمْ يُحْيِــينَ قَتْلَانَــا
- فَثِــقْ بِرَبِّــكَ واصْــبِرْ لِلأُمُــورِ فَقَــدْ ... تَجْــرِي الرِّيَــاحُ بِمَــا لا تَشْــتَهِي السُّــفُنُ
- أرَى الشَّــيْــطَــانَ يَرْمِينَــا بِحَــرْبٍ ... تُشِيــبُ الطِّفْــلَ مِنْ قَبْــلِ المَشِيــبِ
- وكَــمْ رَآكَ أخٌ لِــي ثُــمَّ أنْشَــدَنِي ... وَدِّعْ هُرَيْــرَةَ إنَّ الرَّكْــبَ مُرتَحِــلُ
- سَــاءَلْتُــهُ مَــا الــذِّي تَشْكُــو فَأَنْشَــدَنِي ... ضَيْــفٌ أَلَــمَّ بِرأْسِــي غَيْــرُ مُحْتَشِــمِ
- فَقَــدْتُكَ فُقْــدَانَ الكَوَاكِــبِ بَــدْرَهَا ... وفــي اللَّيْلَــةِ الظَّلْمَــاءِ يُفْتَقَــدُ البَــدْرُ

الإرْصَـاد

تعريفُ الإرْصَاد لُغَةً: هو التَّهْيِئَةُ، والإعْدَاد، يُقَال: أرْصَدَ الشَّيءَ للشَّيْء إذا أعَدَّهُ له، "ومِنْهُ الرَّصْدُ، وهُم القَوْمُ الَّذِينَ يَرْصُدُونَ كَالحَرَس".[1] ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَاد)[2]. والمِرْصَادُ: الطَّرِيقُ، أو المَكَانُ الَّذِي يُرْصَدُ فِيهِ العَدُوّ. قال محمود سامي البارودي في رثاء أبيه:

تَـــرَاهُ ذَا أهْبَـــةٍ فِـــي كُـــلِّ نَائِبَـــةٍ ... كَاللَّيْـــثِ مُرْتَقِبًـــا صَـــيْدًا بِمِرْصَـــادِ

والتَّرَصُّدُ هُوَ التَّرَقُّبُ، ومِنْهُ قول مفدي زكريا:

نَـــامُوا وفِـــي الـــدَّارِ (إسْـــرَائِيلُ) تَرْصُـــدُنَا ... وأغْمَضُـــوا دُونَ (إسْـــرَائِيلَ) أجْفَانَـــا

الإرْصَادُ اصطلاحا: "هُوَ أنْ يُجْعَلَ قَبْلَ العَجُزِ مِنَ الفَقْرَة، أو البَيْتِ مَا يَدُلُّ عَلَى العَجُز إذا عُرِفَ الرَّوِي"[3]، وقَدْ سُمِّيَ هَذَا الفَنُّ البَدِيعِيّ إرْصَادًا "لِأَنَّ السَّامِعَ يَرْصُدُ ذِهْنَهُ لِلْقَافِيَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا قَبْلَهَا"[4].

قال محمود سامي البارودي في وصف قصائد حافظ إبراهيم:

أَلْفَاظُهَـــا نَمَّـــتْ عَلَـــى مَـــا تَحْتَهَـــا ... وصُـــدُورُهَا دَلَّـــتْ عَلَـــى الأعْجَـــازِ

وقَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ اسْمَ "التَّسْهِيم"، وهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ وَضْعِ صُورَةِ السَّهْم، للإشَارَةِ بِهِ إلَى المَكَانِ المَقْصُود، أو المَعْنَى المَقْصُود، "ومَعْلُومٌ أَنَّ إعْدَادَ مَا يَلْزَمُ فِي أَوَّلِ الكَلَامِ لِمَعْرِفَةِ مَا سَيَأْتِي فِي آخِرِه، هُوَ بِمَثَابَةِ وَضْعِ صُورَةِ السَّهْمِ الَّتِي يُشَارُ بِهَا إلَى المَقْصُود."[5]

ولقد أشار نزار قباني إلى معنى الإرصاد حين علّق على القصيدة الكلاسيكية قائلا: "لَقَدْ انْتَهَتْ فِي حَيَاتِنَا مَرْحَلَةُ القَصِيدَةِ العَصْمَاء، بِقَوَافِيهَا المَرْصُوصَةِ كَأَسْنَانِ المُشْط الَّتِي نَعْرِفُهَا قَبْلَ أَنْ نَعْرِفَهَا".

شواهد الإرصاد:

- قال إيليا أبو ماضي:

أنَـــا أنْـــتُمْ، إنْ ضَـــحِكْتُمْ لِأَمْـــرٍ ... ضَـــحِكْتُ، وأدْمُعُكُـــمْ أدْمُعِـــي

ومُطْـــرِبُ أرْوَاحِكُـــمْ مُطْرِبِـــي ... ومُوجِـــعُ أكْبَـــادِكُمْ مُـــوجِعِي

أنَـــا وَاحِـــدٌ مِـــنْكُمْ، يَـــا نُجُـــومَ ... بِـــلَادِي، مَتَـــى تَسْـــطَعُوا أسْـــطَعِ

لم يذكر الشاعرُ جملةَ (أنا أنتم) إلّا لتكون إعلامًا مسبقا عن الكلام اللاحق، فهي جملة أَسْهَمَتْ في معرفة ما يختلج داخل صدر الشاعر، والتنبؤ به قبل سماعه، فلو وقف الشاعر عند كلمة (وأدمعكم) لقال السامع دون تردد (أدمعي)، والأمر ذاته حاصل في البيت الثاني، والثالث في كلمات: (مطربي)، و(موجعي)، و(أسطع).

- وقال إيليا أبو ماضي:

---

[1] علوم البلاغة مرجع سابق ص 102.
[2] الفجر 14.
[3] لباب البديع ص 111.
[4] عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح بهاء الدين السبكي. ص 235.
[5] البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص 385.

أَنَـــا خَيْـــرُ مَـــنْ قَـــالَ القَـــوَافِيَ مَادِحًـــا أَنَـــا خَيْـــرُ مَـــنْ قَـــالَ القَـــوَافِيَ هَـــاجِي

فلو قرأ الشاعر صدر البيت، ثم قرأ أول كلمة في البيت الثاني، يأتي السامع به كاملا غير ناقص.

- قال خليل مطران في حفلة تكريم الأديب أنطون الجميّل:

إنْ زَاوَلَ الإنْشَـــــاءَ: أَبْلَـــــغُ مُنْشِـــــئٍ أَوْ زَاوَلَ الإنْشَـــــادَ: أَفْصَـــــحُ مُنْشِـــــدِ

من قرأ البيت وعرف الرويّ، ووقف عند كلمة (الإنشاد)، كيف يصعب عليه أن يقول: (أفصح منشد)؟

- قال بشارة الخوري:

قَسَـــمْتُ فُـــؤَادِي بَـــيْنَ بُؤسِـــي والهَـــوَى فَهَـــذَا لَـــهُ شَـــطْرٌ وهَـــذَا لَـــهُ شَـــطْرُ

الشاهد في الإرصاد: (وهذا له شطر).

- قال أحمد شوقي:

والنَّـــاسُ صِـــنْفَانِ: مَـــوْتَى فِـــي حَيَـــاتِهُمُ وآخَـــــرُونَ بِـــــبَطْنِ الأَرْضِ أَحْيَـــــاءُ

نقول إن الشاعر قد جعل صدر البيت مؤشرا ودليلا على عجزه، فلا يصعب على السامع التكهن بالعجز إذا عرف حرف الروي، وكأن الصدر كان وسيلة، والعجز غاية.

- قال معروف الرصافي في الغزل:

ومـــا الصَّـــبْرُ إلا غَائـــبٌ غَيْـــرُ حَاضِـــرِ ومـــا الشَّـــوْقُ إلا حَاضِـــرٌ غَيْـــرُ غَائِـــب

فالمتلقّي الذي عرف الرَّوي، وسمع صدر البيت، لن يجد صعوبة في تعرُّف عَجُز البيت كاملا.

- قال الشاعر الفلسطيني تميم البرغوثي عن أطفال الحجارة:

جِبَـــالُهُمْ فـــي الأيْـــدِي مُفَرَّقَـــةٌ وأمْـــرُهُمْ فـــي الجِبَـــالِ مُجْتَمِـــعُ

فالسَّامعُ حين يقف على قولِ الشاعر (الجبال)، يعرف بكل ثقة مُرَادَه.

- قال فوزي المعلوف:

مَهْمَـــا يَجُـــرُّ وَطَنِـــي عَلَـــيَّ وأهْلُـــهُ فالأهْـــلُ أهْلِـــي والـــبِلَادُ بِـــلادِي

فكلمة (بِلادِي) يستطيعُ أنْ يأتيَ بها السَّامعُ الذي عَرَفَ الرويّ قبل أنْ ينطق بها الشاعر.

- قال ناصيف اليازجي في المدح:

وإذَا زَارَ فـــــالخَرِيفُ رَبِيـــــعٌ وإذَا غَـــــابَ فـــــالرَّبِيعُ خَرِيـــــفُ

فمِنَ البديهيّ أنّ من وقف على الصدر يرَ بوضوح معالم العجز.

- قال محمد العيد آل خليفة مخاطبا شعبه الجزائري:

كُونُـــوا عَلَـــى المُتَعَـــزِّزِينَ أَعِـــزَّةً كُونُـــوا عَلَـــى المُتَكَبِّـــرِينَ كِبَـــارَا

فالقارئ لأول البيت لا يتعسر عليه معرفة آخره، لأن صدره يخبر عن عجزه، بشرط واحد، وهو معرفة حرف الروي.

- وقال محمد العيد آل خليفة:

وقُولُـــوا لِآتِـــي العَـــدْلِ إنَّـــكَ عَـــادِلُ وقُولُـــوا لِآتِـــي الظّلْـــمِ إنَّـــكَ ظَـــالِمُ

فلو سَكَتَ الشاعرُ عند كلمة (وقُولُوا) التي في عَجُزِ البيت لقرَّر السَّامعُ: (لِآتِي الظُّلْمِ إنَّك ظَالمُ).

- وقال آل خليفة في اللسان العربي:

لا تُهْمِلُـــوا هَـــذَا اللّسَـــانَ فَفَقْـــدُكُمْ فِـــي فَقْـــدِهِ ودَوَامُكُـــمْ بِدَوَامِـــهِ

فجملة (ودوامكم بدوامه) يستطيع أن يعرفها القارئ قبل الوصول إليها، ففي أول الكلام ما يدل عليها.

بلاغة الإرصاد:

تكمنُ بلاغةُ الإرصاد في قُدْرَة القارئ، أو السَّامِعِ على التَّنَبُؤ بما يختلج داخل الأديب، حتى إذا عرف القارئُ أوَّلَ الكلام، استطاع أنْ يُكْمِلَه قبل أن ينطقَ المُتكلِّمُ به، وممّا يدل على سموّ هذه الصنعة قول الأديب والمفكر اللبناني شكيب أرسلان في شهادته عن شعر أديبنا الجزائري محمد العيد آل خليفة: "إنْ كان في العصر شاعر يصحّ أن يمثل البهاء زهيرا في سلاسة نظمه، ودقة شعوره، وجودة سبكه، واستحكام قوافيه التي يعرفها القارئ قبل أن يصل إليها، فيكون محمدًا العيد الذي أقرأ له القصيدة المرتين والثلاث ولا أملّ، وتمضي الأيام وعذوبتها في فمي."[1].

و"تنهضُ جمالية الإرصاد على إثبات مؤشر دلاليّ في صدر الكلام يومئ إلى آخره، ويُسهم في تحديده، فإذا ما توقّع المتلقّي الكلام اللاحق، بناءً على إدراكه للسابق، ثم صحَّ له توقّعُه، وتحقَّقَ حدسه، أدركته لا محالةَ حال من الرضا والبهجة، هي حالُ مَنْ توقّع فأصاب، وتفرّسَ فصحَّ تفرُّسُه"[2].

وقد أشاد بالإرصاد أبو هلال العسكري إذْ قال: "هو أنْ يكون مبدأ الكلام ينبئ عن مقطعه، وأولُه يخبر بآخره، وصدرُه يشهد بعجزه، حتى لو سمعت شعرًا، وعرفتَ رويّه، ثم سمعت صدر بيت منه، وقفتَ على عجزه قبل بلوغ السَّماع إليه، وخيرُ الشّعرِ ما تُسابق صدوره أعجازه، ومعانيه ألفاظه مسابقة، فتراه سلسا في النظام، جاريا على اللسان، لا يتنافى ولا يتنافر، كأنه سبيكة مفرغة، أو وشي منمنم، أو عقد منظّم من جوهر متشاكل، ألفاظُه متطابقة، وقوافيه متوافقة، ومعانيه متعادلة، كل شيء منه موضوع في موضعه، وواقع في موقعه."[3]

وعُلماء البديع أجمعوا على أنّ الإرصاد مُحَسِّنٌ بديعيَّ محمُود، لأنّ خيرَ الكلام ما دلّ بَعْضُهُ على بَعْض، وأخذ بعضُهُ برِقَاب بعض، "والإرصاد ذكره ابن المقفع، وإنْ لم يسمّه حينما قال: وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أنّ خيرَ أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعتَ صدرَه عرفتَ قافيته."[4]

وهذا ما عَنَاهُ محمود سامي البارودي في مدح مصطفى صادق الرافعي:

---

[1] ديوان محمد العيد آل خليفة ص 8.
[2] المفصل في علوم البلاغة العربية ص 567.
[3] الصناعتين للزمخشري ص 397.
[4] المعجم المفصل في علوم البلاغة الدكتورة إنعام نوّال عكاوي ص 62.

صَـــاغَ القَـــرِيضَ بِإتْقَـــانٍ فَلَـــوْ تُلِيَـــتْ صُـــدُورُهُ عُلِمَـــتْ مِنْهَـــا قَوَافِيـــهِ

أو قوله مفتخرا بشعره:

مُتَشَـــابِهُ الطَّـــرَفَيْنِ يُنْبِـــئُ صَـــدْرُهُ عَمَّـــا تَلاحَـــقَ فَهْـــوَ بَـــادِي الْمَعْلَـــمِ

تدريب: دُلَّ على الإرصاد، وبيِّنْ نوعه فيما يأتي:

- قال محمود غنيم:

مَـــا مَـــعَ الصَّـــبْرِ لَعَمْـــرِي فَاقَـــةٌ إنَّمَـــا الصَّـــبْرُ عَلَـــى الفَقْـــرِ ثَـــرَاءُ

مَـــا مَـــعَ الصَّـــبْرِ لَعَمْـــرِي عِلَّـــةٌ إنَّمَـــا الصَّـــبْرُ عَلَـــى الـــدَّاءِ شِـــفَاءُ

- وقال محمود غنيم:

طَحَنَـــتْ فَرِيقَيْهَـــا الحُـــرُوبُ بِضِرْسِـــهَا لَا غَالِبًـــا رَحِمَـــتْ ولَا مَغْلُوبَـــا

- قال مفدي زكريا:

بِـــالأمْسِ كَانَـــتْ تُـــوَافِيكُمْ مَـــدَائِحُنَا واليَـــوْمَ جَـــاءَتْ تُوَاسِـــيكُمْ تَعَازِينَـــا

- قال محمود سامي البارودي مفتخرا بقومه:

رِجَـــالٌ أولُـــو بَـــأسٍ شَـــدِيدٍ ونَجْـــدَةٍ فَقَـــوْلُهُمُ قَـــوْلٌ وفِعْلُهُـــمُ فِعْـــلُ

- وقال سامي البارودي:

فَـــلَا حَبَّـــذَا الـــدُّنْيَا إذَا هِـــيَ أدْبَـــرَتْ وإنْ أقْبَلَـــتْ يَوْمًـــا فَيَـــا حَبَّـــذَا هِيَـــا

- وقال أيضا:

مَـــا لِـــي وللـــدَّارِ مِـــنْ لَيْلَـــى أحَيِّيهَـــا وقَـــدْ خَلَـــتْ مِـــنْ غَوَانِيهَـــا مَغَانِيهَـــا؟

هَيْهَـــاتَ مَـــا الـــدَّارُ تُشْـــجِينِي بِسَـــاحَتِهَا وإنَّمَـــا الـــدَّارُ تُشْـــجِينِي بِأهْلِيهَـــا

- قال معروف الرصافي:

وهَـــلْ أنَـــا إلَّا مِـــنْ أولَئِـــكَ إنْ مَشَـــوْا مَشَـــيْتُ وإنْ يَقْعُـــدْ أولَئِـــكَ أقْعُـــدِ

- قال علي الجارم:

فَـــإذَا وَصَـــلْتِ فَكُـــلُّ شَـــيْءٍ بَاسِـــمٌ وإذَا هَجَـــرْتِ فَكُـــلُّ شَـــيْءٍ بَـــاكِ

- وقال واصفا الحرب العالمية الثانية:

وفَرِيـــقٌ لِلْفَتْـــكِ يَلْقَـــى فَرِيقَـــا وحُشُـــودٌ لِلْهَـــوْلِ تَلْقَـــى حُشُـــودَا

قَـــدْ رَأيْنَـــا الأُسُـــودَ تَقْنَـــعُ بِالقُـــو تِ، فَلَيْـــتَ الرِّجَـــالَ كَـــانَتْ أُسُـــودَا

- وقال علي الجارم:

إذا أمَـــلَ الفَتَـــى فـــالهَزْلُ جِـــدٌّ وإنْ يَـــئِسَ الفَتَـــى فالجِـــدُّ هَـــزْلُ

- قال إيليا أبو ماضي مخاطبا رفقاءه شعراءَ المهجر:

المَجْـــــدُ مَطْلَـــــبُكُمْ وأَنْـــــتُمْ سُـــــهَّدٌ والمَجْـــــدُ حُلْمُكُـــــمْ وأَنْـــــتُمْ نُـــــوَّمُ

- قال أحمد شوقي:

فَلَكَـــمْ رَجَعْـــتُ مِـــنَ الأَسِـــنَّةِ سَـــالِمًا وصَـــدَرْتُ عَـــنْ هِيـــفِ الخُـــدُودِ طَعِينَـــا

- قال نزار قباني:

أَنَـــا أَحِبَّـــكَ حَـــاوِلْ أَنْ تُسَـــاعِدَنِي فَـــإِنَّ مَـــنْ بَـــدَأَ المَأْسَـــاةَ.. يُنْهِيهَـــا

وإِنَّ مَـــنْ فَـــتَحَ الأَبْـــوَابَ.. يُغْلِقُهَـــا وإِنَّ مَـــنْ أَشْـــعَلَ النِّيـــرَانَ..يُطْفِيهَـــا

- قال إيليا أبو ماضي في الرثاء:

وكُنْـــتَ لَنَـــا الرَّجَـــاءَ فَـــلَا رَجَـــاءُ وكُنْـــتَ لَنَـــا المُعِـــينَ فَـــلَا مُعِـــينُ

opeikan.com

المُشَاكَلَة

المشَاكَلَة لغة: هي المُشَابَهَةُ والمُمَاثَلَة، "يُقَالُ: تَشَاكَلَ الشَّيْئَان، وشَاكَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا صَاحِبَه: صَارَ شَبِيهًا لَهُ ومَثِيلا"[1].

المشاكلة اصطلاحا: هي ذِكْرُ الشَّيءِ بِلَفْظِ غَيْرِه، لِوُقُوعِهِ في صُحْبَتِه، أيْ لِمَجِيئِهِ مَعَهُ فِي سِيَاقِ الكَلام.[2]

شواهد المشاكلة:

- قال نزار قباني:

أنَــا مُتْعَــبٌ، ودَفَــاتِرِي تَعِبَــتْ مَعِــي هَــلْ للــدَّفَاتِرِ يَــا تُــرَى أعْصَــابُ؟

ليس للدَّفاتر أعْصَاب، وهي لا تَتْعَب، ولكن الشَّاعر أتى بعبارة: (دَفَاتِرِي تَعِبَتْ) على شَاكِلَة: (أنا مُتْعَب) لوُقُوعِها في صُحْبتها، أيْ في سياقِها.

- وقال أيضا:

تَسْتَطِيعُ بِئْرُ النَّفْط

أنْ تَضُخَّ عَشْرَةَ مَلَايِين بِرْمِيل يَومِيًّا

ولكنَّها، لا تستطيعُ أنْ تَضُخَّ

مُتَنَبِّيًا واحِدًا.

فالشاعر وضع عبارة (تضخّ متنبّيًا)، من أجل المشاكلة، وذلك لوقوعها في صحبة (بئر النَّفْط).

- وقال على شاكلة المثال التقليدي للمشاكلة (اطبخوا لي جُبّةً وقميصا):

اشْتَرُوا لِي

وَرَقًا أخْضرَ مَصْقُولاً كَأَعْشَابِ الرَّبِيعْ

ومِدَادًا ومَطَابِعْ

وخَلُّوهَا أمَامِي

واطْبخُوا لي شَاعرًا

واجْعَلُوهُ بيْنَ أطْبَاقِ طَعَامِي.

فالشاعر قد عبّر بلفظ (اطبخوا)، ليشاكل به التركيب (أطباق طعامي)، لوقوعه معه في سياق الكلام.

- قال محمود غنيم في وصف فلاح أميّ:

هُــوَ لَا يَرْتَقِــي المَنَــابِرَ، لَكِــنْ فَأسُــهُ فِــي الثَّــرَى تُجِيــدِ الخَطَابَــهْ

الشاعر يريد القول إنّ الفلاح ما هو بعالِمٍ في المخابر، ولا هو بخطيبٍ في المنابر، إلا أنه عالمٌ بأسرار وأبجديّات مهنته، فوظف عبارة (فأسه تجيد الخطابة) لوقوعها في صُحبة (هو لا يرتقي المنابر).

[1] الفنون البديعية فوزي السيد عبد ربه عيد ص 138.
[2] دراسات في علم البديع ص 48.

- قال محمد الأخضر السائحي:

إذَا شَـــابَ رَأسُ المَـــرْءِ شَـــابَتْ طِبَاعَـــهُ وجَـــفَّ شُـــعُورٌ عِنْـــدَهُ مُتلَهِـــبُ

فشاعرنا كما ترى قد استعمل عبارة (شابت طباعُه) لوقوعها في صحبة (شاب رأس المرء).

- قال الشاعر القروي في واحدة من روائع الشعر العربي:

فَـــبَعْضُ النَّـــاسِ يُـــدْفَنُ فِـــي تُـــرَابٍ وبَعْـــضُ النَّـــاسِ يُـــدْفَنُ فِـــي الكُبُـــودِ

فالشاعر يريد القول إن بعض الناس حتى وإن ماتوا يبقوا أحياء، يذكرهم القلب، ولا تنساهم الجوارح، لكنه عبّر بجملة (يدفن في الكبود) لوقوعها في سياق (يدفن في تراب).

- وقال القروي في قصيدة "السمكة الشاكرة":

لا تَقْـــرَبِي بَـــرًّا فَكَـــمْ حُـــوتٍ بِـــهِ تَعْنُـــو لَـــهُ حِيتَـــانُ بَحْـــرِكِ فَاتَّقِـــي

الشاعر ينصح السمكة، ويقول لها: لا تقربي البرّ، فكم في البرّ من أشرار، لكنه عبّر عن الأشرار بكلمة (حوت)، لوقوعها في سياق (حيتان بحرك).

- وقال الشاعر القروي يهجو الأغنياء الذين يكدّسون الأموال:

وَدَّتْ مَلايِيـــنُكُمْ لَـــوْ كُنْـــتُ سَـــيِّدَهَا كَيْمَـــا تُحَـــرَّرَ مِـــنْ رِقِّ الصَّـــنَادِيق

فالشاعرُ يريد (كيما تُنْفَق)، فوضع (تُحَرَّرَ مِنْ رِقِّ الصَّناديق) لوقوعها في صُحبة (سيّدَها).

- قال علي الجارم:

أَسَـــاءُوا إِلَـــى الأَسْـــيَافِ حَتَّـــى تَحَطَّمَـــتْ ومَـــا مَـــرَّةً لِلْمُسْـــتَجِيرِ أَسَـــاءُوا

فعبر بلفظ (أساءوا إلى الأسياف) ليشاكل (أساءوا للمستجير).

- وقال علي الجارم في قصيدة "الشَّرِيد":

مُشَـــرَّدٌ يَـــأْوِي إِلَـــى هَمِّـــهِ إذا أَوَى الطَّيْـــرُ إِلَـــى وَكْـــرِهِ

فالشاعر عبَّرَ بلفظ (يأوي)، وذلك لوقوعه في سياق (أوى الطير إلى وكره).

- قال معروف الرصافي في المدراس:

واسْـــقُوا المُتَلْمَـــذَ فِيهَـــا خَمْـــرَ مَكْرُمَـــةٍ عَـــنْ خَمْـــرَةِ الكَـــرْمِ تُمْسِـــي عِنْـــدَهُ بَـــدَلَا

فالشاعر قد أتى بعبارة (خَمْرَ مَكْرُمَةٍ) لتُماثل وتشاكل عبارة (خَمرةِ الكرم) لوقوعها في صُحبتها.

- وأجمل منه قول محمد العيد آل خليفة في الشاعر أبي القاسم خمّار:

أَبَـــا قَاسِـــمٍ مِـــنْ خَمْـــرَةِ الشِّـــعْرِ فَاسْـــقِنِي فَأَنْـــتَ بِهَـــا لَا خَمْـــرَةِ الكَـــرْمِ خَمَّـــارُ

- قال مصطفى صادق الرافعي في الشباب: "يَقُولُونَ: إنَّ في شَبَابِ العَرَبِ شَيْخُوخَةَ الهِمَمِ والعَزَائِم، وإنَّ الشّابَ مِنْهُمْ يَكُونُ رَجُلا، ورُجُولَةُ جِسْمِهِ تَحْتَجُّ عَلَى طُفُولَةِ أعْمَالِه". فالكاتب وضع كلمة (شيخُوخة)، لتشاكل كلمة (شباب)، ووضع كلمة (طفولة)، ليشاكل بها كلمة (رجولة).

- وقال في قصة "اليتيمين": "أَمَامَ عَتَبَةِ البَنْكِ نَامَتِ الأُخْتُ الكُبْرَى، ويَدُهَا مُرْسَلَةٌ عَلَى أخِيهَا، كَيَدِ الأمِّ عَلَى طِفْلِهَا، يا إلَهِي! نَامَتْ ويَدُهَا مُسْتَيْقِظَةٌ!"، فالكاتبُ عبّرَ بكلمة (مستيقظة)، ليشاكل بها كلمة (نامت).

- قال توفيق الحكيم: "يَقُولُ المَثَلُ الصِّينِيُّ: "بَدَلَ أنْ تُعْطِي أحَدَهُمْ سَمَكَةً، عَلِّمْهُ كَيْفَ يَصْطَاد"، كَذَلِكَ الحَالُ إذا كَانَ التَّعْلِيمُ هو إعْطَاءُ تَفْكِيرِ الغَيْرِ فقط، أمَّا إذا كَانَ المُتَعَلِّمُ يَصْطَادُ بِنَفْسِهِ الفِكْر، ويُنْتِجُ التَّفْكِير، فإنَّهُ يُصْبِحُ مُنْتِجًا، ويَدْخُلُ في نِطَاقِ الحَضَارَةِ المُنْتِجَة، ولَيْسَ الحَضَارَةَ المُسْتَهْلِكَة".

فالكاتبُ قد ذكر (اصطياد الفِكْر)، ليشاكل بها (اصطياد السَّمك)، لوقوعها معها في سياق الكلام.

- قال شوقي مُهَنِّئًا إسماعيل صبري على نجاته من حادثة قطار:

فَقُلْ لِي عَنْ رُضُوضِكَ كَيْفَ أمْسَتْ؟ فَقَلْبِي فِي رُضُوضٍ مُؤْلِمَات

فالشاعر يقصد أنَّ قلبه متألمٌ من الحادثة، فعبّر بلفظ (رُضُوض)، ليشاكل بها لفظ (رضوضك).

- ولأحمد شوقي في الرّثاء:

مَتَى صِرْتَ يا بَحْرُ غِمْدَ السُّيُوفِ وكُنَّا عَهِدْنَاكَ غِمْدَ السُّفُن؟

فالشاعر وضع عبارة (غمد السفن)، لتشاكل (غمد السيوف)، لوقوعها في صحبتها.

- قال ناصيف اليازجي مُخَاطِبًا لَيْلَةَ العِيد:

وَيْلٌ لَنَا مِنْكِ قَدْ هَيَّمْتِنَا طَرَباً مِنْ رَنَّةِ النَّوْحِ لا مِنْ رَنَّةِ العُودِ

فالشاعر وضع عبارة (رنَّة النَّوح)، ليشاكل بها (رنّة العود)، وذلك لمجيئها معها في سياق واحد.

- قال ميخائيل نعيمة: "لَسْتُ أخْجَلُ بالشَّرْقِ فَارِغَ الجَيْب، ضَامِرَ البَطْن، وأخْجَلُ بِهِ فَارِغَ القَلْبِ ضَامِرَ الإيمَان، لَسْتُ أخْجَلُ بالشَّرْقِ يَأْكُلُ خُبْزَهُ على صِينِيَّةٍ ضَفِرَتْهَا يَدُهُ مِنْ سَنَابِلَ أنْبَتَتْهَا تُرْبَتُه، وأخْجَلُ بِهِ يَحْتَسِي الهَوَانَ بِمَلاعِقِ الجُشَعَاءِ عَلَى مَوَائِدِ الجُشَعَاء".

فالكاتبُ كما ترى وضع عبارة (فارغ القلب، ضامر الإيمان)، لوقوعها في صحبة (فارغ الجيب، ضامر البطن)، ووضع لفظ (يحتسي)، ليشاكل به لفظ (يأكل).

- ومن روائع حِكَمِ ميخائيل نعيمة: "عَجِبْتُ لِمَنْ يَغْسِلُ وَجْهَهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ في اليَوْم، ولا يَغْسِلُ قَلْبَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً في السَّنَة". فالكاتبُ يريد: (طهارة القلب)، فوضع (يغسل قلبه)، لتُشاكل عبارة (يغسل وجهه).

- قال أحد أدباء العصر الحديث: "قَدِيمًا كَانَ النَّوْمُ سَهْلا: بِمُجَرَّدِ أنْ يَنْطَفِئَ الضَّوْء، يَحْضُرُ النَّوْم، أمَّا الآنَ فَكُلَّمَا أطْفَأْنَا الأنْوَارَ لِكَيْ نَنَام، أوْقَدَ التَّفْكِيرُ شُمُوعَهُ حَتَّى الصَّبَاح". فالكاتب يقصد أنَّ الأرَقَ قد استبدَّ بالإنسان في العصر الحديث، فجاء بعبارة (أوقدَ التفكيرُ شموعه)، لوقوعها في صحبة (أطفأنا الأنوار).

- قال الشاعر:

النَّاسُ تَلْهُو بِصَارُوخٍ وطَائِرَةٍ ونَحْنُ نَلْهُو بِأوْتَارٍ وعِيدَان

والمقصود أنَّ الغرب يهتم بصناعة الصواريخ والطائرات، لكنّ الشاعر عبّر بلفظ (تلهو)، لوقوعه في صحبة: (نلهو بأوتار وعيدان).

- ومن طرائف المشاكلة أنَّ أعرابيًّا دَخَلَ قرْيةً فَهَاجَمَتْهُ كِلَابُهَا، فأرَادَ أنْ يَأْخُذَ حَجَرًا مِنَ الأرْض، فاسْتَعْصَى عليه، فقال: "لَعَنَ اللهُ أهْلَ هذه القَرْيَةِ، يُطْلِقُونَ الكِلَاب، ويَرْبِطُونَ الحِجَارَة!".

بلاغة المشاكلة:

"للمشاكلة أثر في بلاغة الكلام، وسموّه، ورفعته"[1]، فهي كما رأينا في أمثلتها تبرز سلطان الألفاظ في سياق الكلام، وهي تخلع على النظم والنثر ثوب الرونق، وتكسبه الروعة إذا اتّسمت - كغيرها من أنواع البديع- بسمتي الطبع القويّ، والفطرة الجيّاشة، وذلك حين يحرص الأديب على المعنى، أما إذا كانت متكلفة، يقصدها الأديب في ذاتها، مضحيّا بالمعنى في سبيلها، فإنها تُذهب رونقَ الكلام، وتطمس محاسنه. وهناك صفة يجب إبرازها في بلاغة المشاكلة، وهي ترشيحها بألوان أخرى من البيان والبديع، كالاستعارة، والكناية، والجناس، والطباق، وغيرها، وسأستعرض معك بيان ذلك ممّا سبق من أمثلة المشاكلة:

فلو تأملت قول نزار قباني:

أنَـــا مُتْعَـــبٌ، ودَفَـــاتِرِي تَعِبَـــتْ مَعِـــي هَـــلْ للـــدَّفَاتِرِ يَـــا تُـــرَى أعْصَـــابُ؟

تجد الشاعر قد رشح المشاكلة بالاستعارة المكنية، والأمر نفسه حدث في جميع شواهد نزار، وغالبية الشواهد التي استعرضناها في التحليل.

وأمّا في قول الرصافي:

واسْـــقُوا المُتَلْمَـــذَ فِيهَـــا خَمْـــرَ مَكْرُمَـــةٍ عَـــنْ خَمْـــرَةِ الكَـــرْمِ تُمْسِـــي عِنْـــدَهُ بَـــدَلَا

ترشيحٌ للمشاكلة بالجناس، وترشيحها بالطباق حاصل في قول شوقي:

إنَّ الشَّـــجَاعَةَ فِـــي القُلُـــوبِ كَثِيـــرَةٌ وَوَجَـــدْتُ شُـــجْعَانَ العُقُـــولِ قَلِـــيلَا

وفي قول أحمد شوقي:

فَقُلْ لِي عَـنْ رُضُـــوضِكَ كَيْـــفَ أمْسَـتْ؟ فَقَلْبِـــي فِـــي رُضُـــوضٍ مُـــؤْلِمَـــات

ترشيح للمشاكلة بالكناية.

ممَّا سبق نستطيع القول إنَّ المشاكلة تُكسب الأسلوبَ جمالا، نفتقده إذا ما ذُكر اللفظ الحقيقي وحده، بينما يزداد هذا الجمال إشراقا حين تُصاحب المشاكلة صورةً بيانية، أو لونًا بديعيا ما.

تدريب: ابحث عن المشاكلة، وبيّنْ قيمتها الجماليّة فيما يأتي:

- قال توفيق الحكيم: "إنَّ الغِذَاءَ العَقْلِيَّ للجِنْسِ البَشَرِيِّ إنَّمَا يُعَدُّ الآنَ إعْدَادًا فِي مَطَابِخِ الصُّحُف، فالصَّحِيفَةُ المِثَالِيَّةُ فِي نَظَرِي مَائِدَةٌ يَجِبُ أنْ تَكُونَ حَافِلَةً بِكُلِّ أنْوَاعِ الفِيتَامِينَات، يَتَنَاوَلُ القَارِئُ مِنْهَا مَا يُنَمِّي اطّلاعَه، ويُقَوِّي عَضَلاتِهِ المُفَكِّرَة".

[1] الفنون البديعية ص 152.

- قال ميخائيل نعيمة: "أمَا رَأَيْتَ عَنْكَبُوتًا تَنْسِجُ مِنْ لُعَابِهَا شَبَكَةً عَجِيبَةَ الصُّنْعِ والهَنْدَسَة؟ إنَّ كُلَّ خَيْطٍ مِنْ خُيُوطِ تِلْكَ الشَّبَكَةِ هُوَ دَرْبٌ للعَنْكَبُوتِ إلى الفَرِيسَةِ الّتِي تَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى الحَيَاة، ولوْ تَأَمَّلْتَ العَنَاكِبَ البَشَرِيَّةَ لَوَجَدْتَهَا هِيَ كَذَلِكَ تَنْسِجُ شِبَاكًا مِنَ الدُّرُوبِ العَجِيبَةِ الصُّنْعِ والهَنْدَسَة، لِتَصْطَادَ بِهَا لَذَّةَ البَقَاء".

- قال المنفلوطي في رثاء ابنه، بعدما نَفَضَ يَدَيْه مِنْ تُرابِ قَبْرِه: "إنَّ قارُورَةَ المَنِيَّةِ التي كَانَ يَحْمِلُهَا لكَ القَدَرُ في يَدِهِ لمْ تَكُنْ أمَرَّ مَذَاقًا في فَمِكَ مِنْ قارُورة الدَّوَاءِ الّتِي كُنْتُ أحْمِلُها لكَ في يَدِي".

- وقال أيضا: "أخسُّ النَّاسِ طَبْعًا رَجُلٌ لا يُحْسِنُ إلى نَفْسِهِ، ولا إلى غَيْرِه، وهو البَخِيلُ الأحْمَق، الذي يُجِيعُ بَطْنَه، لِيُشْبِعَ صُنْدُوقَه".

- قال نزار قباني: "كُنْتُ أوَّلَ مَنْ أعْلَنَ تَأْمِيمَ الشِّعْرِ قَبْلَ أنْ يُؤَمِّمَ جَمَالُ عَبْدُ النَّاصِرِ قَنَاةَ السُّوِيس".

- قيل: "الصَّامِتُونَ يُعَانُونَ مِنْ شَيْءٍ وَاحِد، هُوَ ثَرْثَرَةُ عُقُولِهِم".

- قال معروف الرصافي:

مَـا أَجْشَـعَ الحَـرْبَ الضَّـرُوسَ، فَإنَّهَـا تَحْسُـو النُّفُـوسَ وتَأكُـلُ الأمْـوَالَا

- وقال الرصافي:

فَكُـلُّ بِـلادٍ جَادَهَـا العِلْـمُ أمْرَعَـتْ رُبَاهَـا وصَـارَتْ تُنْبِـتُ العِـزَّ لا العُشْـبَا

- قال شوقي يصفُ رِيحًا هَبَّتْ على جيش العَدُوّ:

هَبَّـتْ عَلَـيْهِمْ فَـذَابُوا عَـنْ مَعَـاقِلِهِمْ والـثَّلْجُ فـي قِمَـمِ الأجْبَـالِ لَـمْ يَـذُبِ

لَمَّـا صَـدَعْتَ جَنَـاحَيْهِمْ وقَلْـبَهُمُ طَـارُوا بِأَجْنِحَـةٍ شَـتَّى مِـنَ الرُّعْـبِ

- وقال شوقي:

والبَاسِـلانِ: شُـجَاعُ قَلْـبٍ فِـي الـوَغَى وشُـجَاعُ رَأيٍ فِـي وَغَـى الأفْكَـارِ

- ولشوقي في الرثاء:

ومَـنْ يُفْجَـعْ بِحُـرٍّ عَبْقَـرِيٍّ يَجِـدْ ظُلْـمَ المَنِيَّـةِ عَبْقَرِيَّـا

- قال حافظ إبراهيم في الرثاء:

أأَوَّلَ يَـوْمٍ لِعَهْـدِ الرَّبِيـعِ تَجِـفُّ الرِّيَـاضُ ويَـذْوَى الزَّهَـرْ

ويَـذْبُلُ زَهْـرُ القَـرِيضِ الثَّـرِيّ ويُقْفِـرُ رَوْضُ القَـوَافِي الغُـرَرْ؟

يَقُـولُ فَيُـرْخِصُ دُرَّ النُّحُـورِ ويُغْلِـي جُمَـانَ بَنَـاتِ الفِكَـرْ

- وقال حافظ مادحا:

جَـرِّدِ الـرَّأيَ فَكَـمْ رَأيٍ إذَا سُـلَّ مِـنْ غِمْـدِ النُّهَـى فَـلَّ الحُسَـامَا

- قال إيليا أبو ماضي:

لَـيْسَ المُحَـارِبُ فِـي الـوَغَى بِأَشَـدَّ بَـأ سًـا مِـنْ مُحَـارِبِ نَفْسِـهِ أوْ أشْـجَعِ

- قال الشاعر القروي مخاطبا أمريكا:

لا تُرْسِلُوا الخُبْزَ لَيْسَ الخُبْزُ مُمْتَنَعًا بَلْ أرْسِلُوا العِزَّ إنَّ العِزَّ مُمْتَنَعُ

- وقال في التّنك (الدّبابة) واصفا إحدى المعارك:

فَخَرَّ الجُنْدُ فَوْقَ التِّنْكِ صَرْعَى وخَرَّ التِّنْكُ تَحْتَهُمُو صَرِيعَا

- وقال بمناسبة عيد الفطر حين تعرض لبنان المستعبد للمجاعة:

صِيَامًا إلى أنْ يُفْطِرَ السَّيْفُ بالدَّمِ وصَمْتًا إلى أنْ يَصْدَحَ الحَقُّ يا فَمِي

- قال محمود سامي البارودي في مدح الخديوي توفيق:

يَقِظُ البَصِيرَةِ لَوْ سَرَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَةُ الرُّقَادِ فَقَلْبُهُ لَمْ يَرْقُدِ

- قال إبراهيم اليازجي:

فَمَا كَمَالُ الفَتَى بِالشَّيْبِ فِي شَعْرٍ لَكِنْ كَمَالُ الفَتَى بِالشَّيْبِ فِي الخُلُقِ

obeikan.com

تَشَابُهُ الأطْرَاف

تَشَابُهُ الأطْرَاف: ويُسَمَّى كذلك **التَّعَانُق**، وهُوَ أنْ يُؤْتَى بِآخِرِ الفِقْرَة السَّابِقَةِ مِنَ الكَلام، أوْ بِآخِرِ الشَّطْرِ الأوَّل، أو بآخِرِ البَيْت، فَيُجْعَلَ بَدْءاً لِلْكَلَامْ اللَّاحِق، "قال المدني: تَشَابُهُ الأطْرَافِ عِبَارَةٌ عَنْ أنْ يُعِيدَ الشَّاعِرُ لَفْظَةَ القَافِيَةِ فِي أَوَّلِ البَيْتِ الَّذِي يَلِيهَا، فَتَكُونُ الأطْرَافُ مُتَشَابِهَة."[1] ومِنْ رَوَائِعِ هَذَا الفَنِّ البَدِيعِيّ قَوْلُ الشَّاعِرِ الجَزَائِرِيِّ صَالَح خَرْفِي مُخَاطِبًا فرنسَا:

قَـدْ تَـزُولُ الجِبَـالُ عَـنْ مَوْقِـعِ الأقْـ ـــدَامِ مِنَّـا، ونَحْـنُ فِـي الحَـرْبِ نَحْـنُ

نَحْـنُ شَـعْبٌ لا نَعْـرِفُ اليَـأسَ، إيمَـا نٌ قَـوِيٌّ وخَـاطِرٌ مُطْمَـئِنُّ

فالشاعر قد أتى بآخر البيت، أي بكلمة (نحن)، وجعلها بدايةً للكلام اللاحق، أي بداية للبيت الذي يليه.

ومن بدائعه قول خليل مطران في رثاء إبراهيم اليازجي:

رَبَّ البَيَـانِ وسَـيِّدَ القَلَـمِ وَفَّيْـتَ قِسْـطَكَ لِلْعُـلَا فَـنَمِ

نَـمْ عَـنْ مَتَاعِبِهَـا الجِسَـامِ وذَرْ آلَامَهَـا غُنْمًـا لِمُغْتَـنِمِ

لعلك لاحظت أنّ الشاعر ختم بيته الأول بكلمة (نم)، وهي الكلمة نفسها التي كانت مطلع البيت اللاحق، وبذلك تشابهت الأطراف.

ومن روائعه أيضا قولُ الشاعر في مدح الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم، وصَحَابَتِه:

بِهِـمْ تَشَـابُهُ أطْـرَافٍ حَلَّـتْ بِهِـمْ بِهِـمْ أهِـيمُ ولَـوْ طَـالَ المَـدَى بِهِـمُ

فالشاعرُ كما ترى قد أتى بآخِرِ الشطر الأول، أي بكلمة (بِهِمْ)، وجعلها بِدَايَةً للكلام اللَّاحق، أي جعلها بداية للشّطر الثّاني.

أقسامه: ينقسم تشابهُ الأطراف إلى قسمين:

أ/ أنْ يَنْظُرَ الشَّاعِرُ، أو النَّاثِرُ إلى لَفْظَةٍ وَقَعَتْ في آخِرِ الشَّطرِ الأوَّل، أو آخرِ الجُملة، فَيَبْدَأُ بها الشَّطْرَ الثاني، أو الجُملةَ التالية.

ومنه قول إيليا أبي ماضي:

لا تَسْـأَلُونِي اليَـوْمَ عَـنْ قِيثَـارَتِي قِيثَـارَتِي خَشَـبٌ بِـلَا أنْغَـامِ

ومنه قول محمود غنيم مخاطبا نفسه بعد أن أهداه صديقُه قدّاحة (ولّاعة) ثمينة:

قَدَّاحَـةٌ جَاءَتْـكَ مِـنْ قَـدَّاحِ قَـدَّاحِ زَنْـدِ المَجْـدِ والسَّـمَاحِ

ومنه قول البارودي:

يَلُومُـونِي عَلَـى كَلَفِـي بِلَيْلَـى ولَيْلَـى فِـي سَـمَاءِ الحُسْـنِ بَـدْرُ

ومن بديعه قول الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة في مدح الشفيع:

[1] المعجم المفصل في علوم البلاغة الدكتورة إنعام نوّال عكّاوي ص 321. 322.

تَتَقَاصَـــــرُ الأَمْثَـــــالُ دُونَ مَقَامِـــــهِ فَمَقَامُـــــهُ فَـــــوْقَ السُّـــــهَا والفَرْقَـــــدِ

ومنه أيضا قول الشاعر الجزائري أبي القاسم خمّار:

لَقَـــدْ هَزَّنِـــي مِـــنْ رُبُـــوعِي نَشِـــيدٌ نَشِـــيدٌ جَمِيـــلٌ لِعَهْـــدٍ مَجِيـــدِ

ومنه قول الشاعر في بديعيّته مع تسمية النوع:

شَـــابَهْتُ أَطْـــرَافَ نَظْمِـــي حَيْثُمَـــا أَعُـــمْ أَعُـــمْ بِبَحْـــرٍ فَأَبْـــدِي جَـــوْهَرَ الكَلِـــمِ

ومنه قول فوزي المعلوف في قصيدة "حنين المهاجر":

وَا طُـــولَ أَشْـــوَاقِي إِلَـــى الـــوَادِي وَادِي الهَـــوَى والحُسْـــنِ والشِّـــعْرِ

ومن بدائع هذا النَّوعِ قولُ اللهِ تعالى في سُورةِ النُّور:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[1].

ب/ أنْ يُعِيدَ الشَّاعِرُ لَفْظَةَ القَافِيَةِ مِنْ بَيْتٍ مَا، فَيَجْعَلُهَا في أَوَّلِ البَيْتِ الذي يَلِيه، ومنه قول الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير):

أَعْشَـــقُ اللَّيْـــلَ وَمَـــا لِـــي والضُّـــحَى عِشْـــتَ يَـــا لَيْـــلُ: أَلَا فَانْسَـــدِلِ

انْسَـــدِلْ تَحْجُـــبْ عَـــنِ الطَّـــرْفِ الشَّـــقَا يَـــا لَطَـــرْفٍ بِالشَّـــقَا مُكْتَحِـــلِ

فالشاعر قد أعاد لفظة "انْسَدِلْ" من البيت الأول، وجعلها في أول البيت الذي يليه.

ومنه قول محمود سامي البارودي:

إِذَا مَـــا تَـــذَكَّرْتُ الزَّمَـــانَ الَّـــذِي مَضَـــى تَسَـــاقَطُ نَفْسِـــي إِثْـــرَ تِلْـــكَ القَبَائِـــلِ

قَبَائِـــلُ أَفْنَتْهَـــا الحُـــرُوبُ ولَـــمْ تَكُـــنْ لِتَفْنَـــى كِـــرَامُ النَّـــاسِ مَـــا لَـــمْ تُقَاتِـــلِ

لاحظ أن الشاعر أعاد لفظة (القبائل)، وجعلها في بداية البيت الموالي.

ومنه قول حافظ إبراهيم عن اليابان:

فَاسْـــأَلُوا عَنْهَـــا الثُّرَيَّـــا لا الثُّـــرَى إِنَّهَـــا تَحْتَـــلُّ أَبْـــرَاجَ الهِمَـــمْ

هِمَـــمٌ يَمْشِـــي بِهَـــا العِلْـــمُ إِلَـــى أَنْبَـــلِ الغَايَـــاتِ لا تَـــدْرِي السَّـــأَمْ

فالشاعر كما رأيت قد أعاد لفظة (الهمم) من البيت الأول، وجعلها في أول البيت الموالي.

ونقول مثل ذلك في قول حافظ:

كَـــمْ سَـــمِعْنَا عَلَـــى لِسَـــانِ البَـــرْقِ مَـــا يُـــزْعِجُ الـــدُّنْيَا إِذَا الأَسْـــطُولُ عَامَـــا

عَـــامَ شَـــهْرَيْنِ ولَـــمْ يَفْـــتَحْ سِـــوَى هُـــوَّةٍ فِيهَـــا المَلَايِـــينُ تَرَامَـــى

ومنه قول معروف الرصافي في حوار الأم الأرملة مع ولدها اليتيم حين سأل عن أبيه:

[1] النور 35.

فأنـــتَ الـــذي أخّـــرْتَ أمَّـــكَ مَرْيَمَـــا عَـــنِ المَـــوْتِ أنْ يُـــودِي بِأمِّـــكَ مَـــرْيَمِ
أمَـــرْيَمُ مَهْـــلًا بَعْـــضَ مَـــا تَذْكُرِينَـــهُ فَإنَّـــكِ تَـــرْمِينَ الفُـــؤَادَ بِأسْـــهُمِ

- ومنه قول محمود غنيم:

وَقَفْـــــتُ أبَـــــارِكُ أعْيَادَهَـــــا وأتْلُـــو عَلَـــى الكَـــوْنِ أمْجَادَهَـــا
فَأمْجَـــادُ مِصْـــرٍ تَهُـــزَّ الوُجُـــودَ ويَسْـــتَعْذِبُ الـــدَّهْرُ إنْشَـــادَهَا

ومنه أيضا قولُ صفيّ الدِّينِ الحليّ في بَدِيعِيَّتِهِ في مدح النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

قَـــالُوا أَلَـــمْ تَـــدْرِ أَنَّ الحُـــبَّ غَايَتُـــهُ سَـــلْبُ الخَـــوَاطِرِ والأَلْبَـــابِ قُلْـــتُ لَـــمِ
لَـــمْ أَدْرِ قَبْـــلَ هَـــوَاهُمْ والهَـــوَى حَـــرَمٌ أَنَّ الظِّبَـــاءَ تُحِـــلُّ الصَّـــيْدَ فـــي الحَـــرَمِ

وقد اجتمع القسمان في (سينيّة) الشاعر الجزائري محمد جربوعة:

بالسِّـــينِ يَـــا (سِـــتَّ النّسَـــا) بالسِّـــينِ بالسِّـــينِ أرْسُـــمُ لَمْسَـــةَ النّسْـــرِينِ
ولْتَسْـــأَلِي سَـــلْمَى وسَـــمْرَا هَـــلْ رَسَـــتْ فـــي سَـــاحِلِ سُـــفْنِي سِـــوَى مَيْسُـــونِ؟
مَيْسُـــونُ أحْسَـــنُ مَـــنْ تَوَسَّـــدَ سَـــاعِدًا فـــي سَـــهْرَةٍ، وبِبَسْـــمَةٍ تُنْسِـــينِي

ومِنْ تَشَابُهِ الأطرافِ ما يُسمَّى اقْتِبَاسَ الرَّكَائِز، وهو أنْ يُؤتَى من الجملةِ السَّابقةِ ما يُتَّخَذُ رَكِيزَةً في بناءِ الجملةِ اللَّاحِقَة، ومنهُ قوله عزَّ وجَلّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾[1]

ففي هذا النَّصِ القرآني أُخِذَتِ الرَّكِيزَةُ مِنْ جملة "ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِين"، وهي كلمة "نُطْفَة"، وبُنِيَتْ عليها الجُملةُ التي بَعْدَهَا، وهي: "ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً"، وأُخِذَتِ الرَّكيزةُ من هذه الجُملة، وهي كلمةُ "عَلَقَة"، وبُنِيَتْ عليها الجملةُ التي بعدها، وهي: "فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَة"، ثم أُخِذت الرَّكيزة من هذه الجملة، وهي كلمةُ "مُضْغَة"، وبُنِيَتْ عليها الجملة التي بعدها، وهي: "فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً"، ثمّ أُخِذَتِ الرّكيزةُ من هذه الجملة، وهي كلمة "عِظَامًا"، وبُنِيَتْ عليها الجملة التي بعدها، وهي: "فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً"، وهكذا تَعانَقَ النَّصُ باقْتِبَاسِ الرَّكَائِزِ، والبِنَاءِ عليها.

ومنه قول فوزي المعلوف:

إنَّ جِسْـــمِي عَبْـــدٌ لِعَقْلِـــي وعَقْلِـــي عَبْـــدُ قَلْبِـــي والقَلْـــبُ عَبْـــدُ شُـــعُورِهْ
وشُـــعُورِي عَبْـــدٌ لِحِسِّـــي وحِسِّـــي هُـــوَ عَبْـــدُ الجَمَـــالِ يَحْيَـــا بِنُـــورِهْ

ومن النماذج الممتازة لتشابه الأطراف قول الشاعر الفلسطيني تميم البرغوثي:

عـفوًا فيروزٌ ونزارٌ
أجراسُ العَـودةِ لنْ تُقـرَعْ

[1] المؤمنون 14.13.12.

مِنْ أينَ العَـودة إخـوتَنـا
والعـودةُ تحتـاجُ لإصبَـعْ
والإصبـعُ يحتـاجُ لـكـفٍّ
والكـفُّ يحتـــاجُ لأذرُعْ
والأذرُعُ يَلـزمُـهـا جسـمٌ
والجسـمُ يلزمُـهُ مَـوقِـعْ
والمَوقِـعُ يحتـاجُ لشعْـبٍ
والشَّعْـبُ يحتـاجُ لمِدْفَـعْ.

بلاغة تشابه الأطراف:

جاء في كتاب أنوار الرّبيع لابن معصوم: "في تشابه الأطراف دلالة على قوة عارضة الشاعر، وتصرفه في الكلام، وإطاعة الألفاظ له، ولا يخلو مع ذلك من حسن موقع في السمع والطبع، فإن معنى الشعر يرتبط ويتلاحم به، حتى كأن معنى البيتين، أو الثلاثة معنى واحد"[1]، ونقول إن جمالية هذا الفن البديعي ترجع إلى تماسك أجزائه، وتلاحم ألفاظه، فتكرار اللفظ الذي انتهت به العبارة في مطلع العبارة اللاحقة يشير إلى تعانق مفردات النص، وكأن هذا النص بناء متراص، يشدُّ بعضه بعضا.

تدريب: دُلَّ على تشابه الأطراف، وسمِّ نوعه ممَّا يأتي:

- قال إلياس فرحات مهنئا الشعب الجزائري بثورة التحرير:

جزائرَ الرّيْحان يا أعْجُوبَة الزَّمان
يا قُبَّة المَجْدِ ويا قَاعِدَة الإيمَان
إيمَانِ مَنْ يَسْقِي
مَزْرَعَةَ الحَقّ
بِسَائِلٍ مِنَ الدَّم

- قال إبراهيم ناجي:

وَيْحَهَـــا لَـــمْ تَـــدْرِ مَـــاذَا حَطّمَـــتْ ... حَطّمَـــتْ تَـــاجِي، وهَـــدَّتْ مَعْبَـــدِي

- قال معروف الرصافي:

فَلَـوْ قِيـلَ مَـنْ يَسْـتَنْهِضُ النَّـاسَ لِلْعُـلَا ... إذَا سَـــاءَ مَحْيَـــاهُمْ لَقُلْـــتُ المُعَلَّـــمُ
مُعَلَّـــمُ أبْنَـــاءِ الـــبِلَادِ طَبِيـــبُهُمْ ... يُـــدَاوِي سِـــقَامَ الجَهْـــلِ والجَهْـــلُ مُسْـــقِمُ

- وقال الرصافي في وصف الجرائد:

[1] أنوار الربيع في أنواع البديع ابن معصوم المجلد الثالث ص 50

فَطَـــالِعْ أَرَاجِيـــفَ الجَرَائِـــدِ إِنَّنِـــي أَرَى الوَيْـــلَ كُـــلَّ الوَيْـــلِ بَـــيْنَ الجَرَائِـــدِ
جَرَائِـــدُ فِـــي دَارِ الخِلَافَـــةِ أَضْـــرَمَتْ لَهِيـــبَ خِـــلَافٍ بَيْنَهَـــا غَيْـــرَ خَامِـــدِ

- وقال أحمد شوقي:

لِكُـــلِّ زَمَـــانٍ مَضَـــى آيَـــةٌ وآيَـــةُ هَـــذَا الزَّمَـــانِ الصُّـــحُفْ

- قال محمود غنيم بعد تضييعه لساعة عزيزة على قلبه:

لَا غَـــرْوَ إِنْ أَقْضِـــي حَـــقَّ عِشْـــرَتِهَا عِشْـــرَتُهَا لِـــي طَوِيلَـــةُ الأَمَـــدِ

- قال الشاعر محمد جربوعة في قصيدة "برقية إلى كعب بن زهير":

فَـــاقْرَأ عَلَيْـــهِ فَسَـــوْفَ يَرْضَـــى قَلْـــبُ النَّبِـــيِّ كَفُلَّـــةِ الفَجْـــرِ النَّـــدِي

- قال جبران خليل جبران في الذين اختلسوا أموال الأرامل واليتامى:

مَلَكُـــوا دَنَـــانِيرَ الأَرَامِـــلِ خِلْسَـــةً خِلْسَـــةً وتَنَعَّمُـــوا بِـــدَرَاهِمِ الأَيْتَـــامِ

- قال يوسف غصّوب في آخر أيامه يصف أوراق الخريف:

فَكَـــأَنَّهُنَّ إِذَا خَفَقْـــنَ جَـــوَانِحِي وحَفِـــيفُهُنَّ كَأَنَّـــهُ زَفَرَاتِـــي
زَفَـــرَاتُ مَصْـــدُورٍ تَقَـــارَبَ يَوْمُـــهُ فَحَيَاتُـــهُ مَعْـــدُودَةُ السَّـــاعَاتِ

- قال نزار قباني مخاطبا دمشق:

أَوْقِـــدِي النَّـــارَ فَالحَـــدِيثُ طَوِيـــلٌ وطَوِيـــلٌ - لِمَـــنْ نُحِـــبُّ - الحَنِـــينُ

- قال إيليا أبو ماضي مخاطبا القمر:

إِنْ تَغِـــبْ فَالصُّـــبْحُ عِنْـــدِيَ كَالـــدُّجَى والـــدُّجَى إِنْ جِئْـــتَ بِالصُّـــبْحِ ازْدَرَى

- قال الشاعر القروي مخاطبا العرب:

بَيْـــرُوتُكُمْ كَدِمَشْـــقِكُمْ ودِمَشْـــقُكُمْ كَرِيَاضِـــكُمْ ورِيَاضُـــكُمْ كَعُمَـــانِ

- قال حافظ إبراهيم:

عُـــزْلٌ ولَكِـــنْ فِـــي الجِهَـــادِ ضَـــرَاغِمُ لا الجَـــيْشُ يُفْزِعُهَـــا ولا الأَسْـــطُولُ
أَسْـــطُولُنَا الحَـــقُّ الصُّـــرَاحُ وجَيْشُـــنَا الـــ ـــحُجَجُ الفِصَـــاحُ وحَرْبُنَـــا التَّـــدْلِيلُ

- قال فوزي المعلوف:

الآن يـــا مَـــوْتُ إِلَـــيَّ اقتـــربْ يـــا مَرْحَبًـــا بـــالمُوثِقِ المُعْتِـــقِ
مُعْتِـــقِ نَفْسِـــي مِـــنْ قُيُـــودِ الأَسَـــى مُوثِـــقُ جِسْـــمِي فـــي المَـــدَى الضَّـــيِّقِ

- قال الشاعر في وصف قصيدته:

تَشْـــابَهَ الحُسْـــنُ فـــي أَطْرَافِهَـــا فَلَهَـــا فَخْـــرٌ بِحُسْـــن اِمْتِـــدَاحٍ عِنْـــدَ كُـــلِّ فَـــمِ

فَمِـــي حَوَاهَـــا وَرَبُّ العَـــرْشِ يَحْفَظُهَـــا مِـــنْ جَاهِـــلٍ حَاسِـــدٍ أَوْ عَـــالِمٍ خَصِـــمِ

- قال ابن معصوم:

تَشَـــابَهَتْ فِـــيهِمْ أَطْـــرَافُ وَصْـــفِهِمُ ووَصْـــفُهُمْ لَـــمْ يُطِقْـــهُ نَـــاطِقٌ بِفَـــمِ

- قال الشاعر:

شَـــابَهْتُ أَطْـــرَافَ مَـــدْحِي فـــي صِـــفَاتِهِمُ صِـــفَاتُهُمْ سَـــامِيَاتُ المَجْـــدِ والشِّـــيَمِ

- قال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلّمَ في الدُّعَاء: "لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لهُ المُلْكُ، ولَهُ الحَمْدُ، وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير".

- قال الله تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا).[1]

- قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا، قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾[2].

- قال الله عزَّ وجَلّ: ﴿اقْرَأ بِاسْمِ رَبِّكَ الّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَق﴾.[3]

- قال توفيق الحكيم: "الفَنُّ في مَظْهَرِهِ لَعِب، ولَكِنَّهُ في جَوْهَرِهِ اكْتِشَاف، اكْتِشَافُ الإنْسَانِ لِحَيَاتِهِ عَنْ طَرِيقِ الوِجْدَان".

- قال طه حسين: "فالأَدَبُ كُلُّهُ حُرِيَّة، حُرِّيَّةٌ حِينَ يُنْشِئُهُ الكَاتِب، وحُرِّيَّةٌ حِينَ يُتِمُّ القَارِئُ إنْشَاءَه، فالكَاتِبُ مُتَأَثِّر، وتَأَثُّرُهُ هَذَا وَسِيلَةٌ إلى تَأْثِيرِه، والقَارِئُ مُتَأَثِّر، وتَأَثُّرُهُ هَذَا وَسِيلَةٌ إلى تَأْثِيرِهِ أيْضَا".

[1] غافر 13.
[2] الإنسان 16.15.
[3] العلق 02.01.

التَّوْرِيَة

تعريف التَّورية لغة: "التَّوْرِيَةُ فِي اللُّغَةِ مَصْدَرُ وَرَّى، يُقَالُ وَرَّى الحَدِيث، إِذَا أَخْفَاه، وأَظْهَرَ غَيْرَه، وورَّيْتُ الخَبَر، جَعَلْتُهُ وَرَائِي، وسَتَرْتُه، وأَظْهَرْتُ غَيْرَه، وكَأَنَّ المُتَكَلِّمَ يَجْعَلُهُ وَرَاءَه، بِحَيْثُ لا يَظْهَر".[1]

ومن هذا المعنى قول الله تعالى: (فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ.)[2]

التَّورية اصطلاحا: "أمَّا فِي عُرْفِ البَلَاغِيِّين فإنَّ مَعْنَاهَا أنْ يُذْكَرَ لَفْظٌ لَهُ مَعْنَيَان، أحَدُهُمَا قَرِيب، يَتَبَادَرُ مَعْنَاهُ إلَى الذِّهْن، والآخَرُ بَعِيد، دِلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَيْهِ خَفِيَّة، والمُرَادُ هُوَ البَعِيدُ مِنْهُمَا، وقَدْ وَرَّى عَنْهُ المُتَكَلِّمُ بِالمَعْنَى القَرِيب، فَيَتَوَهَّمُ السَّامِعُ لأَوَّلِ وَهْلَةٍ أنَّ المُتَكَلِّمَ يُرِيدُهُ، وهُوَ لَيْسَ بِمُرَادٍ لَهُ."[3]

ومن بدائع التورية قول علي الجارم مخاطبا جماعةَ الشعراء:

أَرْسِـــلِ الصَّـــوْتَ رَنَّـــةً تَمْـــلَأُ الدُّنْـــ ـــــيَا وتَبْقَـــى عَلَـــى الزَّمَـــانِ خُلُـــودَا

لا تُبَـــالِ القُيُـــودَ مِـــنْ فَـــاعِلَاتُنْ أَنْـــتَ أَحْـــرَى بِـــأَنْ تُـــذِلَّ القُيُـــودَا

سِـــرْ خَفِيفًـــا مَـــعَ النَّسَـــائِمِ وابْعَـــثْ نَفَسًـــا يَمْـــلَأُ الفَضَـــاءَ مَدِيـــدَا

الشاعر ذكر لفظة (خفيفا)، ولهذه اللفظة معنيان: أحدهما قريب، وهو أحد بحور الشعر، والقصيدة من هذا البحر، وهو معنى غير مقصود، رغم أن الشاعر ذكر ما يلائم هذا المعنى، وهو لفظ (فاعلاتن)، أما المعنى البعيد المقصود فهو صفة الخفّة. كما ذكر لفظ (مديدا)، وله معنيان أيضا: الأول قريب غير مُراد (أحد بحور الشعر)، والثاني بعيد مُراد، وهو صفةٌ للنَّفَس، أي نَفَسًا ممدودا وطويلا.

وقال علي الجارم عن نفسه في رثاء أحد أصدقائه:

نَظَـــمَ الـــدُّمُوعَ فُكُـــنَّ بَحْـــرًا كَـــامِلًا وأَقَـــامَ بِـــالزَّفَرَاتِ تَفْعِيلَاتِـــهِ

الشاعر قد ذكر لفظ (كاملا)، وله معنيان: الأول قريب يتبادر إلى الذهن، وهو بحر الكامل الخاص بعلم العروض، والقصيدة فعلا من بحر الكامل، كما ذكر الشاعر لفظا أراد الإيهام به وهو لفظ (تفعيلاته)، وهذا المعنى القريب ليس مراد الشاعر، بل المعنى البعيد المراد هو أن دموع الشاعر كانت بحرا كاملا أي ممتلئا.

ومن التورية اللطيفة قول علي الجارم في تهنئة الملك فؤاد:

واسْـــلَمْ لِمِصْـــرَ فَأَنْـــتَ أَنْـــتَ فُؤَادُهَـــا وحَيَاتُهَـــا ولُبَابُهَـــا المُتَخَيَّـــرُ

فلفظ (فؤاد) يحتمل معنيين، الأول: العقل، أو القلب، وهو غير مقصود، والثاني اسم الملك، وهو المعنى المقصود.

---

[1] علم البديع الدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود ص 171.
[2] المائدة 31.
[3] الفنون البديعية ص 156.

وهاك مثالا طريفا آخر لا يخلو من فكاهة ودعابة: دخل الشاعر محمد إمام العَبَد (وهو شاعر طُبع على المرح)، على محمود سامي البارودي، فقال الحاضرون: هذا محمد إمام العَبَد قد أقبل، فقال البارودي مداعبا:

لا تَشْتَرِ العَبْدَ إلّا والعَصَا مَعَهُ إنَّ العَبِيدَ لأنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ

فأجابه الشاعر محمد إمام العبد على البديهة:

مَا كُنْتُ أحْسَبُنِي أبْقَى إلى زَمَنٍ يُسِيءُ بِي فِيهِ كَلْبٌ وهُوَ مَحْمُودُ

فالبارودي أنشد بيتا من قصيدة للمتنبي، ومحمد إمام العبد ردَّ بالبيت الذي يليه، نقول إن سامي قد ذكر لفظ (العبد)، وله معنيان: الأول قريبٌ غيرُ مقصود، وهو عكس الحُرّ، والثاني بعيدٌ مقصود، وهو لقبُ صديقه، والشاعر محمد إمام العبد ردّ بلفظ (محمود)، وهو لفظ يحتمل معنيين أيضا: الأول قريب غير مُراد، وهو (مشكور)، والثاني بعيد مراد، وهو اسم الشاعر.

- قال محمود غنيم مداعبا صديقه (محمود الخفيف):

صَاحِ قَدْ جُعْتُ فَهَيِّئْ لِي كَبَابًا ورَغِيفَا

واسْقِنِي شَايًا ثَقِيلَا قَبَّحَ اللهُ الخَفِيفَا

ذكر الشاعر لفظ (الخفيف)، لكن أيّ الخفيفين قصد؟ إنه لفظ يحتمل معنيين: الأول قريب لم يقصده الشاعر وهو عكس الثقيل، رغم أنّ الشاعر ذكر ما يلائم هذا المعنى، وهو لفظ (ثقيلا)، أما المعنى البعيد الذي أراده الشاعر فهو – من باب المداعبة – اسم صديقه.

- وقال محمود غنيم في شأن الشعر الحرّ:

وقَالُوا شِعْرُكُمْ عَبْدٌ دَعُونَا نَأْتِ بِالحُرِّ

فَخَلَّيْنَا المَجَالَ لَهُمْ فَدَسُّوا الشِّعْرَ فِي القَبْرِ

الشاعر ذكر لفظ (الحرّ)، وله معنيان: الأول قريب غير مقصود، وهو عكس العبد، والثاني بعيد مقصود وهو شعر التفعيلة.

- قال خليل مطران في وصف شعر الأديب رشيد نخلة:

إذَا مَا رَوْضَةُ الآدَابِ بَاهَتْ بِغَالِي الدَّوْحِ بَاهَيْنَا بِنَخْلَهْ

يقول الشاعر إن روضة الشعر لو شاءت المباهاة بما تفخر به من جنّات وأعناب باهيناها بالشجرة المباركة شجرةِ العرب، وسيدةِ الشَّجَر: النخلة، والملاحظُ أنّ لفظة (نخلة) تحتمل معنيين: المعنى الأول قريب كما رأينا، وهو شجرة التمر، وهو المعنى غير المقصود، أما المعنى الثاني، فهو اسم الأديب (رشيد نخلة)، وهو مُرَادُ الشاعر.

- قال إيليا أبو ماضي في هارون الرشيد:

النِّيلُ خَادِمُهُ الأمِينُ، وعَبْدُه نَهْرُ الفُرَات، وكُلُّ عَيْنٍ جَارِيَه

فالشاعر ذكر لفظ (جاريه)، وله معنيان: الأول قريب غير مقصود، وهو من الجريان، والثاني بعيد مقصود، وهو من العبودية، أي له كل عين أَمَةٌ من الإمَاء.

- قال حافظ إبراهيم في تهنئة سعد زغلول بالنجاة إثر الاعتداء عليه بإطلاق نار:

النَّسْـــرُ يَطْمَـــعُ أَنْ يَصِـــيدَ بِأَرْضِـــنَا سَنُـرِيـــــهِ كَيْـــفَ يَصِيـــدُهُ زُغْلُـــولُ

فلفظة (زغلول) تحتمل معنيين: الأول فرخ الحمام الذي عادة ما يصيده الصقر، وهو معنى قريب غير مقصود أراد الشاعر الإيهام به حين ذكر لفظة (النسر)، أما المعنى البعيد المقصود فهو الزعيم المصري سعد زغلول.

- وقال حافظ مداعبا شوقي:

يَقُولُـــونَ إنَّ الشَّـــوْقَ نَـــارٌ ولَوْعَـــةٌ فَمَـــا بَـــالُ شَـــوْقِي أصْـــبَحَ اليَـــوْمَ بَـــارِدَا

فأجابه شوقي:

وأوْدَعْـــتُ إنْسَـــانًا وكَلْبًـــا وَدِيعَـــةً فَضَـــيَّعَهَا الإنْسَـــانُ والكَلْـــبُ حَـــافِظُ

فلفظة (شوقي) تحتمل معنيين: الأول من الشوق أي الحنين، وهو قريب غير مقصود، والثاني لقب الشاعر، وهو المعنى البعيد المقصود.

ولفظة (حافظُ) لها معنيان كذلك: الأول اسم فاعل من الفعل (حفظ)، وهو قريب غير مقصود، والثاني اسم الشاعر، وهو المعنى البعيد المقصود.

- قال مصطفى صادق الرافعي متغزلا:

فَـيَـــا رَبِّ صَـــيِّـــرْ بَـقِـيَّـــةَ قَـلْـبِـــي حَـــدِيـــــدًا فـــإنَّ فُـــــوَادِي ذَهَـــــبْ

فكلمة (ذهب) في معناها القريب غير المقصود المعدن الثمين، لذكر كلمة (الحديد)، والمعنى البعيد المقصود هو ذهاب قلبه إلى غير رجعة.

- وللرافعي كذلك:

وخَلِيـــــلٍ ضَـــــمَمْتُهُ فَتَـــــأبَّى وانْثَنَـــى نَـــافِرًا كَظَبْـــيِ الصَّـــرِيمِ

قَـــالَ نَـــارُ الخَلِيـــلِ فـــي القَلْـــبِ شَـــبَّتْ قُلْـــتُ أقْبِـــلْ فَتِلْـــكَ نَـــارُ الكَلِـــيمِ

فلفظ (الخليل) له معنيان: قريبٌ غيرُ مقصود، وهو النبي إبراهيم عليه السّلام، خليل الله، وبعيدٌ مقصودٌ وهو الخلُّ والصَّاحب، ولفظ (الكليم) كذلك له معنيان: قريبٌ غير مقصود أراد الإيهام به، وهو النبي موسى عليه السلام، كليم الله، وبعيدٌ مُراد، وهو الجريح.

- وللرافعي أيضا:

وقَطّعَنِـــي الأسَـــى والـــدَّمْعُ بَحْـــرٌ فَعَـــادَ بَسِـــيطُ هَمِّـــي فِـــي المَدِيـــدِ

أجمل ما قيل في التورية: العصرُ الذهبيّ للتورية كان عصرَ المماليك بدون منازع، وقد اخترت لك النماذج الآتية:

- قال صفيّ الدين الحلي:

وَيَنبُـــتُ عِنْـــدِي نَخِيـــلُ الـــوِدَادِ لأنَّـــكَ عِنْـــدِي دَفَنْـــتَ النَّـــوَى

فَـــلا تَنْـــوِ غَيْـــرَ فِعَـــالِ الجَمِيـــلِ فـــإنَّ لِكُـــلِّ امْـــرِئٍ مَـــا نَـــوَى

التورية في معنى (النَّوَى) البعيد وهو الفراق، والنَّوَى بالمعنى القريب جمع نواة، أي نواة التمر.

- دخل بعض الشعراء على الأديب جمال الدين بن نباته، فرأى في نواحي منزله نملاً كثيرا، فأنشد:

مَـا لِـي أَرَى مَنْـزِلَ المَـوْلَى الأدِيـبِ بِـهِ نَمْـلٌ تَجَمَّـعَ فِـي أَرْجَائِـهِ زُمَـرَا؟

فأجابه ابن نباتة:

لا تَعْجَـــبَنَّ إذَا مِـــنْ نَمْـــلِ مَنْزِلِنَـــا فالنَّمْـــلُ مِـــنْ شَـــأنِهِ أنْ يَتَّبِـــعَ الشَّـــعَرَا

- وقال ابن نباتة واصفا بيته، وأولاده:

لَـــيْسَ غَيْـــرِي فـــي البَيْـــتِ قِطْعَـــةُ لَحْـــمٍ فَتَفَضَّـــلْ مِـــنْ قَبْـــلِ أنْ يَـــأْكُلُونِي

التورية في كلمة (تفضل)، ولها معنيان: القريب غير المراد: الدعوة إلى الدخول إلى البيت، والبعيد المراد: الدعوة إلى الإكرام والإحسان.

- قال الشاعر:

أقُـــولُ لِفَقْـــرِي مَرْحَبًـــا لِتَيَقّنِـــي بِـــأنَّ عَلِيًّـــا بِالمَكَـــارِمِ قَاتِلُـــهْ

فالتورية في كلمة (عليّ)، ولها معنيان: قريب غير المقصود، وهو الخليفة الراشد عليٌّ رضي الله عنه، فقد كان هو القائل: "لَوْ كَانَ الفَقْرُ رَجُلًا لَقَتَلْتُه"، والمعنى البعيد المقصود: هو الممدوح.

- قال الشاعر:

أَلاَ رُبَّ شَـــادٍ قَـــامَ يَضْـــرِبُ عُـــودَهُ عَلَـــى حِـــينِ لَـــمْ يُـــوفِ الحَبِيـــبُ بِمَوْعِـــدِ

فَأَضْـــرَمَ نَـــارَ الشَّـــوْقِ بَـــيْنَ جَـــوَانِحِي ولاَ عَجَـــبٌ أَنْ تُضْـــرَمَ النَّـــارُ بِـــالعُودِ

التورية في لفظ (العُود)، ولها معنيان: المعنى القريب غير المراد: الحطب، المعنى البعيد المقصود: آلة الطرب.

- قال ابن حجر العسقلاني:

أَتَـــى مِـــنْ أَحِبَّـــائِي رَسُـــولٌ فَقَـــالَ لِـــي تَرَفَّـــقْ وَهُـــنْ واخْضَـــعْ تَفُـــزْ بِرِضَـــانَا

فَكَـــمْ عَاشِـــقٍ قَاسَـــى الهَـــوانَ بِحُبِّنَـــا فَصَـــارَ عَزِيـــزًا حِـــينَ ذَاقَ هَوَانَـــا

فالتورية وردت في كلمة (هَوَانَا)، وهي تحتمل معنيين: القريب غير المقصود: المَذَلَّة، والبعيد المقصود: حُبُّنَا.

- قال شاعر يطلب مسكنا يأويه:

لـــي أَلْـــفُ بَيْـــتٍ فـــي مَـــدَائِحِ بَيْـــتِكُمْ فـــارْدُدْ عَلَـــى المَمْلُـــوكِ بَيْتًـــا وَاحِـــدَا

التورية في كلمة (بَيْتًا)، والمعنى القريب غير المقصود هو بيت الشِّعْر، والمعنى البعيد المقصود هو المنزل.

- قال الشاعر مهنئا ممدوحه بعيد الأضحى:

تَقَلَّـــــدْنَا فِيـــــهِ قَلَائِـــــدَ أَنْعُـــــمٍ وأَحْسَـــنُ مَـــا تَبْـــدُو القَلَائِـــدُ فـــي النَّحْـــرِ

التورية في لفظ (النحر) ومعناها القريب غير المقصود: الجِيد، ومعناها البعيد المقصود: عيد الأضحى.

بلاغة التورية:

يقول العلوي: "التورية لا تخلو عن تفنن في الكلام واتساع فيه، وتدل على تصرف بالغ، وقوة على تصريف الألفاظ، واقتدار على المعاني."[1]، فالتورية إذن من أغلى فنون البديع، وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث في القلوب، فهي تكسب الكلام روعة، وتكسوه بهجة، إذا جاءت عفوية من غير كدٍّ ظاهر، وتصنّع بيّن، أما إذا صارت همَّ الأديب، وغايته من أدبه، وراح الأديب يحرص عليها، ويركب في سبيلها الأوعار والأهوال، فهي حِلْيَةٌ عاطلة، وفتنة باطلة، وتجارة كاسدة. "وتكمن بلاغة التورية في ثلاثة أمور:

أولها: أنّ المعنى البعيد المراد المورى عنه يبدو من خلف المعنى القريب غير المراد في صورة حسنة لطيفة، كما يبدو وجه المرأة الحسناء من وراء البرقع.

ثانيها: أنّ المخاطب يدرك من لفظ التورية في بادئ الأمر معناها القريب، لسرعة إدراكه قبل البعيد، فإذا ما وقف على المعنى البعيد بعد ذلك، وأدركه بالتأمل، وإطالة النظر، كان له وقعة في النفوس، وأثره الحسن.

ثالثها: أنها تمكّن المتكلم من أنْ يخفي المعاني التي يخشى التصريح بها، فيوري عنها بمعان تفهم من لفظ التورية، وبهذا يدفع المحذور مع الصدق."[2]

تدريب: دُلَّ على التورية، وبين بلاغتها في الأبيات الآتية:

- وَأَعُـــدُّ أَيَّـــامَ الجَفَـــاءِ مُعَـــدِّدًا حَتَّـــى مَلَلْـــتُ الحُـــزْنَ وَالتَّعْدِيـــدَا

- لَقَـــدْ قَطَّعْـــتَ قَلْبِـــي يَـــا خَلِيلِـــي بِهَجْـــرٍ طَـــالَ مِنْـــكَ عَلَـــى العَلِيـــلِ

ولَكِـــنْ مَـــا عَجِيـــبٌ مِنْـــكَ هَـــذَا إِذِ التَّقْطِيـــعُ مِـــنْ شَـــأنِ الخَلِيـــلِ

- يَـــا كامِـــلَ الحُســـنِ حُزْنِـــي وَافِـــرٌ وأَرَى وَجْـــدِي مَدِيـــدًا وصَـــبْرِي عَنْـــكَ مُقْتَضَـــبَا

- دَعَـــانِي صَـــدِيـــقٌ لِـــحَـــمَّـــامِـــهِ فـــأَوْقَـــعَـــنِـــي فـــي العَـــذَابِ الأَلِيـــمْ

كَـــــلَامٌ يَزِيـــــدُ ومَـــــاءٌ يَقِـــــلُّ فَبِـــــئْسَ الصَّـــــدِيقُ وبِـــــئْسَ الحَمِـــــيمْ

[1] فن البديع د عبد القادر حسين ص 68.
[2] علم البديع الدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود ص 181.

- طـــوَّقَ جُـــودُ الـــوَزِيرِ جِيـــدِي ... فلَسْـــتُ عَـــنْ مَدْحِـــهِ أعَـــوَّقُ
أسْـــجَعُ بالمَـــدْحِ فـــي عُـــلاه ... لا غَـــرْوَ أنْ يَسْـــجَعُ المُطَـــوَّقُ
- قُـــلْ لِـــوَزِيـــرِ الشَّـــامِ يـــا مَـــنْ ... مَـــدَّ يَـــدَ الـــجُـــودِ لِلْـــعِبَـــادِ
مَـــا سَـــرَقَ المَـــادِحُـــونَ وَصْـــفًـــا ... فِـــيـــكَ فَـــلا تَـــقْـــطَـــعِ الأيَـــادِي
- سِـــهَامُ عَيْنَيْـــكَ دَائِـــي ... وأصْـــلُ مَـــا بِـــي وسَـــقْمِي
وقَـــدْ أخَـــذْتُ نَـــصِـــيـــبِـــي ... مِـــنْـــهَا ورُحْـــتُ بِـسَـهْـمِـي
- مَلِيـــكٌ بَـــدَا فـــي أحْمَـــرٍ مِـنْ مَلابِسِ ... كَـــذَاكَ بَـــدَتْ مِـنْ حَوْلِهِ الخَيْـلُ والجُنْـدُ
بَدَوْا كُلُّهُـــمْ في حُلَّـــةِ الـــوَرْدِ مَلْبَسًـــا ... فَقَـــالَ الوَرَى هَـــذَا هُـــوَ الأَسَـــدُ الـــوَرْدُ
- فَهُـــوَ فِـــي الحُسْـــنِ والجَمَـــالِ سَمَـــاءٌ ... صِـــرْتُ يَا صَـــاحِ مِنْـــهُ بِالـــذُّلِّ أرْضَـــا
- يـــا جَـــارَةً لِصُـــدودِهَا لِـــي أَلْبَسَـــتْ ... ثَـــوْبَ السّـــقَامِ ولَـــمْ تَخَـــفْ مِـــنْ عَـــارِ
دَمْعِـــي لِطُـــولِ جَفَـــاكَ أضْـــحَى جَارِيًـــا ... فَعَـــلامَ لا تَرْعَـــى حُقُـــوقَ الجَـــارِ؟
- أَيَا ضَـــوْءَ الصَّبَـــاحِ أَرْفِـــقْ بِصَـــبٍّ ... تَسِـــيـــلُ دُمُـــوعُـــهُ فِـــي الخَـــدِّ سَيْـــلاَ
وكُنْـــتُ بِلَيْلَـــةٍ لَـــيْلاءَ طَالَـــتْ ... فَهَـــا أنَـــا فِـــي الـــوَرَى مَجْنُـــونُ لَيْلَـــى

obeikan.com

أُسْلُوبُ الحَكِيم

تعريف أسلوب الحكيم: "هُوَ أنْ تتَلقّى المُخَاطَبَ بِغَيْرِ مَا يَتَرَقَّبُه، وتَصْرِفَ حَدِيثَهُ إلَى وِجْهَةٍ أُخْرَى لَمْ يَقْصِدْهَا، إمَّا بِتَرْكِ سُؤَالِهِ، والإجَابَةِ عَنْ سُؤَالٍ لَمْ يَسْأَلْه، ولَمْ يُرِدْهُ، وإمَّا بِحَمْلِ كَلَامِهِ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ يَقْصِد، إشَارَةً إلَى أنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أنْ يَسْأَلَ هَذَا السُّؤَال، أوْ يَقْصِدَ هَذَا المَعْنَى"[1]. ومن نمَاذِجِ الأسْلُوبِ الحَكِيم سؤالُ الطالبِ الأستاذَ عن الدُّرُوس المتوقَّعة في الامتحان، فيردُّ الأستاذ: "إذا أرَدْتَ النَّجَاح، فَعَلَيْكَ بِمُرَاجَعَةِ دَرْسَيْ المُثَابَرَةِ والاجْتِهَاد". فالإجابة كما ترى ليست عن السؤال نفسه، وإنما كانت عن سؤال آخر، كان حريّا بالسائل أن يسأل عنه.

وقد تمرّ أنت وصديقك على مقهى للإنترنت، فتدخلانه لأجل تحميل كتاب ما، وبعد مدّة يسألك الصديق: هل اكتمل التنزيل؟ فتردُّ: التنزيل اكتمل قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشهر معدودة، فصديقك أراد السؤال عن التحميل، وأنت أجبت عن التنزيل.

وهذا يشبه موقف بِلال رضي الله عنه حين سئل عند رُجُوعه من حلبة سباق الخيل: "مَنْ سَبَقَ يَا بِلال؟" قال: "رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم"، قيل: "إنَّمَا سَأَلْنَاكَ عَنِ الخَيْل"، قال: "وأنَا أَجَبْتُ عَنِ الخَيْر".

ويَروي خليل مطران أنه نظر إلى ساعة سوداء في يد حسناء فقال:

سَـــــاعَتُكِ البَيْضَـــــاءُ، لَا سَـــــاعَةً ... سَـــــوْدَاءَ إلَّا سَـــــاعَةُ الهَجْـــــرِ

تأمّل كيف حمل الشاعر عبارة (بياض الساعة، وسوادها) على معنى قُرْبِ الحبيب أو بُعده، فالساعة التي يكون فيها الوصال ساعة بيضاء، ولا ساعةً سوداءَ سوى ساعةِ الهجر.

ومن أمثلة هذا الفنّ البديعيّ سُؤَالُ القاضي الصهيوني فلسطينيًّا في أثناء محاكمته: "لِمَاذَا طَعَنْتَ الجُنْدِيَّ الإسرائيلي بِالسِّكِّين؟" فكان ردُّ البَطَل: "لأنَّ ظُرُوفِي صَعْبَة، ولا أسْتَطِيعُ شِرَاءَ مُسَدَّس". فالجواب كما ترى لم يكن مطابقا للسؤال، فالقاضي قد أجيب بجواب لم ينتظره، لأن الفتى الفلسطيني قد نفذ في الجواب إلى معنى عميق، أبعد ممّا أراده السائل.

ومن نماذج الأسلوب الحكيم قول إيليا أبي ماضي في وصف قلمه:

تَبَخْتَـــرَ فَـــوْقَ الطِّـــرْسِ يَسْـــحَبُ ذَيْلَـــهُ ... فَقَـــالُوا: بِـــهِ كِبْـــرٌ، فَقُلْـــتُ: عَـــنِ الكِبْـــرِ

بيت يمثّل لوحة يعرضها الشاعر في معرض الفخر، فالناس حين رأوا قلمه يختالُ ويتباهى، ويجرُّ أذيال العُجْب على السّجّاد الأحمر، لم يسكتوا، ووصفوه بالخيلاء والتكبّر، فصرف الشاعرُ حديثهم إلى وجهة أخرى، وقلب المعنى بضده: فما رأوه كان كبرياءً، لا كِبْرًا، وإنْ كان كِبْرًا، فهو الكِبْرُ عن الكِبْر.

ومن نماذجه البليغة قول أبي القاسم خمّار:

قَالَـــتْ فِرَنْسَـــا أَتَيْنَـــاكُمْ نُعَلِّمُكُـــمْ ... فَـــنَّ الحَضَـــارَةِ إذْ أَنْـــتُمْ لَهَـــا عَـــدَمُ

[1] علم البديع عبد العزيز عتيق ص 182.

حَضَـــارَةُ الغَـــابِ حَقّـــا نَحْـــنُ نَجْهَلُهَـــا والفَضْـــلُ يَرْجِـــعُ فِـــي تَشْـــرِيعِهَا لَهُـــمُ

فالشاعر قد حمل مقالة الفرنسيّين عن الحضارة على غير الوجه المقصود، فهم قصدوا بها التحضّر، والتمدّن، والتقدّم، في حين قصد الشاعرُ الوجهَ الحقيقي للاستعمار، المتخفّي وراء قناع الحضارة، والمتمثل في الهمجيّة، والانحطاط، والتخلّف.

ومن بدائع الأسلوب الحكيم قول محمود غنيم بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر:

وقَـــالَ القَـــوْمُ: يَـــوْمٌ أوْ نَهَـــارُ فَكَـــانَ الـــدَّهْرُ فِـــي هَـــذَا النَّهَـــارِ

وقَـــالُوا: نُزْهَـــةٌ فِـــي البَحْـــرِ قُلْنَـــا: نَعَـــمْ، لَكِـــنْ تَقُـــودُ إلَـــى القَـــرَارِ

اعتقد ثالوثُ العدوان أنّ الحربَ على الكنانة مهمّةَ يومٍ أو نهار، ولكنّ الشاعر حمل كلامهم على غير الوجهة التي قصدوها، فالنهارُ عندهم صبرُ ساعة، والنهارُ عنده إلى قيام الساعة، ثم قالوا إنها محض نزهة في البحر الأبيض، فكانت نزهة، ولكن في قاع بحر أحمر مخضّب بدماء المحتلّين.

ومنه قول محمود غنيم أيضا إثر حادثة غرق إحدى السفن السياحية في نهر النيل:

ذَهَـــبَ القَـــوْمُ يَسْـــتَجِمُّونَ حِينًـــا فَاسْـــتَجَمُّوا لَكِـــنْ مَـــدَى الأَزْمَـــانِ

فالضحايا قصدوا بالاستجمام السياحة والاستراحة القصيرة بعد العمل، بينما حمل الشاعر كلمة (استجمام) على أنها راحة أبدية، نالها السيّاح على متن سفينة الآخرة.

ومن أمثلته قول علي الجارم في حواره مع النَّاعِي:

فَقَـالَ: قَضَـى، قُلْنَـا: قَضَـى حَاجَـةَ العُـلَا فَقَـــالَ: مَضَـــى، قُلْنَـــا: بِغَيْـــر نَظِيـــر

فتأمَّلْ كيف حَمَلَ الشَّاعِرُ- وهو المُتَلَقِّي- كلمةَ (قَضَى) على إنْجَازِ وقَضَاءِ الحَوَائِج، في حين قَصَدَ بها النَّاعي المَوْت، وكذلك حَمَلَ الشَّاعِرُ أيْ المُتَلَقِّي كلمةَ (مَضَى) على أنَّهُ مَضَى وذَهَبَ بالفَضْل، ولمْ يَدَعْ لغيره شَيْئًا مِنْه، في حين كان قَصْدُ المُتَكَلِّم الفَنَاء.

واستمع إلى هذا الأب، وقد جاءه ولده يسأله عن بعض القضايا الفلسفية والوجودية، حيث سأله عن ماهية الروح، وماهية النفس، لكن الأب أدرك أنّ مثل هذه القضايا ليس من السهل على ابنه أن يدرك جوهرها، فقال:

جَـــاءَنِي ابْنِـــيَ يَوْمًـــا وكُنْـــتُ أرَاهُ لِـــي رَيْحَانَـــةً ومَصْـــدَرَ أنْـــسِ

قَـــالَ: مَـــا الـــرُّوحُ؟ قُلْـــتُ: إنَّـــكَ رُوحِـــي قَـــالَ: مَـــا الـــنَّفْسُ؟ قُلْـــتُ: إنَّـــكَ نَفْسِـــي

ومن نماذج الأسلوب الحكيم قول جبران خليل جبران:

تِلْكَ حَـالِـي فَـإِذَا قَـالَـتْ رَحِـيـلْ

مَا عَسَى حَلَّ بِهِ؟ قُولُوا: الجُنُونْ

وإِذَا قَـالَـتْ: أَيَشْـفَـى ويَـزُولْ

مَـا بِـهِ؟ قُـولُـوا: سَتَشْفِيهِ المَنُونْ

بقليل من التأمل تجد الشاعر قد صرفَ سؤالَ "رحيل" إلى غير الوجهة التي قصدتها: فهي قصدت السؤال عن إمكانية شفاء المجنون، فكان ردُّهُ أنَّ الشفاء سيكون، ولكن على يد المنون.

ومن بدائع أسلوب الحكيم قول ناصيف اليازجي:

قَـــالُوا أَصَـــبْنَا فَـــلَا تُوجِـــبْ مَلَامَتَنَـــا نَعَـــمْ أَصَـــابُوا فُـــؤَادًا بالسِّـــهَامِ رُمِـــي

فالشاعر لم يحمل كلمة (أصَبْنَا) على معنى الصواب، بل الإصابة.

ومن بديعه كذلك قول محمد المويلحي: "الْتَفَتَ رَفِيقِي إِلَى الفُنْدُقِ فَرَأَى فِيهِ شُمُوسَ الكَهْرَبَاءِ مُشْرِقَة، ويَنَابِيعَ الضِّيَاءِ مُتَدَفِّقَة، وأعْمِدَةَ المَصَابِيحِ كَأَنَّهَا أغْصَانُ الأشْجَار، أَزْهَرَتْ بِالأنْوَارِ مَكَانَ الأنْوَار[1]، فَصَارَ كُلُّ عَمُودٍ مِنْهَا عَمُودَ فَجْر، يُفَجِّرُ ثَغْرُهُ الدُّجْنَةَ أَيَّ فَجْر، وكَأَنَّ مَنْثُورَ الشُّمُوعِ فِي ظُلْمَةِ الحَلَك، مَنْثُورَ النُّجُومِ فِي قُبَّةِ الفَلَك، ورَأَى تَحْتَهَا صُفُوفًا مِنَ الرِّجَال، بَيْنَ صُفُوفٍ مِنْ ذَوَاتِ الحِجَال، عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِين، وأَرَائِكَ مُتَّكِئِين، فَطَفِقَ يَسْأَلُنِي: أَتُرَاهُ مَحْفَلًا لِيَوْمِ أُنْس، أمْ زِفَافًا فِي يَوْمِ عُرْس؟ أَمْ تُرَاهَا لَيْلَةَ مِهْرَجَان، لَقَبِيلٍ مِنَ الجَان، نَسُوا تَفَاوُتَ الجِنْس، فَأَنِسُوا إِلَى الإنْس؟ فَقُلْتُ لَهُ: نَعَمْ هَؤلَاءِ شَيَاطِينُ الإنْسِ يَطْوُونَ البَرَّ والبَحْر، ويَقْطَعُونَ الحَزْنَ والوَعْر، ويَطِيرُونَ فِي السَّمَاء، ويَمْشُونَ عَلَى المَاء، ويَخْرِقُونَ الجِبَال، ويَنْسِفُونَ القِلَال، ويَقْلِبُونَ الآكَامَ وِهَادَا، ويَبْسُطُونَ الرُّبَى مِهَادَا، ويَجْعَلُونَ القِفَارَ بِحَارَا، ويُحِيلُونَ البِحَارَ بُخَارَا."

انظر كيف حَمَلَ الكاتب كلمة (الجنّ) على غير المعنى الذي أراده الرفيق: فالرفيق يسأل متعجبا: إنْ كان ما يراه مهرجانًا لمعشرٍ من الجنّ؟ فيجيبه الكاتب بأنه قد كان من الصادقين، فهم بالفعل (جنٌّ)، ولكن من جنس الإنسان، لا من جنّ سليمان، اخترعوا الكهرباء، وغزوا الفضاء، وطاروا في الهواء، ومشوا في الماء...فهم الذين استطاعوا أن ينفذوا في أقطار السموات والأرض بسلطان العلم والمدنيّة والحضارة.

بلاغة الأسلوب الحكيم:

الأسلوبُ الحكيمُ بالإضافة إلى حُسْنِ بيانه، ونَصَاعَةِ لُغَتِه، وإيجاز عباراته، وثراء معانيه، فهو يكشف عن حكمة بالغة، وذكاء عال، ومهارة معجِزة، وبديهة حاضرة، وإلهام متّقد، وقدرة فائقة في التصرف السريع، لأنه وليد لحظته، وقيمتُه البلاغية في إبداعه الفوري، وإنشائه التلقائي، ولذلك قيل: "البلاغة هي الصواب في سرعة الجواب"، والأسلوب الحكيم يساعد على تربية العقل، وترقية الفكر، وتقوية ملكة الاستحضار في النفس، ويبعث في لسان الإنسان قوةً في التعبير إذا سُئِل، وقدرة على سَبْكِ الكلام إذا ارتجل. لذلك عُدَّ الأسلوب الحكيم من أصعب الكلام مَرْكبا، وأعزّه مطلبا، فالمخاطب الذي يجد نفسه على نحو مفاجئ أمام أمر يُحرجه، أو يضايقه، يجد في الأسلوب الحكيم منصرفا ومنفذا، "ولا يسبق في هذه الحلبة إلا الأذكياء اللّمّاحون الذين يعرفون مخارج القول وموالجه"[2].

[1] الأنوار: جمعُ نَوْر، وهو الزهر الأبيض.
[2] المفصل في علوم البلاغة العربية ص 615.

تدريب: دُلَّ على الأسلوب الحكيم فيما يأتي:

- ركب شخصٌ سيارة أجرة، فوجد السائقَ يستمع إلى القرآن الكريم في الراديو، فقال الزبون: "هَلْ مَاتَ أَحَد؟" قال السائق: "نَعَمْ، قُلُوبُنَا".

- سُئِل رَجُلٌ إمَامًا: "هلْ رَفْعُ اليَدَيْنِ في الصَّلاةِ أفْضَلُ أمْ إرْسَالُهُمَا؟"، قال: "رَفْعُ القَلْبِ إلى الله أفْضَلُ مِنْهُمَا جَمِيعا".

- سأل أستاذٌ تلميذَه: "أيْنَ تَقَعُ غَزَّة؟" فَرَدَّ الطَّالب: " غَزَّةُ لا تَقَع".

- قيل لأحدِ البَحَّارين: "مَا أعْجَبُ مَا رَأَيْتَ مِنَ البَحْر؟" قال: "سَلَامَتِي مِنْه".

- قيل لرجل: "مَا وَرِثَتْ أخْتُكَ مِنْ زَوْجِها؟" قال: "أرْبَعَةَ أشْهُرٍ وعَشْرًا".

- قال رجل: "رأيتُ رَاعِيًا يَرْعَى غَنَمًا قَدْ مَلَأَتِ الوَادِي، فقلتُ: لِمَنْ هَذِه؟" قال: "للهِ فِي يَدِي".

- قال رجلٌ لِفَقِيه: "مَتَى كَانَ اللهُ عَزَّ وجَلّ؟"، قال: "مَتَى لَمْ يَكُنْ؟".

- قال الشاعر الحكيم:

ذَهَبْتُ إِلَى الطَّبِيبِ أُرِيهِ حَالِي ... وهَلْ يَدْرِي الطَّبِيبُ بِمَا جَرَى لِي؟
جَلَسْتُ فَقَالَ مَا شَكْوَاكَ؟ صِفْهَا ... فَقُلْتُ الحَالُ أَبْلَغُ مِنْ مَقَالِي
أَنَا لا أَشْتَكِي الحُمَّى احْتِجَاجًا ... بَلِ الحُمَّى الَّتِي تَشْكُو احْتِمَالِي
تَقُولُ بِأَنَّ مَا فِيَّ الْتِهَابٌ ... ورَشْحٌ، مَا أَجَبْتَ عَنْ سُؤالِي
وَضَعْتَ عَلَى فَمِي المِقْيَاسَ قُلْ لِي: ... أَسَهْمُ حَرَارَةِ الإِيمَانِ عَالِي؟
سِقَامِي مِنْ مُفَارَقَةِ الخَطَايَا ... ولَيْسَ مِنَ الزُّكَامِ ولا السُّعَالِ
نُسَائِلُ مَا الدَّوَاءُ إذا مَرِضْنَا ... ودَاءُ القَلْبِ أَوْلَى بِالسُّؤالِ

- قال صفي الدين الحلي:

قالَتْ: تَسَلَّيتَ بَعْدَ فُرقَتِنا ... فَقُلتُ: عَنْ مَسْكَني وَعَنْ سَكَنِي
قالَتْ: تَشَاغَلْتَ عَنْ مَحَبَّتِنا ... قُلتُ: بِفَرْطِ البُكَاءِ والحَزَنِ
قالَتْ: تَنَاسَيْتَ قُلْتُ: عافِيَتي ... قالَت: تَنَاءَيْتَ قُلتُ: عَنْ وَطَنِي
قالَتْ: تَخَلَّيْتَ قُلتُ: عَنْ جَلَدِي ... قالَت: تَغَيَّرْتَ قُلتُ: في بَدَنِي

- وقال في هِجَاءِ مريض:

وَقالوا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ ضُعْفٌ ... فَقُلتُ نَعَمْ ولَكِنْ فِي اليَقِينِ

- قال الشاعر:

قَسَوْتَ جَوانِحًا وتَقُولُ قَلْبِي ... صَفَا قُلْنَا صَدَقْتَ مِنَ الصَّفَاءِ

- قال الشاعر في محبوبه:

سَـــــــأَلْتُ اللهَ أَنْ يُبْلَـــــــى بِعِشْـــــــقٍ فَأَصْـــــبَحَ عَاشِـــــقًا لَكِـــــنْ لِهَجْـــــرِي

- قال الشاعر في الإفْلاس بسبب الخمر:

يَقُـــــولُ أَبُـــــو سَـــــعِيدٍ إِذْ رَآنِـــــي عَفِيفًـــــا مُنْـــــذُ عَـــــامٍ مَـــــا شَـــــرِبْتُ

عَلَـــى يَـــدِ أَيِّ شَـــيْخٍ تُبْـــتَ قُـــلْ لِـــي فَقُلْـــتُ عَلَـــى يَـــدِ الإِفْـــلَاسِ تُبْـــتُ

- وقال شاعرٌ في ثقيل:

وثقيـــــلٍ مِـــــنَ الأَنَـــــامِ غَلِـــــيظ جَـــــاءَنِي زَائِـــــرًا مَـــــعَ العُـــــوَّادِ

قَـــالَ: مَـــا تَشْـــتَكِي؟ فَقُلْـــتُ لَـــهُ: قُـــرْ بَـــــكَ مِنِّـــــي فَـــــدَاوِنِي بِالبِعَـــــادِ

obeikan.com

حُسْنُ التَّعْلِيل

تعريفُهُ: حُسْنُ التَّعْلِيل هُوَ أنْ يَسْتَبْعِدَ الأدِيبُ صَرَاحَةً، أوْ ضِمْنًا عِلَّةَ الشَّيْءِ الحَقِيقِيَّةَ والمَعْرُوفَة، ويَأْتِيَ بِعِلَّةٍ أدَبِيَّةٍ طَرِيفَة تُنَاسِبُ الغَرَضَ الَّذِي يَقْصِدُ إلَيْه. أو "هُوَ أنْ يَدَّعِيَ نَاثِرٌ أو شَاعِرٌ لِوَصْفٍ مِنَ الأوْصَافِ عِلَّةً مُنَاسِبَةً غَيْرَ حَقِيقِيَّة، عَلَى جِهَةِ التَّخْيِيلِ والتَّظَرُّف."[1]

- قال مصطفى صادق الرافعي:

لا تَحْسَبِي أنْجَمَ هَذَا الدُّجَى ... أشْرَكَهَا فِي حُبِّنَا مُشْرِكُ

اللَّيْلُ مَسْرُورٌ بِمَا بَيْنَنَا ... وهَذِهِ أسْنَانُهُ تَضْحَكُ

الشاعر كما ترى يُنكر العلة الحقيقية لرؤية النجوم في الليل، تلك العلة التي يؤكدها علم النفس المعاصر من خلال قانون نفسي، يتعلق بالإدراك، حيث يؤكد هذا القانون على أن النجوم البيضاء تبدو كشكل بارز، ومتميز عن خلفيّة السماء السوداء، لكن الشاعر قد تغاضى عن تلك العلة العلمية، وادّعى عن طريق التشبيه أنّ النجوم أسنان الليل مسرورًا بهواه، جذلا بلقائه بمحبوبه، وهي علة قائمة على التخيّل، تناسب الغرض الذي يقصد إليه الشاعر.

وفي معنى قريبٍ من هذا يقول محمود غنيم يصف ليلَ زفاف الملك الفاروق:

لَمْ تَبْدُ أنْجُمُهُ لِتُرْسِلَ ضَوْءَهَا ... لَكِنْ لِتَشْهَدَهُ مِنَ الشُّهَّادِ

- ولله در الرافعي حين أنشد:

فَتَاةٌ أتَتْ مِنْ جَنَّةِ الخُلْدِ لِلْوَرَى ... وفِي ثَوْبِهَا رِيحُ المَلَائِكِ طِيبُ

أَلَيْسَ بِخَدَّيْهَا مِنَ الحُورِ قُبْلَةُ الـ ... ـوَدَاعِ ودَمْعٌ لِلْوَدَاعِ رَطِيبُ؟

أراد الشاعر تأكيد أمْرٍ وتقويته، وهو نَيْلُ المحبوبة كفايتَها من الجمال، فشبهها بالحور العين، لكنه استبعد العلة الحقيقية لتورّد الخدين، واخترع علة من تأليف خياله، فقد علل حمرة خدَّيْ محبوبته بأنها أثرٌ لقبلة فراق طويل من بنات جنسها في جنة الخلد، وعلل المسحة التي تكون على الوجنات بدموعها الرطيبة، حين فارقت الأهل والوطن!

- ومن المعاني الغريبة، والتعليلات العجيبة قول صادق الرافعي في مليحة رآها في محطة القطار:

كَيْفَ هَامَ القِطَارُ حِينَ رَآهَا ... أتُرَى حُسْنُهَا اسْتَهَامَ القِطَارَا؟

لَيْسَ فِي قَلْبِهِ سِوَى الشَّوْقِ لَكِنْ ... كَتَمَ الدَّمْعَ فَاسْتَحَالَ بُخَارَا

وإذَا صَاحَ صَيْحَةَ البَيْنِ فِينَا ... تَرَكَ العَاشِقِينَ طُرًّا حَيَارَى

سَارَ يَطْوِي جَوَانِبَ الأرْضِ طَيًّا ... ولَوِ اسْتَطَاعَ أنْ يَطِيرَ لَطَارَا

[1] الفنون البديعية ص 98.

انظر إلى الشاعر كيف يتجاهل العلل الحقيقية، ويعلل البخار الذي يتطاير من القطار البخاريّ بدموع تحت نار الشوق تغلي، حتى تبلغ درجة الغليان والتبخّر، ثم انظر إليه كيف يعلل صيحة القطار المعهودة بصيحة المحبّين المكتوين بنار الفراق.

- قال مفدي زكريا في رثاء ملك المغرب محمد الخامس:

أفِـــي السَّـــمَاوَاتِ عَـــرْشٌ أنْـــتَ تُنْشِـــدُهُ؟ فَرُحْـــتَ تَسْـــأَلُ فِـــي الفِـــرْدَوْسِ جِبْـــرِيلَا

تعليلٌ عجيب، لم يسبق إليه شاعرٌ في رثاء مَلِك: الفقيدُ قدْ أتمَّ مُلكه في الأرض، فسما إلى الملكوت الأعلى يطلب مُلكه هناك، فلذلك راح يسأل عنه جبريلَ في جنة الفردوس!

- قال محمود غنيم يصف النسيم:

فَكَـــمْ رِسَـــالَةِ حُـــبٍّ جَـــاءَ يَحْمِلُهَـــا كَـــالبَرْقِ وَهْـــوَ حَثِيـــثُ الخَطْـــوِ عَجْـــلَانُ

قَـــالُوا: عَلِيـــلٌ، فَقُلْنَـــا: هَـــلْ إلَيْـــهِ سَـــرَى مِـــنَ المُحِبِّـــينَ أَنَّـــاتٌ وأَشْـــجَانُ؟

اعتلّ النسيم حسب رواية الشاعر لأنه كان رسول المحبِّين، ألمَّ به ما ألمَّ بهم من ألَمٍ وحنين!

- وقال محمود غنيم:

قُلْـــتُ يَوْمًـــا للـــدِّيكِ سَـــاعَةَ صَـــاحَا: هَـــلْ تُغَنِّـــي لَنَـــا نَشِـــيدَ الصَّـــبَاحِ؟

قَـــالَ: لَا، بَـــلْ نَعَيْـــتُ يَوْمًـــا رَاحَـــا ومَحَـــاهُ مِـــنْ صَـــفْحَةِ العُمْـــرِ مَـــاحِ

فالشاعر استبعد العلة الحقيقية لصيحة الديك، وعللها بكونها بكاءً على قسمٍ من العُمر قضى، ويومٍ من الحياة مضى.

- قال معروف الرصافي في قصيدة "اليتيم يوم العيد" يصف بداية شروق الشمس في ذلك اليوم:

ولَمَّـــا بَـــدَتْ حَمْـــرَاءُ أَيْقَنْـــتُ أَنَّهَـــا بِهَـــا خَجَـــلٌ مِمَّـــا تَـــرَاهُ وتَسْـــمَعُ

معروفٌ أن الشمس في بداية إشراقها تتخذ من الأحمر لونا طبيعيا لها، لكن الرصافي يعلل تلك الحمرة بخجل الشمس من الأيتام يوم العيد، فهي مترددة في الإشراق، لا تريد أن تُطْلِعَ العيدَ حياءً من بؤس الأيتام، ووجع الأرامل. تعليلٌ يعبر عن وجدان صادق، لم يتقيد بالمنطق أو الحقيقة الموضوعية، وإنما صدقُ التعبير عن نفسية الشاعر هو العامل الأكبر في جمال هذا التعليل.

- وقال الرصافي في قصيدة (غريق دجلة):

يَـــا مَـــنْ قَضَـــى بَـــيْنَ المِيَـــاهِ غَرِيقًـــا أَذْكَـــى فِرَاقُـــكَ فِـــي القُلُـــوبِ حَرِيقَـــا

قَـــدْ كُنْـــتَ فِينَـــا دُرَّةً فَلِأَجْـــلِ ذَا تَخِـــذَ الحِمَـــامُ لَـــكَ المِيَـــاهَ طَرِيقَـــا

فالشاعر لم يعلل الغرق تعليلا حقيقيا، بل اخترع علة بديعة نسجتها أناملُ خياله: الغريق قصد مكانَه الطبيعي لأنّه درّةٌ ثمينة، والبحرُ أوْلى بالدُّرر من الثرى.

- قال حافظ إبراهيم في مليحة رأى خالا على غرّتها:

سَـــأَلْتُهُ: مَـــا لِهَـــذَا الخَـــالِ مُنْفَـــرِدًا واخْتَـــارَ غُرّتَـــكَ الغَـــرَّا لَـــهُ سَـــكَنَا
أجَـــابَنِي خَـــافَ مِـــنْ سَـــهْمِ الجُفُـــونِ ومِـــنْ نَـــارِ الخُـــدُودِ لِهَـــذَا هَـــاجَرَ الوَطَنَـــا

فموقع الخال في غُرَّة المحبوبة حسْب رواية خيال الشاعر ليس إلّا جُبنا، وخوفا، وهروبا من وقع السهام وحرارة النيران التي تطلقها جيوش الجمال التي تحتشد في معسكر وجه الحسناء، وتلك العلة التخيلية التي ابتكرها حافظ إبراهيم، يريد من خلالها تأكيد صفة الجمال الذي يطغى على وجه المحبوب.

- وقال حافظ إبراهيم مادحا:

عُنِيـــتَ بِحَالَـــةِ الفَـــلّاحِ حَتَّـــى تَهَيَّـــبَ أَنْ يَـــزُورَ الأَرْضَ مَحْـــلُ
وكَيْـــفَ يَـــزُورُ أَرْضًـــا سِـــرْتَ فِيهَـــا وأَنْـــتَ الغَيْـــثُ لَـــمْ يُمْسِـــكْهُ بُخْـــلُ

لعلك لاحظت أن الشاعر قد أنكر ولو ضمنيا الأسباب الطبيعية لقلة المطر بأرض مصر، والتمس سببا آخر، وهو أن الغيث يخجل أن ينزل بأرض وقع فيها جودُ الممدوح وبذله، فالمطر لا يستطيع أن يجاري الممدوح في السخاء والكرم!

- قال إيليا أبو ماضي في وصف الغواصات، والبوارج الحربيّة السوداء:

وأَظُنَّهَـــا فَقَـــدَتْ حَبِيبًـــا أوْ أَخًـــا ولِـــذَلِكَ ارْتَـــدَتِ السَّـــوَادَ شِـــعَارَا
تَغْشَـــى المِيَـــاهَ لَعَـــلَّ مَـــا فِـــي قَلْبِهَـــا يُطْفَـــى، فَتَـــزْدَادُ الضُّـــلُوعُ أَوَارَا

فالشاعر قد علل اللون الأسود للغواصات، لا على أنه لون طبيعيّ، بل لأنها مفجوعة في حداد، ترتدي لباس السواد، أسفا على فَقْدِ الأخ، أو الحبيب، ثم علل مكانها الطبيعي في البحر تعليلا لطيفا: فهي تقصد البحار، لتخمد ما بقلبها من نار.

- وقال في رثاء مصطفى كامل:

وكَـــانَ جَـــوَادًا لا يَضِـــنُّ بِحَاجَـــةٍ لِـــذَلِكَ أَعْطَـــى رُوحَـــهُ لِلْمَنِيَّـــةِ

تجاهل الشاعر العلة الحقيقية للموت، وعلل ذلك بأن مصطفى كامل كاملُ الأوصاف والفضائل، فهو كامل في صفة الجود، كامل في فضيلة الحياء، فما هي إلّا أنْ زارته المنية تطلب حاجتها، حتى استحيى أن يردها خائبة محرومة، فوهبها روحه!

- قال الأخطل الصغير (بشارة الخوري):

قَتَـــلَ الـــوَرْدُ نَفْسَـــهُ حَسَـــدًا مِنْـــكِ وأَلْقَـــى دِمَـــاهُ فِـــي وَجْنَتَيْـــكِ

فالشاعر قد جحد العلة الحقيقية والمعروفة لتورّد الخد، والتمس لذلك سببا آخر، وهو أن الورد غار من خد المحبوب، فاغتال نفسه، وطرح دماءه على وجنتي محبوبه.

- ومن أمثلة حسن التعليل في النثر قول جبران: "أَتَى الخَرِيف، واصْفَرَّتْ أَوْرَاقُ الأَشْجَار، ونَثَرَهَا الهَوَاءُ كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُكَفِّنَ بِهَا أَزْهَارًا قَضَتْ لَوْعَةً عِنْدَمَا وَدَّعَهَا الصَّيْف." لاحظ كيف تغاضى جبران عن العلة

الطبيعية لاصفرار أوراق الخريف وتساقطها، وعلّل الظاهرةَ تعليلا رومانسيا لطيفا، وذلك بتشبيه تلك الأوراقِ بالكفن الذي أعدّته الطبيعةُ لجثامين الأزهار التي قَضَتْ نَحْبَهَا صبابةً وأسًى على فراق حبيبها فصلِ الصيف!

بلاغة حسن التعليل:

في حسن التعليل خيالٌ لافت، وذكاءٌ خارق، ومخالفةٌ للمألوف، يجنح له الفن، وينفرد به الفنان الأصيل، الذي يسعى للانفراد والتميّز، فهو حلبة للابتكار والابتداع، وميدان للإنشاء والاختراع، "فهو نوع من التفنن في طرق التعبير – وبخاصة الشعري– يساق بطريقة فنية، فيها الحذق والمهارة في استخدام اللغة الشعرية حتى يُعطَى شبها من الحق، ورونقا من الصدق، ليكسبه نوعا من الاستطراف والملاحة، وليمثل لك ما ليس بواقع كأنه واقع، كما تكمن وظيفتُه في إيقاظ خيال القارئ، وإثارة وجدان السامع، وإذكاء عاطفته، وإدخال السرور عليه، وغير ذلك من الوظائف النفسية، "[1].

ويؤكد الجرجاني على سحر هذا الفن البديعي، ويرى أن هذا السحر يتكثّف حين يأتي حسن التعليل في قالب التشبيه، ذلك "أن الشعر – حسبه – لا يتقيد بمنطق العقل، أو قوانين المادة، فربما جاء التعليل الشعري موافقا للحقيقة، وربما جاء مخالفا لها، ولا غضاضة في ذلك، فالشعر يكفي فيه التخييل، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل."[2] لذلك فحسن التعليل عند الجرجاني "يشهد للشعر بما يُطيل لسانَه من الفخر، ويُبِينُ جملةَ ما للبيان من القُدرة والقَدْر"[3].

تدريب: حدِّد حسن التعليل، واشرحه فيما يأتي:

- قال جبران خليل جبران: "عِنْدَ الفَجْر، قُبَيْلَ بُزُوغِ الشَّمْسِ مِنْ وَرَاءِ الشَّفَق، جَلَسْتُ فِي وَسَطِ الحَقْلِ أُنَاجِي الطَّبِيعَة، وبَيْنَمَا كُنَّا عَلَى هَذِهِ الحَالَة، مَرَّ النَّسِيمُ بَيْنَ الأغْصَان، مُتَنَهِّدًا تَنَهُّدَ يَتِيمٍ يَائِس، فَسَأَلْتُهُ مُسْتَفْهِمًا: لِمَاذَا تَتَنَهَّدُ أيُّهَا النَّسِيمُ العَلِيل؟ فَأجَابَ: لِأَنَّنِي أَذْهَبُ نَحْوَ المَدِينَةِ مَدْحُورًا مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْس، إلَى حَيْثُ تَتَعَلَّقُ بِأذْيَالِي النَّقِيَّةِ مِكْرُوبَاتُ الأمْرَاض، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَرَانِي حَزِينًا. ثُمَّ الْتَفَتُّ نَحْوَ الأزْهَار، فَرَأيْتُهَا تَذْرِفُ مِنْ عُيُونِهَا قَطَرَاتِ النَّدَى دَمْعًا، فَسَأَلْتُ: لِمَاذَا البُكَاءُ أيَّتُهَا الأزْهَارُ الجَمِيلَة؟ فَرَفَعَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ رَأسَهَا اللَّطِيفَ وقَالَتْ: نَبْكِي لِأَنَّ الإنْسَانَ يَأتِي، ويَقْطَعُ أعْنَاقَنَا، ويَذْهَبُ بِنَا نَحْوَ المَدِينَة، ويَبِيعُنَا كَالعَبِيد، ونَحْنُ حَرَائِر، وإذَا مَا جَاءَ المَسَاءُ وذَبُلْنَا، رَمَى بِنَا إلَى الأقْذَار، كَيْفَ لا نَبْكِي ويَدُ الإنْسَانِ القَاسِيَةُ سَوْفَ تَفْصِلُنَا عَنْ وَطَنِنَا الحَقْل. وبَعْدَ هُنَيْهَةٍ سَمِعْتُ الجَدْوَلَ يَنُوحُ كَالثَّكْلى، فَسَأَلْتُهُ: لِمَاذَا تَنُوحُ أيُّهَا الجَدْوَلُ العَذْب؟ فَأجَاب: لِأَنَّنِي سَائِرٌ كُرْهًا إلَى المَدِينَة، حَيْثُ يَحْتَقِرُنِي الإنْسَان، ويَسْتَخْدِمُنِي لِحَمْلِ أدْرَانِه، كَيْفَ لَا أنُوحُ وعَنْ قَرِيبٍ تُصْبِحُ نَقَاوَتِي وِزْرًا، وطَهَارَتِي قَذرًا؟ ثُمَّ أَصْغَيْت، فَسَمِعْتُ الطُّيُورَ تُغَنِّي نَشِيدًا مُحْزِنًا، يُحَاكِي النَّدْبَ فَسَأَلْتُهَا: لِمَاذَا تَنْدُبِينَ أيَّتُهَا الطُّيُورُ الجَمِيلَة؟ فَاقْتَرَبَ مِنِّي عُصْفُور، وَوَقَفَ عَلَى طَرَفِ الغُصْنِ وقَال: سَوْفَ يَأتِي ابْنُ آدَمَ حَامِلًا آلَةً

[1] من جماليات المعنى: حسن التعليل الدكتور عيد محمد شبايك ص 114.
[2] المرجع نفسه ص 121 122.
[3] المفصل في علوم البلاغة العربية ص 598.

جَهَنَّمِيَّةً تَفْتِكُ بِنَا فَتْكَ المِنْجَلِ بِالزَّرْع، فَنَحْنُ يُوَدِّعُ بَعْضُنَا بَعْضَا، لِأَنَّنَا لَا نَدْرِي مَنْ مِنَّا يَتَمَلَّصُ مِنَ القَدَرِ المَحْتُوم، كَيْفَ لَا نَبْكِي والمَوْتُ يَتْبَعُنَا أيْنَمَا سِرْنَا؟ بَعْدَ قَلِيلٍ طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ وَرَاءِ الجَبَل، وتُوِّجَتْ رُؤُوسُ الأشْجَارِ بِأكَالِيلَ ذَهَبِيَّة، وأنَا أَسْأَلُ ذَاتِي: لِمَاذَا يَهْدِمُ الإنْسَانُ مَا تَبْنِيهِ الطَّبِيعَة؟".

- قال محمود غنيم معللا مرضا ألمّ بساقه، وقصّر خطواته:

وإنْ تَقْصُرْ خُطَايَ فَرُبَّ خَطْوٍ ... قَصِيرٍ نَمَّ عَنْ خُلُقٍ كَرِيمِ
أَمَا يَمْشِي عِبَادُ اللهِ هَوْنًا ... كَمَا فِي آيَةِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ؟
أَمَا تَعْدُو الأرَانِبُ، والهُوَيْنَا ... تُمَثِّلُ مِشْيَةَ الأَسَدِ الشَّتِيمِ؟

- وقال راثيا:

قَالُوا: اسْتَحَالَ رَمَادًا، قُلْتُ: لَا عَجَبٌ ... أَلَمْ يَكُنْ ذِهْنُهُ كَالجَمْرِ مُتَّقِدَا؟

- وقال محمود غنيم يصف يوما ماطرا:

وسَأَلْتُ الغَمَامَ: هَلْ بِكَ خَطْبٌ ... مِثْلُ خَطْبِي حَتَّى بَكَيْتَ بُكَائِي؟
قَالَ: لَا، بَلْ دَنَّسْتُمُ الأَرْضَ بِالإثْـ ... ـمِ، فَطَهَّرْتُ وَجْهَهَا بِالمَاءِ

- ولمحمود غنيم في وصف جمال طرابلس الليبية:

مَا لَاطَمَ البَحْرُ شَطّا مِنْ شَوَاطِئِهَا ... لَكِنَّهُ أَوْسَعَ الشَّطْآنَ بِالقُبَلِ
نَهَارُهَا مِنْ وُجُوهِ الغِيدِ مُنْتَزَعٌ ... واللَّيْلُ مَا بِعُيُونِ الغِيدِ مِنْ كَحَلِ

- قال أمين نخلة في رثاء الشاعر شبلي الملاط:

إنْ تَرَى الرَّجْفَ حِينًا فِي أَنَامِلِهِ ... فَذَاكَ مِنْ طُولِ مَسِّ الوَحْيِ لِلْقَلَمِ

- قال نزار قباني:

إنِّي الدِّمَشْقِيُّ الَّذِي احْتَرَفَ الهَوَى ... فَاخْضَوْضَرَتْ بِغِنَائِهِ الأعْشَابُ
الفُلُّ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ بَيَاضُهُ ... وبِعِطْرِهَا تَتَطَيَّبُ الأَطْيَابُ

- قال بشارة الخوري:

سَكَتْنَا فَمَا غَرَّدَ العَنْدَلِيبُ ... وتُبْنَا فَمَا صَفَّقَ الجَدْوَلُ

- قال خليل مطران في الشيب:

مَا ذَاكَ فِي الرَّأسِ بِشَيْبٍ يُرَى ... ذَاكَ ابْتِسَامٌ مِنْ مُضِيءِ الحِجَى
كَمْ فِي جِهَاتِ القُطْبِ مِنْ مَوْضِعٍ ... يُرَى بِهِ الفَجْرُ أَوَانَ الدُّجَى

- وقال خليل مطران في حسناء لسعتْها نحلة:

أفْتَدِي مَنْ لَسَعَتْهَا ... نَحْلَةٌ تَطْلُبُ وِرْدَا
ظَنَّتِ الوَجْنَةَ وَرْدًا ... فَأَتَتْ تَرْشُفُ شَهْدَا

- وقال مطران في امرأة تتقلد خاتمًا فصُّهُ ياقوتةٌ حمراءُ:

حَـــــذَارِ لِقَلْبِـــــكَ مِـــــنْ لَحْظِهَـــــا فَمَـــا فِيـــهِ مِـــنْ رَحْمَـــةٍ لِلْمُحِـــبِّ
أَلَـــمْ تَـــرَ فِـــي يَـــدِهَا خَاتَمًـــا بِـــهِ قَطْـــرَةُ الـــدَّمِ فِـــي شَـــكْلِ قَلْـــبِ؟

- قال علي الجارم في الرثاء:

فَزِعَـــتْ لَـــكَ الأَقْـــلَامُ فَـــوْقَ طُرُوسِـــهَا ومِـــنَ المِـــدَادِ لَبِسْـــنَ ثَـــوْبَ حِـــدَادِ

- وقال الجارم في الغزل:

فَـــإِذا وَصَـــلْتِ فَكُـــلُّ شَـــيْءٍ بَاسِـــمٌ وإِذَا هَجَـــرْتِ فَكُـــلُّ شَـــيْءٍ بَـــاكِ
هَـــذَا دَمِـــي فِـــي وَجْنَتَيْـــكِ عَرَفْتُـــهُ لا تَسْـــتَطِيعُ جُحُـــودَهُ عَيْنَـــاكِ

- قال محمود سامي البارودي:

أَتُـــرَى الحَمَـــامَ يَنُـــوحُ بِطَـــرَبٍ مَعِـــي ونَـــدَى الغَمَـــامَـــةِ يَسْتَهِـــلُّ لِمَدْمَعِـــي؟
مَـــا لِلنَّسِـــيمِ بَلِيلَـــةً أَذْيَالُـــهُ؟ أَتُـــرَاهُ مَـــرَّ عَلَـــى جَـــدَاوِلِ أَدْمُعِـــي؟
بَـــلْ مَـــا لِهَـــذَا البَـــرْقِ مُلْتَهِـــبَ الحَشَـــا؟ أَسَـــمَتْ إِلَيْـــهِ شَـــرَارَةٌ مِـــنْ أَضْـــلُعِي؟

- وقال أيضا:

ومَـــا زَادَ مَـــاءُ النِّيـــلِ إِلَّا لِأَنَّنِـــي وَقَفْـــتُ بِـــهِ أَبْكِـــي فِـــرَاقَ الحَبَـــائِبِ

- وقال سامي:

ولَيْلَـــةٍ سَـــالَ فـــي أَعْقَابِهَـــا شَـــفَقٌ كَأَنَّهَـــا بِحُسَـــامِ الفَجْـــرِ قَـــدْ ذُبِحَـــتْ

- قال بشارة الخوري (الأخطل الصغير):

مَـــا تَغَنَّـــى الهَـــزَارُ إِلَّا لِيَلْقَـــى زَفَـــرَاتِ الغَـــرَامِ فِـــي أُذُنَيْـــكِ

- قال معروف الرصافي في رثاء أستاذه محمود شكري الألوسي:

أَمَّـــا العِـــرَاقُ فَأَمْسَـــى الرَّافِـــدَانِ بِـــهِ سَـــطْرَيْنِ للـــدَّمْعِ مِـــنْ خَدَّيْـــهِ قَـــدْ سَـــالَا[1]

- وقال الرصافي في قصيدة "أمُّ اليتيم":

فَمَـــا خَفَقَـــانُ الـــنَّجْمِ إِلَّا لأَجْلِهَـــا ومَـــا الشَّـــهْبُ إِلَّا أَدْمُـــعُ الـــنَّجْمِ تَرْتَمِـــي

- قال ناصيف اليازجي مادحًا:

كَـــادَتْ مَنَازِلُنَـــا تَلْقَـــاهُ رَاقِصَـــةً لَكِنَّهَـــا حَفِظَـــتْ قُدَّامَـــهُ الأَدَبَـــا

[1] الرافدان: دجلة والفرات.

تَجَاهُلُ العَارِف

تَعْرِيفُه: هُوَ سُؤَالُ البَلِيغِ عَمَّا يَعْلَمُهُ حَقِيقَةً، تَجَاهُلًا مِنْه، لِغَرَضٍ بَلاغِيّ، كَالمُبَالَغَةِ فِي الرِّثاء، أو المُبَالَغَةِ فِي المَدْح، أو المُبَالَغَةِ فِي الذَّمّ، أو المُبَالَغَةِ فِي الفَخر، أو المُبَالَغَةِ فِي الوَصْف، أو المُبَالَغَةِ فِي التَّحْقِير، أو التّدَلُّهِ فِي الحُبّ. وبعبارة أُخرى: "هُوَ أنْ يَسْأَلَ المُتَكَلِّمُ عَنْ أمْرٍ يَعْرِفُهُ حَقِيقَة، مُتَظَاهِرًا بِالجَهْل، لِغَايَةٍ فِي نَفْسِه. وقَدْ سَمَّاهُ السِّكَاكِيُّ سَوْقَ المَعْلُومِ مَسَاقَ المَجْهُول."[1] ولعلّ هذا ما حَدَّثَ به الشاعر حين قال:

بَعَثْـــتَ بِشِـــعْرٍ أمْ بِعِقْـــدٍ مِـــنَ الـــدُّرِّ؟ فَهَـــا أَنَـــا لا أدْرِي وإنْ كُنْـــتُ قَـــدْ أدْرِي

- قال محمد العيد آل خليفة عن حقوق الشعب الجزائري التي هضمها الفرنسيون:

مَـــا لِلْحُقُـــوقِ إلَيْنَـــا غَيْـــرُ وَاصِـــلَةٍ؟ وقَـــدْ سَـــمِعْنَا بِهَـــا مُنْـــذُ أزْمَـــانِ

هَـــلْ عَاقَهَـــا البَحْـــرُ عَنَّـــا فَهِـــيَ عَـــاجِزَةٌ عَـــنْ قَطْـــعِ مَـــا فِيـــهِ مِـــنْ لُـــجٍّ وشُـــطّآنِ؟

أمْ رَاقَهَـــا البَحْـــرُ حُسْـــنًا فَهِـــيَ سَـــابِحَةٌ تَلْهُـــو بِمَـــا فِيـــهِ مِـــنْ دُرٍّ ومُرْجَـــانِ؟

أمِ الْتَحَقَـــتْ بِبَنَـــاتِ البَحْـــرِ فاحْتَجَبَـــتْ عَـــنْ كُـــلِّ قَـــاصٍ مِـــنَ الـــرَّائِينَ أوْ دَانِ؟

فالشاعر يتساءل: لماذا يرفض الفرنسيون الاعتراف بحقوق الشعب الجزائري التي اغتصبوها، ويطلقون الوعود الفضفاضة من وراء البحار؟ لم يجد الشاعر أي عذر يقبله العقل أو المنطق، فلجأ إلى الخيال، واستمدّ منه صورة ساخرة، ولاذعة، فقال متسائلا مستهزئا: ربما تلك الحقوق قد عاقها البحر، وأخّرها عن موعدها؟ أو ربما راقها حسنه، فأُعجبت بجماله، وقررت الإقامة معه، وأصبحت واحدةً من بناته؟ إن كلّ تلك الاستفهامات ليست حقيقية، بل إن وراء تلك التساؤلات يقينا بأنّ الفرنسيين يرفضون الاعتراف بتلك الحقوق، وهم فقط يماطلون، ويراوغون، وتلك أخلاقهم.

- وقال محمد العيد في الذكرى الأولى لوفاة الإمام محمد البشير الإبراهيمي:

هَـلْ كُنْـتَ عِيسَـى الّـذِي أَحْيَـا الرُّفَـاةَ بِمَـا أَحْيَـــا وبَـــدَّلَ آجَـــالًا بِآجَـــالِ؟

أَمِ البَشِـــيرَ الـــذي أَلْقَـــى القَمِـــيصَ عَلَـــى يَعْقُـــوبَ طِبًّـــا بِنُـــورٍ لِلأَسَـــى جَـــالِي؟

أمِ البَشِـــيرَ الـــذي أَلْقَـــى العِظَـــاتِ عَلَـــى شَـــعْبِ الجَزَائِـــرِ مَرْمُوقًـــا بِـــإِجْلَالِ؟

الشاعر يعلم أن المخاطَب هو البشير الإبراهيمي، بيد أنه تجاهل ذلك، وادّعى أن الأمر قد التبس عليه، فلم يدر أهو عيسى بن مريم الذي أحيى الموتى؟ أم البشير الذي بشّر يعقوب عليه السلام بخبر ابنه يوسف، وألقى عليه قميصه، ليرتدَّ بصيرا؟ أم هو البشير الإبراهيمي الذي أدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل تحرير الجزائر؟ كل تلك الأسئلة، وذلك التجاهل من أجل المبالغة في الرثاء، والمغالاة في تعظيم الرجل، وتقديس دوره في إخراج الأمة الجزائرية من ظلمات الجهل، إلى نور العلم.

- قال بشارة الخوري في رثاء سعْد زغلول:

[1] المفصل في علوم البلاغة العربية ص 608.

قَـــالُوا دَهَـــتْ مِصْـــرَ دَهْيَـــاءٌ فَقُلْـــتُ لَهُـــمْ هَـــلْ غُـــيِّضَ النِّيـــلُ أمْ هَـــلْ زُلْـــزِلَ الهَـــرَمُ؟

قَـــالُوا أَشَـــدُّ وأَدْهَـــى، قُلْـــتُ: وَيْحَكُـــم إذًا لَقَـــدْ مَـــاتَ سَـــعْدُ وانْطَـــوَى العَلَـــمُ

فالشَّاعرُ يسأَل القَومَ - وهو منهمْ أعلم - عن الدَّاهية التي أَلَمَّتْ بِمصر، لكنَّه ليس سؤالَ مَنْ ينتظرُ الإجابة، فاستفهامُ الشَّاعر ليس حقيقيا، إنّه عَارِفٌ منذ البداية أنّ النّيل لو نَضَب، والهَرَمَ لو زُلْزِل، ليس ذلك بأشدَّ هَوْلا، ولا أعظم خَطْبًا، من أنْ يُدَكَّ طَوْد شامخ يسمى سَعْد زغلول، فواضحٌ إذن أنّ الشّاعر كان عَارِفًا، لكنّه تَجَاهَلَ مَعْرِفَتَهُ تلك، واختلق قصَّةَ السُّؤال، ليصيب هدفه، وهو المبالغة في الرّثاء.

- وقال بمناسبة مُرُور أَلْف سنة على وفاة المتنبِّي:

يَـــا مُلْـــبِسَ الحِكْمَـــةِ الغَـــرَّاءِ رَوْعَتَهَـــا حَتَّـــى هَتَفْنَـــا: أَوَحْيًـــا قُلْـــتَ أمْ أَدَبَـــا؟

على خُطَا القَصيدة الأُولى يأْتي الشَّاعر هذه المرّة، ويسأَلُنا: هلْ قال "نَبِيٌّ" القافية، و"رَبٌّ" الحكمة الوَحْي، أم قال الأَدب؟ فلو نظرنا إلى نُبُوَّتِهِ الشِّعْرِيَّة لقلنا: وَحْيًا، ولو نظرنا إلى أَدبه الحكيمِ لَقُلْنَا: أَدَبًا، ولكنَّ المُتَنَبِّي في الحقيقة ليس إلَّا لقبا أطلقه عليه حُسَّاده، يتَّهمونه فيه بادِّعَاءِ النُّبُوَّة، لكنَّهم صَدَقُوا حين نَهَقُوا، ومَدَحُوا حِينَ قَدَحُوا، وهل النُّبُوَّةُ إلّا ثورةٌ ضدّ التّقليد، وإيمانٌ بالتَّجديد؟ وهذا شاعرنا يسأل: هل كان ما يخرج من فم أبي الطيب وحيا، أم كان مجرّدَ أدب؟ ليس لدينا أدنى شكّ في أنّ الشَّاعر يعلم، لكنَّه لكي يصل إلى مُرَادِه، وهو المبالغةُ في التعظيم، تَجَاهَلَ تلك المعرفةَ اليقينيّة، وسَاقَ المَعْلُومَ مَسَاقَ المَجْهُول، لغرض بلاغيّ.

- وتجاهل العارف يكون في النثر أيضا، ومثاله قول ميخائيل نعيمة واصفا حال الإنسانية اليوم:

"مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ فِيه؟ أَهُوَ عِتَابُ الأصْحَابِ بَعْدَ طُولِ الغِيَاب؟ أمْ هِيَ الفَوْضَى تَغْلِي مَرَاجِلُهَا وتَفُور؟ أمْ أَنَّ رُبَّانَ سَفِينَةِ البَشَرِيَّةِ قَضَى وكَفُّهُ عَلَى الدَّفَّة، فَتَاهَتِ السَّفِينَةُ بَيْنَ الرِّيحِ والمَوْج، ودَبَّ الذُّعْرُ بَيْنَ الرُّكَّاب، فَكَانَتِ البَلْبَلَة، وكَانَتِ الجَلَبَة، وكَانَتِ الضَّوْضَاءُ الَّتِي تَسْمَعُون؟"

- ومنه في النثر قول الأديب محمد المويلحي في وصف روضة: "ولَمَّا رَآى رَفِيقِي مَسَالِكَ الرَّوْضِ مُنَضَّدَة، وطُرُقَهُ مُرَصَّعَةً مُزَرَّدَة، حَسِبَهَا أَرْضًا مَفْرُوشَة، بِبُسُطٍ مَنْقُوشَة، وأَشْكَلَ الأَمْرُ عَلَيْه، فَهَمَّ بِخَلْعِ نَعْلَيْه."

- قال أحمد شوقي في رثاء رياض باشا:

سَـــأَلْتُكَ: مَـــا المَنِيَّـــةُ؟ أيُّ كَـــأسٍ؟ وكَيْـــفَ مَـــذَاقُهَا؟ ومَـــنِ السُّـــقَاةُ؟

هل يمكن أن تتخيل فعلا أن شوقي لا يعرف لتلك الأسئلة إجابات؟ إنه يعرف أكثر من كل الناس إجابات الأسئلة الأربعة، لكنه تظاهر بالجهل، موحيا أنه تحت وقع الصدمة، لذلك هو لا يعلم شيئا عنها، ولذلك ساق هذه الأسئلة، وأنشد هذا البيت عازفًا على وتر المبالغة في الرثاء.

- ومن تجاهل العارف بغرض المبالغة في الوصف قول أحمد شوقي في وصف الطائرة:

أعُقَـــابٌ فِـــي عَنَـــانِ الجَـــوِّ لاحْ؟ أمْ سَـــحَابٌ فَـــرَّ مِـــنْ هَـــوْجِ الرِّيَـــاحْ؟

يتظاهر شوقي بأنه قد التبس عليه الأمر، فلم يعرف حقيقة هذا الشيء، وكأنّ الطائرة قد سحرت عينيه، فبات حائرا: أهي عقاب، أم سحاب؟ وذلك لإفادة أن الطائرة في عصره قد بلغت من العظمة مبلغا يحصل معه هذا الالتباس.

- قال شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا:

نُـــــوفَمْبَرُ جَـــــلَّ جَلَالُـــــكَ فِينَـــــا أَلَسْـــــتَ الـــــذي بَـــــثَّ فِينَـــــا اليَقِينَـــــا؟

إن مفدي زكريا يعلم أن نوفمبر هو الذي زرع الوعي في نفوس الشعب الجزائري، لكنه تظاهر أنه لا يعلم، فهو متيقن أن نوفمبر مصدر يقين الشعب بالتحرر، والاستقلال، لكن الشاعر تجاهل ذلك، وساق اليقين مساق الشك عن طريق الاستفهام، بغرض المبالغة في تعظيم هذا الشهر.

- وقال شاعر المهجر نصر سمعان في وصف جمال الطبيعة في بلاده لبنان:

ولِلْغُصُـــــونِ حَفِيـــــفٌ حَـــــارَ سَـــــامِعُهُ أَخَفْـــــقُ أَوْرَاقِهَـــــا أَمْ هَمْـــــسُ عُشَّـــــاقِ؟

فالشاعر يسأل عمّا يعلمه حقيقة، فهو يدري أن حفيف تلك الغصون من خفق أوراق الأشجار، لكنه تجاهل ذلك، وتظاهر بأنه لا يدري، من أجل المبالغة في الوصف.

ومن تجاهل العارف الذي غرضه الفخر قول حافظ إبراهيم:

مَطـــــالِعُ سَـــــعْدٍ أَمْ مَطَـــــالِعُ أَقْمَـــــارِ تَجَلّـــــتْ بِهَـــــذَا العِيـــــدِ أَمْ تِلْـــــكَ أَشْـــــعَارِي؟

فالشاعر يتظاهر بالجهل، لذلك نحن أيضا سنسألك: هل تساؤلك يا حافظ هو عن حقيقة تجهلها، فتريد لها معرفة، أم عن حقيقة متجاهَلة، تقصد من ورائها المبالغة في فخرك بما تُطلعه من أقمار، وما تنشده من أشعار؟

ومن تجاهل العارف الذي غرضه التدله في الحب قول الشاعر:

حبَّـــــذَا مِنْـــــهُ مُقْلَـــــةٌ لَسْـــــتُ أَدْرِي أَبِهَـــــــــدْبٍ تَصُـــــــــولُ أَمْ بِنِبَـــــــــالِ؟

فشاعرنا قد خبله الحب، وسحرتْ عيونَه المُقَل، فأعمتْ بَصَرَه وبَصِيرَتَه، وبات عاجزًا عن تمييز الأهداب من النبال!

بلاغة تجاهل العارف:

في تجاهل العارف يسوق الأديبُ المعلومَ مساقَ غيره، ليصيب هدفه، وهو المبالغة في مدح، أو وصف، أو سوى ذلك، فالأديبُ بذلك يُظهر أنه تحرّى الدقة، واستقصى الحقيقة عن طريق الشك. لذلك عرّف أبو هلال العسكري هذا الفن بقوله: "هُوَ إِخْرَاجُ مَا يُعْرَفُ صِحَّتُهُ مَخْرَجَ مَا يُشَكُّ فِيه، لِيَزِيدَ بِذَلِكَ تَأْكِيدًا".[1] ضف إلى ذلك أن تجاهل العارف حين يحقق المبالغة في المعاني، فهو يصوّرها بصورة أفخم، وبمظهر أبهى.

تدريب: دُلَّ على تَجَاهُل العَارِف، واشرحه:

[1] الصناعتين ص 412.

- قال ميخائيل نعيمة مخاطبا النهر المتجمد:

يَا نَهْرُ: هَلْ نَضَبَتْ مِيَاهُكَ فَانْقَطَعْتَ عَنِ الخَرِيرْ؟

أَمْ قَدْ هَرِمْتَ وخَارَ عَزْمُكَ فَانْثَنَيْتَ عَنِ المَسِيرْ؟

- قال محمود غنيم في شأن صديقه محمد مصطفى الماحي، وكان يسكن في شارع يسمّى (شارع البحتري):

الشَّـــاعِرُ المَـــاحِي الرَّقِيـــقُ العَبْقَـــرِي ... فِـــي شَـــارِعٍ سَـــمَّوْهُ بِاسْـــمِ البُحْتُـــرِي

فَسَـــأَلْتُ: أَيُّ الشَّـــاعِرَيْنِ مُـــرَادُهُمْ ... قَـــدْ جِـــرْتُ فِـــي هَـــذَا، وزَادَ تَحَيُّـــرِي

فَرَسَـــا رِهَـــانٍ، لَـــيْسَ بَـــيْنَ كِلَيْهِمَـــا ... مِـــنْ فَـــارِقٍ غَيْـــرُ اخْـــتِلَافِ الأَعْصُـــرِ

- وقال في المجاهدة الجزائرية (جميلة بوحيرد):

أَنَـــا لَسْـــتُ أَدْرِي: مِـــنْ زَئِيـــ ... ـــرٍ كَـــانَ صَـــوْتُكِ أَمْ مِـــنْ صُـــدَاحْ؟

- وقال محمود غنيم:

فِـــي أَيِّ جَنَّـــةِ خُلْـــدٍ أَنْـــتِ نَاشِـــئَةٌ ... وكَيْـــفَ أَفْلَـــتَ هَـــذَا الوَجْـــهَ رِضْـــوَانُ؟!

- قال مفدي زكريا متغنّيا بجمال مدينة (تلمسان) الجزائرية:

أفِـــي رَفْـــرَفِ الخُلْـــدِ قَـــدْ وَجَـــدُوا ... تِلِمْسَـــانَ، فَاخْتَطَفُوهَـــا اخْتِطَافَـــا؟

- وقال مفدي زكريا في الاستعمار:

أَجَهَـــنَّمُ هَـــذِي الَّتِـــي أَفْوَاهُهَـــا ... مِـــنْ كُـــلِّ فَـــجٍّ، نِقْمَـــةٌ تَتَفَجَّـــرُ؟

أَمْ أَرْضُ رَبِّـــكَ زُلْزِلَـــتْ زِلْزَالَهَـــا ... لَمَّـــا طَغَـــى فِـــي أَرْضِـــهِ المُسْـــتَعْمِرُ؟

- قال الشاعر السوري زهير فرعون في وصف (مركبة الفضاء):

أيُّ صَـــوْتٍ مُجَلْجَـــلِ الأَصْـــدَاءِ؟ ... أيُّ ذُعْـــرٍ يَمُـــوجُ فِـــي الأَنْحَـــاءِ؟

أتُـــرَاهُ النَّـــذِيرُ يَـــنْفُخُ فِـــي الصُّـــورِ ... بِصَـــوْتٍ يَـــرِنُّ فِـــي الأَجْـــوَاءِ؟

أتُـــرَى مَـــارِدٌ مِـــنَ الجِـــنِّ يَسْعَـــى ... بَيْـــنَ رَحْـــبِ الفَضَـــاءِ والغَبْـــرَاءِ؟

- قال بشارة الخوري في الغزل:

طَالَعْـــتُ وَجْهَـــكِ والصَّـــبَاحَ فَلَـــمْ أَكَـــدْ ... أَتَبَـــيَّنُ الصُّـــبْحَ المُنَـــوَّرَ مِنْهُمَـــا

- قال محمد العيد آل خليفة بعد دعوته لحفلة تكريمية:

فَيَـــا أَسَـــفًا يُـــدْعَى الحَمَـــامُ عَشِـــيَّةً ... لِيَسْـــجَعَ لَكِـــنْ لَا يَمِيـــلُ لِيَسْـــجَعَا

تُـــرَى؟ خَـــافَ بَعْـــضَ الصَّـــائِدِينَ يُصِـــيبُهُ ... فَيَسْـــقُطَ مَكْسُـــورَ الجَنَـــاحِ مُضَعْضَـــعَا

لَقَـــدْ صَـــدَّنَا عَـــنْ قَالَـــةِ الشِّـــعْرِ أَنَّنَـــا ... نَـــرَى جُلَّهُـــمْ قَـــدْ خَـــابَ فِـــي جُـــلِّ مَـــا ادَّعَـــى

- قال الشاعر القروي في قصيدة (حبة القمح):

وكَأَنَّمَـــا الشّـــقُّ الّـــذِي فِـــي وَسْـــطِهَا لَـــكَ قَائِـــلٌ: نِصْـــفِي يَخُـــصُّ أَخَـــاكَ

- قال نزار قباني في الغزل:

أَأَنْـــتَ الّـــذِي يَـــا حَبِيبِـــي نَقَلْـــتَ لِـــزُرْقِ العَصَـــافِيرِ أَخْبَارَنَـــا؟

فَجَـــاءَتْ جُمُوعًـــا جُمُوعًـــا تَـــدُقُّ مَنَاقِيرُهَـــا الحُمْـــرُ شُـــبَّاكَنَا؟

وتُغْـــرِقُ مَضْـــجَعَنَا زَقْزَقَـــاتٍ وتَغْمُـــرُ بِـــالقَشِّ أَبْوَابَنَـــا؟

- قال محمود سامي البارودي:

إِذَا سَـــفَرَتْ والبَـــدْرُ لَيْلَـــةَ تَمِّـــهِ ولَاحَـــا سَـــوَاءً قِيـــلَ: أَيُّهُمَـــا البَـــدْرُ؟

- قال حافظ إبراهيم في رثاء الطيّار العثماني فتحي بك الذي سقطت به الطائرة قرب دمشق:

وَيْـــلَاهُ هَـــلْ جُـــزْتَ الحُـــدُو دَ وأَنْـــتَ مُخْتَـــرِقُ السُّـــتُورِ؟

فَرَمَـــاكَ حُـــرَّاسُ السَّـــمَا ءِ وتِلْـــكَ قَاصِـــمَةُ الظَّهُـــورِ؟

- وقال في رثاء سعد زغلول:

أَيْـــنَ سَـــعْدٌ؟ فَـــذَاكَ أَوَّلُ حَفْـــلٍ غَـــابَ عَـــنْ صَـــدْرِهِ وعَـــافَ الخِطَابَـــا

لَـــمْ يُعَـــوِّدْ جُنُـــودَهُ يَـــوْمَ خَطْـــبٍ أَنْ يُنَـــادَى فَـــلَا يَـــرُدُّ الجَوَابَـــا

عَـــلَّ أَمْـــرًا قَـــدْ عَاقَـــهُ، عَـــلَّ سُـــقْمًا قَـــدْ عَـــرَاهُ، لَقَـــدْ أَطَـــالَ الغِيَابَـــا

- وقال حافظ إبراهيم:

أَصْـــبَحْتُ لا أَدْرِي عَلَـــى خِبْـــرَةٍ أَجَـــدَّتِ الأَيَّـــامُ أَمْ تَمْـــزَحُ؟

أَمَوْقِـــفٌ لِلْجِـــدِّ نَجْتَـــازُهُ أَمْ ذَاكَ لِلّاهِـــي بِنَـــا مَسْـــرَحُ؟

- قال أحمد شوقي:

فَقُلْـــتُ أَأَشْـــراطُ القِيامَـــةِ مـــا أَرَى أَمِ الحَـــرْبُ أَدْنَـــى مِـــنْ وَرِيـــدٍ وأَقْـــرَبُ؟

- وقال شوقي مع تسمية النوع:

تَـــدْرِي وتَسْـــأَلُنِي تَجَاهُـــلَ عَـــارِفٍ أَرَنَـــا بِعَـــيْنٍ أَمْ رَمَـــى بِسِـــهَامِ؟

- قال عبد الباقي العمري في المدح:

هَـــذَا بَـــدِيعُ الزَّمَـــانِ قَـــدْ نَشَـــرَا أَمْ ذَا حَرِيـــرِيُّ الوَقْـــتِ قَـــدْ ظَهَـــرَا؟

- قال محمد الغلامي في الغزل:

هِـــلَالُ أُفُـــقٍ بَـــدَا أَمْ تِلْـــكَ غُرَّتُهَـــا؟ والشَّـــمْسُ قَـــدْ أَشْـــرَقَتْ أَمْ ذَا مُحَيَّاهَـــا؟

- قال أمين الجندي، وفيه حسن تعليل:

جَبِينُـــكِ أَمْ نُـــورُ الصَّـــبَاحِ لَنَـــا بَـــدَا؟ ولَحْظُـــكِ أَمْ سَـــيْفٌ لِقَتْلِـــي تَجَـــرَّدَا؟

وفـــي الخَـــدِّ وَرْدٌ مِنـــكِ أَمْ سَـــالَ فَوقَـــهُ دَمِـــي فَاكْتَسَـــى مِـــنْ لَونِـــهِ وتَـــوَرَّدَا؟
وخَـــالٌ عَلَـــى كُرْسِـــيِّ وَجْنَتِـــكِ اسْـــتَوَى فَـــدَيْتُكِ أَمْ ذَاكَ النَّجَاشِـــيُّ تَسَـــوَّدَا؟

- قال إيليا أبو ماضي بمناسبة الحفلة التكريمية التي أقيمت على شرفه في لوس أنجلس:

يَـــا قَـــوْمُ هَـــلْ هَـــذِي حَقَـــائِقُ أَمْ رُؤًى؟ وأَنَـــا؟ أَصَـــاحٍ أَمْ شَـــرِبْتُ مُخَـــدِّرَا؟
لا تَعْجَبُـــوا مِـــنْ دَهْشَـــتِي وتَحَيُّـــرِي وتَعَجَّبُـــوا إِنْ لَـــمْ أَكُـــنْ مُتَحَيِّـــرَا

- وقال في وصف طفلة صغيرة:

دُمْيَـــةٌ حَسْـــنَاءُ تُغْـــرِي النَّظَـــرَا أَمْ مَـــلَاكٌ طَـــاهِرٌ فَـــوْقَ الثَّـــرَى؟

- قال رشيد أيوب شاكيا غربته في أرض المهجر:

دُمُـــوعٌ بِعَيْنِـــي لَـــمْ تَجُمُـــدِ ونَـــارٌ بِقَلْبِـــي لَـــمْ تَخْمُـــدِ
فَيَـــا دَمْـــعُ هَـــلْ أَنْـــتَ مِـــنْ لُجَّـــةٍ ويَـــا نَـــارُ هَـــلْ أَنْـــتِ مِـــنْ مَوْقِـــدِ؟

- قال الشاعر:

قُلْـــتُ لِخِلِّـــي وثُغُـــورُ الرُّبَـــا مُبْتَسِـــمَاتٌ وثُغُـــورُ المِـــلَاحْ
أَيُّهُمَـــا أَحْلَـــى تُـــرَى مَنْظَـــرًا فَقَـــالَ: لَا أَعْلَـــم، كُـــلٌّ أَقَـــاحْ

- قال الشاعر:

وطُـــرَّةُ صُـــبْحٍ أَمْ جَبِينُـــكِ سَـــافِرًا؟ أَعَـــرْتِ الصَّـــبَاحَ نُـــورَهُ أَمْ أَعَـــارَكِ؟

الجَـمْع

تعريف الجمع: هُوَ أنْ يَجْمَعَ الأدِيبُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، أو عِدَّةِ أشْيَاء تَحْتَ حُكْمٍ وَاحِدٍ.[1]

- قال نزار قباني:

أيْـــــنَ اللّـــــوَاتِي حُـــــبُّهُنَّ عِبَـــــادَةٌ وغِيَـــــابُهُنَّ وقُـــــرْبُهُنَّ عَـــــذَابُ؟

فالشاعر جمع بين شيئين (الغياب، والقرب) تحت حكم واحد وهو العذاب.

- وقال نزار قباني بعد حرب الخليج:

لَمْ نَنْتَصِرْ يَوْمًا عَلَى ذُبَابَة
لَكِنَّهَا تِجَارَةُ الأَوْهَام
فَخَالِدٌ وطَارِق وحَمْزَة
وعُقْبَةُ بنُ نَافِع
والزُّبَيْرُ والقَعْقَاع والصَّمْصَام
مُكَدَّسُونَ كُلُّهُمْ.. في عُلَبِ الأفْلَام

فالشاعر كما ترى قد جمع خالدًا، وطارقًا، وحمزةَ، وعقبةَ بنَ نافع، والزُّبيرَ، والقعقاعَ، والصَّمصام، وحكم عليهم كلِّهم بأنهم مُكَدَّسُونَ في عُلبِ الأفلام.

ومن نماذجه في الشعر العمودي قول محمود غنيم:

هِـــيَ العُرُوبَـــةُ لَفْـــظٌ إنْ نَطَقْـــتَ بِـــهِ فَالشَّـــرْقُ والضَّـــادُ والإسْـــلَامُ مَعْنَـــاهُ

فالشاعر جمع الشرق، والضّاد (اللغة العربية)، والإسلام تحت حكم واحد، وهو معنى لفظ العروبة.

- ومن نماذجه النثرية الرفيعة قول نزار قباني في أثناء زيارته للجزائر: "أُحَاوِلُ تَهْرِيبَ بَعْضِ القَصَائِدِ العَرَبِيَّةِ إلَيْكُمْ قَبْلَ أنْ يُصْبِحَ المُتَنَبِّي، وأبُو تَمَّامٍ، والمَعَرِّي، وابْنُ الرُّومِيّ، وأبُو فِرَاسٍ أسَاتِذَةً فِي الجَامِعَةِ العِبْرِيّة".

فالأديبُ قد جمع زُمرةً من الشعراء: المتنبّي، وأبا تمّام، والمعرّي، وابن الرّومي، وأبا فراس، تحت حكم واحد، وهو كونهم قد يصبحون أساتذة في الجامعة العبرية.

ومنه أيضا قوله: "لا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أنْ يُبَرِّئَ نَفْسَهُ مِنْ عَارِ الهَزِيمَة، كُلُّنَا بِمَا فِي ذَلِكَ الجُدْرَانُ، والأبْوَابُ، والأشْجَارُ، ومَصَابِيحُ الطُّرُقَاتِ، غَارِقُونَ في التُّهْمَةِ حَتَّى الرُّكَب".

- قال أحمد أمين: "يَجِبُ أَنْ يَفْهَمَ النَّاسُ أَنَّ المَوْتَ والحَيَاةَ قَانُونٌ طَبِيعِيّ، وأَنَّ الغِنَى والفَقْرَ قَانُونٌ طَبِيعِيّ، وأَنَّ الصِّحَّةَ والمَرَضَ قَانُونٌ طَبِيعِيّ، وأَنَّ الصَّلَاحَ والفَسَادَ قَانُونٌ طَبِيعِيّ، وأَنَّ الهَزِيمَةَ والنَّصْرَ قَانُونٌ طَبِيعِيّ،

[1] وشي الربيع بألوان البديع الدكتورة عائشة فريد حسين ص 85.

وأَنَّ اللهَ رَبَطَ الأَسْبَابَ بِالمُسَبَّبَاتِ رَبْطًا مُحْكَمًا، وجَعَلَ بَيْنَ المُقَدِّمَاتِ والنَّتَائِجِ عُرْوَةً وُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا، وأَنَّ السَّمَاءَ لَا تُمْطِرُ ذَهَبًا ولَا فِضَّة، وأَنَّ مَنْ زَرَعَ الحَنْظَلَ جَنَى الحَنْظَل."

ولاحظ كيف أبدع الكاتبُ في الجمع بين كلّ ثنائيتين متضادتين تحت حكم واحد.

- قال مصطفى لطفي المنفلوطي في المدنيّة الإسلامية: "فَالعَابِدُ فِي مَسْجِدِه، والفَقِيهُ فِي دَرْسِه، والمُعْرِبُ فِي خِزَانَةِ كُتُبِه، والرِّيَاضِيُّ فِي مَدْرَسَتِه، والكِيمْيَائِيُّ فِي مَعْمَلِه، والقَاضِي فِي مَحْكَمَتِه، والخَطِيبُ فِي مَحْفَلِه، والفَلَكِيُّ أَمَامَ أَسْطِرْلابِه، والكَاتِبُ بَيْنَ مَحَابِرِهِ وأَوْرَاقِه، إِخْوَةٌ مُتَصَافُون، وأَصْدِقَاءُ مُتَحَابُّون، لا يَخْتَصِمُون، ولا يَقْتَتِلُون، ولا يُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضَا."

فالكاتب كما رأيت قد جمع بين عدة أشخاص في المدنية الإسلامية في حكم واحد، وتحت مظلة واحدة، وهي الأخوة والصداقة.

- وقال المنفلوطي في (خُطبة الحرب): "إِنَّ الشَّيْخَين أَبَا بَكْرٍ وعُمَر، والفَارِسَيْنِ خَالِدًا وعَلِيًّا، والأَسَدَيْنِ حَمْزَةَ والزُّبَيْر، والفَاتِحَيْنِ سَعْدًا وأَبَا عُبَيْدَة، والبَطَلَيْنِ طَارِقًا وعُقْبَة، وجَمِيعَ حُمَاةِ الإِسْلَامِ مُشْرِفُونَ عَلَيْكُمْ اليَوْمَ مِنْ عَلْيَاءِ السَّمَاء، لِيَنْظُرُوا مَاذَا تَصْنَعُونَ بِمِيرَاثِهِم الَّذِي تَرَكُوهُ فِي أَيْدِيكُم، فَقُولُوا لَهُمْ: إِنَّا بِكُمْ لَاحِقُون، وإِنَّا عَلَى آثَارِكُمْ لَمُهْتَدُون".

فالأديب كما تلاحظ قد جمع بين عدة أشخاص تحت حكم واحد، فقد جمع أبا بكر وعمر، وخالدًا وعليًّا، وحمزةَ والزبير، وسعدًا وأبا عبيدة، وطارقًا وعقبة، وجميع حُمَاة الإسلام وفاتحيه تحت حكم واحد، هو كونهم مشرفين منتظرين ماذا سيصنع الشباب بميراثهم، وأمانتهم المتروكة بأيديهم.

- وللمنفلوطي في تفضيلِ الفقر على الغنى: "إِنَّ العُلُومَ والمَعَارِفَ والمُخْتَرَعَاتِ والمُكْتَشَفَاتِ بِأَجْمَعِهَا حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِ الفَقْر، وثَمْرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِه، وما الآرَاءُ السَّامِيَةُ والأَفْكَارُ النَّاضِجَةُ التي رَفَعَتْ شَأْنَ المَدَنِيَّةِ الحَدِيثَة إِلَّا أَبْخِرَةُ الأَدْمِغَةِ بِنِيرَانِ الهُمُوم".

- وللمنفلوطي أيضا: "الصَّانِعُ، والزَّارِعُ، والتَّاجِرُ أَشْرَاف، مَتَى كَانُوا أُمَنَاءَ مُسْتَقِيمِين."

- قال البشير الإبراهيمي: "الأَخْلاقُ والآدَابُ والأَفْكَارُ والإِحْسَاسَاتُ والاتِّجَاهَاتُ العَامَّةُ، هِيَ الأَمْتِعَةُ التي يَرِثُهَا جِيلٌ عَنْ جِيل".

فالأخلاق والآداب والأفكار والإحساسات والاتجاهات العامة، كلُّ هذا مجموعٌ في حكم واحد، وهو كونها الأمتعةَ التي ترثها الأجيال عن بعضها البعض.

- وقريب منه قول ميخائيل نعيمة: "أَفْكَارُ النَّاسِ وأَحَاسِيسُهُمْ وأَحْلَامُهُمْ فِي اتِّصَالٍ أَبَدِيّ، رَغْمَ المَسَافَاتِ والعَقَبَات."

- قال توفيق الحكيم: "الكُتُبُ والمَعَارِفُ والفُنُونُ هِيَ القَوَارِبُ الَّتِي نَصْعَدُ بِهَا مُسْتَكْشِفِين، مُنَقِّبِينَ فِي مَنَابِعِ نَهْرِ الحَيَاةِ الكَبِيرَة."

فالكاتب قد حشر ثلاثة أشياء: الكتب والمعارف والفنون، وجعلها في حكم واحد، وهو تشبيهها بالقوارب.

- قال طه حسين: "العِلْمُ والفَنُّ والمَعْرِفَةُ كُنُوزٌ لا يُنْقِصُ مِنْهَا انْقِطَاعُ النَّاسِ بِهَا، وتَهَافُتُهُمْ عَلَيْهَا، وازْدِحَامُهُمْ عَلَى الإمْعَانِ فِيها، وإنَّمَا يَزِيدُهَا ذَلِكَ خِصْبًا إلى خِصْب، وثَرَاءً إلَى ثَرَاء".

فالكاتب جمع العلم والفن والمعرفة تحت حكم واحد، وهذا الحكم هو تشبيهها بالكنوز.

- قال أحمد شوقي:

ومَـــا الأهْـــلُ والأَحْبَـــابُ إلّا لَآلِـــئٌ تُفَرِّقُهَـــا الأيَّـــامُ والسِّـــمْطُ يَجْمَـــعُ

فالشاعر قد جمع بين الأهل والأحباب تحت حكم واحد، وهو تشبيههما باللآلئ.

- قال الشاعر الجزائري رمضان حمّود:

إنَّمَـــا قَلْبِـــي ورُوحِـــي وفَمِـــي آلَـــةٌ تَسْـــعَى لِرَفْـــعِ الضَّـــرَرِ

فالشاعر قد جمع ثلاثة أشياء (قلبه، وروحه، وفمه) تحت حكم واحد، وهو تشبيهها بالآلة.

- قال محمد العيد عن الجزائر:

فَكُـــلُّ لَيَالِيهَـــا وأيَّامِهَـــا لَنَـــا وَلَائِـــمُ لَـــمْ تَبْـــرَحْ، تَلِيهَـــا وَلَائِـــمُ

فالشاعر قد جمع شيئين (الليالي، والأيّام) تحت حُكْم واحد، وهو تشبيههما بالولائم.

- يُروَى أنَّ الأمير سعيد الشهابي دعا الدكتور شاكر الخوري إلى الغداء، وكان الطعام كُوسًا محشيا، لكنَّ الضيف لم يجد في المحشيّ لَحْمًا، فقال مداعبا صديقه:

قَـــدْ قِيـــلَ إنَّ المُسْـــتَحِيلَ ثَلَاثَـــةٌ والآنَ رَابِعَـــةٌ أتَـــتْ بِمَزِيـــدِ

الغُـــولُ والعَنْقَـــاءُ والخِـــلُّ الـــوَفِيّ واللَّحْـــمُ فِـــي مَحْشِـــيِّ الأمِيـــرِ سَـــعِيدِ

بلاغة الجمع:

في الجمع إيجازٌ في الأسلوب، لكوْن الأشياء المتعددة تُجمع في خبر واحد، ولو جعل البليغ لكلّ شيء خبرًا، لطال الكلام، وانحرف عن طريق جماله، وفنُّ الجمع يثير الفكر، وذلك حين يجمع البليغُ بين أشياء كثيرة متتالية في حكم واحد، كما يثير فنُّ الجمع تشويقَ النفس إلى معرفة الحكم، حين تتوالى الأشياء المجموعة، فإذا ما جمعت كلها في حكم واحد، تمكّن هذا الحُكم في النفس أيّما تمكّن. "وتتضح بلاغة الجمع في ترتيب الأفكار، وتنظيمها، وإصابة الغرض من جمعِ أشياء تحت حكم واحد، مما يدل على دقة ملاحظة الأديب، فيتميز الأسلوب بالإيجاز، والبلاغةُ الإيجازُ."[1]

تدريب: حدّد الجمع فيما يأتي، واشرحه:

- قال الشاعر الجزائري محمد الهادي السنوسي الزاهري:

إنَّ الفَصَـــاحَةَ والبَيَـــانَ كِلَاهُمَـــا سَـــهْلٌ إذَا كَـــانَ اللِّسَـــانُ فَتِيقَـــا

- قال شاعر المهجر إلياس عبد الله طعمة في "بيّاعة الزهور"

[1] وشي الربيع بألوان البديع ص 87.

فَتَبَسَّمَتْ وحَنَتْ عَلَيَّ تَقُولُ لِي: زَهْرِي وقَلْبِي للظّرِيفِ الكَيِّسِ

- قال علي الجارم:

عِيدٌ بِهِ الأرْضُ والآفَاقُ مُشْرِقَةٌ تَمَازَجَتْ فِيهِ أنْوَارٌ بِأنْوَارِ

- وقال يصف بيت ممدوحه:

الدِّينُ والخُلُقُ المَتِينُ أَسَاسُهُ وحِيَاطَةُ المَوْلَى لَهُ أَسْوَارُ

- وقال علي الجارم:

الحَقُّ والإيمَانُ مِلْءُ فُؤَادِهِ وبَلَاغَةُ الأعْرَابِ مِلْءُ لَهَاتِهِ

- قال الأخطل الصغير (بشارة الخوري):

الصِّبَّا والجَمَالُ مُلْكُ يَدَيْكِ أيُّ تَاجٍ أَعَزَّ مِنْ تاجَيْكِ؟

- قال محمود سامي البارودي في يوم عيد الفطر وهو في الحرب:

أَرَاكَ الحِمَى شَوْقِي إِلَيْكَ شَدِيدُ وصَبْرِي ونَوْمِي فِي هَوَاكَ شَرِيدُ

- وقال سامي البارودي:

فَالْبُخْلُ والْجُبْنُ فِي الإنْسَانِ مَنْقَصَةٌ لَمْ يَجْنِهَا غَيْرُ سُوءِ الظّنِّ بِاللهِ

- قال أحمد شوقي واصفًا الدَّهْر :

سِكِّينُهُ ويَمِينُهُ وحِزامُهُ والصَّوْلَجَانُ جَمِيعُهَا آثَامُ

- وقال في لبنان:

لُبْنَانُ والخُلْدُ اخْتِرَاعُ اللهِ لَمْ يُوسَمْ بِأَزْيَنَ مِنْهُمَا مَلَكُوتُهُ

- قال ناصيف اليازجي:

لِلّهِ وَجْنَتُهُ وقَلْبِي والهَوَى فالكُلُّ جَمْرٌ قَدْ تَأَجَّجَ حَرُّهُ

- قال علي الدرويش:

خُيُولُهُمْ والعِدَى والنَّقْعُ ثَالِثُهَا كالشُّهْبِ لا تُخْطِئُ الشَّيْطَانَ في الظُّلَمِ

- قال ظافر الحدّاد:

فَمَا المَالُ والعَيْشُ إلّا كَطَيْفِ خَيَالٍ سَرَى طَارِقًا في مَنَامِ

- قال ابن معصوم:

إنَّ المَكَارِمَ والفَضَائِلَ والنَّدَى طَبْعٌ جُبِلْتَ عَلَيْهِ غَيْرُ تَطَبُّعِ

والمَجْدُ والشَّرَفُ المُؤَثَّلُ والعُلَا وَقْفٌ عَلَيْكَ ولَيْسَ بالمُسْتَوْدَعِ

التَّفْرِيــق

تعريف التَّفْرِيق: هُوَ أنْ يَعْمَدَ الأدِيبُ إلَى شَيْئَيْن مِنْ جِنْسٍ وَاحِد، فَيُوجِدُ بَيْنَهُمَا تَفْرِيقًا، وتَبَايُنًا فِي دَرَجَة كُلٍّ مِنْهَا، زِيَادَةً أوْ نُقْصَانًا. بِمَعْنَى أَوْضَحَ أنْ يَعْقِدَ الأدِيبُ مُقَارَنَةً، أوْ قِيَاسًا بَيْنَ شَيْئَيْن، لا لِشَيْءٍ إلّا لِيَخْلِقَ تَفْرِيقًا، وتَبَايُنًا بَيْنَهُمَا.

- قال نزار قباني:

الحَــــرْفُ فـــــي قَلْبِـــــي نَزِيـــــفٌ دَائِـــمُ والحَــــرْفُ عِنْــدَكِ مَــــا تَعَــدَّى الإصْــبَعَا

إنَّ الشاعرَ قَدْ عَمَدَ إلى شيئين من جِنْس واحد، وهما: الحرفُ في قلبِ الشَّاعر، والحرفُ عند محبوبته، ثمّ أَوجد تَفْرِيقًا، وتَبَايُنًا في المنزلة بين الحرفين: فالحرفُ في قلبِ الشَّاعرِ جرحٌ دامٍ، ونزيف دائم، والحرفُ عند محبوبته لا يتعدَّى الأصابعَ التي تكتبه.

- ومنه قول أحمد شوقي:

أَيْـــنَ نَـــوْرُ الرَّبِيـــعِ مِـــنْ زَهْـــرِ الشِّعْـــ ـــرِ؟ إذَا مَـــا اسْـــتَوَى عَلَـــى أَفْنَانِـــهْ

عمد شوقي إلى شيئين من جنس واحد (زهر الربيع، وزهر الشعر)، ثم أوجد تفريقا وتباينا بيّنا بينهما، حيث فضّل زهر الشعر عن زهر الربيع، لأنّ الأول خالد، والثانيَ فان.

- ومثله قول الشاعر مفدي زكريا:

وكَلّـــمَ مُوسَـــى اللهُ فـــي الطّـــورِ خُفْيَـــةً وفـــي الأطْلَـــسِ الجَبَّـــارِ كَلّمَنَـــا جَهْـــرَا

لعلَّك لاحظتَ أنَّ الشاعرَ قدْ عَمَدَ إلى شيئين من جنس واحد، وهما: تَكْلِيمُ الله لموسى في الطُّور، وتَكْلِيمُهُ لنا - نحن الجزائريين - في جبالِ الأطْلَس، ثُمّ أوجد بعد ذلك تَبَايُنًا وتفريقًا بينهما، فالله كما يقولُ الشَّاعرُ قد كلّمَ نَبِيَّهُ موسَى خُفية، بينما كلّم الشَّعبَ الجزائريَّ جَهْرًا.

- قال علي الجارم:

لَـــــيْسَ القَـــــوِيُّ بِنَابِـــــهِ وبِظُفْـــــرِهِ مِثْـــــلَ القَـــــوِيِّ بِرَأيِـــــهِ وثَبَاتِـــــهِ

فالشاعر عمد إلى شيئين من جنس واحد، وهما قوة الجسد، وقوة الرأي، ثم أوجد تفريقا بينهما، فالإنسان إنسان بثباته لا بوثباته.

- قال حافظ إبراهيم:

مَـــا الحَـــرْبُ تُـــذْكِيهَا قَنًـــا وصَـــوَارِمُ كَـــالحَرْبِ تُـــذْكِيهَا نُهًـــى وعُقُـــولُ

فالشاعر قد عمد إلى شيئين من نوع واحد، وهما قتال السُّيوف، ونزال العُقول، فكلاهما حرب، ثم أوجد فرقا بين هذين الحربين، فليست الحروب التي تُشْعِلُ نارَها العقول، كالحروب التي تُقرع فيها السيوف.

والأمر ذاته في قوله:

أَزَعِـــيمُكُمْ شَـــاكِي السِّـــلَاحِ مُـــدَجَّجٌ وزَعِيمُنَـــا فِـــي كَفِّـــهِ مِنْـــدِيلُ؟

- قال علي الجارم:

دَافَعْـــتُ بِـــالغَزَلِ الحَنُـــونِ لِحَاظَهَـــا شَـــتَّانَ بَـــيْنَ سِـــلَاحِهَا وسِـــلَاحِي

فالشاعر قد عمد إلى شيئين من جنس واحد، وهما سلاح الحبيب وسلاح النسيب، ليوجد تفريقا وتباينا بينهما فسلاح الشاعر غزلٌ وهيام، وسلاح المحبوب نَبْلٌ وسِهام.

- وقال الجارم:

مَـــا صُـــبْحُ يَـــوْمٍ والسَّـــمَاءُ مَرِيضَـــةٌ كَصَـــبَاحِ يَـــوْمٍ والنَّهَـــارُ نَهَـــارُ

حيث فرّق الشاعر بين أمرين من جنس واحد (الصُّبحين)، فليس صبح يوم سماؤه مضطربة ومتلبدة بالغيوم كصباح يوم صافٍ ومشرق.

- ومن النماذج الراقية للتفريق قول ميخائيل نعيمة: "النَّارُ الَّتِي نَسْتَخْدِمُهَا للدِّفْء، أَوْ لِطَهْيِ الطَّعَام، هِيَ عَيْنُ النَّارِ نَسْتَخْدِمُهَا لِحَرْقِ النَّاسِ والمَسَاكِن، فَهِيَ خَيْرٌ إِذَا اسْتَخْدَمْنَاهَا لِلْخَيْر، وشَرٌّ إِذَا اسْتَخْدَمْنَاهَا للشَّر، والسَّيَّارَةُ نَرْكَبُهَا لِزِيَارَةِ صَدِيق، أَوْ لِعِيَادَةِ مَرِيض، أَوْ لِتَفْرِيجِ كُرْبَةِ مَكْرُوب، هِيَ عَيْنُ السَّيَّارَةِ نَرْكَبُهَا للنَّهْبِ والسَّلْب، فَهِيَ خَيْرٌ إِذَا سَاقَهَا الخَيْر، وشَرٌّ إِذَا سَاقَهَا الشَّر، حَتَّى السُّمّ، يُصْبِحُ تِرْيَاقًا فِي يَدِ الآسِي، والتِّرْيَاقُ يَنْقَلِبُ سُمًّا فِي يَدِ الغَدَّار."

فالكاتب قد عمد إلى شيئين من جنس واحد، وهي نارُ التدفئة والطهي، ونارُ الحرائق، ثم أوجد تباينا، وتفريقا واضحا بين النَّارين، فالأولى نار خير، والثانية نار شر، وفعل مثل ذلك في حديثه عن السيارة، وعن السمّ.

- ومن التفريق البليغ قول جبران خليل جبران:" لُبْنَانُكُمْ عُقْدَةٌ سِيَاسِيَّةٌ تُحَاوِلُ حَلَّهَا الأَيَّام، أَمَّا لُبْنَانِي فَتُلُولٌ تَتَعَالَى بِهَيْبَةٍ وجَلَال، نَحْوَ ازْرِقَاقِ السَّمَاء، لُبْنَانُكُمْ مُشْكِلَةٌ دُوَلِيَّةٌ تَتَقَاذَفُهَا اللَّيَالِي، أَمَّا لُبْنَانِي فَأَوْدِيَةٌ هَادِئَةٌ سِحْرِيَّة، تَتَمَوَّجُ فِي جَنَبَاتِهَا رَنَّاتُ الأَجْرَاس، وأَغَانِي السَّوَاقِي، لُبْنَانُكُمْ صِرَاعٌ بَيْنَ رَجُلٍ جَاءَ مِنَ المَغْرِب، ورَجُلٍ جَاءَ مِنَ الجُنُوب، أَمَّا لُبْنَانِي فَصَلَاةٌ مُجَنَّحَة، تُرَفْرِفُ صَبَاحًا عِنْدَمَا يَقُودُ الرُّعَاةُ قُطْعَانَهُمْ إِلَى المُرُوج، وتَتَصَاعَدُ مَسَاءً عِنْدَمَا يَعُودُ الفَلَّاحُونَ مِنَ الحُقُولِ والكُرُوم، لُبْنَانُكُمْ حُكُومَةٌ ذَاتُ رُؤُوسٍ لَا عِدَادَ لَهَا، أَمَّا لُبْنَانِي فَجَبَلٌ رَهِيبٌ وَدِيع، جَالِسٌ بَيْنَ البَحْرِ والسُّهُول، جُلُوسَ شَاعِرٍ بَيْنَ الأَبَدِيَّةِ والأَبَدِيَّة، لُبْنَانُكُمْ حِيلَةٌ يَسْتَخْدِمُهَا الثَّعْلَبُ عِنْدَمَا يَلْتَقِي الضَّبُع، والضَّبُعُ حِينَمَا يَجْتَمِعُ بِالذِّئْب، أَمَّا لُبْنَانِي فَتِذْكَارَاتٌ تُعِيدُ عَلَى مَسْمَعِي أَهَازِيجَ الفَتَيَاتِ فِي اللَّيَالِي المُقْمِرَة، وأَغَانِي الصَّبَايَا بَيْنَ البَيَادِرِ والحُقُول."

- ومن التفريق البديع جواب الأعرابيّ الذي قيل له: "مَا بَلَغَ مِنْ حُبِّكَ لِفُلَانَة؟" فقال: "واللهِ إِنِّي لأَرَى الشَّمْسَ عَلَى حَائِطِهَا أَجْمَلَ مِنْهَا عَلَى حِيطَانِ جِيرَانِها." قد والله صدق الأعرابيّ، وبرّتْ يمينُه، فإنَّ في كلماته الشعرية لأثرًا من عينيه، فهو قد رأى الشمسَ على حائط المحبوبة كالشمس على البلّور الصافي، في حين رأى الشمسَ نفسها على حائط جيرانها شمسا على كومة من حجر، وقطع من طين.

بلاغة التفريق:

سرّ الجمال في التفريق أنه يعرّف السامع وجه التباين، والاختلاف بين أمرين، يُظنُّ لأوّل وهلة أنهما متّفقان، كما يشفُّ على براعة في تلمّس عنصر التباين، مشفوعا بالدليل، والبرهان، ويكْمل جمالُ هذا الفن إذا رُشّح بمحسن بديعي آخر، إضافة إلى الطباق، كالجناس في قول الشاعر:

رَأَيْـــتُ عُبَيْـــدَ اللهِ يَضْـــحَكُ مُعْطِيًـــا ... ويَبْكِـــي أخُـــوهُ الغَيْـــثُ عِنْـــدَ عَطَائِـــهِ

وكَـــمْ بَـــيْنَ ضَـــحَّاكٍ يَجُـــودُ بِمَالِـــهِ ... وآخَـــرَ بَكَّـــاءٍ يُجُـــودُ بِمَائِـــهِ

تدريب: دُلَّ على التفريق، واشرحه فيما يأتي:

- كتب أحمد أمين قائلا: "هَلْ تَعْرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ الحَرِيرِ الطَّبِيعِيّ، والحَرِيرِ الصِّنَاعِيّ؟ وهَلْ تَعْرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ الأَسَدِ وصُورَةِ الأَسَد؟ وهَلْ تَعْرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ الدُّنْيَا فِي الخَارِجِ والدُّنْيَا عَلَى الخَرِيطَة؟ وهَلْ تَعْرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ عَمَلِكَ فِي اليَقَظَةِ وعَمَلِكَ فِي المَنَام؟ وهَلْ تَعْرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ النَّارِ أَمَامَكَ وهِيَ تَلْتَهِمُ وتَأْتِي عَلَى كُلِّ مَا يُقَدَّمُ لَهَا مِنْ وَقُود، وبَيْنَ نُطْقِكَ بِكَلِمَةِ النَّارِ وَهِيَ تَجْرِي عَلَى لِسَانِك، فَلَا تَمَسُّهُ بِسُوء؟ وهَلْ تَعْرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ النَّائِحَةِ الثَّكْلَى والنَّائِحَةِ المُسْتَأْجَرَة؟ وبَيْنَ التَّكَحُّلِ فِي العَيْنَيْنِ والكَحَل؟ وهَلْ تَعْرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ الصَّوْتِ والصَّدَى؟ إنْ عَرَفْتَ كُلَّ ذَلِك، فَهُوَ بِعَيْنِهِ الفَرْقُ بَيْنَ الدِّينِ الحَقّ، والدِّينِ الصِّنَاعِيّ. الدِّينُ الصِّنَاعِيُّ دِينُ حَرَكَاتٍ وسَكَنَاتٍ وأَلْفَاظ، ولا شَيْءَ وَرَاءَ ذَلِك، والدِّينُ الحَقُّ دِينُ رُوحٍ وقَلْبٍ وحَرَارَة، و"لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ" فِي الدِّينِ الصِّنَاعِيِّ قَوْلٌ جَمِيلٌ لَا مَدْلُولَ لَه، أمَّا فِي الدِّينِ الحَقِّ فَهِيَ كُلُّ شَيْء، هِيَ ثَوْرَةٌ عَلَى عِبَادَةِ المَال، وثَوْرَةٌ عَلَى عِبَادَةِ السُّلْطَان، وثَوْرَةٌ عَلَى عِبَادَةِ الجَاه، وثَوْرَةٌ عَلَى عِبَادَةِ الشَّهَوَات. فَـ"لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ" فِي الدِّينِ الصِّنَاعِيّ تَذْهَبُ مَعَ الرِّيح، وفِي الدِّينِ الحَقِّ تُزَلْزِلُ الجِبَال".

- قال خليل مطران:

ومَـــا يَسْـــتَوِي فِـــي الحُـــبِّ أَرْوَعُ فَاضِـــلٍ ... وأَحْمَـــقُ مَـــذْمُومٌ خَلَائِقُـــهُ غِـــرُّ

- وقال مطران مهنئا أحمد شوقي بعد عودته من منفاه:

إنَّ الأَدِيـــبَ وقَـــدْ سَـــمَا بِبَلَائِـــهِ ... غَيْـــرُ الأَدِيـــبِ ولَـــيْسَ رَبَّ بَـــلَاءِ

- وقال الشاعر في الأميرة (سميحة حسين)، وقد تبرّعت بجملة من حليّها النفيس لجمعية الهلال الأحمر:

لَقَـــدْ شَـــبَّهُوكِ بِنِيـــلِ الـــبِلَادِ ... وأَيْـــنَ السَّـــحَابُ مِـــنَ الأَبْحُـــرِ؟

تَبَارَيْتُمَـــا، فَسَـــخَا بِالمِيَـــاهِ ... وبِالـــدُّرِّ جُـــدْتِ وبِـــالجَوْهَرِ

- قال إيليا أبو ماضي:

أَأَمَـــانِيَّ كُلُّهَـــا مِـــنْ تُـــرَابٍ ... وأَمَانِيـــكَ كُلُّهَـــا مِـــنْ عَسْـــجَدْ؟

وأَمَـــانِيَّ كُلُّهَـــا لِلثَّلَاشِـــي ... وأَمَانِيـــكَ لِلْخُلُـــودِ المُؤَكَّـــدْ؟

أَدُمُـــوعِي خَـــلٌّ ودَمْعُـــكَ شَـــهْدٌ ... وبُكَـــائِي ذُلٌّ ونَوْحُـــكَ سُـــؤْدُدْ؟

وابْتِسَـــامِي السَّـــرَابُ لا رَيَّ فِيـــهِ ... وابْتِسَـــامَتُكَ اللَّآلِـــئُ الخُـــرَّدْ؟

- وقال أيضا:

لَـــيْسَ الـــوِدَادُ الّـــذِي يَبْقَـــى إِلَـــى أَبَـــدٍ ... مِثْـــلَ الـــوِدَادِ الّـــذِي يَبْقَـــى إِلَـــى حِـــينِ

- قال محمود غنيم يشكو حال الشعراء:

الـدُّرُّ فِـي الشِّـعْرِ غَيْـرُ الـدُّرِّ فِـي صَـدَفٍ ... هَـــذَا لَـــهُ ثَمَـــنٌ بَخْـــسٌ، وذَا غَـــالِ

- قال علي الجارم:

مَـــا السَّـــيْفُ فِـــي كَـــفِّ المُفَـــزَّعِ قَلْبُـــهُ ... كَالسَّـــيْفِ فِـــي كَـــفِّ الفَتَـــى الجَحْجَـــاحِ

- وقال الجارم:

لَـــيْسَ الّـــذِي يُنْفِـــقُ مِـــنْ يُسْـــرِهِ ... مِثْـــلَ الّـــذِي يُنْفِـــقُ مِـــنْ عُسْـــرِهِ

- قال الشاعر القروي:

وشَـــتَّانَ بَـــيْنَ الحُـــبِّ يُغْرِيـــكَ بِـــالطَّلَا ... وآخَـــرَ يُغْـــرِي بِـــالعُلَى والعَظَـــائِمِ

- قال مصطفى صادق الرافعي في تشبيه الحسناء بالبدر:

أَخْطَـــأَ مَـــنْ شَـــبَّهَهَا ضِـــلَّةً ... بِالبَـــدْرِ، لَـــيْسَ الكُـــلُّ كَـــالبَعْضِ

فَتِلْـــكَ إِنْ تُسْـــفِرْ تَصُـــنْ حُسْـــنَهَا الـــ ... ـــنُّفُوسُ فِـــي مَنْزِلَـــةِ العِـــرْضِ

والبَـــدْرُ لَمَّـــا لَـــمْ يَجِـــدْ عَاشِـــقًا ... أَلْقَـــى بِـــذَاكَ النُّـــورِ فـــي الأَرْضِ

- قال أحمد شوقي في وصف قلبه:

حَيْـــرَانُ، مَشْـــبُوبُ المَضَـــاجِعِ، لَيْلُـــهُ ... حَـــرْبٌ، ولَيْـــلُ النَّـــائِمِينَ سَـــلَامُ

يَـــا أَيُّهَـــا الطَّيْـــرُ الكَثِيـــرُ سَـــمِيرُهُ ... هَـــلْ رِيشَـــةٌ لِجَنَاحِـــهِ فَيُقَـــامُ؟

عَانَقْـــتَ أَغْصَـــانًا وعَانَقْـــتُ الجَـــوَى ... وشَـــكَوْتَ، والشَّـــكْوَى عَلَـــيَّ حَـــرَامُ

- قال الشاعر:

فجّـــرتَ مـــنْ كَفّيْـــكَ عَشْـــرَةَ أَبْحُـــرٍ ... تُزْجِـــي سَـــحَابَ الجُـــودِ وهـــيَ الأَنْمُـــلُ

مَـــنْ قَـــاسَ كَفّـــكَ بالغَمَـــامِ فَإِنَّـــهُ ... جَهَـــلَ القِيَـــاسَ ومِثْلَهَـــا لا يُجْهَـــلُ

تَسْـــخُو الغَمَـــامُ ووَجْهُهَـــا مُـــتَجَهِّمٌ ... والوَجْـــهُ مِنْـــهُ مَـــعَ النَّـــدَى يَتَهَلّـــلُ

مَـــنْ قَـــاسَ بالشَّـــمْسِ المُنِيـــرَةِ وَجْهَـــه ... أَلْفَيْتَـــهُ فـــي حُكْمِـــهِ لا يَعْـــدِلُ

مِـــنْ أَيْـــنَ للشَّـــمْسِ المُنِيـــرَةِ مَنْطِـــقٌ ... بِبَيَـــانِـــهِ دُرُّ الكَـــلَامِ يُفَـــصَّـــلُ؟

مَـــنْ قَـــاسَ بالبَـــدْرِ المُنِيـــرِ كَمَالَـــهُ ... فالبَـــدْرُ يَنْقُـــصُ والخَلِيفَـــةُ يَكْمُـــلُ

مِنْ أَيْـــنَ للبَـــدْرِ المُنِيـــرِ شَمَـــائِلٌ ... تَسْـــرِي بِرَيَّـــاهَـــا الصَّبَـــا والشَّمْـــأَلُ؟

- قال حسن الطويراني:

قَـــالُوا هُـــوَ البَـــدْرُ قُلْـــتُ البَـــدْرُ يُشْـــبِهُهُ وإِنَّمَـــا الفَـــرْقُ فـــي الأَعْطَـــافِ والمَيْـــلِ
وقِيـــلَ ظَبْـــيُ النَّقَـــا يَحْكِيـــهِ مُلْتَفِتًـــا ومَـــا دَرَوْا الفَـــرْقَ بَـــيْنَ الإِنْسِـــيِّ والجَبَلِـــي
وقِيـــلَ خَـــدَّاهُ غَـــضُّ الـــوَرْدِ مِثْلُهُمَـــا والـــوَرْدُ مِمَّـــا افْتَـــرَاهُ القَـــوْمُ فـــي خَجَـــلِ

- قال الشاعر مُوازنًا بين حبّه وحزنه وبكائه، وبين ما ينسبُ إلى الحمامة من مِثْلِ ذلك:

أنَّـــى تُبَـــارِينِي جَـــوىً وصَـــبَابَةً وكَآبَـــةً وأَســـىً وفَـــيْضَ مَـــآقِ
وأنَـــا الّـــذِي أَمْلِـــي الجَـــوَى مِـــنْ خَـــاطِرِي وهْـــيَ الّتِـــي تُمْلِـــي مِـــنَ الأَوْرَاقِ

- قال الشاعر:

يـــا عُيُـــونَ السَّـــمَاءِ دَمْعُـــكِ يَفْنَـــى عَـــنْ قَرِيـــبٍ ومَـــا لِـــدَمْعِي فَنَـــاءُ
أنَـــا أَبْكِـــي طَوْعًـــا وتَبْكِـــينَ كَرْهًـــا ودُمُـــوعِي دِمًـــا ودَمْعُـــكِ مَـــاءُ

- قال التُّهامي:

قَـــالُوا تَـــأَسَّ بِجَفْنِهَـــا فـــي سُـــقْمِهِ شَـــتَّانَ بَـــيْنَ سِـــقَامِهِ وسِـــقَامِي
سُـــقْمُ الجُفـــونِ وإِنْ تَزَايَـــدَ صِـــحَّةٌ أَبَـــدًا وسُـــقْمِي كُـــلَّ يَـــوْمٍ دَامِـــي

- قال الشاعر:

قَاسُـــوا نَـــدَاهُ بِالسَّـــحَابِ فَأَخْطَـــأوا أَيُقَـــاسُ طُوفَـــانُ المَكَـــارِمِ بِـــالمَطَرْ؟

صِحَّةُ التَّقْسِيـم

تعريفه: "هُوَ اسْتِيفَاءُ المُتَكَلِّمِ أقْسَامَ الشَّيْءِ، بِحَيْثُ يَذْكُرُ جَمِيعَ أنْوَاعِه، ولا يُغَادِرُ شَيْئًا مِنْهَا."[1] بمعنى أوضح: هُوَ أنْ يُقَسِّم الأدِيبُ، أوِ البَلِيغُ كَلَامَهُ قِسْمَةً تَسْتَوْفِي جَمِيعَ أقْسَامِ المَعْنَى، غَيْرَ تَارِكٍ قِسْمًا وَاحِدًا مِنْهَا، بِحَيْثُ تَسْتَوفِي هَذِهِ القِسْمَةُ جَمِيعَ أجْنَاسِ المَعْنَى المَطْرُوق، لا يَخْرُجُ مِنْهَا جِنْسٌ مِنْ أجْنَاسِه. وقَدْ تَكُونُ أجْنَاسُ المَعْنَى اثْنَيْنِ لا ثَالِثَ لَهُمَا، أوْ ثَلَاثَةً لا رَابِعَ لَهَا،...وهكذا.

وإليك هذا المثال للإيضاح: يقول ابن نباتة المصري واصفا فضل ممدوحه عليه:

فَوَاضِـــلُ عَـــنْ يَمِينِـــي والشِّـــمَالِ ومِـــنْ فَـــوْقِي وتَحْتِـــي ومِـــنْ خَلْفِـــي وقُـــدَّامِي

فالشاعرُ قدْ طَرَقَ جميعَ أقْسَامَ المعنى، وهي الجِهَاتُ، والأمْكِنَة، التي يَصِلُ منها كَرَمُ وعَطَاءُ مَمْدُوحه. فهي جِهَاتٌ سِتَّةٌ لا سَابِعَ لها، نقول إنَّ الشاعرَ اسْتَوْفَى جميعَ أجْنَاسِ المعنى الممكنة، لمْ يُخْرِجْ منها جنسًا واحدًا من أجناسه.

وأجمل منه قول صفي الدين:

إنَّ حَوَاسِـــي الخَمْـــسَ مُـــذْ غِبْـــتُمُ إلَـــيْكُمُ فِـــي غَايَـــةِ الشَّـــوْقِ

تَحِلّـــونَ فـــي عَيْنِـــي وسَـــمْعِي وفِـــي لَمْسِـــي وفـــي شَـــمِّي وفـــي ذَوْقِـــي

كَـــذَا جِهَـــاتِي السِّـــتُّ مِـــنْ بَعْـــدِكُم مَمْلُـــوءَةٌ مِـــنْ لَاعِـــجِ الشَّـــوْقِ

خَلْفِـــي وَقُـــدّامِي ويُمْنَـــايَ واليُسْـــ ـــرَى ومِـــنْ تَحْتِـــيَ ومِـــنْ فَـــوْقِي

فالشاعر قد استوفى جميع أقسام الحواس، ثم استوفى جميع أقسام الجهات.

ومن صحة التقسيم ذكرُ أحوال الشيء مضافا إلى كلٍّ منها ما يليق بها، كقول جبران خليل جبران مخاطبا الأرض: "لَقَدْ سِرْتُ فِي سُهُولِكِ، وصَعَدْتُ جَبَالَكِ، وهَبَطْتُ فِي أَوْدِيَتِكِ، وتَسَلَّقْتُ صُخُورَكِ، ودَخَلْتُ كُهُوفَكِ، فَعَرَفْتُ حِلْمَكِ فِي السَّهْل، وأَنَفَتَكِ فِي الجَبَل، وهُدُوءَكِ فِي الوَادِي، وعَزْمَكِ فِي الصَّخْر، وتَكَتُّمَكِ فِي الكَهْف."

لعلك لاحظت أنّ الكاتب قد ذكر تضاريس بلده لبنان، وهي السهول، والجبال، والأودية، والصخور، والكهوف، ثم أضاف إلى كلّ نوع من تلك التضاريس صفة تناسبها: فالحلم صفة للسهول، والأنفة صفة للجبال، والهدوء صفة للأودية، والعزم صفة للصخور، والتكتّم صفة للكهوف.

ومن بليغ هذا النوع وبديعه قول محمد البشير الإبراهيمي: "الأمَمُ إنَّمَا تَتَفَاضَلُ وتَتَعَالَى بِالبِنَاءِ لِلْخَيْر، والمَنْفَعَة، والجَمَال، والقُوَّة، ومَا عَدَا هَذِهِ الأرْبَعَةِ فَهُوَ فُضُولٌ عَابِث، لا يَدْخُلُ فِي قَصْدِ العُقَلاء، وقَدْ بَنَى أسْلَافُنَا المُسْلِمُونَ لِكُلٍّ أولَئِكَ مُجْتَمِعَةً ومُتَفَرِّقَة: بَنُوا المَسَاجِدَ مَظْهَرًا لِلْخَيْر، وشَادُوا المَدَارِسَ مَظْهَرًا لِلْمَنْفَعَة، وأعْلَوا الحُصُونَ مَظْهَرًا لِلْقُوَّة، وسَمَكُوا القُصُورَ مَظْهَرًا لِلْجَمَال."

[1] وشي الربيع ص 90.

فالكاتب كما ترى قد وضع أقسام الكمال أو المجد ضمن أربعة أقسام: الخير، والمنفعة، والقوة، والجمال، وما عدا هذه الأربعة إنما هو عَبَثٌ وفُضُول، ثم وزَّع المظاهر على الأقسام: فالمساجدُ مظهر للخير، والمدارس مظهر للمنفعة، والحصون مظهر للقوة، والقصور مظهر للجمال. بذلك ضمَّ أسلافُنا أطراف الفخر، وجمعوا حواشيَ المجد، وحازوا آفاق الكمال، ونالوا أوسمة العظمة.

وهذا علي الجارم في وصف الحرب العالمية الأولى يقول:

فـــي البَـــرِّ، فـــي البَحْـــرِ، ومِـــنْ فَـــوْقِهِمْ لَـــمْ يَتْـــرُكِ المَـــوْتُ لَهُـــمْ مَوْضِـــعَا

فالشاعر قد أتى على ذكر مسارح الحرب الثلاثة: البر والبحر والجو، نقول إنّ الشاعر قد استوفى جميع أقسام المعنى المطروق، ولو كان هناك جبهة رابعة يأتي منها الموت ما غفل عنها الشاعر.

ومن بديع صحة التقسيم، واستيفاء جميع أجناس المعنى المطروق قول مصطفى صادق الرافعي:

أمَّـــا أنَـــا فَأتَـــانِي البَـــدْرُ مُزْدَهِيًـــا وقَـــال: جِئْـــتُ بِمَعْنًـــى مِـــنْ مَعَانِيهَـــا

فقُلْـــتُ: مِـــنْ خَـــدِّهَا، أمْ مِـــنْ لَوَاحِظِهَـــا أم مِـــــنْ تَـــدَلُّلِهَا أمْ مِـــــنْ تَأبِّيهَـــــا؟

أمْ مِـــــنْ مَعَاطِفِهَـــا أمْ مِـــنْ عَوَاطِفِهَـــا أمْ مِـــنْ مَرَاشِـــفِهَا أمْ مِـــنْ مَجَانِيهَـــا؟

أمْ مِـــــنْ تَفَتُّرِهَـــا أمْ مِـــنْ تَكَسُّـــرِهَا أمْ مِـــنْ تَلَفّتِهَـــا أمْ مِـــنْ تَثَنِّيهَـــا؟

فَقَـالَ وهُـوَ حَزِيـنٌ: مَـا اسْتَطَعْـتُ سِـوَى أنِّـــي خَطَفْـــتُ ابْتِسَـــامًا لَاحَ مِـــنْ فِيـهَـا

ومن التقسيم قول صادق الرافعي مادحا:

فـــي حِلْـــمِ عُثْمَـــانٍ وهَيْبَـــةِ حَيْـــدَرٍ وعَـــدْلِ أبِـــي حَفْـــصٍ وعَـــزْمِ أبِـــي بَكْـــرِ

فالشاعر قد استوفى جميع أقسام المعنى، وهو تشبيهه لممدوحه بالخلفاء الراشدين، وهم أربعة: عثمان بن عفّان، وعليّ بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وأبو بكر الصديق، رضي الله عنهم جميعا، هذا بالإضافة إلى ذكر الصفة الملازمة لكل قسم من تلك الأقسام.

وما أجود قول الصافي النجفي في صحة التقسيم حين يقول مفتخرا:

فكـــمْ جُبْـــتُ سَهْـــلا وارْتَقَيْـــتُ رَوَاسِـــيًـــا وكَـــمْ جُـــزْتُ مِـنْ قَفْـرٍ وكَـمْ خُضْتُ مِـنْ يَـمِّ

فالشاعر قد ذكر أنواع التضاريس، فأصاب صحة التقسيم، وذلك حين أتى على ذكر السهول، والجبال، والصحاري، والبحار.

ومن صحة التقسيم قول أحمد شوقي:

طُبِعَـــتْ مِـــنَ السُّـــمِّ الحَيَـــاةُ، طَعَامُهَـــا وشَـــــرَابُهَا، وهَوَاؤُهَـــــا المُتَنَشَّـــــقُ

ومن فرائد التقسيم قول معروف الرصافي في فضل المعلّم:

فـــإنَّ لَـــهُ مِنْـــكَ الحِجَـــا وهُـــوَ جَـــوْهَرٌ ولِلْوَالِـــدَيْنِ العَظْـــمُ واللَّحْـــمُ والـــدَّمُ

ومن هذا البَدِيعِ قَوْلُ ناصيف اليازجي كذلك:

أجْسَـــامُهُمْ للثّـــرَى تُعْطَـــى وأنْفُسُـــهُم للهِ والمَـــالُ للأعْقَـــابِ فـــي القِسَـــمِ

فقد قَسَّمَ الشاعرُ مَعْنَاهُ قِسْمَةً عَادِلَة، فَذَكَرَ أنَّ أجْسَادَ الأعداء للتُّرَاب، وأنْفُسَهُمْ لله، ومَالَهُم لِلْوَرَثَة، يَقْتَسِمُونَهُ فيما بينهم.

ومن هذا الفنّ قول محمود درويش:

لا أحِنُّ إلى أيِّ شَيْء

فلا أمْس يمْضِي، ولا الغدُ يأتِي

ولا حَاضِري يَتَقَدَّم أو يَتَرَاجَع.

فالشاعرُ لم يُغَادِرْ زَمَنًا إلَّا أحْصَاه: (الأمْس، واليوم، والغَد).

ومن نماذج التقسيم قول محمد العيد في وصف البادية:

وفـــي المَـــزَارِعِ قُطْعَـــانٌ مُنَوَّعَـــةٌ ضَـــأنٌ ومَعْـــزٌ وأبْقَـــارٌ وأنْيَـــاقُ

والـــوَحْشُ سَـــلْوَانُ فـــي الغَابَـــاتِ مُنْطَلِـــقُ والطَّيْـــرُ جَـــذْلانُ فـــي الأوْكَـــارِ زَقْـــزَاقُ

ومن بدائعه أيضا قول الشاعر أحمد الكاشف:

دَعُـــوا قِسْمَـــةَ الأسْـــلَابِ قَبْـــلَ وُقُـــوعِـــهـــا فَمَـا صَحَّ فيـها الضَّـرْبُ والجَمْعُ والطَّـــرْحُ

الأكيدُ أنَّك كَشَفْتَ كيف ذَكَرَ الشاعرُ جميعَ عمليَّات الحِسَاب، وهي: القِسْمَة، والضَّرْب، والجَمْع، والطَّرْح.

وما أبدع قول الشاعر في صحة التقسيم حين أنشد:

فَخَرِيـــفُ عَقْلِـــي مِـــنْ مَصِـــيفِ حُشَاشَـــتِي وَرَبِيـــعُ قَلْبِـــي مِـــنْ شِـــتَاءِ مَـــدَامِعِي

فالشاعر كما ترى قد استوفى جميع فصول السنة، وهي أربعة فصول، لا خامس لها.

ومن فرائد صحة التقسيم نثرا قول مصطفى لطفي المنفلوطي: "إنِّي أَرَى النَّاسَ أَرْبَعَةً: رَجُلٌ يُحْسِنُ إِلَى غَيْرِه، لِيَتَّخِذَ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ سَبِيلًا إِلَى الإِحْسَانِ إِلَى نَفْسِه، وهُوَ المُسْتَبِدُّ الجَبَّار، الَّذِي لَا يَفْهَمُ مِنَ الإِحْسَانِ إِلَّا أَنَّهُ يَسْتَعْبِدُ الإِنْسَان، ورَجُلٌ يُحْسِنُ إِلَى نَفْسِه، ولا يُحْسِنُ إِلَى غَيْرِه، وهُوَ الشَّرِهُ المُتَكَالِب، الَّذِي لَوْ عَلِمَ أَنَّ الدَّمَ السَّائِلَ يَسْتَحِيلُ إِلَى ذَهَبٍ جَامِد ، لَذَبَحَ فِي سَبِيلِهِ النَّاسَ جَمِيعا، ورَجُلٌ لَا يُحْسِنُ إِلَى نَفْسِه، ولَا إِلَى غَيْرِه، وهُوَ البَخِيلُ الأَحْمَق، الَّذِي يُجِيعُ بَطْنَهُ لِيُشْبِعَ صُنْدُوقَه، وأَمَّا الرَّابِع، وهُوَ الَّذِي يُحْسِنُ إِلَى غَيْرِه، ويُحْسِنُ إِلَى نَفْسِه، فَلَا أَعْلَمُ لَهُ مَكَانًا، ولَا أَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلا، وأَحْسَبُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يُفَتِّشُ عَنْهُ الفَيْلَسُوفُ الحَكِيمُ حِينَمَا سُئِل: مَا يَصْنَعُ بِمِصْبَاحِه؟ وكَانَ يَدُورُ بِهِ فِي بَيَاضِ النَّهَار، قَال: أُفَتِّشُ عَنْ إِنْسَان".

بلاغة صحة التقسيم:

في صحة التقسيم يجد المتلقِّي راحة نفسية حين يرى أنّ الأديبَ قد أحاط بجميع أقسام المعنى المطروق، فتطرب نفسه بهجة، ويمتلئ قلبه إعجابا، "وممّا لا شك فيه أن التقسيم ينبئ عن الدقة في الكلام، والإحاطة بالشيء من جميع جوانبه، حيث يفهم أسرارها فيظهرها، ولذلك فهو يقوّي المعاني، ولا يعطي للسامع مجالا آخر للفهم والبيان، لأن المتكلم الذي يحيط بجميع أقسام الشيء لا بد وأن يكون عالما بتفاصيله، محيطا

بجزئياته، فيقع في نفس السامع موقعا حسنا، ويثبُت في العقول والقلوب، وما البلاغة إلا إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ."[1]

تدريب: حدِّدِ التقسيم، وبيِّنْ صِحَّتَهُ في الأمثلة الآتية:

- قال أحمد أمين: "إنَّ النَّاسَ يَتَفَاوَتُونَ في المَعْرِفَةِ تَفَاوُتًا بَيِّنًا، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ إذا أَرَادَ أنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى حُجْرَة ومَا فِيهَا نَظَرَ مِنْ ثُقْبِ البَاب، فَرَأَى بِسَاطًا هُنا، وكُرْسِيًّا هُنَاك، ثُمَّ زَعَمَ أنَّهُ عَرَفَهَا، ومِنْهُمْ مَنْ عَلَا دَرَجَةً عَنْ هَذَا، فَفَتَحَ البَاب، ووَقَفَ فِي زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا الحُجْرَةِ في ضَوْءٍ قَلِيل، وزَعَمَ أنَّهُ رَآهَا، وهَذَانِ مَوْقِفُهُمَا مَوْقِفُ العَّامَةِ وأشْبَاهُهُمَا، ومِنْهُمْ مَنْ تَعَمَّدَ أنْ يَدْخُلَهَا فِي وَضَحِ النَّهَار، ويَقِفَ فِي جَمِيعِ الزَّوَايَا، ويَفْحَص، ويَمْتَحِنَ كُلَّ مَا فِيها، وهَذَا هُوَ العَالِم، ومِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِك، ثُمَّ لا يَكْتَفِي بِه، بَلْ يُحَاوِلُ أنْ يَعْرِفَ شَأْنَ الغُرْفَةِ مِنَ المَنْزِل، ومَوْضِعَ المَنْزِلِ مِنَ الشَّارِع، ومَكَانَ الشَّارِعِ مِنَ المَدِينَة، ومَنْزِلَةَ المَدِينَةِ مِنَ القُطْر، ومَكَانَ القُطْرِ مِنَ العَالَم، وذَلِكَ هُوَ الفَيْلَسُوفُ مِنْ جَانِب، والرُّوحِيُّ الحَقُّ مِنْ جَانِب".

- قال عائض القرني في إحدى مقاماته، واصفًا جُلَّ القنوات الفضائية العربية: "أوْقَاتُ الشَّاشَةِ أرْبَعَةُ أقْسَامٍ عَلَى التَّمَام: قِسْمٌ للسِّيَاسَة، ومَا تَحْمِلُهُ مِنْ تَعَاسَة، وقِسْمٌ للرِّيَاضَة، والتَّبَجُّحِ بِهَا بِلَا غَضَاضَة، وقِسْمٌ للاقْتِصَاد، وعَرْضِ قِصَّةِ المَالِ عَلَى العِبَاد، وقِسْمٌ لِلْفَنِّ والغِنَاء، ودَغْدَغَةِ العَوَاطِفِ والإغْرَاء."

- قال أبو القاسم خمّار واصفا الشعب الجزائري أيام الاستعمار:

يَمُوتُـــونَ غَرْقَـــى، وشَـــنْقًا، وجَمْـــرَا ... يَمُوتُـــونَ رَمْيًـــا، وذَبْحًـــا، وجَـــزْرَا

يَمُوتُـــونَ هَوْسًـــا، ودَوْسًـــا، ورَفْسَـــا ... يَمُوتُـــونَ بُؤْسًـــا، وسُـــقْمًا، وفَقْـــرَا

يَمُوتُـــونَ حُزْنًـــا، وغَيْضًـــا، ويَأْسَـــا ... يَمُوتُـــونَ حِقْـــدًا وثَـــأْرًا وغَـــدْرَا

يَمُوتُـــونَ نَأْيًـــا، وأَسْـــرًا، وصَـــبْرَا ... يَمُوتُـــونَ ظُلْمًـــا، وجَـــوْرًا، وقَهْـــرَا

- قال إيليا أبو ماضي:

قَالَـــتْ وَصَـــفْتَ لَنَـــا الرَّحِيـــقَ وكُوبَهَـــا ... وصَـــــرِيعَهَا ومُـــــدِيرَهَا والعَاصِـــــرَا

- قال خليل مطران:

فَتًـــى لَـــمْ يَكُـــنْ فِـــي قَوْلِـــهِ وفِعَالِـــهِ ... وبَادِيـــهِ والخَـــافِي سِـــوَى كُـــلِّ جَيِّـــدِ

- قال الشاعر القروي:

رَأَيْتُـــكَ قَـــدْ وَقَفْـــتَ عَلَـــى الحِيَـــادِ ... أَأَنْـــتَ مِـــنَ الصِّـــحَابِ أَمِ الأَعَـــادِي؟

- قال أحمد شوقي:

والنَّـــاسُ بَـــاذِلُ رُوحِـــهِ، أَوْ مَالِـــهِ ... أَوْ عِلْمِـــهِ، والآخَـــرُونَ فُضُـــولُ

- قال شاعر المهجر رشيد أيوب:

[1] وشي الربيع ص 91.

ورُحْـــتُ كَـــأنِّي بَـــيْنَ مَـــاضٍ وحَاضِـــرِ ومُسْـــــــتَقبَلِ الأيَّـــــــامِ أدْرِي ولا أدْرِي

- قال الشاعر:

تَعَلّقْتُهَـــــا طِفْـــــلًا صَـــــغِيرًا، ونَاشِـــــئًا كَبِيـــرًا، وهَـــا رَأسِـــي بِهَـــا سَيَشِـــيبُ

- قال صفيُّ الدين الحليّ:

أَسِـــيرُ ومِـــنْ فَـــوْقِي وتَحْتِـــي ووُجْهَتِـــي وخَلْفِـــي ويُمْنَـــايَ الهَـــوَى وشِـــمَالِيَا

- وقال صفيّ الدين أيضا:

فَعَلَيْـــكَ السَّـــلامُ حَيًّـــا، ومَيِّتًـــا ورَضِـــيعًا، ويَافِعًـــا، وفَطِيمَـــا

- قال ابن نباتة المصري:

لَيَشْـــكُرَنَّكَ مِنِّـــي الـــدَّهْرَ أرْبَعَـــةٌ نَفْـــسٌ ورُوحٌ ولَحْـــمٌ نَابِـــتٌ ودَمُ

- قال ابن معصوم:

فَحَـــازَ مَـــا حَـــازَهُ أَقْرَانُـــهُ وحَـــوَى مَـــا شَـــذَّ عَـــنْ سَـــلَفٍ مِـــنْهُمْ وعَـــنْ خَلَـــفِ

الجَمْعُ مَعَ التَّفْرِيق

تعريفه: يُعَرِّفُهُ عُلَمَاءُ البَدِيعِ بِأَنَّهُ الجَمْعُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فِي حُكْمٍ وَاحِد، ثُمَّ التَّفْرِيقُ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ الحُكْم.[1]

ولتوضيح ذلك نذكر النموذج الآتي:

- قال معروف الرصافي في الرثاء:

والــدَّمْعُ والشِّــعْرُ مِمَّــنْ قَــدْ بَكَــى بِهِمَــا كِلَاهُمَــا حَكَيَــا فِــي يَوْمِــهِ الــدُّرَرَا

فَالشِّــعْرُ مِــنْ هَــذِهِ الأَكْبَــادِ بَــلَّ صَــدًى والــدَّمْعُ مِــنْ هَــذِهِ الأَوْطَــانِ بَــلَّ ثَــرَى

يقول الرصافي إنّ الشعراء، وعامةَ الناس الكلّ بكى الفقيد بطريقته: فالعامة بكته بالدموع، والشعراء بكوه بأشعار الرثاء، ومن الملاحظ أن الرصافي قد جمع بين الدمع والشعر تحت حكم واحد، وهو تشبيههما بالدرر، ثم عاد وفرق بينهما من حيث الأثر: فالأشعار بلّت صَدَى أيْ عَطَشَ الأكباد، والدموع بلّت ثرى الأوطان.

- وقال معروف الرصافي في قصيدة "أم اليتيم":

فتُــذْرِي دُمُوعًــا كالجُمَــانِ تَنَــاثَرَتْ وتَضْــحَكُ عَــنْ مِثْــلِ الجُمَــانِ المُــنَظَّمِ

فالشاعر قد جمع بين دموع الأم وأسنانها في مشابهة كلّ منهما للجُمان، ثم فرق بينهما في أنْ جعل مشابهة الدموع للجُمان في التناثر، ومشابهة الأسنان للجُمان في الانتظام.

- قال الشاعر ميخائيل نعيمة مخاطبا النهر المتجمد:

يَـا نَـهْرُ ذَا قَـلْبِـي أَرَاهُ كَـمَـا أَرَاكَ مُـكَـبَّـلَا

والفَرْقُ أَنَّكَ سَوْفَ تَنْشُطُ مِنْ عِقَالَكَ وَهوَ لَا

فالشاعر قد جمع بين قلبه والنهر في حكم واحد، وهو التكبيل، والتقييد، ثم فرق في هذا الحكم: فالنهر سوف يتحرر من قيده أيّامَ الربيع، أمّا قلب الشاعر فهيهات أن يتحرر، وينعتق من قيود الهموم.

- قال الشاعر الجزائري محمد الصالح خبشاش مخاطبا الطير:

فَأَنَــا وأَنْــتَ النَّائِحَــانِ عَلَــى الحِمَــى وأَنَــا وأَنْــتَ المُثْخَنَــانِ جِرَاحَــا

لَــوْ كُنْــتُ مِثْلَــكَ مُطْلَقًــا حُــرًّا لَمَــا ضَــيَّعْتُ وَقْتِــي حَسْــرَةً ونُوَاحَــا

فالشاعر قد جمع بينه وبين الطير تحت حكم واحد وهو النُّواح، غير أنه عاد وفرق بينه وبين الطائر، فالطير حرٌّ ومطلق، وهو مكبّلٌ ومقيّد.

- ومن أجمل وأبرع ما وقفتُ عليه من شواهد هذا الفن قولُ ميخائيل نعيمة: "مِنْ أَكْمَلِ كَمَالَاتِ العَرَبِيَّة، وأَسْمَاهَا، جَعْلُ الكَلِمَتَيْنِ "البَصَر"، و"البَصِيرَة" تَوْأَمَيْنِ مِنْ بَطْنٍ وَاحِد، ولَكِنَّ هَذَا التَّوْأَمَ غَيْرُ ذَاك، فَكَأَنَّهُمَا وَاحِد، ولَيْسَا بِوَاحِد، فَالعَيْنُ إِذْ تَمَرُّ بِهِمَا تُحِسُّ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ تَشَابُه، ولَكِنَّهَا تُحِسُّ مَعَ هَذَا التَّشَابُهِ تَبَايُنًا، والأُذُنُ إِذْ تَلْتَقِطُهُمَا تَسْتَأْنِسُ فِي الاثْنَيْنِ بِرَنَّةٍ تَكَادُ تَكُونُ وَاحِدَة، ولَكِنَّهَا لَيْسَتْ وَاحِدَة، فَهُمَا أَبَدًا مُتَشَابِهَان، مُتَنَاقِضَان،

[1] علم البديع عبد العزيز عتيق ص 160.

أمَّا التَّشَابُهُ فَفِي المَصْدَر، وأمَّا التَّنَاقُضُ فَفِي الطَّرِيق، فَالبَصَرُ - ومَرْكَزُهُ العَيْنُ- يَحْصُرُ كُلَّ هَمِّهِ فِي الْتِقَاطِ أَشْكَالِ الأَشْيَاءِ وأَلْوَانِهَا، ومِنْ أَشْكَالِهَا وأَلْوَانِهَا يُحَاوِلُ أَنْ يَنْفُذَ إِلَى كُنْهِهَا، فِي حِينِ أنَّ البَصِيرَةَ - ومَرْكَزُهَا القَلْبُ أو الوِجْدَان- هَمُّهَا الوُصُولُ إِلَى بَوَاطِنِ الأَشْيَاء، دُونَ التَّلَهِّي بِظَوَاهِرِهَا، فَالاثْنَانِ يَدْأَبَانِ وَرَاءَ المَعْرِفَة، لَكِنَّ سَبِيلَ الوَاحِدِ غَيْرُ سَبِيلِ الآخَر."

- قال إيليا أبو ماضي في قصيدة "بائعة الورد":

كَأَنَّمَـــا وَهَبَتْهَـــا الشَّـــمْسُ صَـــفْحَتَهَا وَجْهًـــا وحَاكَـــتْ لَهَـــا أَسْـــلَاكَهَا شَـــعَرَا

فالشاعر قد جمع بين وجهِ الحسناءِ وشعرِها تحت حكم واحد، وهو التشبيه بالشمس، ثم فرّق بينهما من جهة وجه الشبه، فجعل وجهَها كالشمس في صفحتها، وشعرَها كالشمس في أسلاكها (أشعتها).

- قال حافظ إبراهيم في تهنئة الخديوي عباس بعيد الأضحى:

عَبَّـــاسُ والعِيـــدُ الكَبِيـــرُ كِلَاهُمَـــا مُتَـــأَلِّقٌ بِإِزَائِـــهِ مُتَـــأَلِّقُ

هَـــذَا لَـــهُ تَجْـــرِي الـــدِّمَاءُ وذَا لَـــهُ تَجْـــرِي القَـــرَائِحُ بِالمَـــدِيحِ وتُعْنِـــقُ

فالشاعر قد جمع بين ممدوحه وعيد الأضحى تحت حكم واحد، وهو التألق، ثم فرّق بينهما في وجه الشبه، فالأول تجري له القرائح بالثناء، والثاني تجري له المسالك بالدماء.

- قال مصطفى صادق الرافعي:

تَـــاللهِ لَـــوْ جـــدَّدُوا لِلْبَـــدْرِ تَسْـــمِيَةً لأَعْطِـــيَ اسْـــمَكِ يَـــا مَـــنْ تَعْشَـــقُ المُقَـــلُ

كِلَاكُمَـــا الحُسْـــنُ فَتَّانًـــا بِصُـــورَتِهِ وزِدْتِ أَنَّـــكِ أَنْـــتِ الحُـــبُّ والغَـــزَلُ

حيث جمع الشاعر بين الحبيبة والبدر في حكم واحد، وهو الحسن الفتّان، ثم فرق بينهما في العاطفة، فالمحبوبة تُعشق، وأمّا البدر فلا.

- قال أحمد شوقي في الاغتراب مخاطبا الحَمَام:

أَرَاكَ يَمَانِيًّـــا، ومِصْـــرُ خَمِيلَتِـــي كِلَانَـــا غَرِيـــبٌ نَـــازِحُ الـــدَّارِ مُوجَـــعُ

ومِـــنْ عَجَـــبِ الأَشْـــيَاءِ أَبْكِـــي وأَشْـــتَكِي وأَنْـــتَ تُغَنِّـــي فِـــي الغُصُـــونِ وتَسْـــجَعُ

فالشاعر قد جمع بينه وبين الحمام في صفة الاغتراب، لكنه فرق بينهما في وجه الشبه: فالحمام يغني ويسجع، وهو في بكاء وشكوى.

- وقال شوقي مُخَاطِبًا الطَّيْر:

بِـــي مِثْـــلُ مَـــا بِـــكَ مِـــنْ جَـــوىً ونَـــوىً أَنَـــا فِـــي الأَنَـــامِ وأَنْـــتَ فِـــي القمَـــرِ

فالشاعر قد جمع بين نفسه وبين الطير في حكم واحد، وهو الشوق والبعد، لكنه فرق بينهما بأن جعل نفسه في الأرض قرب البشر، وجعل الطير في السماء قرب القمر.

- قال إيليا أبو ماضي في قصيدة "أنا والنّجم":

مِثْلِـــي هَـــذَا الـــنَّجْمُ فِـــي سُـــهْدِهِ وَمِثْلُـــهُ المَحْبُـــوبُ فِـــي بُعْـــدِهِ

جمع الشاعر بين نفسه وبين محبوبه في حكم واحد، وهو تشبيههما بالنجم، ثم فرّق في ذلك الحكم، فالنجم مثله في السهد، ومثلُ محبوبه في البُعد.

تدريب: حدِّد الجَمْعَ مع التَّفْرِيقِ في الأمثلة الآتية، واشرحه:

- قال توفيق الحكيم: "الفَنَّانُ والعَالِمُ كِلَاهُمَا يَكْشِفُ عَنْ الطَّبِيعَة، غَيْرَ أَنَّ الفَنَّانَ يَكْشِفُ عَنْهَا مِنْ خِلَالِ نَفْسِه، والعَالِمَ يَكْشِفُ عَنْهَا مِنْ خِلَالِ المِجْهَر، فَالفَنُّ مَصْدَرُهُ الشَّخْص، والعِلْمُ مَصْدَرُهُ المَوْضُوع".

- قال مصطفى لطفي المنفلوطي: "الكَاتِبُ كَالمُصَوِّر، كِلَاهُمَا نَاقِل، إِلَّا أَنَّ الأَوَّلَ يَنْقُلُ مَشَاعِرَ النَّفْسِ إِلَى النَّفْس، والثَّانِيَ يَنْقُلُ مَشَاهِدَ الحِسِّ إِلَى الحِسّ."

- وقال المنفلوطي: "الشِّعْرُ والفَلْسَفَةُ كِلاهُمَا غِذَاء، غَيْرَ أَنَّ الفَلْسَفَةَ غِذَاءُ العَقْل، بِرَزَانَتِهَا وهُدُوئِها، وحُجَجِهَا وبَرَاهِينِها، والشِّعْرَ غِذَاءُ النَّفْس، بِرَنَّاتِهِ ونَغَمَاتِه، وأَهَازِيجِهِ ونَبَرَاتِه."

- قال مصطفى صادق الرافعي: "النَّوْمُ والمَوْتُ كالشَّيْءِ الوَاحِد، فالنَّوْمُ غَفْلَةٌ، تُخْرِجُ الحَيَّ هُنَيْهَةً مِنَ الحَيَاةِ، وهُوَ فِيهَا، عَلَى حَالَةٍ أُخْرَى، والمَوْتُ غَفْلَةٌ، تُخْرِجُهُ مِنَ الحَيَاةِ كُلِّهَا إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى".

- قال الشاعر الجزائري محمد جربوعة في الغزل:

مِثْلَ الحَدِيقَةِ، لا أُبَالِغُ، مِثْلَهَا

والفَرْقُ أَنَّ وُرُودَهَا ، لَا تَذْبُلُ.

- قال إسماعيل صبري:

لِشَخْصِـكِ مِـنْ زَهْـرِ الرُّبَـى لَقَـبُ الوَرْدِ وهَيْهَـاتَ مَـا لِلْـوَرْدِ حُسْنُـكِ فِـي الـوُدِّ

تَفُوقِينَـــهُ لَوْنًـــا وريحًـــا ومَنْظَـــرًا وبُقْيَـــا عَلَـــى عَهْـــدِ الصَّـــبَابَةِ والوَجْـــدِ

فَلِلْـــوَرْدِ شَـــهْرٌ وَاحِـــدٌ ثُـــمَّ يَنْقَضِـــي وَوَرْدُكِ بَـــاقٍ لَا يَـــزُولُ عَـــنِ الخَـــدِّ

ولِلْـــوَرْدِ رِيـــحٌ وَاحِـــدٌ لَا يَجُـــوزُهُ ونَشْـــرُكِ رِيـــحُ الـــوَرْدِ والمِسْـــكِ والنَّـــدِّ

- قال معروف الرصافي في مقارنته بين (سعدون) في العراق و(سعد) في مصر:

سَـــعْدٌ وسَـــعْدُونُ مَحْمُـــودٌ مَقَامُهُمَـــا هَـــذَا بِمِصْـــرَ وهَـــذَا هَهُنَـــا اشْـــتَهَرَا

وإِنَّ سَـــعْدُونَ دَانَـــى الشَّـــمْسَ مَنْزِلَـــةً وإِنَّ سَـــعْدًا بِمِصْـــرٍ قَـــارَنَ القَمَـــرَا

إِنْ كَـــانَ قَـــدْ أَرْخَـــصَ الأَمْـــوَالَ سَـــعْدُكُمُ فَـــإِنَّ سَـــعْدُونَنَا قَـــدْ أَرْخَـــصَ العُمُـــرَا

- قال محمود سامي البارودي في عقد مقارنة بينه وبين الحمامة:

قَـــدْ أَشْبَهَتْنِـــي فِـــي الـــهَـــوَى لَكِنَّهَـــا لَـــمْ تَحْكِنِـــي فِـــي لَوْعَتِـــي وبُكَـــائِـــي

مَـــالَ النَّسِيـــمُ بِهَـــا ومَـــالَ بِـــي الأَسَـــى شَتَّـــانَ بَيْـــنَ نَعِيـــمِـــهَـــا وشَقَـــائِـــي

- قال الشاعر في وَصْفِ بُكَائِهِ وبُكَاءِ مَحْبُوبَتِه:

أَبْكِـــي وتَبْكِـــي غَيْـــرَ أنَّ الأَسَـــى دُمُوعُـــهُ غَيْـــرُ دُمُـــوعِ الـــدَّلَالِ

- قال عفيف الدين التلمسانيّ:

بَـــيْنَ فُـــؤَادِي وخَـــدِّهَا نَسَـــبُ كِلَاهُمَـــا بِـــالجَحِيمِ يَلْتَهِـــبُ

هُمَـــا سَـــوَاءٌ والفَـــرْقُ بَيْنَهُمَـــا أنَّهُمَـــا سَـــاكِنٌ ومُضْـــطَرِبُ

- قال سراج الدين الوراق:

وقَـــدْ تُشْـــبِهُ الحَالَـــةُ الأُخْـــرَى وَبيْنَهُمَـــا إذَا تَأَمَّلْـــتَ فَـــرْقٌ عَـــنْ سِـــواكَ خَفِـــي

فَرُبَّمَـــا صَـــفّقَ المَسْـــرُورُ مِـــنْ طَـــرَبٍ وَرُبَّمَـــا صَـــفّقَ المَحْـــزُونُ مِـــنْ أَسَـــفِ

- قال الشاعر:

قَلْبِـــي ودَمْعِـــي فِـــي هَـــوَاهُ تَطَابَقَـــا فَمُقَيَّـــدٌ هَـــذَا وهَـــذَا مُطْلَـــقُ

- قال الشاعر:

نَـــارٌ ومَـــاءٌ بِكَفّيْـــهِ قَـــدِ اجْتَمَعَـــا فالنَّـــارُ لِلْحَتْـــفِ أمَّـــا المَـــاءُ لِلْكَـــرَمِ

الجَمْعُ مع التَّقْسِيم

تعريفُه: "هُوَ جَمْعُ مُتَعَدِّدٍ تَحْتَ حُكْمٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ تَقْسِيمُه، أو العَكْس، أيْ تَقْسِيمُ مُتَعَدِّدٍ، ثُمَّ جَمْعُهُ تَحْتَ حُكْمٍ وَاحِدٍ"[1] بعبارة أوضح: هُوَ أنْ يَجْمَعَ المُتَكَلِّمُ بَيْنَ شَيْئَيْن، أوْ أكْثَرَ تَحْتَ حُكْمٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يُقَسِّمَ مَا جَمَع، أوْ يُقَسِّمَ أوَّلا، ثُمَّ يَجْمَع.

فالجمع الذي يتلوه التقسيم يمثّله قول نزار قباني في بعض نثريّاته: "طَبَائِعُ المُدُن، وطَبَائِعُ النِّسَاءِ تَتَشَابَه: فَثَمَّةَ مُدُنٌ مَكْشُوفَة، تُعْطِيكَ نَفْسَهَا مُنْذُ اللَّحْظَةِ الأُولَى، وثَمَّةَ مُدُنٌ غَامِضَةٌ لا تَكْشِفُ أسْرَارَهَا لِعُشَّاقِهَا إلَّا بالتَّقْسِيط، وثَمَّةَ مُدُنٌ سِيَاحِيَّةٌ تَسْتَقْبِلُ مَلَايِينَ الوُجُوه، ثُمَّ تَشْطِبُهُمْ مِنْ ذَاكِرَتِهَا بَعْدَ دَقَائِقَ مِنْ رَحِيلِهِم، وثَمَّةَ مُدُنٌ تُؤْمِنُ بِشَاعِرِيَّةِ اللَّيْل، وتَعِيشُهُ طُولًا وعَرْضا، وثَمَّةَ مُدُنٌ تَاجِرَة، بَاعَتْ قَلْبَهَا للشَّرِكَاتِ السِّيَاحِيَّة، ووَضَعَتْ مَكَانَهُ قَلْبًا مِنَ البلاسْتِيك، وثَمَّةَ مُدُنٌ مُثَقَّفَة، كُلُّ هَمِّهَا أنْ تَبْنِيَ مَسْرَحًا، أوْ مَتْحَفًا، أوْ دَارَ أُوبْرَا، وثَمَّةَ مُدُنٌ تَسْتَقْبِلُكَ بالأزْهَارِ والبَسَمَات، وتَأْخُذُكَ بالأحْضَان، وأخِيرًا ثَمَّةَ مُدُنٌ تَكْشِفُ عَنْ حَقَائِبِكَ بِأَشِعَّةِ اللِّيزَر، وتَتْرُكُ وَاجِبَ التَّرْحِيبِ لِلْكِلَابِ البُولِيسِيَّة".

فالأديب قد جمع طبائع المدن تحت حكم واحد، وهو تشبيهها بطبائع النساء، ثم قسّم طبائع النساء، ومنه أقسام المدن إلى ثمانية أقسام كاملة.

ومن جواهر الجمع مع التقسيم قول إيليا أبي ماضي واصفا الحرب العالمية، وحال بني البشر فيها:

والمَـــوْتُ مِـــنْ قُـــدَّامِهِمْ وَوَرَائِهِـــمْ ... والهَـــوْلُ كُـــلَّ ثَنِيَّـــةٍ ومَكَـــانِ

فَـــالجَوُّ مِمَّـــا فَـــاضَ مِـــنْ أَرْوَاحِهِـــمْ ... لَا تَسْـــتَبِينُ نُجُومَـــهُ عَيْنَـــانِ

والنَّهْـــرُ مِمَّـــا سَـــالَ مِـــنْ مُهَجَـــاتِهِمْ ... يَجْـــرِي عَلَـــى أَرْضٍ مِـــنَ المُرْجَـــانِ

والأَرْضُ حَمْـــرَاءُ الأَدِيـــمِ كَأَنَّهَـــا ... خَـــدُّ الحَبِيَّـــةِ أَوْ خَضِـــيبُ بَنَـــانِ

فالشاعر كما رأيت في البيت الأول قد جمع عدة أشياء تحت حكم واحد، فقد جمع كل الأمكنة حينما شمّرت الأرض عن ساقها تحت حكم واحد، وهذا الحكم كان الموتَ أو الهلاك، ثم قسم مصادر هذا الموت إلى ثلاثة أقسام مختلفة: الموت القادم من الجو، والموت القادم من البحر، والموت القادم من البرّ، وتلك هي أقسام المكان بالتّمام والكمال.

ومن روائع هذا الفن قول ميخائيل نعيمة في الفقر الرُّوحِي: " لَيْسَ مِنَ المَجَازِ فِي شَيْءٍ أَنْ تَنْعَتَ عَامَّةَ النَّاسِ بِالفَقْر: كُلُّ مُنَافِقٍ أوْ سَارِقٍ أوْ فَاسِقٍ فَقِير، كُلُّ غَضُوبٍ أوْ حَقُودٍ أَوْ نَاقِمٍ فَقِير، كُلُّ حَسُودٍ أَوْ نَمَّامٍ أوْ مُرَاءٍ فَقِير، كُلُّ مَزْهُوٍ بِمَالٍ أوْ جَمَالٍ أوْ سُلْطَانٍ فَقِير، كُلُّ مَغْرُورٍ بِأَصْلِهِ أوْ بِفَصْلِهِ أوْ بِعَمَلِهِ فَقِير، كُلُّ مُعْتَزٍّ بِلَقَبٍ أوْ وِسَامٍ أوْ مَنْصِبٍ فَقِير، كُلُّ مَنْ كَانَ ذِئْبًا فِي جِلْدِ حَمَلٍ فَقِير، كُلُّ مَنْ أَكَلَ خُبْزَهُ بِعَرَقِ جَبِينِ غَيْرِهِ فَقِير، كُلُّ مَنْ أَذَلَّ جَارَهُ لِيَعْتَزّ، وأَجَاعَهُ لِيَشْبَعَ فَقِير، كُلُّ مَنْ رَكِبَ هَوَاهُ وجَهِلَ مُبْتَدَاهُ ومُنْتَهَاهُ فَقِير، ولَوْ شِئْتَ أَنْ

[1] علم البديع عبد العزيز عتيق ص 158.

أُعَدِّدَ كُلَّ مَا فِي النَّاسِ مِنْ ضُرُوبِ الفَقْرِ الرُّوحِيِّ لَمَا انْتَهَيْت، إلَّا أَنَّنِي أَكْتَفِي بِهَذَا الحَدّ، لِتَعْرِفَ أَنَّ عَامَّةَ النَّاسِ فُقَرَاء."

فالكاتب قد جمع عامّة الناس تحت حكم واحد، وهو الفقر الرّوحيّ، ثم قسمهم ضروبا لا حصر لها، غير أنه عاد في النهاية، وحكم عليهم حُكمه السابق.

- قال أحمد شوقي في تهنئة الدكتور علي باشا إبراهيم:

تُعَـــالِجُ كَفّـــاكَ بُـــؤْسَ الحَيَـــاةِ فَكَـــفٌّ تُـــدَاوِي، وكَـــفٌّ تَهَـــبْ

فالشاعر قد جمع كفيّ ممدوحه تحت حكم واحد، وهو معالجة بؤسِ الحياة، وبؤسُ الحياة قسمان: مرض وفقر، وكفّا ممدوح الشاعر كفيلة بعلاج البؤسين.

- ومن الجمع والتقسيم قول الشاعر:

نَهَـــارِي ولَيْلِـــي مُظْلِمَـــانِ كِلاهُمَـــا نَهَـــارِي بِـــلا شَـــمْسٍ ولَيْلِـــي بِـــلا قَمَـــر

فالشاعر قد جمع الليل والنهار تحت حكم واحد وهو الظُّلْمة، ثم قسمّ هذا الحكم: فنهاره بلا شمس، وليله بلا قمر.

وإليك هذا المثال لزيادة التوضيح:

قال صفيّ الدين الحلي في مجلس أُنْس:

ومَجْلِـــسٍ لَـــذّةٍ أَمْسَـــى دُجَـــاهُ يُضِـــيءُ كأَنَّـــهُ صُـــبْحٌ مُنِيـــرُ
تَجَمَّـــعَ فِيـــهِ مَشْـــمُومٌ ورَاحٌ وأَوْتَـــارٌ ووِلْـــدَانٌ وحُـــورُ
تَلَـــذّذَتِ الحَـــوَاسُ الخَمْـــسُ فِيـــهِ بِخَمْـــسٍ يَسْـــتَتِمُّ بِهَـــا السُّـــرُورُ
فَكَـــانَ الضَّـــمُّ قِسْـــمَ اللّمْـــسِ فِيـــهِ وقِسْـــمُ الـــذّوْقِ كَاسَـــاتٍ تَـــدُورُ
ولِلسَّـــمْعِ الأَغَـــانِي، والغَـــوَانِي لأَعْيُنِنَـــا، ولِلشّـــمِّ البُخُـــورُ

فقد جمع الشاعرُ الحواسَ الخمسةَ في مجلس أنسهم تحت حكم واحد، وهو اللذة، ثم قسم تلك الحواس، فلكلِّ حاسة نصيبٌ من اللذة: فللّمس الضمّ، وللذّوق الخمرة، وللسّمع الأغاني، وللبصر الغواني، وللشّم البخور.

- قال البشير الإبراهيمي في إحدى خواطره عن الشباب: "أَتَمَثَّلُهُ بَانِيًا لِلْوَطَنِيَّةِ عَلَى خَمْس، كَمَا بُنِيَ الدِّينُ قَبْلَهَا عَلَى خَمْس: "السِّبَابُ آفَةُ الشَّبَاب، واليَأْسُ مُفْسِدٌ لِلْبَأْس، والآمَالُ لا تُدْرَكُ بِغَيْرِ الأَعْمَال، والخَيَالُ أَوَّلُهُ لَذَّة، وآخِرُهُ خَبَال، والأَوْطَانُ لا تُخْدَمُ باتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَان".

فالكاتب قد جمع الوطنية في خمسة أركان، وذلك بتشبيهها بأركان الإسلام الخمس، ثم قسم تلك الأركان إلى: السّباب، واليأس، والآمال، والخيال، واتّباع خطوات الشيطان.

- قال توفيق الحكيم: "الإتْقَانُ والإمْتَاعُ والإنْسَانِيَّةُ أَهَمُّ صِفَاتِ الأَثَرِ الأَدَبِيِّ والفَنِيِّ، فَمَنْ أَنْتَجَ فِي الأَدَبِ أو الفَنِّ عَمَلًا غَيْرَ مُتْقَنٍ فِي أُسْلُوبِهِ الفَنِّيّ، ولا مُحْكَمٍ فِي تَعْبِيرِهِ الأَدَبِيّ، فَقَدْ وَقَعَ فِي العَجْزِ الشَّكْلِيّ، ومَنْ صَنَعَ عَمَلًا لَا

مُتْعَةَ فِيه، ولَا رَوْعَة، فَقَدْ صَنَعَ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ الأدَبِ والفَنّ، ومَنْ صَنَعَ عَمَلًا مُتْقَنًا ومُمْتِعًا ورَائِعًا، ولَكِنَّهُ فَاقِدٌ لِلْمَعْنَى الإنْسَانِيّ، والفِكْرَةِ الدَّافِعَةِ للإنْسَانِ والمُجْتَمَع، فَقَدْ صَنَعَ أَدَبًا وفَنًّا، ولَكِنَّهُ أَدَبٌ وفَنٌّ مِنْ طِرَازٍ بَارِعِ الصَّنْعَة، زَهِيدِ القِيمَة، كالزُّجَاجِ البَخْسِ البَرَّاق، لا الجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ".

فالأديب قد جمع ثلاثة أشياء تحت حكم واحد، حيث جمع الإتقان، والإمتاع، والإنسانية، وحكم عليها بأنّها سِمَةُ العمل الأدبي والفنّي، ثم قسّم هذه الصفات: فللإتقان جمالُ الأسلوب، وللإمتاع الروعة، وللإنسانية القيمة.

- قال محمود سامي البارودي:

وفِتْيَـــةٍ كَأُسُـــودِ الْغَـــابِ لَـــيْسَ لَهُـــمْ ... إِلَّا الرِّمَـــاحُ إِذَا احْمَـــرَّ الـــوَغَى أَجَـــمُ

كَالْبَـرْقِ إِنْ عَزَمُـوا والرَّعْـدِ إِنْ صَدَمُـوا ... والْغَيْـثِ إِنْ رَحِمُـوا والسَّيْـلِ إِنْ هَجَمُـوا

فالشاعر قدْ جَمَعَ ممدوحيه تحت حُكْم واحد، وهو تشبيهُهُم بأُسُودِ الغَاب، ثمَّ قَسَّمَ هذا الحُكْم أربعةَ أقْسَام (العَزْم، والصِّدَام، والرَّحْمَة، الإغارة)، ثم أرْجَعَ كُلَّ قِسْم من هذه الأقسام الأربعة إلى ما يُنَاسِبُه: ففي العَزْمِ هُمْ كالبَرْق، وفي الصِّدَامِ هُمْ كالرَّعْد، وفي الرَّحْمَةِ هُمْ كالغَيْث، وفي الإغارة هُمْ كالسَّيْل.

- ومثله أيضا قول البارودي في صفة الجمال:

مِـــنْ كُـــلِّ مَائِسَـــةٍ كَالغُصْـــنِ قَـــدْ جَمَعَـــتْ ... بَـــــدَائِعًا كُلّهَـــــا لِلْحُسْـــــنِ أوْضَـــــاحُ

فَـــــالعَيْنُ نَرْجَسَـــــةٌ والشّـــــعْرُ سَوْسَـــــنَةٌ ... والنَّهْـــــدُ رُمَّانَـــــةٌ والخَـــــدُّ تُفّـــــاحُ

- أمّا النوع الثاني من الجمع مع التقسيم فهو أنْ يُقَسِّمَ الأديبُ مُتَعَدِّدًا، ثُمَّ يَجْمَعُهُ تَحْتَ حُكْمٍ وَاحِد، ومنه قول مصطفى لطفي المنفلوطي: "إنَّ السَّمَاءَ تَبْكِي بِدُمُوعِ الغَمَام، ويَخْفِقُ قَلْبُهَا بِلَمَعَانِ البَرْق، وتَصْرُخُ بِهَدِيرِ الرَّعْد، وإنَّ الأَرْضَ تَئِنُّ بِحَفِيفِ الرِّيح، وتَضِجُّ بِأَمْوَاجِ البَحْر، ومَا بُكَاءُ السَّمَاء، ولا أنِينُ الأَرْضِ إلَّا رَحْمَةٌ بالإنْسَان".

فقد قسم الأديبُ ظواهرَ الطبيعة أوّلا: فذكرَ دموعَ الغمام، ولمعان البرق، وهدير الرعد، وحفيف الرياح، وأمواج البحر، ثم أرجع كل قسم إلى ما يناسبه: فدموعُ الغمام بكاءُ السّماء، ولمعانُ البرق ضربات قلبها، وهديرُ الرعد صراخُها، وحفيفُ الرِّياح أنينُ الأرض، وأمواجُ البحر ضجيجُها، ثم عاد بعد هذا التقسيم، فجمع كلّ تلك التقسيمات تحت حكم واحد، وهو الرَّحمة.

وقد يجمع البليغُ، ثم يقسّمُ، ثم يفرّق، وهذا لعمري منتهى البيان، كما في قول الشاعر في وصف الشمعة:

ونَدِيمَـــةٍ لِـــي فِـــي الظّـــلامِ وَحِيـــدَةٍ ... مِثْلِـــــي مُجَاهِـــــدَةٍ كَمِثْـــــلِ جِهَـــــادِي

فَـــــاللّوْنُ لَـــــوْنِي والـــــدُّمُوعُ مَـــــدَامِعِي ... والقَلْـــــبُ قَلْبِـــــي والسُّـــــهَادُ سُـــــهَادِي

لا فَـــرْقَ فِيمَـــا بَيْنَنَـــا لَـــوْ لَـــمْ يَكُـــنْ ... لَهَبِـــــي خَفِيًّـــــا وهْـــــوَ مِنْهَـــــا بَـــــادِ

فالشاعر قد جمع بينه وبين الشمعة تحت حكم واحد، وذلك في تشبيه نفسه بالشمعة في صفة الجهاد، ثم قسّم هذا الحكم، فذكر اللونَ، والدُّموع، والقلب، والسُّهاد، ثم عاد بعد هذا التقسيم، وفرق بينه، وبين الشمعة في صفة اللهب، فاللَّهبُ منهُ مكسوف، واللَّهَبُ مِنْهَا مكشوف.

تدريب: عيِّن الجمع مع التقسيم في الأمثلة اللاحقة، ثم حدد نوعه، واشرحه:

- قال ميخائيل نعيمة: "الأَرْضُ والبَحْرُ والهَوَاءُ أَشْيَاءٌ تُعَلِّمُ الإِنْسَانَ رَحَابَةَ الصَّدر، فَالأَرْضُ لا تَضِيقُ بِالضِّبَاعِ دُونَ الغِزْلَان، وبِالعَوْسَجَةِ دُونَ البَنَفْسَجَة، وبِالتُّرَابِ دُونَ التِّبْر، وبِالأَشْرَارِ دُونَ الأَبْرَار، والبَحْرُ لا يَقْبَلُ الحُوتَ دُونَ الأُخْطُبُوط، واللُّؤْلُؤَةَ دُونَ الإِسْفَنْجَة، والجَدْوَلَ الصَّافِيَ دُونَ السَّاقِيَةِ العَكِرَة، ومَرَاكِبَ الحُجَّاجِ دُونَ مَرَاكِبِ القُرْصَان، والهَوَاءُ لا يَرْقُصُ لِشَدْوِ البُلْبُل، ويَمْتَعِضُ لِنَقِيقِ الضِّفْدَع، وهُوَ لا يَسْكَرُ بِشَذَا الزَّنْبَقَة، ويَتَقَيَّأُ أَمْعَاءَهُ لِرَائِحَةِ جِيفَة، وهُوَ لا يَعْتَزُّ بِالبَازِيّ، ويَخْجَلُ بِالخُفَّاش، وهُوَ لا يَسْتَأْنِسُ بِالنَّهَار، ويَسْتَوْحِشُ بِاللَّيْل."

- قال أحمد أمين: "الفَلَّاحُ فِي زَرْعِهِ الأَرْض، والنَّجَارُ فِي صِنَاعَتِه، والتَّاجِرُ بِبَيْعِهِ وشِرَائِه، والجُنْدِيُّ بِمُحَارَبَتِه، والكَنَّاسُ فِي الشَّارِعِ بِكَنْسِهِ الأَقْذَار، والأَطِبَّاءُ بِمُحَارَبَتِهِم الأَمْرَاض، ورِجَالُ الحَرِيقِ بِإِطْفَائِهِم النَّار، والعُلَمَاءُ الَّذِينَ يَنْشُرُونَ العِلْم، ويُحَارِبُونَ الجَهْل، والشُّعَرَاءُ والمُوسِيقِيُّون، وجَمِيعُ رِجَالِ الفَنّ، الَّذِينَ يَمُدُّونَ الحَيَاةَ بِالسَّعَادَة، ويُشْعِرُونَ النَّاسَ بِالجَمَال، كُلُّ هَؤُلَاءِ خُدَّامٌ لِوَطَنَهُمْ بِعَمَلِهِمْ."

- قال الشاعر الجزائري محمد اللقاني:

بَنِـــي الجَزَائِـــرِ هَـــذَا اللّهْـــوُ أَوْقَعَنَـــا ... فِـــي سُـــوءِ مَهْلَكَـــةٍ عَمَّـــتْ نَوَادِينَـــا

فَقْـــــرٌ وجَهْـــــلٌ وآلَامٌ ومَسْـــــغَبَةٌ ... يَـــا رَبُّ رُحْمَـــاكَ هَـــذَا القَـــدْرُ يَكْفِينَـــا

فَالجَهْـــلُ قَاتِلُنَـــا والفَقْـــرُ مُهْلِكُنَـــا ... والبَـــأسُ خَاذِلُنَـــا واليَـــأسُ مُرْدِينَـــا

- قال شاعر المهجر أبو الفضل الوليد (إلياس طعمة):

يـــا لَيْـــتَ أَبْنَـــاءَهُمْ كَـــالإِخْوَةِ اجْتَمَعُـــوا ... علـــى وِفَـــاقٍ وعَهْـــدٍ غَيْـــرِ مُنْفَصِـــمِ

فَلِلْبَنِـــينَ سَـــلَامٌ فـــي مَنَـــازِلِهِمْ ... ولِلْجُـــدُودِ سَـــلَامٌ فـــي ثُـــرَابِهِمِ

- قال أحمد بن علي بن مسرف:

فَكَـــمْ جَحْفَـــلٍ بالمُرْهَفَـــاتِ أَبَـــادَهُ ... فَقْـــتْلَاهُمْ مِثْـــلُ الهَشِـــيمِ هَشِـــيمُ

فَلِـلْأَرْضِ مِـنْهُمْ مَـا جَـرَى مِـنْ دِمَـائِهِمْ ... وللطَّيْـــرِ مِـــنْهُمِ والسِّـــبَاعِ لُحُـــومُ

- قال صفيّ الدين:

صَـــكَّت ظُبَـــاكَ رُؤُوسَـــهُمْ وجُسُـــومَهُمْ ... فَالهَـــامُ تُنْثَـــرُ والضُّـــلُوعُ تُقَصَّـــصُ

- قال ابن رشيق القيرواني:

وقَـــدْ كُنْـــتَ عِنْـــدَ النَّفْـــعِ والضُّـــرِّ حَازِمًـــا ... فَلِلْخِـــلِّ نَفَّـــاعٌ وللضِّـــدِّ ضَـــرَّارُ

- قال الأخرس:

تَرَكْـــتَ بِهَـــا القَتْلَـــى تَمُـــجُّ دِمَاؤُهَـــا ... وللطّيْـــرِ مِنْهَـــا والوُحُـــوشِ وَلَائِـــمُ

فلـــلأرْضِ مِـــنْ تِلْـــكَ الـــدِّمَاءِ مَشَـــارِبُ ... وللـــوَحْشِ مِـــنْ تِلْـــكَ اللّحُـــومِ مَطَـــاعِمُ

- قال الشاعر:

أرُوحُ وفـــي الحَلْـــقِ منِّـــي شَـــجىً ... وأغْـــدُو وفـــي القَلْـــبِ مِنِّـــي شـــجَنْ

فَلِلْمَـــاءِ مِـــنْ مُقْلَتِـــي مَـــا بَـــدَا ... وللنَّـــارِ مِـــنْ مُهْجَتِـــي مَـــا كَمَـــنْ

- قال الشاعر:

النَّـــاسُ فـــي الأرْضِ كالأشْـــجَارِ قَـــامَ بِهَـــا ... حُلْـــوٌ ومُـــرٌّ ومُعْـــوَجٌّ ومُعْتَـــدِلُ

- قال الشاعر:

فـــي الحَـــرْبِ جَمْـــعُ أعَادِيـــهِ يُقَسِّـــمُهُ ... فَالكَهْـــلُ لِلسَّـــيْفِ وَالأطْفَـــالُ لِلِيُـــتْمِ

- وقال غيره:

وكَـــمْ غَـــزَا لِلْعِـــدَى جَمْعًـــا فَقَسَّـــمَهُ ... فـــالزَّوْجُ للأيْـــمِ والمَوْلُـــودُ لِلْيُـــتْمِ

تَأْكِيدُ المَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الذَّم

تعريفُه: "هُوَ أنْ يَعْمِدَ المُتَكَلِّمُ إلَى تَأْكِيدِ المَدْحِ بِاعْتِمَادِ أُسْلُوبٍ يُوهِمُ بِأَنَّهُ أَرَادَ الذَّمّ"[1]. وتأكِيدُ المَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الذَّمَّ نَوْعَان:

1/ أنْ يَسْتَثْنِيَ الأدِيبُ مِنْ صِفَةِ ذَمٍّ مَنْفِيَّةٍ صِفَةَ مَدْح، بمعنى "أنْ يَبْتَدِئَ المُتَكَلِّمُ بِلَفْظٍ يَنْفِي العَيْبَ عَنْ مَمْدُوحِه، مِنْ غَيْرِ إتْمَامِ الكَلَام، ثُمَّ يَجِيءُ بَعْدَهُ بِحَرْفِ اسْتِثْنَاء، لِيَتَوَهَّمَ السَّامِعُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَثْنِيَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ العَيْب، فَيَجِيءُ بِالمُسْتَثْنَى مِنْ أَحْسَنِ أَوْصَافِ المَمْدُوح"[2].

ومثالها قول محمود سامي البارودي مفتخرا بنفسه:

لا عَيْبَ فِيَّ سِوَى حُرِّيَّةٍ مَلَكَتْ ... أَعِنَّتِي عَنْ قَبُولِ الذّلِّ بِالمَالِ

فالشاعر نفى كل عيب عن نفسه، حين قال: (لا عيب فيّ)، لكنه جاء بعد ذلك بحرف استثناء، ليوهم السامع أنه يريد أن يستثنيَ شيئا من ذلك العيب، لكن المستثنى كان العزَّةَ والكرامة، وهو مِنْ أحسن أوصافه، يريد البارودي أن يقول إنه لا عيب فيه أصلا، إلّا كرامتَه إنْ عُدَّتْ عيبا، وكونُ الكرامة عيبًا أمرٌ مُحال، فثبوتُ العيب له كذلك مُحال.

2/ أنْ يُثْبِتَ الأدِيبُ لِشَيْءٍ صِفَةَ مَدْح، ويَأْتِيَ بَعْدَهَا باسْتِثْنَاء، يَلِيهِ صِفَةُ مَدْحٍ أُخْرَى، كقول خليل مطران:

هُمُ السَّحَائِبُ إلّا أنَّهَا أُسُدٌ ... هُمُ الكَتَائِبُ إلّا أنَّهَا رَخَمُ[3]

لاحظْ أنّ الشَّاعر في صدر البيت قد أَثْبت لممدوحيه صفةَ مدح، بِأَنْ شَبَّهَ كرمهم بكرم السُّحب، وأَتى بعد ذلك بمَا يُوهِمُ السَّامِعَ أنَّه يريد أنْ يَسْتَثْنِيَ في كلامه شيئًا معيّنا، غير أنّه عكس التَّوَقُّع، وأتى بصفة مدح أُخرى، وهي تشبيههم بالأسود. وفي عجز البيت أثبت صفة القوة والشجاعة لمن مدحهم من خلال قوله (هم الكتائب)، ثم أوهم السامع أنه يريد استثناء أمر ما، لكنه أحبط التوقع، وأتى بصفة مدح أخرى، وهي تشبيههم بالطيور الجارحة.

وقد يرد هذا الفن نثرًا كقول خليل مطران: "كَانَ إبْرَاهِيمُ اليَازِجِيّ بِعِلْمِهِ كَالشَّمْسِ إنَارَةً وإشْرَاقًا، ولَكِنَّهُ كَانَ كَالرَّوْضَةِ بِأَفَانِينِ آدَابِهِ ومَعَارِفِه، سِوَى أَنَّهُ كَانَ كَالزَّهْرَةِ بِوَدَاعَتِهِ وعُرْفِهِ ونَفْعِ مَا يَعْصِرُ قَلَمُه".

شواهد بلاغية متنوعة:

- قال الشاعر:

بَدْرٌ سِوَى أنَّهُ بَحْرٌ لِطَالِبِهِ ... لَيْثٌ سِوَى أنَّهُ غَيْثٌ لِمُغْتَنِمِ

---

[1] المفصل في علوم البلاغة العربية مرجع سابق ص 600.
[2] شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع صفي الدين الحلي ص 305.
[3] الرخم: جمع رخمة، وهي من الطيور الجارحة.

وصف الشاعر ممدوحه بأنه (بدر) و(ليث)، وتلك صفتا مدح، لكنه حين أتى بأداة الاستثناء أشعر السامعَ أنه يريد إثبات صفةٍ بعدها مُخالِفةٍ لما قبلها، فلمّا أثبت أنه (بحر) و(غيث) كان ذلك تأكيدا لمدحه الأول، لكن بأسلوب لم يألف الناس سماعه في المدح، بل ألفوه فقط في الذم.

- قال الشاعر:

فَلَـــمْ تَـــرَ فِيـــهِ العَـــيْنُ شَـــيْئاً يَشِـــينُهُ سِـوَى أنَّـهُ فـي العِلْـمِ قَـدْ صَـارَ مُرْشِـدَا

نفى الشاعر كل العيوب عن الممدوح حين قال: (لم تر فيه العين شيئا يشينه)، لكنه حين ذكر أداة الاستثناء أوهمنا أنه تراجع عن تبرئة الممدوح من كل عيب، وأنه سيصارحنا بعيب وجب عليه ذكره، غير أنه راوغ السامع حين أورد بعد الاستثناء مدحا آخر يؤكد المدح الأول، ويقرره، وهو أن ممدوحه قد صار مرشدا في العلم.

- قال الشاعر:

ولا عَيْـــبَ فِيـــهِ غَيْـــرَ أَنَّ سِـــنَانَهُ إِذَا شَـمَّ رِيـحَ النَّقْـعِ فـي الحـرْبِ يَرْعُـفُ

فالشاعر قد نفى العيب عن الممدوح، ثم ذكر أداة الاستثناء (غير)، فسبق إلى وهم السامع أن في ممدوحه عيبا، فنفسُ السامع مهيّأة لتلقي صفة ذم، لكن الشاعر كسر هذا التوقع، حين قال إن صفة الذم الوحيدة في ممدوحه هي أنّ سنانه إذا شم ريح الحرب يرعف، وتلك كناية عن شجاعته، وبذلك تأكّد المدح، وتمكّن في نفس السامع.

- قال العسقلاني:

ولا عَيْـــبَ فـــي إِحْسَـــانِهِ غَيْـــرَ أَنَّـــهُ يُسَلْسِـــلُ أَعْنَـــاقَ الـــوَرَى بِالقَلائِـــدِ

فالشاعر قد نفى مطلقا كل عيب عن ممدوحه، وحين ذكر أداة الاستثناء أوحى للمتلقّي قبل النطق بالمستثنى أنّ الآتي مستثنًى من المدح السابق، وهذا المستثنى هو صفة ذم، لكن الشاعر عكس التنبؤ، وأتى بصفة مدح ثانية، ازداد بها المدح الأول تأكيدا، (يُسَلْسِلُ أَعْنَاقَ الوَرَى بِالقَلائِدِ)، كأني بالشاعر يقول لنا: (لقد بحثتُ، فلم أجد في ممدوحي صفة ذمّ حتى أستثنيها، لذلك اضطررت إلى استثناء صفة المدح).

- قال الشاعر:

مَـــا فِـــيهِمْ عَيْـــبٌ سِـــوَى عِرْفَـــانِهِمْ وذُخُـــولِهِمْ فـــي زُمْـــرَةِ البُلَغَـــاءِ

نفى الشاعر العيوب عامة عن ممدوحيه حين قال: (ما فيهم عيب)، ثم ذكر أداة الاستثناء (سوى)، فأوحى لنا قبل النطق بالمستثنى أنّ هناك عيوبا في الممدوحين، وأن الشاعر سيكون صريحا معنا في كشف تلك العيوب، لكننا لم نلبث أن وجدناه يقرر بعد أداة الاستثناء صفات مدح أخرى، وهي العرفان والبلاغة، فالشاعر قد تلاعب بالسامع، وخدعه، وأحبط توقعه، فلم يذكر أي عيب في ممدوحيه، بل عكس ذلك تماما.

بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم:

تأكيد المدح بما يشبه الذم لون طريف من ألوان البديع، له سحره، وبهاؤه، وحسنه، وجماله، لأن فيه نوعا من المباغتة، والمراوغة، والخداع، والمفاجأة، وهي صفات تكسب الكلام طرافة، وسحرَ بيان، هذا إلى جانب تأكيد المعنى وتقويته، و"هذه الطريقة لتأكيد الشيء بما يشبه نقيضه ذات سلطان كبير على نفس المتلقي، فذهنه بعد سماع أداة الاستثناء يستعدّ لتلقّي معنى مخالفٍ لما سبق، لكنه يباغت بتأكيدٍ للمعنى السابق، ولا يغيب عنّا أنّ في الاستثناء، والاستدراك ضربا من الإيقاظ، والتنبيه، فإذا أضيف إليه "إحباط التوقع" أدركنا أيَّ فعل يفعله هذا الأسلوب في ذهن المتلقّي."[1]

تدريب: حدّد تأكيد المدح بما يشبه الذم، وبيّنْ نوعهُ في الأمثلة الآتية:

- قال إيليا أبو ماضي:

كُـــلُّ مَـــا فِيهَـــا جَمِيـــلٌ يُشْـــتَهَى مَـــا بِهَـــا عَيْـــبٌ سِـــوَى فَـــرْطِ الجَمَـــالْ

- وقال أبو ماضي:

مِثْـــلُ الحَمَامَـــةِ غَيْـــرَ أَنَّ لَهَـــا صَـــوْتَ الهَـــزَارِ ولَفْتَـــةَ الصَّـــقْرِ

- قال مصطفى لطفي المنفلوطي:

مَـــا فِيـــهِ مِـــنْ عَيْـــبٍ سِـــوَى أَنَّـــهُ يَحْسِـــدُهُ النَّـــاسُ عَلَـــى مَجْـــدِه

- قال محمود سامي البارودي:

ومَـــا لِـــيَ ذَنْـــبٌ عِنْـــدَهُمْ غَيْـــرَ أَنَّنِـــي شَـــدَوْتُ فَعَلَّمْـــتُ الحَمَـــامَ الأَغَانِيَـــا

- وقال البارودي:

وإِنَّـــا أُنَـــاسٌ لَـــيْسَ فِينَـــا مَعَابَـــةٌ سِـــوَى أَنَّ وَادِينَـــا بِحُكْـــمِ الهَـــوَى نَجْـــدُ

- قال معروف الرصافي:

ولا عَيْـــبَ فِيهَـــا غَيْـــرَ أَنَّ أُولِـــي الهَـــوَى يُنَادُونهَـــا فـــي الحُسْـــنِ بِنْـــتَ العَجَائِـــبِ

- قال أمين الجندي:

كَامِـــلٌ مَـــا فِيـــهِ مِـــنْ عَيْـــبٍ سِـــوَى أَنَّـــهُ فـــي مِثْلِـــهِ الـــدَّهْرُ يَشِـــحُّ

- قال عمر الأنسي:

هُـــوَ اللَّيْـــثُ إِلّا أَنَّـــهُ الغَيْـــثُ نَـــائِلاً عَلَـــى أَنَّـــهُ بَحْـــرٌ ولَكِنَّـــهُ بَـــدْرُ

- قال محمد شهاب الدِّين:

لا عَيْـــبَ فِيـــهِ سِـــوَى أَنَّ النَّزِيـــلَ بِـــهِ يَسْـــلُو بِجَـــدْوَاهُ عَـــنْ أُمٍّ لَـــهُ وأَبِ

- قال الشاعر:

لا عَيْـــبَ فِيـــهِ سِـــوَى السَّـــخَاءِ فَلَيْتَـــهُ يَبْقَـــى ويَبْقَـــى بِالسَّـــخَاءِ يُعَـــابُ

[1] المفصل في علوم البلاغة العربية ص 602.

- قال الشاعر:

وأَنْـــتَ يُوسُـــفُ حُسْـــناً لا نَظيـــرَ لَـــهُ لَكِـــنَّ صَـــوْتَكَ يَبْـــدُو صَـــوْتَ دَاوُود

- قال الشاعر:

ومَـــا نَقَـــمَ الحُسَّـــادُ مِنْـــهُ خَلِيقَـــةً سِـــوَى أَنَّـــهُ لِلْمَـــالِ فـــي الجُـــودِ مُنْفِـــقُ

- قال ابن رشيق القيرواني في الغزل:

هُـــوَ الثَّغْـــرُ إلاّ أَنَّـــهُ الصُّـــبْحُ طَالِعًـــا عَلَـــى أَنَّـــهُ الكَـــافُورُ لَكِنَّـــهُ الـــدُّرُّ

- قال الشاعر:

حَـــوْرَاءُ عَـــذْرَاءُ مَـــا زَلّـــتْ بِهَـــا قَـــدَمُ حَـــدِيثُهَا السِّـــحْرُ إلّا أَنَّـــهُ نَغَـــمُ

- قال الشاعر:

هِـــيَ البَـــدْرُ إلّا أَنَّـــهُ كُلّـــهُ سَـــنىً هِـــيَ الغُصْـــنُ إلّا أَنَّـــهُ كُلّـــهُ وَرْدُ

- قال الشاعر:

كَـــرِيمٌ يُحَـــاكِي البَحْـــرُ جُـــودَ بَنَانِـــهِ عَلَـــى أَنَّـــهُ أَحْلَـــى مِـــنَ الشَّـــهْدِ للـــنَّفْسِ

- قال الصفاقسي:

هُـــوَ أَفْصَـــحُ البُلَغَـــاءِ إلَّا أَنَّـــهُ بَـــيْنَ الأَحِبَّـــةِ أَبْلَـــغُ الفُصَـــحَاءِ

مَـــا فِيـــهِ عَيْـــبٌ غَيْـــرَ أَنَّ مَقَامَـــهُ بَـــيْنَ الـــوَرَى فِـــي الرُّتْبَـــةِ العَلْيَـــاءِ

- قال الشاعر:

هُـــوَ البَـــدْرُ إلاّ أَنَّـــهُ البَحْـــرُ زَاخِـــرًا سِـــوَى أَنَّـــهُ الضِّـــرْغَامُ لَكِنَّـــهُ الوَبْـــلُ

الاقْتِبَاس

تعريفُ الاقتباس: هُوَ أنْ يُضَمِّنَ الأدِيبُ كَلَامَهُ مِنْ مَنْظُومٍ، أوْ مَنْثُورٍ شَيْئًا مِنَ القُرْآنِ الكَرِيم، أو الحَدِيثِ الشَّرِيفِ بِلَفْظِهِ، أوْ مَعْنَاه، دُونَ أنْ يَعْزُوَ المُقْتَبِسُ القَوْلَ إلى قَائِلِه، "عَلَى أنَّهُ يَجِبُ الإشَارَةُ إلَى مَصْدَرِ الاقْتِبَاسِ، بإبْرَازِه، وذَلِكَ بِوَضْعِهِ بَيْنَ عَلامَاتِ التَّنْصِيص: (" ")، أوْ بِأيَّةِ وَسِيلَةٍ أُخْرَى".[1]

"أنواع الاقتباس:

1. الاقْتِبَاسُ النَّصِّي: وفِيهِ يَلْتَزِمُ الأدِيبُ بِلَفْظِ النَّصِّ الشَّرْعِيّ، وتَرْكِيبِه.

2. الاقْتِبَاسُ الإشَارِيّ: وهُوَ أنْ يَأْخُذَ الأدِيبُ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيم، أوِ الحَدِيثِ الشَّرِيفِ مَا يُشِيرُ بِهِ إلَى آيَةٍ، أوْ آيَاتٍ مِنْه، مِنْ غَيْرِ الالْتِزَامِ بِلَفْظِهَا، وتَرْكِيبِهَا".[2]

شواهد الاقتباس:

- قال نزار قباني:

مَوْعِدُنَا حِينَ يَجِيءُ المَغِيبْ

مَوْعِدُنَا القَادِمُ في تَلْ أبِيبْ

"نَصْرٌ مِنَ اللهِ وفَتْحٌ قَرِيبْ".

فالشاعر قد اقتبس جزءًا من الآية 13 من سورة من سورة الصف، التي جاء فيها: (نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ).

- قال شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا:

والــزَّرْعُ أخْــرَجَ فِــي الجَزَائِــرِ شَــطْأهُ فَمَضَــى وَهَــبَّ إلَــى الحَصَــادِ كِــرَامُ

فالشاعر قد اقتبس جزءا من الآية 29 سورة الفتح، التي جاء فيها: (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ).

- قال الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة:

فَيَــا أيُّهَــا الإنْسَــانُ إنَّــكَ كَــادِحٌ إلَــى اللهِ كَــدْحًا مَــا خُلِقْــتَ لِتَلْعَبَــا

فالشاعر قد اقتبس – من دون الالتزام باللفظ - الآيةَ السادسة من سورة الانشقاق، التي جاء فيها قولة تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ).

- قال حافظ إبراهيم مخاطبا البارودي، وهو في منفاه:

تَــذَكَّرْتَ عَــذْبَ النِّيــلِ والــنَّفْسُ صَــبَّةٌ إلَــى نَهْلَــةٍ مِــنْ كُــوبِ مَــاءٍ مُشَعْشَــعِ

وأرْسَــلْتَ تَسْتَسْــقِي بَنِــي مِصْــرَ شَــرْبَةً فَقَطّعْــتَ أحْشَــائِي وأضْــرَمْتَ أضْــلُعِي

---

[1] علوم البلاغة مرجع سابق ص 127.

[2] الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي ص 13.

وإنْ شِـــئْتِ عَنَّـــا "يَـــا سَـــمَاءُ فـــأقْلِعِي ويَـــا مَاءَهَـــا فَـــاكْفُفْ ويَـــا أرْضُ فَـــابْلَعِي"

فالشاعر قد اقتبس جزءا من الآية 44 من سورة هود، التي جاء فيها: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ). ونلاحظ أن الشاعر غيّر شيئا من الآية، ليناسب الكلامُ الوزن، وهذا التغيير اليسير في الشعر خاصة مسموح به عند البلاغيين.

- وقال حافظ إبراهيم:

"قُتِـــلَ الإنْسَـــانُ مَـــا أكْفَـــرَهُ" طَـــاوَلَ الخَـــالِقَ فِـــي الكَـــوْنِ وسَـــامَى

فالشاعر قد اقتبس الآية 17 من سورة عبس، التي قال فيها المولى عز وجل: "قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ".

- ولحافظ إبراهيم أيضا:

كُلّمـــا نِلْـــتَ غَايَـــةً لَـــمْ تَنَلْهَـــا هِمَّـــةُ الـــدَّهْرِ قُلْـــتَ "هَـــلْ مِـــنْ مَزِيـــدِ"؟

الشاعر قد اقتبس جزءا من الآية 30 من سورة "ق"، التي جاء فيها: (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ).

- قال أحمد شوقي:

وثَـــارُوا فَجُـــنَّ جُـــنُـــونُ الـرِّيَـاحِ و"زُلْـــزِلَـــتِ الأَرْضُ زِلْـــزَالَـــهَـــا"

الشاعر قد اقتبس جزءا من الآية 01 من سورة الزلزلة التي جاء فيها قول الله عز وجل: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا).

- قال الشاعر:

سَـــأَلْتُ قَلْبِـــي عَـــنْ ذَوِي العِشْـــقِ وعَـــنْ مَـــا أوْتِيَتْـــهُ مِـــنْ فُنُـــونِ الحُسْـــنِ مَـــيْ

فَقَـــالَ لِـــي "إنِّـــي وَجَـــدْتُ امْـــرَأَةً تَمْلِكُهُـــمْ وأوتِيَـــتْ مِـــنْ كُـــلِّ شَـــيْ"

فالشاعر اقتبس شيئا من الآية 23 من سورة النمل، التي قال فيها الله عز وجلّ: (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ).

- قال أحمد أمين في وصف الشمس:"... بِكِ يَجْرِي الدَّمُ في عُرُوقِنَا، فَدَمُنَا مِنْ غِذَائِنَا، وغِذَاؤُنَا مِنْ حَرَارَتِك، تُسَلِّطِينَهَا عَلَى الأَرْض، فَتُخْرِجِينَ مِنْهَا "حَبًّا وَعِنَبًا وقَضْبًا وزَيْتُونًا ونَخْلًا وحَدَائِقَ غُلْبًا وفَاكِهَةً وأَبًّا".

فالأديب كما ترى قد اقتبس الآيات 27. 28. 29. 30. 31 من سورة عبس، التي جاء فيها: (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا(29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا **(31)** مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ).

- وقال أحمد أمين مخاطبا الليل: "شِعَارُ النَّهَارِ البَيَاض، وشِعَارُكَ السَّوَاد، وهُوَ مُبْصِرٌ وأَنْتَ أعْمَى، وطَبِيعَتُهُ الحَرَكَة، وطَبِيعَتُكَ السُّكُون، وهُوَ يَدْعُو إلَى النَّشَاط والعَمَل، وأنْتَ تَدْعُو إلَى الخُمُولِ والكَسَل، ولَكِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ

يَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اُسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ويَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ويَجْعَلَهُمُ الوَارِثِين، فَجَعَلَ مِنْ قُوَّةِ النَّهَارِ ضَعْفًا، ومِنْ ضَعْفِكَ قُوَّة".

فالأديب قد اقتبس الآية الخامسة من سورة القصص، التي جاء فيها: (ونُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اُسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ).

- قال المنفلوطي: "فاسْتَيْقَظْتُ فَلَمْ أَرَ حِسَابًا ولا عِقَابًا، ولا مَوْقِفًا ولا مَحْشَرًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهَا خَيَالَات، وأَوْهَام، أو "أَضْغَاثُ أَحْلَام، ومَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِين".

فالكاتب قد اقتبس جزءا من الآية 44 من سورة يوسف، التي جاء فيها: (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ).

- وقال المنفلوطي في الموت: "والنَّبَاتُ يَكُونُ أَخْضَرَ يَانِعًا، ثُمَّ أَصْفَرَ يَابِسًا، ثُمَّ "هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاح"، والإِنْسَانُ يَبْدَأُ طِفْلا يَحْبُو، ثُمَّ شَابًّا مُكْتَمِلا، ثُمَّ شَيْخًا هَرِمًا، ثُمَّ يُدْرِكُهُ المَوْت، "وكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ".

فالكاتب اقتبس جزءا من الآية 45 من سورة الكهف، التي جاء فيها: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ)، كما اقتبس جزءا آخر من الآية 88 من سورة القصص، التي جاء فيها: (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

- قال محمد البشير الإبراهيمي: "إِنَّ فِلَسْطِينَ وَدِيعَةُ مُحَمَّدٍ عِنْدَنَا، وأَمَانَةُ عُمَرَ في ذِمَّتِنَا، وعَهْدُ الإِسْلامِ في أَعْنَاقِنَا، فَلَئِنْ أَخَذَهَا اليَهُودُ مِنَّا "ونَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُون".

فالكاتب قد اقتبس جزءا من الآية 14 من سورة يوسف، التي جاء فيها: (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ).

- وقال الإبراهيمي أيضا: "مَا أَجْهَلَ العَرَبَ إِذَا لَمْ يُعَالِجُوا هَذِهِ الجُرْثُومَةَ الصُّهْيُونِيَّةَ الخَبِيثَةَ بالاسْتِئْصَال، إِنَّهُمْ واللهِ "إِنْ لَا يَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ في الأَرْضِ وفَسَادٌ كَبِير".

فالكاتب اقتبس جزءا من الآية 73 من سورة الأنفال، التي جاء فيها قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ).

- وللبشير الإبراهيميّ أيضا: "وهَذَا الشَّمَالُ قَدْ أَصْبَحَ أَهْلُهُ كأَهْلِ الشِّمَال، "في سَمُومٍ مِنَ الاسْتِعْمَارِ وحَمِيم، وظِلٍّ مِنْ يَحْمُوم، لا بَارِدٍ ولا كَرِيم".

فالكاتب قد اقتبس الآيات 41. 42. 43. 44 من سورة الواقعة، التي قال فيها المولى عزّ وجلّ: (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (43) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ(44)).

- ومن الاقتباس من الحديث قول الشاعر:

"إِنَّ القُلُـــــوبَ لأَجْنَـــــادٌ مُجَنَّـــــدَة" بِـــــأَمْرِ خَالِقِهَـــــا تَجْـــــرِي وتَـــــأتَلِفُ

"فَمَـــا تَعَـــارَفَ مِنْهَـــا فَهُـــوَ مُتَّفِـــقٌ ومَـــا تَنَـــاكَرَ مِنْـــهَا فَهُـــوَ مُخْتَلِـــفُ"

الشاعر قد اقتبس من الحديث الذي جاء فيه: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : "الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ "صحيح البخاريّ.

- ومنه قول محمد العيد آل خليفة في قصيدة "إلى التلميذ":

"خَـــالِقِ النَّـــاسَ بِخُلُـــقٍ حَسَـــن" فَجَمَـــالُ الخُلُـــقِ عُنْـــوَانُ الرَّشَـــاد

فالشاعر قد اقتبس جزءا من الحديث الذي رواه الإمام الترمذي، الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَن).

- ومنه أيضا: قِيلَ لِرَابِعَةَ العَدَوِّية: "كَيْفَ شَوْقُكِ إلى الجَنَّة؟"، قَالَتْ: "الجَارُ قَبْلَ الدَّار".

- ومنه قول الشاعر:

فَـــلا تَنـــوِ غَيـــرَ فِعَـــالِ الجَميـــلِ فَـــإِنَّ "لِكُـــلِّ اِمْـــرِئٍ مَـــا نَـــوَى"

فالشاعر قد اقتبس جزءا من هذا الحديث: عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ". رواه البخاريّ ومسلم.

بلاغة الاقتباس:

الأُدباء يقتبسون من القرآن، أو من الحديث من أجل تقوية معانيهم، وتوكيد أفكارهم، وتزيين كلامهم وتَحْلِيَتِه، وبالاقتباس هم يكشفون عن مهارتهم في إحكام الصلة بين كلامهم، والكلام الذي اقتبسوه. و"ما من ريب في أنّ الألفاظ المقتبسة من القرآن، أو الحديث تزيد الكلام قوة، وبلاغة، كما تضفي عليه حسنا وجمالا، إذ تبدو وسطه كالضياء اللامع، والنور المشرق، والمتكلم عندما يقتبس يبني كلامه على الالتئام والتلاحم، وبهذا يبدو كلامه قويا بليغا."[1]

تدريب: حدد الاقتباس، ونوعه في الأمثلة الآتية:

- قال عائض القرني في (المقامة الكونية): "اقْرَأْ آيَاتِ القُدْرَةِ فِي صَفْحَةِ الكَوْن، وطَالِعْ مُعْجِزَةَ الخَلْقِ فِي الحَرَكَةِ والسُّكُون، فِي اللَّيْلِ إِذَا عَسْعَس، والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّس، فِي النَّخْلِ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيد، فِي الجِبَالِ تُثَبِّتُ الأَرْضَ وقَدْ كَادَتْ تَمِيد، فِي اللَّبَنِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودَم، فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ كَيْفَ وُجِدَ مِنَ العَدَم، فِي الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، فِي السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، فِي الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، فِي الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ، نُجُومٌ تَسْقُط، وكَوَاكِبُ تَهْبِط، ونَيَازِكُ تَلْتَهِب، تَرْمِي بِشَرَرٍ ولَهَب، مَجَرَّاتٌ سَمِيَّة، ومَنَازِلُ قَمَرِيَّة، حَدَائِقُ بِأَثْوَابِ الحُسْنِ تَسُرُّ النَّاظِرِين، ومَشَاهِدُ فِي الكَوْنِ تَأْخُذُ أَلْبَابَ المُبْصِرِين، رِيَاضٌ أَنِيقَةٌ تَسْرَحُ فِيهَا الغِزْلَان، بَاقَاتٌ مِنَ الوُرُودِ

[1] علم البديع الدكتور بسيوني عبد الفتاح ص 268.

بَهِيجَةٌ يَلْعَبُ بِهَا الوِلْدَان، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَح، وكُلٌّ فِي عَالَمٍ يَمْرَح، شَمْسٌ تَجْرِي كَأَنَّهَا تَبْحَثُ عَنْ مَفْقُود، قَبْلَ أنْ تَطْلُعَ تَسْجُدُ لِلْمَعْبُود، آيَةٌ بَاهِرَة، وحِكْمَةٌ ظَاهِرَة."

- وقال عائض القرني: "إنَّ مِنَ الشِّعْرِ مِسْكٌ وعَنْبَر، ولُؤْلُؤ وجَوْهَر، يُسَافِرُ إلَى سُوَيْدَاءِ قَلْبِكَ ويُبْحِر، ويُنَادِي: إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُر."

- وقال القرني في (مقامة المرأة): "رِفْقًا بِالقَوَارِير، فَإنَّهُنَّ مِثْلُ العَصَافِير، هُنَّ شَقَائِقُ الرِّجَال، وأمَّهَاتُ الأجْيَال، مِنْهُنَّ آمِنَةُ بِنْتُ وَهَبٍ الَّتِي أهْدَتْ للإنْسَانِيَّة، وقَدَّمَتْ لِلْبَشَرِيَّة، ابْنًا تَضَاءَلَتْ فِي عَظَمَتِهِ الشَّمْسُ فِي ضُحَاهَا، والقَمَرُ إذَا تَلَاهَا، ويَكْفِي النِّسَاء، مَا أَطَلَّ صَبَاحٌ وكَرَّ مَسَاء، أنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ مِن امْرَأةٍ وُلِد، ومِنْ أنْثَى وُجِد."

- وللقرني أيضا فيمن يدّعون قول الشعر: "إذَا قَامَ أَحَدُهُمْ فِي النَّوَادِي، صَاحَ المُنَادِي: هَذَا شَاعِرُ الحَوَاضِرِ والبَوَادِي، وبُلْبُلُ النَّادِي، فَيَتَمَايَلُ طَرَبًا، ويَتِيهُ عُجُبًا، ويَقُولُ لِلْحُضُور: لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، فَإذَا ألْقَى القَصِيدَة، فَكَأَنَّهُ يَأكُلُ عَصِيدَة، يُلَوِّي رَأسَه، ويَكْظِمُ أنْفَاسُه، كَأَنَّمَا يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسّ."

- قال محمد المويلحي: "أقَمْنَا فِي ذَلِكَ الظِّلِّ الوَرِيف، مُدَّةً مِنْ أيَّامِ الخَرِيف، ومَكَّنَّا نَقْطِفُ القُطُوفَ الدَّانِيَة، بَيْنَ تِلْكَ الأعْيُنِ الجَارِيَة، فِي عِيشَةٍ رَاضِيَة، لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَة."

- قال البشير الإبراهيمي: "فَلَوْ أنَّكُمْ آمَنْتُمْ باللهِ حَقِّ الإيمَان، وعَمِلْتُمُ الصَّالِحَاتِ مِمَّا جَاءَ بِهِ القُرْآن، ومِنْهَا جَمْعُ الكَلِمَة، وإعْدَادُ القُوَّة، ومَحْوُ التَّنَازُعِ مِنْ بَيْنِكُم، لأنْجَزَ اللهُ لَكُمْ وَعْدَه، وجَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأرْض، ولَكِنَّكُمْ تَنَازَعْتُمْ، فَفَشِلْتُمْ، وذَهَبَتْ رِيحُكُمْ، وَمَا ظَلَمَكُمُ الله، ولَكِنْ ظَلَمْتُمْ أنْفُسَكُم".

- قال أحمد أمين واصفا الحب: "هُوَ هُدًى بَعْدَ ضَلَال، وغِنًى بَعْدَ فَقْر، ونُورٌ بَعْدَ ظَلَام، هُوَ مُعْجِزَةُ المُعْجِزَات، يُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ ويُحْيِي المَوْتَى بِإذْنِ الله".

- جاء "بُنَانُ" الطُّفَيْلِيُّ إلى وليمة - وكان نقشُ خاتمِهِ: مَا لَكُمْ لَا تَأْكُلُون- فأُغْلِقَ البابُ دُونه، فاكْترَى سُلَّمًا، وَوَضَعَهُ على حائط صاحبِ الوليمة، فَأَشْرَفَ على عِياله وبَنَاتِه، فقال الرَّجُل: "يا هذا أما تخاف الله؟ رأيتَ أهلي وبَنَاتي؟" فقال الطفيليّ: "يَا شَيْخُ، لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ، وإنّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيد"، فضحك الرجل، وقال له: "انْزِلْ، فَكُلْ".

- فَرَّ بُهْلُولُ من الصِّبْيَانِ يوما، فالتجأ إلى دارٍ وجد بابها مفتوحا، فدخلها، وكان صاحبُ الدّار له ظَفِيرَتَان، فقال بهلول: "يَا ذَا القَرْنَيْنِ إنَّ يأجُوجَ ومأجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ"، فضحك الرَّجل، ودعا له بطعام، فجعلَ الصِّبيانُ يصيحون على الباب، وهو يأكل، ويقول: "فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَاب".

- قال ابن حبيب الحلبي في كتابه (نسيم الصبا) واصفًا سفينة: "هَزّتْنِي رِيَاحُ الأمَلِ البَسِيط، إلَى امْتِطَاءِ البَحْرِ المُحِيط، فَأتَيْتُ سَفِينَةً، يَطِيبُ للسَّفَرِ مَثْوَاهَا، ورَكِبْتُ فِيهَا بِاسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا، يَا لَهَا سَفِينَةً عَلَى الأمْوَالِ أمِينَة، ذَات دُسُرٍ وأَلْوَاح، تَجْرِي مَعَ الرِّيَاح، وتَطِيرُ بِغَيْرِ جَنَاح، وتَغْتَاضُ عَنِ الحَادِي بِالمَلّاح، تَخُوضُ

وتَلْعَب، وتَرِدُ ولا تَشْرَب، لَهَا سَكِينَةٌ وسُكَّان، ومَكَانَةٌ وإمْكَان، وجِسْمٌ عَارٍ عَنِ الفُؤَاد، وهُوَ فِي العَيْنِ بِمَنْزِلَةِ السَّوَاد، بَعِيدَةٌ مَا بَيْنَ السّحْرِ والنَّحْر، مِنْ أحْسَنِ الجَوَارِي المُنْشَآتِ فِي البَحْر، مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الخَيْر، كالخَيْلِ لا تَمَلُّ مِنْ سَيْرِ النَّهَار، ولا مِنْ سَرْيِ اللَّيْل، فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي البَحْر، ثَارَتْ رِيحٌ عَاصِف، يَتْبَعُهَا رَعْدٌ قَاصِف، فَمَالَتْ بِنَا الفُلْكُ واضْطَرَبَتْ، ودَنَتْ شَفَتُهَا مِنْ رَشْفِ المَاءِ واقْتَرَبَتْ، واسْتَمَرَّتْ تَرْفَعُ وتَخْفِضْ، وتَقْرُبُ وتَرْفُضْ، وتَعْلُو عَلَى الأوْتَاد، وتَهِيمُ فِي كُلِّ وَاد".

- تقدّمَ شَاكٍ إلى قَاضٍ، فقال القاضِي: "سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أمْ كُنْتُ مِنَ الكَاذِبِين".

- وسَأَلَ قَاضٍ رَجُلًا عن عدد عياله، فكذب، فقال القاضِي: "لا جَوَابَ لِكَذَّاب"، ثُمّ عَاوَدَ وصَدَقَ في عَدَدِهِم، فقال القَاضِي: "الآنَ جِئْتَ بالحَقّ".

- وأهْدَى رجل لِقَاضٍ هدايا كثيرة، فرَدَّهَا، وقال: "فَمَا أَتَانِي اللهُ خَيْرٌ مِمَّا أَتَاكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُون".

- والْتَمَسَ مَحْبُوسٌ من قَاضٍ إطْلَاقَه، فقال القاضِي: "لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاب".

- قال حافظ إبراهيم:

ويَـــدُ الإلَـــهِ مَـــعَ الجَمَاعَـــةِ فَاضْـــرِبُوا ... بِعَصَـــا الجَمَاعَـــةِ تَظْفَـــرُوا بِنَجَـــاحِ

- قال شاعر المهجر عبد الله طعمة (أبو الفضل الوليد):

هِـــيَ الخَيْـــلُ مَعْقُـــودٌ بِهَـــا الخَيْـــرُ فـــانْفِرُوا ... عَلَـــى كُـــلِّ مَحْبُـــوسٍ بَعِيـــدِ الإغَـــارَة

- قال خليل مطران في مدح عبد الله البستاني:

عِلْـــمٌ وأخْـــلَاقٌ وحُسْـــنُ شَـــمَائِلٍ ... مِـــنْ كُـــلِّ فَاكِهَـــةٍ بِهَـــا زَوْجَـــانِ

- قال مفدي زكريا:

وفِـــي قُـــدْسِ جَنَّاتِنَـــا النَّاضِـــرَهْ ... وُجُـــوهٌ إلَـــى رَبِّهَـــا نَـــاظِرَهْ

- قال الشاعر:

قَـــدْ قُلْـــتُ إذْ سَـــارَ السَّـــفِينُ بِهِـــمْ ... والشَّـــوْقُ يَنْهَـــبُ مُهْجَتِـــي نَهْبَـــا

لَـــوْ أنَّ لِـــي عِـــزًّا أَصُـــولُ بِـــهِ ... لأَخَـــذْتُ كُـــلَّ سَـــفِينَةٍ غَصْـــبَا

- قال الشاعر:

قَـــدْ قَضَـــيْنَا العُمْـــرَ فِـــي مَطْلِكُـــمُ ... وظَنَنَّـــا وَعْـــدَكُمْ كَـــانَ مَنَامَـــا

أإذَا مِتْنَـــا نَـــرَى وَعْـــدَكُمُ ... أمْ إذَا كُنَّـــا تُرَابًـــا وعِظَامَـــا؟

- قال ابن الوردي في هجاء بخيل:

أحَـــلَّ الضُّـــيُوفَ عَلَـــى سَـــطْحِهِ ... وفَـــرَّجَهُمْ فِـــي نُجُـــومِ السَّـــمَا

وقَطَّـــعَ بِـــالجُوعِ أكْبَـــادَهُمْ ... وإنْ يَسْـــتَغِيثُوا يُغَـــاثُوا بِمَـــا

- قال لسان الدين بن الخطيب:

غُصْـــنُ بَـــانٍ وهِـــلالٌ ورَشَـــا إنْ تَثَنَّـــى أوْ بَـــدَا أوْ خَطَـــرْ

لَـــوْ بَـــدَا لِلْحُـــورِ يَوْمًـــا وَجْهُـــهُ قُلْـــنَ جَـــلَّ اللهُ مَـــا هَـــذَا بَشَـــرْ

- قال الشاعر:

بَهَـــاؤُكَ إنْ تَجَلّـــى يَشْـــفِ قَلْبِـــي ويَشْـــفِ صُـــدُورَ قَـــوْمٍ مُؤمِنِينَـــا

وقَـــالُوا البَـــدْرُ شَـــارَكَهُ ابْتِهَاجًـــا تَعَـــالَى اللهُ عَمَّـــا يُشْـــرِكُونَا

- قال صفي الدين في الحكمة:

لَـــيْسَ كُـــلَّ الأوْقَـــاتِ يَجْتَمِـــعُ الشَّمْـــ ـــلُ، ولا رَاجِـــعٌ لَنَـــا مَـــا يُفُـــوتُ

فَـــاغْتَنِمْ سَـــاعَةَ اللّقَـــاءِ، فَمَـــا تَعْـــ ـــلَمُ نَفْـــسٌ بِـــأيِّ أَرْضٍ تَمُـــوتُ

- وقال الشاعر:

جَرَحْـــتُ خَـــدَّ الـــذِي تَمَلّكَنِـــي فَكَيْـــفَ أنْجُـــو وَلاَتَ حِـــينَ مَنَـــاصْ

فَمُـــذْ رَآنِـــي جَرَحْـــتُ وَجْنَتَـــهُ اقْـــتَصَّ بـــاللّحْظِ والجُـــرُوحُ قِصَـــاصْ

اللَّفُّ والنَّشْر

تعريف اللَّفّ والنَّشْر: يُسمَّى كذلك **الطّيَّ والنّشر**. أَمَّا اللّفُ فَيُشَارُ بِهِ إِلَى مُتَعَدّدٍ يَذْكُرُهُ البَلِيغ، حَيْثُ يَأْتِي بِهِ أَوَّلًا، وأَمَّا النّشْرُ فيُشَارُ بِهِ إِلَى المُتَعَدِّدِ اللاّحِقِ، الَّذِي يَتَعَلَّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُ بِوَاحِدٍ مِنَ السَّابِقِ دُونَ تَعْيِين. بعبارة أخرى: "اللَّفُّ والنَّشْرُ هُوَ ذِكْرُ مُتَعَدِّدٍ عَلَى جِهَةِ الإِجْمَال، أو التَّفْصِيل، ثُمَّ ذِكْرُ أَشْيَاءَ عَلَى عَدَدِ ذَلِك، كُلُّ وَاحِدٍ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ المُتَقَدِّم، ويُفَوَّضُ إِلَى عَقْلِ السَّامِعِ رَدُّ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى مَا يَلِيقُ بِه."[1]

ومثاله قولنا: "ظَهَرَتْ نَتَائِجُ البَكَالُوريا، وبَدَتْ عَلامَاتُ السُّرُورِ والحُزْنِ عَلَى النَّاجِحِينَ والرَّاسِبِين". فنحن ذكرنا متعددًا، وهو: (السرور، والحزن)، وهذا المتعدد هو ما ندعوه لفًّا، ثم ذكرنا: (الناجحين، والرَّاسبين)، وهو متعدد، نسميه نشرًا، وهذا المتعدد اللاحق، أي النشر، يتعلق كلُّ واحد منه بواحد من المتعدد السابق، فكلمة الناجحين تتعلق بالسرور، وكلمة الراسبين تتعلق بالحزن.

ومثل ذلك حادثٌ في قول المنفلوطي: "فَإِذَا رَأَى النَّاشِئُ أَنَّ المُجْتَمَعَ يَحْتَرِمُ المُوَظَّفَ الصَّغِيرَ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَرِمُ العَالِمَ الكَبِير، كَانَ سُرُورُهُ، وحُزْنُهُ عَلَى قَدْرِ قُرْبِ الوَظِيفَةِ مِنْهُ، أو بُعْدِهَا عَنْهُ."

قال معروف الرصافي في وصف روضة:

نَـــاحَ الحَمَـــامُ وغَـــرَّدَ الشَّـــحْرُورُ هَـــذَا بِـــهِ شَـــجَنٌ وذَا مَسْـــرُورُ

فالشاعر ذكر المتعدد: (الحمام والشّحرور) وهذا ما نسميه لفّا، ثم ذكر المتعدد اللاحق على الترتيب: (الشجن والسرور) وهذا ما ندعوه نشرا.

قال توفيق الحكيم: "مَاذَا يَكُونُ حَالُ الجِسْمِ لَوْ تَمَرَّدَ القَلْبُ، واللِّسَانُ والأُذُنُ والقَدَم، وقَالَتْ كُلُّهَا: لَنْ نَشْعُرَ ولَنْ نَنْطِقَ ولَنْ نَسْمَعَ ولَنْ نَسِير؟".

فالكاتب قد أتى على ذكر أربعة أشياء متعددة جملة واحدة، وهي القلب واللسان والأذن والقدم، وهذا ما نسميه لفّا، ثم ذكر ما يتصل بكل منها على الترتيب: فالشعور يتصل بالقلب، والنطق باللسان، والسمع بالأذن، والسير بالقدم، وذاك هو نشرُ اللّف.

ومن أبرع شواهد اللف والنشر على المطلق قول محمود سامي البارودي في شأن محبوبته:

يَمُـــوتُ قَلْبِـــي ويَحْيَـــا حَيْـــرَةً وهُـــدًى فِي عَـــالَمِ الوَجْـــدِ إِنْ صَـــدَّتْ وإِنْ جَنَحَـــتْ

فاللف في كلمتي (يموت، ويحيا)، والنشر في كلمتي (حيرة، وهدى)، فالقلب يموت حيرة، ويحيا هُدى، وهو لفّ ونشر مرتب، بل إنّ البارودي أتى بكلمتي (صدّت، وجنحتْ) لتكون نشرًا ثانيًا للفّ السابق.

ولعلك تلاحظ أن النّشرَ جاء على ترتيب اللّف، وهذا ما ندعوه اللفَّ والنشرَ المُرَتَّب، أمّا إذا أتى النَّشرُ على غير ترتيب اللّف، فيسمّى معكوس الترتيب. ومثال النشر على خلاف الترتيب الذي عليه النشر قول الشاعر:

فَمَـــا البَـــدْرُ والأَغْصَـــانُ واللَّيْـــثُ والرَّشَـــا إِذَا مَـــا رَنَـــا أَوْ صَـــالَ أَوْ مَـــاسَ أَوْ بَـــدَا؟

[1] وشي الربيع بألوان البديع ص 81.

حيث ذكر الشاعر المتعدد مفصلا (البدر، والأغصان، والليث، والرَّشا)، ثم ذكر ما يتّصل بكلٍّ منها على خلاف الترتيب: فـ (رَنَا) راجعٌ للرَّشأ، و(صَالَ) راجعٌ للّيْث، و(مَاسَ) راجع للأغصان، و(بَدَا) راجعٌ للبدر.

وقد يقيم البليغُ اللَّفَّ والنَّشْرَ على أساس التَّشبيه، وقد يقيمه دون ذلك. ومثالُ اللّف والنّشر القائم على التشبيه قول مصطفى صادق الرافعي متغزلا:

هــي غُصْــنُ الرِّيَــاضِ والزّهْــرُ والــوَرْ دُ، قَوَامًـــــا ونَفْحَـــــةً وخُـــــدُودَا
وهْــيَ شَــمْسُ السَّــمَاءِ والظّبْيَــةُ الغَيْــ ـــــداءُ، وَجْهًـــا ومُقْلَتَـــيْنِ وجِيـــدَا

حيث ذكر الشاعر في البيت الأول المتعدد مفصلا، وهو: (الغصن، والزهر، والورد)، ثم ذكر ما يتّصل بكل منها على الترتيب: فالقوامُ للغصن، والنفحةُ للزهر، والخدودُ للورد، ثم ذكر في البيت الثاني المتعدد مفصلا، وهو: (شمس السماء، والظبية الغيداء)، ثم ذكر ما يتصل بكل منهما على الترتيب: فالوجهُ للشمس، والمقلتان والجيدُ للظبية الغيداء.

ومن اللف والنشر المقام دون تشبيه قول محمد العيد آل خليفة في خطابه للشعب الجزائري:

دَعَّمُــوا البَــرَّ دَعَّمُــوا البَحْــرَ بِالأَعْــ ـــلَامِ مِـــنْ مُنْشَـــآتِ مُـــدْنٍ وسُـــفْنِ

فاللف في كلمتي (البر، والبحر)، والنشر في كلمتي (مدن، وسفن): فلفظ (مدن) راجع إلى البر، ولفظ (سفن) راجع إلى البحر.

ومنه قول محمود سامي البارودي في رثاء أبيه:

أبِــي ومَــنْ كَأَبِــي فِــي الحَــيِّ نَعْلَمُــهُ أَوْفَــى وأَكْــرَمُ فِــي وَعْــدٍ وإِيعَــادِ

فاللّف في كلمتي: (أوفى، وأكرم)، والنشر في لفظتي: (وعد، وإيعاد).

ومن بديع اللف والنشر قول الشاعر الجزائري أبي القاسم خمّار مخاطبا الفرنسيين:

فَــلَا حَيَــاةٌ ولَا نُــورٌ ولَا أَمَــلٌ والجَهْــلُ والفَقْــرُ أَنْيَــابٌ لَكُــمْ وفَــمُ

فاللف في كلمتي: (الجهل، والفقر)، والنشر في كلمتي: (أنياب، وفم).

ومن اللف والنشر قول إيليا أبي ماضي:

وصِــرْتُ عِقْــدًا لَــكِ أوْ خَاتَمًــا فِــي جِيــدِكِ النَّاصِــعِ أوْ إصْــبَعِكْ

فالشاعر ذكر في صدر البيت متعددا مفصلا، وهو (العقد، والخاتم)، وهو ما نسميه لفّا، ثم ذكر ما يتصل بهما على الترتيب: فالجيد مذكور للعقد، والإصبع مذكور للخاتم، وهو ما ندعوه نشرا.

ومنه أيضا قول أبي ماضي على لسان فتاة أرغمها ذووها على الاقتران برجل طاعن في السن:

لِــي قَــدٌّ وجَمَــالٌ يَــزْدَرِي ذَاكَ بِالغُصْــنِ وذَا بِالكَوْكَــبِ

فالمتعدد المفصل (اللف) الذي ذكره الشاعر هو (قدٌّ وجمال)، أما النشر، أي ما يتصل بهما، فهو (الغصن والكوكب).

وقد اجتمع ما أقيم على أساس التشبيه، وما أقيم دونه في قول الشاعر:

وكَـــأنَّ طُرَّتَـــهُ ونُـــورَ جَبِينِـــهِ لَيْـــلٌ تَـــأَلَّقَ فِيـــهِ بَـــارِقُ صُـــبْحِهِ

قَلْبِـــي وطَرْفِـــي ذَا يَسِـــيلُ دَمًـــا وذَا بَـــيْنَ الـــوَرَى أَنْـــتَ العَلِـــيمُ بِقَرْحِـــهِ

بلاغة اللّف والنّشر:

أسلوبُ اللفّ والنّشر يهيّئ النفوس، ويثير الانتباه لتلقّي الفائدة، فاللف يهيئ النفوس ويعدها لتلقي ما يذكر بعد ذلك من النشر العائد إلى اللف، فإذا ما ذُكر النشر بعدئذ وقع في النفوس موقعه، وتمّت الفائدة أحسن تمام، وتحقق الغرض أبلغ تحقيق، لأن النشر جاء والنفوسُ إليه متطلعة، وله مترقبة.

وفي اللفّ والنشر يتقوّى الارتباط بين أجزاء الكلام، وجمالية اللفّ والنشر تتحقق إذا ما ورد هذا المحسن البديعي فيض البديهة، عفو الخاطر من دون تكلّف، أمّا إذا تكلّفه الأديب فإنه يكون عبئا على المعنى. و"من جماليات هذا الفن البديعي أنه يضاعف فعالية الذهن، إذ ينثر أمامه مجموعةَ أشياء، يتصل بكلٍّ منها شيء، لكنه يُبْهِمُ عليه أوّلَ الأمر نسبةَ الشيء إلى أصله، فيدعه يجري خلف هذه المعرفة، حتى إذا استطاع الذهن تحصيل العلاقة بين كل فردٍ من أفراد المتعدد، والشيء المتصل به، أدركتْه بهجةُ التعرّف، ولذة التوصّل."[1]

تدريب: عين اللف والنشر، وبيّن نوعه وبلاغته في النماذج الآتية:

- قال محمود سامي البارودي في الغزل:

مَـا هِـلَالُ السَّـمَاءِ؟ مَـا الظَّبْـيُ؟ مَـا الـوَرْ دُ جَنِيًّـــا؟ مَـــا الغُصْـــنُ إِذْ يَتَهَـــدَّى؟

هُـــوَ أَبْهَـــى وَجْهًـــا وأَقْتَـــلُ أَلْحَـــا ظًـــا وأَنْـــدَى خَـــدًّا وأَلْـــيَنُ قَـــدَّا

- وقال سامي البارودي:

إِذَا نَظَـــرَتْ أَوْ أَقْبَلَـــتْ أَوْ تَهَلَّلَـــتْ فَوَيْـــلٌ مَهَـــاةَ الرَّمْـــلِ والغُصْـــنِ والبَـــدْرِ

- وقال أيضا:

أَلَا بِـــأَبِي مَـــنْ حُسْـــنُهُ وحَدِيثُـــهُ - إِذَا مَـــا الْتَقَيْنَـــا - لَـــذَّةُ العَـــيْنِ والسَّـــمْعِ

- وقال البارودي:

إِذَا المَـــرْءُ لَـــمْ يَفْـــرَحْ ويَحْـــزَنْ لِنِعْمَـــةٍ وبُـــؤسٍ فَـــلَا يُرْجَـــى لِنَفْـــعٍ ولَا ضَـــرِّ

- قال بشارة الخوري:

يَبْكِـــي ويَضْـــحَكُ لَا حُزْنًـــا ولا فَرَحًـــا كَعَاشِـــقٍ خَـــطّ سَـــطْرًا فِـــي الهَـــوَى ومَحَـــا

- وقال بشارة الخوري:

أَمَّـــا سُـــلَيْمَى فَمَـــا زَاغَـــتْ ولَا عَثَـــرَتْ فَالحُـــبُّ والطّهْـــرُ يُمْنَاهَـــا ويُسْـــرَاهَا

- وقال الخوري:

[1] المفصل في علوم البلاغة العربية ص 579.

سَــقَيْتُ رَيْحَانَــهُ مِــنْ مَــدْمَعِي ودَمِــي هَــذَا إذَا انْهَــلَّ أوْ هَــذَا إذَا سُــفِحَا

- قال الشاعر القروي في سوء المعاملة التي لاقاها الشاعرُ المهجريّ في الغرب:

أيْنَمَــا حَــطّ رَحْلَــهُ فالأمَــانِي والمَنَايَــا أبَاعِــدُ وأقَــارِبُ

- وللشاعر القروي:

قَــدْ كُنْــتُ مِثْلَــكَ أيُّهَــا الحَبَــقُ لِــي مَنْظَــرٌ حُلْــوٌ ولِــي عَبَــقُ
تَهْفُــو إلَــيَّ عُيُــونُ مَــنْ نَظَــرُوا وتَهِــيمُ بِــي أرْوَاحُ مَــنْ نَشَــقُوا

- قال خليل مطران متغزلا:

سَــلّابَةٍ خَلّابَــةٍ غَلّابَــةٍ بِــاللّفْظِ أوْ بِــاللّحْظِ أوْ بِالجِيــدِ

- قال إيليا أبو ماضي مخاطبا فيلسوفه المجنح (البلبل):

فَــإذَا ظَفِــرْتَ بِنَفْحَــةٍ وبِقَطْــرَةٍ فَلَقَــدْ ظَفِــرْتَ بِرَوْضَــةٍ وبِمَــوْرِدِ

- وقال إيليا أبو ماضي:

حَامَــتْ عَلَــى رُوحِــي الشّــكُوكُ كَأنّهَــا وكَــأنّهُنّ فَرِيسَــةٌ وصُــقُورُ

- قال حافظ إبراهيم راثيا:

أهَنِّــي الثّــرَى أمْ أعَــزِّي الــوَرَى؟ لَقَــدْ فَــازَ هَــذَا وهَــذَا خَسِــرْ

- قال علي الجارم:

قَلْبِــي وفَــيْضُ دُمُــوعِي كُلّمَــا خَطَــرَتْ ذِكْــرَى فِلِسْــطِينَ خَفّــاقٌ وهَتّــانُ

- قال حافظ إبراهيم:

فَاعْــذِرْ قَرِيضِــيَ واعْــذِرْ فِيــكَ قَائِلَــهُ كِلَاهُمَــا بَــيْنَ مَضْــعُوفٍ ومَحْــدُودِ

- ولحافظ إبراهيم:

قَــدْ كُنْــتُ تَحْــتَ دُمُــوعِهِمْ وزَفِيــرِهِمْ مَــا بَــيْنَ سَــيْلٍ دَافِــقٍ وشَــرَارِ

- وله أيضا:

كَــمِ انْبَــرَتْ فِيــهِ أقْــلَامٌ وكَــمْ رُفِعَــتْ فِيــهِ مَنَــابِرُ مِــنْ نَظْــمٍ ومِــنْ خُطَــبِ

- قال مصطفى صادق الرافعي:

ولِلْهَجْــرِ فِــي نَفْسِــي يَــدٌ مُطْمَئِنَّــةٌ وأُخْــرَى بِــأحْلامِ الغَــرَامِ لَعُــوبُ
هَــوًى وصُــدُودٌ: ذَاكَ يَأْكُــلُ مُهْجَتِــي وذَا لِنَــدَى فَجْــرِ الحَيَــاةِ شَــرُوبُ

- قال أحمد شوقي:

حَــجُّ الأمِيــرِ لَــهُ الــدُّنْيَا قَــدِ ابْتَهَجَــتْ والعَــوْدُ والعِيــدُ أفْــرَاحٌ وأعْــرَاسُ

والحمد لله على ما هدى إليه، وأعان عليه، له الحمد في الآخرة والأولى، فهو نعم النّصير، ونعم المولى.

قائمة المراجع، والأعمال الأدبية:

1. المراجع:

1. المفصل في علوم البلاغة العربية. الدكتور عيسى علي العاكوب. منشورات جامعة. حلب. 2000.
2. البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع. الدكتور فضل حسن عباس. دار الفرقان للنشر والتوزيع. الأردن. ط 10. 2005.
3. علوم البلاغة الدكتور محمد أحمد قاسم، محي الدين ديب. المؤسسة الحديثة للكتاب. طرابلس لبنان. 2003.
4. البلاغة الواضحة. علي الجارم، مصطفى أمين. دار المعارف. مصر. 1999.
5. علم البيان. الدكتور عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية. لبنان. 1985.
6. علم البديع. الدكتور عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية. لبنان. 1985.
7. فن التشبيه علي الجندي. مطبعة نهضة مصر. جمهورية مصر العربية. ط 1. 1952.
8. دراسات في علم البديع. الدكتور مصطفى السيد جبر. دريم للطباعة مصر. ط 4. 2007.
9. لُباب البديع. الدكتور محمد حسن شرشر. ط 2. 2003.
10. الصبغ البديعي في اللغة العربية. الدكتور أحمد إبراهيم موسى. دار الكتاب العربي. القاهرة. 1969.
11. التصوير المجازي والكنائي. الدكتور صلاح الدين محمد أحمد. مكتبة سعيد رأفت. مصر. ط 1. 1988.
12. المعجم المفصل في علوم البلاغة. الدكتورة إنعام نوّال عكاوي. دار الكتب العلمية. لبنان. ط 2. 1996.
13. معجم البلاغة العربية. الدكتور بدوي طبانة. دار المنارة، دار الرفاعي. المملكة العربية السعودية. ط 3. 1988.
14. البيان العربي. دكتور بدوي طبانه. مطبعة الرسالة. مصر. ط 2. 1958.
15. علوم البلاغة. أحمد مصطفى المراغي. دار الكتب العلمية. لبنان. ط 2. 1993.
16. البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها. عبد الرحمان حسن الميداني. دار القلم. دمشق، الدار الشامية بيروت. ط 1. 1996.
17. علم البيان. الدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود. دار المختار للنشر والتوزيع. القاهرة. ط 2. 1998.
18. علم البديع. الدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود. دار المختار للنشر والتوزيع. القاهرة. ط 2. 1998.
19. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. بهاء الدين السبكي. تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية بيروت. ط 1. 2003.
20. القول البديع في علم البديع. الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي. دار كنوز إشبيليا. الرياض.1425 هجرية.

21. بلاغة الطباق والمقابلة. الدكتور محمد علي أبو زيد. دار الأرقم. 1991.
22. فن الجناس. علي الجندي. دار الفكر العربي. مصر. 1954.
23. جنان الجناس. صلاح الدين الصفدي. مطبعة الجوائب. قسطنطينية. ط 1. 1299 هجرية.
24. الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي. عبد الهادي الفكيكي. دار النمير. سوريا. ط 1. 1996.
25. أنوار الربيع في أنواع البديع. ابن معصوم. مطبعة النعمان. العراق. ط 1. 1996.
26. كشف اللثام عن التورية والاستخدام. ابن حجة الحموي. المطبعة الإنسية. بيروت. 1312 هجرية.
27. الجمان في تشبيهات القرآن. عبد الله بن حسين بن ناقيا. مكتبة الأوسكوريال. ط 1. 1987.
28. دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. تحقيق محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي. القاهرة. 2000.
29. أسرار البلاغة. عبد القاهر الجرجاني. تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 1. 2001.
30. جوهر الكنز. ابن الأثير الحلبي. تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام. دار المعارف. مصر. 2009.
31. الصناعتين. أبو هلال العسكري. مطبعة الخانجي. 1320 هجرية.
32. وشي الربيع بألوان البديع. الدكتورة عائشة حسين فريد. دار قباء. القاهرة. 2000.
33. العقد البديع في فن البديع. للخوري بولس عواد. دار المواسم لبنان. 2000.
34. البديع في شعر شوقي. الدكتور منير سلطان. مطبعة جامعة عين شمس. مصر. ط 2. 1992.
35. فن البديع. الدكتور عبد القادر حسين. دار الشروق. القاهرة. ط 1. 1983.
36. الفنون البديعية. فوزي السيد عبد ربه عيد. مطبعة الحسين الإسلامية. مصر. ط 1. 1988.
37. من جماليات المعنى. حسن التعليل. الدكتور عيد محمد شبايك. دار حراء. القاهرة. ط1.
38. الإيضاح في علوم البلاغة. الخطيب القزويني. تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي. مؤسسة المختار. القاهرة. ط 3. 2007.
39. مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء. الدكتور حامد صالح خلف الربيعي. مكتبة الملك فهد الوطنية. المملكة العربية السعودية. 1996.
40. موسيقى الشعر العربي. دكتور حسني عبد الجليل يوسف. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1989.

2. الأعمال الأدبية:

1. ديوان محمود سامي البارودي. ضبط وتحقيق علي الجارم ومحمد شفيق المعلوف.دار العودة. ط1. 1998.
2. الأعمال الكاملة. مصطفى صادق الرافعي. تقديم الدكتور عبد الله القط. مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان. ط 1. 1994.

3. ديوان حافظ إبراهيم. مكتبة لبنان. بيروت. ط 1. 1991.
4. ديوان خليل مطران. دار الهلال. دار المعارف. مصر. ط2. 1949.
5. الأعمال الكاملة. مصطفى لطفي المنفلوطي. مراجعة أحمد زهوة. دار الكتاب العربي. لبنان. ط 1. 2012.
6. الأعمال الشعرية الكاملة. أحمد شوقي. دار الكتاب العربي. بيروت. 1988.
7. الأعمال الكاملة. توفيق الحكيم. مكتبة لبنان ناشرون. لبنان. ط 1. 1994.
8. المجموعة الكاملة. ميخائيل نعيمة. دار العلم للملايين. بيروت. ط 1. 1975.
9. الأعمال الشعرية الكاملة. إيليا أبو ماضي. دار العودة. لبنان. ط 10. 2015.
10. الأعمال الكاملة. الشاعر القروي. دار العودة. بيروت. ط 7. 1998.
11. الأعمال السياسية الكاملة. نزار قباني. منشورات نزار قباني. بيروت. ط 2. 1999.
12. الأعمال النثرية الكاملة. نزار قباني. منشورات نزار قباني. بيروت. ط 1. 1993.
13. حديث عيسى بن هشام. محمد المويلحي. دار هنداوي. مصر. 2012.
14. الأخطل الصغير أمير الشعراء. بشارة الخوري. دار الكتاب العربي. لبنان. ط 1. 2006.
15. المجموعة الكاملة. جبران خليل جبران. دار الجيل. بيروت. ط 1. 1994.
16. ديوان معروف الرصافي. مراجعة مصطفى الغلاييني. مؤسسة هنداوي. القاهرة. 2014.
17. ديوان محمد العيد آل خليفة. دار الهدى. الجزائر. 2010.
18. اللهب المقدس. مفدي زكريا. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر. 2007.
19. إلياذة الجزائر. مفدي زكريا. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ط 2. 1987.
20. ديوان الشيخ أحمد سحنون. منشورات الحبر. ط 2. 2007.
21. ديوان علي الجارم. مؤسسة هنداوي. القاهرة. 2013.
22. ديوان الرافعي. تحقيق الدكتور ياسين الأيوبي. المكتبة العصرية. بيروت. 2004.
23. ديوان سميح القاسم. دار العودة. بيروت. 1987.
24. الأعمال الشعرية الكاملة. توفيق زياد. دار العودة لبنان. ط 1. 2000.
25. فيض الخاطر. أحمد أمين. مكتبة النهضة. مصر. ط 3. 1953.
26. آثار محمد البشير الإبراهيمي. دار الغرب الإسلامي. لبنان. ط 1. 1997.
27. ديوان أبي القاسم الشابي. تقديم مجيد طراد. دار الكتاب العربي. بيروت. ط 2. 1994.
28. ديوان محمد بلقاسم خمّار . دار أطفالنا للنشر والتوزيع. الجزائر. ط 1. 2010.
29. وحي الرسالة. أحمد حسن الزيات. مطبعة الرسالة. مصر. ط 7. 1962.
30. ديوان الأمير عبد القادر الجزائري. مطبعة ثالة الجزائر. ط 3. 2007.

31. مقامات عائض القرني. مكتبة الصحابة. الشارقة. الإمارات. ط1. 2000.
32. دراسات فنية في الأدب العربي. الدكتور عبد الكريم اليافي. مكتبة لبنان ناشرون. ط 1. 1996.
33. الأدب العربي المعاصر في مصر. شوقي ضيف. دار المعارف. مصر. ط 10. 1961.
34. صفي الدين الحليّ. محمود رزق سليم. دار المعارف مصر. ط 3. 1980.
35. تاريخ الأدب العربي. الدكتور عمر فرّوخ. دار العلم للملايين. بيروت. ط 1. 1981.
36. جواهر الأدب العربي. السيد أحمد الهاشمي. المكتبة التجارية الكبرى. مصر. ط 27. 1969.
37. الجامع في تاريخ الأدب العربي. حنا الفاخوري. دار الجيل. بيروت. ط 1. 1986.

obeikan.com

الفهرس

مقدمة.....03
تقديم.....04
علم البيان.....05
التَّشبيه.....06
تقسيم التّشبيه إلى ملفوف ومفروق وتسوية وجمع.....24
التّشبيه التّمثيلي.....32
التّشبيه الضّمني.....41
التّشبيه المقلوب وتشبيه التّفضيل.....49
التشبيه الدّائري أو الاستطرادي.....58
بلاغة التّشبيه.....62
الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية.....63
الاستعارة المرشّحة والمجرّدة والمطلقة.....73
الاستعارة الأصليّة والتّبعيّة.....81
الاستعارة التّمثيليّة.....89
بلاغة الاستعارة.....90
المجاز المرسل.....94
المجاز العقلي.....101
الكناية.....105
علم البديع.....118
المحسنات اللفظية.....119
الجناس.....120
السّجع.....127
ردّ العجز على الصدر.....132
الترصيع.....136
المحسنات المعنوية.....141
الطّباق.....142
المقابلة.....148

obeikan.com

التّضمين.....153
الإرصاد.....157
المشاكلة.....162
تشابه الأطراف.....168
التّورية.....174
أسلوب الحكيم.....180
حسن التعليل.....185
تجاهل العارف.....191
الجمع.....197
التّفريق.....201
صحة التّقسيم.....206
الجمع مع التّفريق.....211
الجمع مع التّقسيم.....215
تأكيد المدح بما يشبه الذّم.....220
الاقتباس.....224
اللّف والنّشر.....231
قائمة المراجع والأعمال الأدبية.....235

obeikan.com